



لِدْنَات

طه حسين

لحظات

تأليف
طه حسين



رقم إيداع ٢٤٠٢٨ / ٢٠١٣
تدمك: ٦٤٢٠ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٦

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارت الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية

تليفون: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ فاكس: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خططي من الناشر.

Cover Artwork and Design Copyright © 2014 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

Copyright © Taha Hussein 1942.

All rights reserved.

المحتويات

٧	مقدمة
١١	الأبناء والأباء
١٧	الحب
٢٧	النضال
٣٩	أنت وأنا
٤٩	دينيز
٥٧	روي بلاس
٦٧	أنصاف الحرائر
٧٧	خياطة لونيفيل
٨٥	الحارسة
٩٣	الأمير جان
١٠٣	الرجل المغلول
١١٥	منا فنا
١٢٧	العذراء المفتونة
١٣٧	الأم المفتونة
١٤٩	المتجردة
١٥٩	الفضيحة
١٧١	الإغراء بالرحيل
١٨١	الحبيب
١٩٣	المصابيح

لحظات

٢٠٧

القبر تحت قوس النصر

٢١٧

عشاق

٢٢٩

الخطر الآخر

مقدمة

هذه لحظاتٌ أدبيةٌ، قضيّتها أيام الشباب بين أدباءِ الغرب وقراءِ الشرق، وكنتُ أجدُ فيها من رضى العقل ونعمة البال وراحة الضمير شيئاً كثيراً، فقد كنتُ أحسُّ حين اقرأُ هذه الآثار الأدبية، وحين أعرضها على قراءِ العربية أنّي أنهض بواجب خطير، هو تحقيق الصلة العقلية بين الشرق والغرب، وكانتُ أنتظر للنهوض بهذا الواجب الخطير نتائج ليست أقل منه خطراً.

كنتُ أنتظر إذا قرأتُ هذه الفصول، وفهمتُ على وجهها أنْ تُقربُ الآمادَ بين الشرق والغرب، وأنْ يكون ذلك وسيلةً من الوسائل إلى تحقيق المودة والتعاون بين طائفتين من الشعوب، أفسدتْ أمراً هما الخصومات التي كان الشرق فيها مظلوماً، وكان الغرب فيها ظالماً.

وكنتُ أقضي هذه اللحظات الأدبية الحلوة في تلك الأيام السياسية المرة، التي بلغ الصراع فيها أشده بيننا وبين الأوروبيين في أعقاب ثورتنا الوطنية الأخيرة، فكانتُ أستعين بحلوة الأدب على مرارة السياسة، وكانتُ أسلك طريق التقرّب بين العقول، على حين كانت السياسة تفرق بين العواطف والقلوب.

وكنتُ أقضي هذه اللحظات الأدبية الممتعة في تلك الأيام السياسية المضطّلة التي بلغت فيها الخصومة بين المصريين أنفسهم أقصاها، فتنّجَّر بعضهم لبعض، وأضمر بعضهم البعض كثيراً من الحقد والبغض والعداء.

وكنتُ أعتقد - ولم أكن مخطئاً - أنَّ هذه اللحظات الأدبية ستنتهي فصولاً، لا تمّس السياسة من قريب ولا من بعيد، وسيقرأُ المصريون مهما تكن أحزابهم، وسيلتقطون في الرضا عنها أو السخط عليها، وسيتحدث بعضهم إلى بعض بتقريظها أو الغض منها، وستكون وسيلة من وسائل المودة بين قوم لا ينبغي أن يكون بينهم شيء آخر إلا المودة.

وكنت — ولا أزال — شديد الإيمان بأن الأدب الحي لا يستطيع العزلة، وإنما هو مضطرب إلى أن يتصل بالأداب الحية الأخرى، وسيبليه إلى ذلك النقل والترجمة والتلخيص والتعريف بالأدباء من الأجانب.

وكنت أسلك إلى هذا الطريق التي سلكها العرب في عصورهم القديمة، وسلكها المصريون في تاريخهم الحديث، وكانت مطمئناً إلى أنَّ سلوك هذه الطريقة سيزيد أدبنا العربي قوة إلى قوة، ويسنح حياة إلى حياة، وسيمنحك لغتنا العربية حظاً من المرونة، فيمكنها من أن تؤدي معانٍ وأغراضًا لم تتعدَّ أن تؤديها من قبل.

وكنت — ولا أزال — مؤمناً بأن الأدب الحي لا ينبغي أن يتهاكل على الأداب الأجنبية، ينقل منها ويترجم عنها، ذلك أخرى أنْ يُفْنِيَ فيها ويُفْقِدَ هذه الحياة القوية التي تأتيه من شخصيته الخالدة وأصوله القديمة، فليس له بد من أنْ يوازن بين قوته التي تأتيه من نفسه، وهذه القوة الطارئة التي تأتيه من غيره، وكانت — من أجل ذلك — أنشر هذه الفصول في أيام الآحاد، وأنشر فصولاً عن الأدب العربي القديم في أيام الإربعاء، أووازن بذلك بين إحياء الأدب القديم وإغنائه بما أقدم إليه من مادة الأدب الأوروبي الحديث، ويخيل إلى أنَّ شيئاً من التوفيق قد كتب لي في هذه الخطوات، التي خطوطها في تلك الأعوام الحلوة المرة، التي ذكرها الآن في كثير من الحب والحنان، وفي كثير من الرضى والفاخر؛ لأنها كانت أعوام النهضة المصرية الصحيحة؛ ولأنها كانت أعوام الحرية المصرية الصادقة التي لم تكن تحفل إلا بالحق والمنفعة العامة.

ويخيل إلى أنَّ الجيل الذي كتبت له هذه الفصول منذ أكثر من خمس عشرة سنة، قد انتفع بها واستفاد منها، سواء في ذلك من تلقاها راضياً، ومن قرأها راغباً عنها ساخطاً عليها، وهي — على كل حال — قد دفعت ذلك الشباب إلى الأدب الغربي، وإلى فن التمثيل منه خاصة، ولو لا أحداث السياسة وخطوبها والنكسات التي ألمت بالعقل المصري حين طغى الطغاة وبغي البغاء، وصُدَّ المصريون عن حقهم في الحرية والدستور، لكان لتلك النهضة وما أنتجت من الآثار الأدبية نتائج أقوم من النتائج التي وصلنا إليها.

ومهما يكن من شيء، فقد أدت هذه الفصول حينئذ ما كان ينتظر منها، فنفعـت جيلاً من القراء المصريين والشريقيين بوجه عام، ثم انطوت عليها الصحف التي نُشرت فيها، فنامت بين هذه الآثار التي تُكتب في كل يوم، وتُطوى عليها الصحف، وتطمئن في دور الكتب مصادر للتاريخ.

وقد مضى الآن دهر على هذه الفصول حتى نسيها الجيل الذي قرأها، ولم يعرفها الجيل الناشئ من الشباب، فلنوقظها من نومها، ونخرجها من دور الكتب، ولنقدمها إلى هذين الجيلين.

فأما أحدهما فيسقرؤها، فيذكر أيامًا حلوة وعهداً سعيداً، وأما الآخر فسيقرؤها، ومن يدري لعلها أن تُحْدِث في نفسه من الآثار أكثر مما أحدثت في نفس الجيل الماضي، فإذا هو مقبل على الأدب العربي يقويه وينمي، وينتج فيه أكثر مما أنتجنا وخيراً مما أنتجنا. وقد أقبل القبظ بما فيه من دعاء إلى الراحة، وترغيب في القراءة التي لا تشق على القارئ، وقد طالت الحرب وتعقدت خطوبها، وتتابعت أحوالها، واحتاج الناس من أجل هذا كله إلى ما يشغلون به أنفسهم عن هذه الآلام التي لا تنقضى، فأقل ما في هذه الفصول: أنها ستلهي القراء عن أنفسهم ساعات من نهار أو ساعات من ليل.

يونيو سنة ١٩٤٢

الأبناء والآباء

ليس هذا عنوان القصة، ولكنه موضوعها، فإني أريد أن أحذثك عن قصة تمثيلية صغيرة مُثلثة في باريس منذ حين، ووصل إلينا نصها آخر السنة الماضية، وهذه القصة فصل واحد، تسمى «كبار الصّيّبة» أُعجب بها الجمهور في فرنسا، وأُعجب بها النقاد، وُعدَّت أثراً من أحسن الآثار الأدبية لكتابها «بول جرالدي».

موضوع هذه القصة — كما قلت — الأبناء والآباء، ويخيل إلى أن ليس من الشبان المتعلمين في مصر وغير مصر من لا يجد نفسه فيها إذا قرأها، فهي تصف شيئاً مشتركاً بين الناس جميعاً، وتمثل عاطفة يشعر بها الناس جميعاً، تصف هذا الفرق العظيم الواضح بين الآباء والأبناء، أو بين الشباب والشيب، أو بين الجيل الناشئ الذي يستقبل الحياة، وذلك الجيل الفاني الذي يودع هذه الحياة، لكل من هذين الجيلين شعوره وعواطفه ومناهجه الخاصة في التفكير، ومناهجه الخاصة في العمل أيضاً، ومع ذلك فالجيل الناشئ ابن الجيل الفاني، فهو في حقيقة الأمر استمرار له، ومراة تعكس صورة من صوره، وإن هناك تشابه، وهناك تباين، وإن هناك اتفاق وهناك افتراق.

انظر إلى ما بينك وبين أبيك من صلة شعورية أو خلقيّة أو عقلية، تجد أنه قد أورثك أشياء كثيرة فورثتها عنه، ولكن هذه الأشياء التي ورثتها ونمتها فيك التربية الأولى، لم تخضع لسلطان أبيك في كل وقت، بل أفلتت من هذا السلطان، وخضعت لسلطان آخر، أو لأنواع مختلفة من السلطان، خضعت لسلطان المدرسة وما درست فيها، وخضعت لسلطان العاشرة وما أحدث في نفسك من أثر، من هذا الأثر القوي الذي يُحدِّثه في النفس حب الصديق والميل إلى تقليده، وبغض العدو والنفور من محاكاته، وخضعت لسلطان الحياة العاملة، هذه الحياة التي تراها في الشارع وفي مجالس العامة والخاصة، وحيثما ذهبت وأينما وجَّهت، وخضعت لسلطان ما قرأت وتقرأ في الكتب والصحف، وما سمعت

وتسمع من أحاديث، خضعت لهذا كله فتغيّرت، واستحلت قليلاً أو كثيراً، وأصبحت تشبه أبيك وتخالفة، ونشأ عن هذا الشبه حب وعطف، ونشأ عن هذه المخالفة بعد ونفور، فلن تستطيع مهما تحاول أنْ تنكر أنك تبعد من أبيك وتتنفر منه، وتحيا حياة خاصة تكتمه إياها الكتمان كله، وتتأبى أنْ يظهر منها على شيء قليل أو كثير، تشعر بأشياء لا يشعر أبوك بها، وتحرص على أنْ يجعل أنك تشعر بهذه الأشياء، تميل إلى أشياء لا يميل إليها، وتجهد أنْ يجعل أبوك أنك تميل إلى هذه الأشياء، وتطمع في أشياء ينصرف هو عنها، وتحفي على أبيك أنك تطمع في هذه الأشياء، فإذا جلس أحدكم إلى صاحبه كان الحديث بينكما عسيراً ضيقاً، محدود النواحي والأطراف؛ لأنَّ وجوه الشبه بين نفسيكما أقل مما تظنُّ، فلك طريقك في الشعور والتفكير والحكم على الأشياء، وله طريقة في الشعور والتفكير والحكم على الأشياء، فإذا تحدثتما فقلما تتفقان، وكثيراً ما تختلفان، وللخلاف أثر سيء ونتائج خطيرة على ما بينكما من مودة، وعلى ما للأسرة كلها من صلة، وإنْ فأنتما تجتهدان اجتهاداً خفياً لا تُحسّنه ولا تشعران به، تجتهدان في الـ^{أَلَا} تلتقيا، فإذا التقىتما اجتهدتُمَا في الـ^{أَلَا} تتحدثُتُمَا، فإذا تحدثتما اجتهدتُمَا في الـ^{أَلَا} تتعصّما في الحديث، وفي الـ^{أَلَا} يمسُّ هذا الحديث هذا الجزء الخاص من الحياة الذي هو أَعْزُّ أجزاء الحياة على الإنسان، هذا الجزء الذي يمسُّ حياة القلب والعاطفة وحياة العقل والتفكير، لا تتحدثان في ذلك إلا قليلاً، وحين تُكرهان على هذا الحديث، وإنما تتحدثان في الجو والمطر، وفي أخبار الناس، وما يعرض لمن تعرفان من خير أو شر في هذه الأشياء، التي ليس بينها وبين الحياة الخاصة صلة، والتي ليس لها على القلب والعقل من سلطان.

أليس هذا حقاً! أليس هذا ما يشعر به الشاب أمّأبيه الشيخ! والأب أمّ ابنه الشاب! أليس هذا ما يشكو منه الآباء والأبناء جميعاً! أليس هذا معنى تغيير الزمان! أليس هذا معنى قول الأب ينكر حياة أبنائه ومناهجهم فيها: «لقد أصبحنا في آخر الزمان!» ومعنى قول الأبناء ينكرون حياة آبائهم ومناهجهم فيها: «لقد مضى بذلك الزمان!» نعم هو هذا! هو الجهاد المتصل بين القديم والجديد، وبين ما تضيئه شمس هذا الجيل، وما أضاءته شمس الجيل الماضي، وما ستضيئه شمس الجيل المقبل! هذا هو! ولكننا لا نلتفت إليه ولا نفكُّ فيه، ولا نحاول فهمه وتقْصِي أسبابه.

ولو أنا التفتنا إليه ودرستناه، لأذعننا له، وقبلناه لا ساخطين ولا منكرين — كما تُذعن لقوانين الطبيعة المادية — وما نستتبعه من لذة وألم، مجتهدين في أنْ نسخّر هذه القوانين، فنكثر آثارها الحسنة، وننقل آثارها السيئة ما استطعنا، نعم! لو فكرنا وفهمنا

لاسترخنا، ولكننا لا نفكّر ولا نتفهم، فنحن في ألم يعقبه ألم، وحسرة تتبعها حسرة، ويكتفي أن تجلس إلى الآباء وتسمعهم يندبون سوء حظهم، وخيبة أملهم في أبنائهم، فهم لا يشكّون في أن هؤلاء الأبناء قد درسوا فأحسنوا الدرس، وسعوا فأحسنوا السعي، ووصلوا بعد هذا وذاك إلى المنازل الاجتماعية، التي تليق بهم وترضي فخر آبائهم، ولكنهم ب الرغم هذا كله متذمرون، أو مسرفون في الصمت، أو متفرّجون هم على غير ما كان الآباء ينتظرون. الآباء راضيون لأن أبناءهم قد ظفروا، والآباء ساخطون؛ لأن شيئاً ما يحول بين هؤلاء الآباء وأبنائهم، ويمنع كل فريق منهم أن يفهم صاحبه.

وكذلك حديث الأبناء إذا جلست إليهم، فهم يعرفون لأبائهم الرحمة والبر وما كلفتهم الرحمة والبر من عناء، وما حملّاهم من مشقة، ويعرفون لأبائهم أنهم كدوا نهارهم وأرقوا إليهم؛ ليربوهم ويعيدهم للجهاد واحتمال أثقال الحياة، وأنهم مدینون لأبائهم بما بلغوا من منزلة، وما ارتقاوا إليه من مرتبة، ولكن هؤلاء الآباء يفكرون على الطريقة القديمة، ويشعرُون على الطريقة القديمة، فهم لا يفهمون ما نفهم، ولا يشعرون بما نشعر به، وكثيراً ما تضيق نفوسهم بأشياء نراها نحن هيئه مقبولة، بل مستحبة محمودة، تسمع ذلك وهذا إذا جلست إلى الآباء والأبناء، بل تشعر بهذا وذاك إذا جلست إلى أبيك، ثم خلوت إلى نفسك، وتتمر الحياة وتتوالى الأيام، وبينك وبين أبيك إلى جانب الحب والمودة والعطف والبر شيء من سوء الظن، ومن الاحتياط ليس إلى محوه ولا إلى اتقائه من سبيل.

هذا هو الذي ذهب «بول جرالدي» إلى تصويره في قصته الصغيرة فأحسن وأجاد، ووفق التوفيق كله في اللفظ والمعنى جميعاً.

يرتفع الستار عن شاب هو «جاك» قد جلس في غرفته، التي هي غرفة نومه وغرفة عمله، جلس إلى مائده يقرأ، فيدخل عليه صديقه «دورى» فيتحدثان في أشياء يتحدث فيها الشبان إذا خلا بعضهم إلى بعض، ويكتمنونها آبائهم، يذكر «دورى» أمر صاحبته، وأنه كان معها وأنه سيلقاها، ويدرك «جاك» أمر خطبه أو أمر التي سيخطبها، وأنه قد وصل إليه منها كتاب، فيسأله متى الزواج؟ فيجيب «جاك» بأنه ينتظر أن يجد لنفسه عملاً، فيسأله فمتى الخطبة الرسمية؟ فيجيب بأن ليس إلى ذلك من حاجة، بأنه لا يريد أن يعلم أبوه بشيء من هذا، وهنا يظهر هذا الخلاف بين الأب والابن في طريقة التفكير والشعور، ذلك أن «جاك» يعلم بأن أباه في حالة مالية سيئة، وهو يستنبط ذلك استنبطاً؛ لأن أباه لم يذكر له منه شيئاً، يعلم ذلك فلا يريد أن يتزوج حتى لا يُثقل على أبيه، ولا يريد أن يُثقل

أباه بحبه حتى لا يتكلف هذا الأب لإسعاد ابنه ما لا يطيق، أو حتى لا يحس هذا الأب الألم لعجزه عن إسعاد ابنه، وإنهما لفي ذلك، وإنَّ «جاك» ليُظهر صديقه على كتاب خطبه إذ يدخل الأب، ففيطلب الصحف إلى ابنه، فيدفعها هذا إليه مُتبرِّماً ضيق الذرع ملحاً على أبيه في الخروج والمشي؛ لأنَّه متعب، ولأنَّ الأطباء قد رسموا له الخروج والمشي، يُلْحُّ الابن ويთناقل الأب فيجلس، ويشعر الفتى بأنَّ أباه قد قرر ألا يخرج فيضيق بذلك ذرعاً، لا يستطيع أنْ يخفى ضيق نفسه فينصرف مُظهراً شيئاً من السخط، ويترك أباه وصديقه معًا.

يتحدث الأب والصديق، وموضوع حديثهما «جاك» بطبيعة الحال، يسأل الأب ما بال ابن يسخط ويترنم؟ ما باله يسرف في الصمت؟ ما باله لا يذكر له حبه؟ فهو يعلم أنَّ ابنه يحب ويريد أنْ يزوجه، وهو يريد أنْ يأتي إليه ابنه فيتحدث إليه بأسرار نفسه وعواطف قلبه، ولكن هذا الابن صامت بخجل بالكلام، فينبئه الصديق بحياة الفتى، وبأنَّ ابنه يأْلِم أَيْضَاً؛ لأنَّ الأب لا ينتبه بأعماله، ولا يتحدث إليه بما يلقى في هذه الأعمال من شدة أحياناً ومن لين أحياناً، فينفجر الأب بالشكوى؛ لأنَّه كثيراً ما حاول أنْ يتحدث إلى ابنه – كما يتحدث الصديق إلى الصديق – فلم يجد منه إلا نفوراً وإعراضًا، فهو سيء الحظ، يشكو صمت ابنه وثرثرة ابنته، وهو لم يأتِ إلى هذه الغرفة ليطلب الصحف، وإنما اتخذ الصحف وسيلة إلى أنْ يتحدث إلى ابنه، فينبئه ابنه بما لديه؛ ليتبين منه أسراره ونياته في أمر حبه، ولكنه لم يجد إلا هذا الإعراض الذي تبعه الانصراف.

فهذا المنظر الذي خلا فيه الأب إلى صديق ابنه، هو منظر قد خصص لشرح ما يشكو منه الابن؛ لأنَّ الأب يتحدث عن نفسه، والصديق يتحدث عن صديقه، ثم يعود «جاك» وينصرف أبوه، فيكون الحديث بين الصديقين، يلح «دورى» على «جاك» أنْ يتلطف بأبيه، وأنَّ يظهر له شيئاً من العطف والمودة مكان هذا النفور والإعراض، وهذا المنظر مؤثر جدًّا؛ لأنَّ «دورى» قد فقد أباه، وكان يسير معه سيرة «جاك» مع أبيه، فهو الآن يأسف لذلك أشد الأسف، ويندم عليه أشد الندم، وهو يفعل بعد موت أبيه ما لم يفعل في حياته، فيتحدث إلى أبيه ميتاً بكل ما يفعل، وما يريد أنْ يفعل، ويتحدث إلى أبيه ميتاً بما يُسرُّه ويُحزنه، ويؤثِّر هذا الحديث في نفس «جاك»، وإنَّ لم يتكلم إلا قليلاً، فإذا انصرف صاحبه أخذ «جاك» كتاب خطبه وهم بالخروج؛ ليظهر الكتاب لأبيه؛ ولينذكر له أمر حبه، فيفتح الباب فإذا أبوه، ويدخل الأب فيتحدث عن «دورى»، ويحاول «جاك» أنْ يسأله عن أعماله الخاصة، فكلما ألح عليه في ذلك ألح الأَب في الفرار من هذه الأسئلة، فيغضِّب «جاك» قائلاً لأبيه: «أتكره أنْ أحدثك عن صديقك؟»

فيشكو الابن من صمت أبيه وإعراضه، ويشكوا الأب من صمت ابنه وإعراضه، ويشتند بينهما خصام مصدره سوء الظن، هذا الذي وصفناه، فَيَهُمْ «جاك» بالانصراف، ويطرده أبوه مغضباً، ولكنه لا يكاد يخرج حتى تنحل قوى الشيخ، ويتبخر غضبه فيبكي، ويعود ابنه فجأة، فيحاول الشيخ أن يُخفِّي ضعفه ويستأنف غضبه، فلا يُفلح، ويحاول الابن أن يستعطف أباًه فُيظهر الكتاب، ولكنه لا يجد لفظاً يعبر به عما يريد من أمر حبه؛ لأنه لم يتعد أن يتحدث إلى أبيه في مثل هذا الأمر، فيرى أبوه اضطرابه وحياءه ووقف لسانه، فيفتح ذراعيه، ويلقي «جاك» بنفسه على صدر أبيه.

هذه هي القصة قد بالغنا في تلخيصها، وحذفنا منها أشياء كثيرة هي زينتها، وحذفنا الحوار بين الصديقين، وما في هذا الحوار من مزاح لذيد، وحذفنا الحوار بين الأب وصديق ابنه، وما فيه من حكمة باللغة وحق بِّين، وحذفنا أشياء كثيرة لو ترجمت لخلبت نفس القارئ.

ولكننا حرصنا على أن نعطي فكرة عن موضوع القصة، فإذا أردت أن تنتفع و تستمتع، فاقرأ نصها في مجلة «الألستاسيون»، التي صدرت في ٢ ديسمبر سنة ١٩٢٢.
١٩٢٣
يناير سنة

الحب

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «بول جيرالدى»

ليست يسيرة التلخيص، وليس يسيرة التمثيل، وإنما هي شاقة على من يريد أن يخلاصها، شاقة على من يريد أن يمثلها، ولعلها شاقة أيضاً على من يريد أن يفهمها، ومع ذلك فهي يسيرة التأليف، مُتسقة المعاني، صادقة الشعور، حسنة اختيار الألفاظ، ممتازة بكل ما تمتاز به الآثار الفنية الراقية، التي قدر لها الخلود؛ لأنها صادقة.

هي عسيرة ويسيرة، عسيرة؛ لأن تلخيصها وتمثيلها وفهمها، كل ذلك يحتاج إلى جهد غير قليل، يحتاج إلى أن نجتنب التكلف، ونعود إلى طبيعتنا الصافية النقية، التي لم تُعدّها الحضارة، ولم تقدرها مواضعات الناس، ويسيرة؛ لأن الكاتب حين كتبها لم يستوحِ الحياة المعقّدة، ولم يبحث عن أشخاصه في هذه الجماعات العادمة التي تناقض في الحياة، ولا تحيا إلا متكلفة متصنعة خاضعة لضروب من النظم والأوضاع، التي تسيطر على جمال الطبيعة الإنسانية فتسترها، وتختفي ما تمتاز به من صدق وصفاء، ومن أمانة ووفاء.

هي يسيرة وهي عسيرة، وهي خالدة مع هذا كله، أعرف بأنني أُعجب بها إعجاباً لا حد له، وقد أُعجبت بقصص تمثيلية كثيرة، وسأُعجب بقصص تمثيلية كثيرة، ولكن إعجابي بهذه القصة له جوهر خاص وصفات خاصة، لا أصدر فيه عن العقل، ولا عن المنطق، ولا عن الترتيب الفني الذي ألفه الناس وتواضعوا عليه، وإنما أصدر فيه عن

القلب وعن الشعور، أصدر فيه عما أجد وعما أحس، أجد فيه نفسي، وأجد فيه من أحب، وأعتقد أنَّ كثيراً من الصادقين المخلصين سيجدون في هذه القصة أنفسهم، وسيجدون فيها ما يحبون.

لا أعرف قصة بهذه القصة، تخلو الخلو كله من التكلف والتصنع، وتتدنو الدنوَّ كله من السذاجة والصدق، وحسبك أنك لا ترى فيها عملاً، أو لا تقاد ترى فيها عملاً ولا حركة، مع أنَّ التمثيل إنما يقوم على العمل والحركة، وحسبك أنك لا ترى فيها إلا أشخاصاً ثلاثة، كل عملهم حوار: رجلان يحبان امرأة، أو امرأة تحب رجلين، هذا كل موضوع القصة، هو مجمل موجز، ولكن تفصيله والإطناب فيه قد لا ينتهيان إلى حد.

رجلان يحبان امرأة، وامرأة يتنازعها حب رجلين، فيجب أنْ تدرس نفسُ هذه المرأة، وأنْ تدرس نفساً هذين الرجلين، وأحد هذين الرجلين زوج لهذه المرأة، فيجب أنْ يدرس الزواج وصلاته، وما فيه من حق، وما فيه من واجب، وأحد هذين الرجلين رجل عمل، والأخر ليس بالكسل ولا بالنائم، ولكن له في الحياة مثلاً أعلى، ولكن له في الواجب رأياً خاصاً، ولكن له في كرامة الرجل، وفي كرامة المرأة، وفي قدر الزواج، وما يُكون الأسرة من صلات آراء هي الحق، ولكن شعور الناس بها قليل، ثم هناك عواطف تتنازع هذه المرأة، كلها صادقة، ولكن منها المخطئ ومنها المصيب، منها ما يصدر عن الحق والواجب، ومنها ما يصدر عن الشهوة والهوى، هناك نفس إنسانية غريبة تتنازعها آلام وآمال، هناك محنَّة تمحن بها الأسرة، فتتعرض لخطر الانحلال، ثم يُقال عثارُها، ويكون هذا الخطر نفسه وسيلة إلى تثبت قواعدها، وإحكام ما يجمعها من صلات، كل هذا يجب أنْ يدرس، وأنْ يُدرس في هدوء وَدَعَةٍ، وفي ألفاظ مختارة، وأساليب عذبة صافية.

ولكني لا أريد أنْ أطيل في هذه المقدمة، وإنما أريد أنْ أمضي في تلخيص هذه القصة، ولقد كنت أود أنْ أترجمها لك، فلن يؤدي التلخيص من حقها بعض ما يجب، ولكني أكتب في صحيفة سيارة، فحسبي أنْ أُفتَّكَ إلى القصة، وإلى شيء من جمالها، ولك إنْ شئت أنْ تقرأها، أو أنْ تشهد تمثيلها في فرنسا أو في مصر، إنْ حملها إلى مصر المثلون.

الزوجان في غرفة يتحدّثان، قد وصل إليهما البريد، فهما يقرآن، ويتبادلان الرأي فيه، وينتقلان من هذا إلى نفسيهما وإلى حبِّهما، وإلى رأي كلٍّ منهما في صاحبه، ذلك أنَّ الزوج «هنري» رجل سعيد مغبِط كل الاغتراب ب حياته الزوجية، مطمئن إليها، واثق بمستقبلها، ولكنه يحس من زوجه «هيلين» شيئاً من الاضطراب، أو أقل شيئاً من السأم، أو قل: إنه

يحس من زوجه شيئاً لا يتبيّن حقيقته، يحس أنَّ سعادتها ليست من الصفو والنقاء بحيث يحب، وبحيث يجب أنْ تكون، فهو يسألها عن أمّرها، فتلح في أنها سعيدة، ويلح هو في أنه يشعر بأنَّ هذه السعادة ليست خالصة، ويحاول أنْ يتعرّف الأسباب، التي حالت بين سعادة زوجه وبين الصفاء، يبحث عن ذلك في أخلاقه، ويبحث عن ذلك في مزاجه، ويبحث عن ذلك في سيرته الزوجية، ولا يجد من امرأته إلا إلحاكاً في أنها سعيدة، وسخطاً عليه؛ لأنَّه يتکلف مثل هذا البحث السخيف، ولكن في الحق شيئاً تشعر به «هيلين»، ولا يلبث أنْ يظهر، فتتبين العقدة التي يجب على القصة أنْ تحلّها.

الزوج مطمئن إلى حياته، سعيد لا يستزيد من سعادته، ولكن «هيلين» مطمئنة سعيدة، حتى يظهر لها شيء يُخيّل إليها أنَّ في سعادتها نقصاً ما، فهي تشعر شعوراً غامضاً بال الحاجة إلى تكميل هذا النقص، ولكنها لا تعرف بهذا الشعور، ولا تعترف بهذا النقص، حتى يُقبل الشخص الثالث من أشخاص القصة، فيجعل هذا الشعور في نفسها واضحًا، بل يجعله حاجة، بل يجعله ضرورة لا بد من إرضائهما، هذا الشخص الثالث هو رجل يسمى «شالانج»، وقد گاف بالسياحة وطاف أقطار الأرض، وهو من أولئك الذين يؤثرون العمل المنتج على الحياة الهدئة المطمئنة، ذكيٌّ ولكن ذكاءه ليس بالعميق، وهو مع ذلك قوي الحجة إذا تكلم، خلَّاب إذا تحدث إلى النساء، يُخلِّبُهنَّ بما يُقصُّ عليهن مما رأى وسمع في سياحاته، ويخلبهن حين يشرح لهن رأيه في الحياة، وأنَّها يجب أنْ تتجدد، وأنْ تتغير أطوارها وحوادثها، لا أنْ تستقر وتتشابه هذا التشابه الممل، وقد أقبل هذا الرجل منذ شهر، فجاور الزوجين، واتصل بهما، واختلف إلىهما، فما كاد يرى «هيلين» حتى گاف بها، وما كادت تراه «هيلين» حتى مالت إليه، ولكنها أخذت هذا الميل على زوجها، وأحسَّه زوجها، وراقبه دون أنْ يتحدث فيه.

إذا كان الفصل الأول من القصة أباً «هنري» زوجه بأنَّ «شالانج» قادم لزيارتها بعد حين، فتتبرم بهذه الزيارة وتتّنكّرها، وترى أنَّ هذا الرجل مُثقل مُلْحٌ في زيارتها، وأنَّها تريد أن تَتَنَحَّلَ الصداع حتى لا تراه، فينكر عليها زوجها هذا كله، ويأخذها بقاء هذا الرجل، ويسأّلها عن الأسباب التي تُبغض إليها هذه الزيارة، فتحاول قليلاً، ثم تعرّف لزوجها بأنَّ هذا الرجل يتلقّها ويتبعها بحبه، فيجيبها بأنه يعلم هذا، ويدور بينهما هذا الحوار:

هيلين (دهشةً): كيف؟ أعرفت أنه يتبعوني؟

هنري: طبعاً عرفت ذلك!

هيلين: لا! لهذا حق؟ وبأي شيء عرفت هذا؟

هنري: وأنت بمعرفته؟

هيلين: هذا غريب! ولكن متى ابتدأ هذا؟

هنري: ابتدأ منذ شهر يوم تناول العشاء هنا لأول مرة.

هيلين: لم يُظهر من هذا في ذلك المساء، إلا شيئاً قليلاً جدًا!

هنري: نعم! شيء قليل جدًا من التلطف والابتسام.

هيلين:رأيت هذا؟

هنري: كما أراك الآن، فلما كان الأسبوع الذي ولّي هذا العشاء، بالغ في ذلك بعض

المبالغة في بيت «تسنان».

هيلين (شيقةً لاهيةً): ولكن كيف استطعت أن ترى هذا؟

هنري: ثم أول من أمس، رأيت طائفة من الحركات، وصوتاً خاصًا حين كان يتحدث

إليك، وشيئاً من البلاغة في القول، وبينواع خاص طريقته حين قال لك إلى اللقاء.

هيلين (وقد خفضت عينيها): وإنْ فمَاذا ترى في هذا؟

هنري: وأنت ماذًا ترين؟

هيلين: أنا! لا أستطيع أنْ أمنع هذا.

هنري (في لطف): لو أردت منعه لوفقاً له.

هيلين: وددت لو أعرف كيف هذا!!

هنري: أنت حسناء، نعم! أنت حسناء جدًا، وتعلمين هذا حق العلم، ومع هذا فقد

ظهر الرجال، ولا سيما الذين لهم حظٌ عظيم من الحياة أمامك مظهر الأدب والاحتشام.

هيلين: لأنّي لم أكن أُعجبهم.

هنري: كنت تعجبينهم، ولكنك كنت تُظهرين في موقفك منهم شيئاً من النقاء

والصراحة، يضطر كلَّ واحد منهم إلى أنْ يفهم مسرعاً أنَّ أية محاولة يحاولها مخالفة للذوق وغير مجدية عليه.

هيلين: وإنْ فلستُ الآن نقية! ولستُ الآن صريحة!

هنري: أنتِ نقية صريحة، ولكنكِ لا تتشددين في ذلك، لقد تجمّلتِ قليلاً أمام «شالانج».

هيلين:رأيتَ هذا أيضًا؟ هذا حق، لقد تجمّلتِ أمام «شالانج» سأفسر لكَ هذا، كنتُ أريد أنْ أعلم، تقول لي دائمًا إني حسناء، ولكنني أرى مدائح الرجال وتحياتهم توجه إلى غيري من النساء.

هنري: إنَّ مدائح الرجال تُخفي دائمًا شيئاً من الميل إلى الهجوم، وأشد الرجال قوة وجرأة، لا يهاجم إلا المرأة التي يظن بها الضعف.

هيلين: لا تُسرف! إنَّ الرجال دائمًا لا يُضمرون هذا السوء.

هنري: بلى يا هيلين!

هيلين: مهما يكن من شيء فإن «شالانج» هو أول رجل تركني أفهم — ولكن في لطف لأنه حسن التربية — أني أثير عنايته، وأنه يجد لذة في التحدث إلي، فظننت أول الأمر أنِّي مخطئة، فقد أربأتنى أنه رجل عظيم الخطر، فسألت نفسي لم يَحْفُلْ بي رجل كهذا؟

هنري: إنك لشديدة التواضع!

هيلين: أعلم أنك لا تُصدقني!

هنري: بلى أنا أصدقك.

هيلين: كنتُ أرى أنه شديد التلطف، ثم كنتُ ألقى في كل وقت لاحظه، وكان يجتهد دائمًا أنْ يكون إلى جنبي، ولكنني لا أُكذِّبُكَ، لم أكن واثقة بشيءٍ من هذا، فأردتُ أنْ أعلم، أفهمتَ؟

هنري: أبلغتِ من الطفولة إلى هذا! أؤكد لكَ أني لا أستطيع أنْ أتصور أنْ أرى امرأة بلغت من القوة والشجاعة والذكاء ما بلغتْ تصل أحيانًا من الطفولة إلى هذا الحد!

هيلين (في حنان): لستَ مغضبي؟

هنري: لا! ولكنك ترين أنَّ من الخطير العبث بمثل هذه الأشياء، وأنَّ قليلاً من الخطأ قد يخلق مواقف لا سبيل إلى احتمالها! أنت تشعرين بهذا الجوُّ الثقيل، الذي خلقه إهمالك! ألسْت تنكرين أني تركت شالانج يجيء؟ ألسْت تشعرين بأنَّ من الذلة أنَّ رجلاً دنا منك، فحمله ذلك على أنْ يرجو، وأنْ يعتقد أنْ كان شيء ...

هيلين: أوه!

هنري: شعر بذلك، ثم لم يردد إلى طوره! هذا مُذلٌّ لك. هذا مُذلٌّ لي. هذا محزن.

هيلين: ليس من شك في أنني أخطأتُ، لم أفكِّر، ولكنني لا أفهمك، كيف أحسستَ هذا كلَّه، ولم تكلمي فيه؟

هنري: كنتُ أنتظرك أنْ تكلمي فيه!

هيلين: وكيف عرفتَ موقف «شالانج» وتركتَه يزورنا، بل طلبتَ إليه أنْ يزورنا؟!

هنري: لأنَّي لا أقبلُ أنْ يكون «شالانج» خطراً! ولم يكن لي أنْ أشعره بأنَّي أهابه، أو بأنَّك تخشين فاتناً ماهراً!

هيلين: يخيل لي أنني لو كنتُ مكانك لوجدت طريقاً إلى إفهامه.

هنري: هذا شيءٌ كان خليقاً بك وحده.

هيلين: أنت زوجي!

هنري: وإنَّ؟

هيلين: فمن الحق عليك أنْ تزود عنِّي!

هنري: ألمَّت من الرشد بحيث تدفعين عن نفسك؟ (ثم يرفع كتفيه) على أنني أعرفك، ولست أشك في أنني لو تدخلت في الأمر لجمحت كبرياًوك، ولكنَّي مُحقَّة في هذا الجموح، إنَّ امرأة مثلَك لا يحميها الرجال (ثم يشتند) أتدخل في هذا الأمر! أتشدق في أمر ينالك بشيءٍ يشبه هذا الحق المثير، حق السجان أو حق المالك! أتقبلين أنَّ أدل بلفظ «الزوج» على هذا المعنى العتيق الجافي! كلا! يا هيلين، ليس في الحب حق، ولا معاهدة ولا عقد، ليس في الحب إلا الحب، وإنما سببِي في حمايتك والذود عنك، أنَّ أحملك على أنْ تؤثِّريني على غيري، ولقد أدهشَ أنَّ أرى لك رأياً في هذا يخالف رأيي.

هيلين (مضطربة قليلاً): أي إيمان! عم تبحث؟

هنري: تريدين أنْ أزود عنك! ولكنَّي بنيتي أترى أنني أستطيع الحياة معك يوم أشعر بأنك في حاجة إلى الحماية! يوم أشعر بأنني لست عندك كلَّ شيء!

هيلين: أتظنَّ أننا نضطر إلى التلاق في مثل هذه الحالة؟

هنري: نعم!

هيلين: أجاد أنت؟

هنري: جاذب كل الجد، لقد فقدنا ابنتنا، فليس بيننا صلة الآن إلا الحب، فإذا لم تحيبني ففي الحياة معًا؟

هيلين: مازاً؟ انظر إليَّ، أستطيع أنْ تفكِّر في شيء كهذا؟

هنري: لكل سعادة أجل!

هيلين: أرجو أنْ تسكت! فلو مضيت في الحديث لأقعنعوني بأنني اقترفت جريمة! لتطمئن! لقد انتهت هذه القصة المضحكَة، انتهت حقًا! فسأضع «شالانج» عند حده هذا المساء! لا أريد أنْ أغاضبك من أجل هذا الرجل! فهو لا يعنيني، وسأرجوه ألا يأتيمنذ اليوم.

هنري: كلا! كلا! أنت مسرفة، ليس من الضروري أنْ تغلقي بابك في وجهه، فليس ما يدعوه إلى ذلك، فهو لم يخطئ بوجه ما، وإنما مثل دور الرجل، راك خليقة بعنایته، فأأشعرك بهذا أكثر مما كان ينبغي، فأنت المخطئة لا هو، فغيري موقفك بإزائه، يفهم أنه أخطأ الطريق، أظنك تشعرين بالنتائج السيئة إذا أخذته بالعنف، فقد تصبح الصلات بيننا وبينه عسيرة، وهو مستقر في هذا البلد وهو جارنا.

هيلين: وإنْ فهو متصل بنا طول الحياة!

هنري: ذلك راجح.

هيلين: لا بأس! وإنْ فإذا أردت ألا أراه، فليس إلى ذلك سبيل؟

هنري: ولم لا تريدين؟ إذا غيرت موقفك معه أصبحت الصلات بيننا وبينه حسنة.

هيلين: فإذا لم يغير موقفه هو؟

هنري: ستحملينه على تغيير موقفه، ذلك شيء لا يخيفني.

هيلين: أتظن ذلك يسيرًا؟

هنري: إنَّ المرأة قادرة على أنْ تخجل الرجل، وتجعله هزأة بابتسمة تبسمها.

هيلين: هذا موقف ...

هنري: نعم! على المرأة!

هيلين: وبعد، فلو أنه يحبني!

هنري (مغضباً قليلاً): أي معنى لهذا الكلام: «لو أنه يحبك؟»؟ أتعرف؟ ماذا يعرف منك؟ يعرف أنك حسناء! وأنَّ من اللذة أنْ يدنو من جمالك دنوًّا شديداً، فأبنائيه بأن للحب عند أمثالك معنى آخر.

ثم يمضي هذا الحوار الطويل الذي الذي القيم، إلى أكثر مما تحتمل جريدة «السياسة»، ولقد كنت أود لو استطعت أنْ أترجمه كله، وأنْ أترجم غيره من ضروب الحوار، ولكن ما ترجمته يعطيك صورة واضحة من هذين الشخصين، وتصورهما للحب وصلات الزوجية، فإذا انقضى هذا الحوار، كان الزوجان قد اتفقا على أنْ تغير «هيلين» موقفها في لطف، فلا تتحبب إلى «شالانج»، ولا تظهر له الجفاء الشديد.

ثم يُقبل «شالانج» ويخرج «هنري»، فلا تلبث «هيلين» أنْ تخاطبه في غلظة وجفوة، ولكنهما متكتفتان؛ لأنها تميل إليه، وتحاول أنْ تخفي هذا الميل، وهو يعلم ذلك فِيهِم بالانصراف، فتمسكه وتحدث إليه في لطف، تريده أنْ تقنعه بأنها سعيدة، وبأنها تحب زوجها، وبأنها راضية عن حياتها غير طامعة في تغييرها، ويريد أنْ يقنعها بأنها غير سعيدة، ولا مطمئنة، وبأنها لا تحب زوجها؛ لأنها أحبته فتاة غرَّة، ولا قيمة لحب الفتاة الغرة، وإنما القيمة لحب المرأة التي استكملت عقلها وقوتها، وأنها في حاجة إلى أنْ تحب من جديد، وتحيا من جديد، وتتغير أطوار هذا العيش الذي ينوء بها والذي أخذت تمله. يقنعها، وتفرز من هذا الإقناع، فتستأنف الجفوة، وتتكلفه الخروج فيخرج، ولكنه واثق مطمئن، ويأتي زوجها فتتكلف أمامه الأمان والثقة، وتنبهه أنها قد وضعت صاحبها حيث ينبغي أنْ يوضع، ولكن زوجها لا يكاد يطيل إليها الحديث، ويسألهما عما كان بينها وبين «شالانج» من حوار، حتى يشعر من حديثها وقصصها وانصرافها عما يقول بأنها لم تفلح، وبأنها لم تزدد إلا تورطاً في هذه الفتنة.

ثم يكون الفصل الثاني، فإذا هذه الفتنة قد بلغت أشدتها، وإذا الزوج قد يئس من زوجه، واعتزم العدول عن اللين والرفق إلى العنف والشدة، فيأمرها ألا تلقى «شالانج»، ويكون بينه وبينها في ذلك حوار عنيف، ينتهي بعدها عن رأيه وقبوله للمعركة، فيبيح لزوجه أنْ تلقى خصمه، وأنْ تختار بين الرجلين، ويعلن إليها أنه نازل عند حكمها، ثم ينصرف ويأتي «شالانج»، وهنا موقف من أجمل المواقف، وأشدتها تأثيراً في النفس، واستهواه للبُّ، وهزاً للعواطف، موقف تبذل فيه المرأة كل ما تملك من قوة في البيان والعاطفة، وكل ما تملك من دموع وضعف؛ لتدافع عن أسرتها، وعن حبها لزوجها، ولتخلص من هذا

الحب الطارئ، ولكنها لا تفلح في هذا الدفاع؛ لأن خصمها قوي عنيد؛ ولأن هذا الخصم ليس «شالانج»، وإنما هو نفسها، فهي تحب «شالانج»، وتعترف له بهذا الحب، وتلتقي أمامه السلاح، وتترك له أن يحكم فيها، وفيما بينها وبين زوجها من صلة، وهما كذلك إذ يأتي الزوج، فيلتقي الرجلان – كما يلتقي الخصمان الشريفيان – لا يخوض أحد منهما رأسه، ولا ينكر أحد منهما من موقفه قليلاً أو كثيراً، فينصرف «شالانج»، ويسأل «هنري» زوجه ماذا اعتزمت؟ فلا تجيئه بل تحاول الفرار منه، فيمسكها – وما يزال بها – حتى تنبئه بأنها تريد السفر، فيفهم أنها آثرت صاحبه، وأحسن ب موقفه حين ذاك! موقف ملؤه المروءة والحرية والإذعان للقضاء في شرف وكبراء، ينبيء زوجه بأنه قد فهم، وأن لها أن تسافر متى شاءت، وأنه سيرد إليها حريتها في أسرع وقت ممكن.

فإذا كان الفصل الثالث رأينا هيلين في إحدى الغرف تستعد للسفر، ولكنها تنظر حولها، وتقلب صوراً لابنها، وهي كذلك إذ يدخل «شالانج»، فيعرف منها حقيقة الأمر، يسعد ويفتبط، ولكنها ليست سعيدة ولا مغبطة، وإنما هي مستسلمة محزونة، يلح عليها صاحبها في ألا تنتظر الطلق، وأن تسرع إليه فلا تتأبي، ثم يرى حزنها فيسألها عنه، فتنبئه بأنها تنظر إلى ما حولها، فتأسف وتأسى وتذكر ما كان لهذه الأشياء، ولهذا البيت من أثر في حياتها، بل تذكر أن حياتها مكونة من هذه الأشياء، وأن فراق هذه الأشياء عليها عسير، يحاول تسليتها فلا يوفق، ثم تذكر طفلها المفقود، فترى أن صاحبها لا يعلم من أمر هذا الطفل شيئاً، بل لا يعلم من أمرها هي شيئاً، وإنما كل الأمر لديه حب وهوى. ت يريد أن تخرج معه فلا تستطيع، لأن الأشياء تمسكها، وتتأبي عليها الخروج، فتضرب معه موعداً إلى غد، ثم يمضي، وتبقى حيناً واجمة ذاهلة، وما هي إلا أن تصيح داعية زوجها مرة ثم مرتين، فيقبل الزوج في شكل مؤلم مضطرب، فيسألها ماذا تريد؟ تتتكلف في الجواب، ت يريد أن تنبئه بأنها ستتسافر دون أن تحمل شيئاً، وأنها ستترك له صور ابنها؛ لأنه وحده خلائق أن يحتفظ بهذه الصور، ولكن الزوج يجيبها بأنها تستطيع أن تحمل كل شيء، فهو لا يحفل منذ الآن بشيء، وهو يريد أن ينسى كل شيء؛ لأنها قد قطعت بينهما كل شيء، ثم يظهر المخبر، تظهر نتيجة الأزمة، يظهر أن هذه المرأة قد عرفت من أمرها ما كانت تجهل، وشعرت بأنها لم تكن عاشقة «شالانج»، وإنما كانت مفتونة «بشايانج»، وأن حبها وقلبها وحياتها وعواطفها كل ذلك موقوف على زوجها، الذي عرفته وبلت سره وجهره، فهي لا تريد أن تسافر، وإنما تريد أن تبقى، لا تريد أن

تخرج من البيت، وإنما تريد أن يمسكها زوجها فيه، لم تكن تحب «شالانج»؛ لأنها لم تكن تعرفه، وهي تحب «هنري»؛ لأنها تعرفه، كانت مفتونة، ولا ينبغي أن تسمى الفتنة حبًا، فليس الحب إذن اتقاد العواطف، واهتياج الشهوات، وعبث الهوى بالعقل، وإنما هو شيء آخر، هو شيء هادئ مطمئن، للقلب فيه أثر عظيم، ولكن للعقل فيه أثراً أيضًا، تلح على زوجها أن يغفو عنها، ولكن هذا الزوج قد تألم، فهو لا يجد إلى العفو سبيلاً، غير أن هناك شيئاً فوق العفو وفوق الألم، فوق الإساءة وفوق الإحسان، هناك الحب، والرجل يحب امرأته، فلا يكاد يراها تعسة شقية حتى يأخذها الإنفاق والعطف، فيلين ولكنه عنيف، يطلب إليها أن تذهب لتسريح، ثم يراها مضطربة قد أخذها البرد، فهي لا تكاد تثبت، فيسرع إلى شيء من الحطب يلقايه في الموقف، ويشعل فيه النار ويجلسها أمامه.

هو واقف وسط الغرفة على بعد منها، وهي أمام النار تصطلي، ولكن في جوفها زفرة شديدة تريد أن تكتمها، فلا تفلح فتجهش بالبكاء، وإذا هذا الزوج الغاضب الحانق قد أقبل في هدوء وحنان، فمد يده إلى امرأته فأنهضها، فما تكاد تحس ذلك حتى تصيح باسم زوجها، وتلقي نفسها بين ذراعيه، وكذلك تنتهي هذه القصة.

وأحسب أنني لست في حاجة إلى شرح ولا إلى نقد، وإنما أنا في حاجة إلى الأسف؛ لأنني لم أترجم لك منها الشيء الكثير.

يونيو سنة ١٩٢٣

النضال

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «هنري لفدان»

هي نضال بين عالم وقسيس، أو هي نضال بين علم العالم ودين القسيس، أو هي نضال بين العالم نفسه، وبين القسيس نفسه، أو هي نضال بين هذين الرجلين وبين امرأة، أو هي نضال بين هؤلاء جمِيعاً، وبين الحياة الاجتماعية، أو قل — وأنت مصيَّب فيما تقول — إنها نضال بين هؤلاء جمِيعاً، وبين هذه الأشياء كلها، هي نضال منذ تبدئ إلى حيث تنتهي، هي نضال في جملتها وفي تفصيلها، ومع ذلك فهي تخلو من العنف، وتخلو من القسوة؛ لأنها نضال بين الآراء والأهواء، والعواطف والشهوات، نضال لا يتجاوز هذه الآراء والعواطف والشهوات إلى الجهاد المادي؛ ولهذا تخلو القصة من العنف والقسوة، أو تخلو من العنف والقسوة الماديَّين.

أخشى ألا تعجبك هذه القصة، وليس يدهشني ألا تعجبك؛ فهي — كما قلت — تخلو من كل عنف وقسوة، وتخلو من كل نتيجة من شأنها أن تهز النفس، وتفقد أمام الأمر الواقع، الذي ليس إلى إصلاحه أو استدراكه من سبيل، وهي — كما قلت — جهاد بين آراء وأهواء، وعواطف وشهوات، هي جهاد يلذ العقل ويلذ الشعور، ولكنه لا يفجأ بكبريات الأمور وجسام الحوادث، فمن المعقول ألا تستهويك، ولا تؤثر فيك هذا الأثر العظيم الذي تؤثره الشخص العنيفة المخيفة، ومع ذلك فأنا أريد أنْ تعجبك هذه القصة، وأريد أنْ تؤثر فيك هذه القصة، وأريد أنْ يكون مصدر هذا الإعجاب، وهذا التأثير نفس خلوها من العنف، وبراءتها من الحوادث الجسام، فليس العنف شرطاً أساسياً لجمال القصة التمثيلية، وليس الحوادث الجسام أموراً لا بد منها، لايستطيع الكاتب أنْ يؤثر وأنْ يهز

النفس، بل — مَاذَا أَقُول! — العنف موجود في هذه القصة، بل هذه القصة عنيفة كلها، بل هذه القصة كلها حوادث جسام، ولكن يجب أنْ تتفق على معنى العنف، ويجب أنْ تتفق على معنى الحادث الجسيم، فليس من الحق في شيء أنَّ العنف مقصور على هذه الحركات المادية القوية، التي تستتبع الآثار الضخمة في الحياة الخارجية، وليس من الحق أنَّ الحوادث الجسام مقصورة على ما تراه العين، وتسمعه الأذن، وتلمسه اليد من حفائق الحياة، بل قد يكون ما يحدث في النفوس، وما يجري في القلوب دون أنْ يراه أحد، ودون أنْ يحسه إلا صاحبه أشد عنفًا، وأقرب إلى الفزع والهلع من كل ما نشهد في الحياة الخارجية من الأمور العنيفة.

وقد تكون هذه العواطف النفسية التي تستأثر بنفس الإنسان، فتنسيه كل شيء، وتلهيه عن نومه ويقطنه، وعن طعامه وشرابه، بل تلهيه عن حياته كلها، قد تكون هذه العواصف وما تحدث من الآثار، حوادث جسامًا لا تعدلها الحوادث الجسام المعروفة، وعلى هذا النحو، وعلى هذا التفسير للعنف والحوادث الجسيم، نستطيع أنْ نقول: إنَّ هذه القصة ليست إلا عنفًا، وليس إلا حوادث جسامًا، وإنما ينبغي أنْ نتعود هذا النحو من الفهم، ونألف هذا النحو من التفسير، ينبغي أنْ نتعود النظر في أنفسنا، ونقدر العواطف التي تدير حياتنا وحركاتها، ونشعر شعورًا قويًّا، بل نعلم علمًا لا شك فيه، أنَّ هذه العواطف التي تدير نفوسنا، وتسخر أجسامنا، وتتبرأ حياتنا المادية والمعنوية، هي مصدر كل شيء في هذه الحياة، هي مصدر ما يبهرنا من عنف، وهي مصدر ما يخلينا من لين، هي مصدر البؤس والنعيم، وهي مصدر السعادة والشقاء، وهي مصدر التردد بين هذا وذاك، يجب أنْ ننظر في أنفسنا نظرًا صحيحًا، وأنْ نقدر عواطف أنفسنا وأهواءنا — كما ينبغي أنْ نقدرها — إذن يتغير إعجابنا بالقصص التمثيلية، ويكون كلنا أشد بهذه القصص، التي تخلو من العنف المادي منه، بتلك التي يملؤها العنف المادي، يكون إعجابنا بهذه القصص أشد وأقوى، لأنَّه إعجاب مصدره العقل والشعور والتفكير، وليس مصدره تأثر الحواس واهتزاز الأعصاب بهذه المؤثرات الخارجية.

قلت: إنَّ هذه القصة نضال بين أشخاص وبين أشياء، فيجب أنْ أبدأ، فأقدم إليك أشخاص هذه القصة، وهم أربعة: امرأة، وثلاثة رجال.

فأما المرأة فهي الدوقة «دي شاي» في ريعان شبابها، قد أتيت من الجمال والفنتنة حظًّا عظيماً، وهي إلى جمالها وشبابها شديدة الذكاء، كثيرة العلم، قوية الإرادة إلى حد غريب، شديدة السلطان على نفسها، تشعر بالشيء العنيف، وتتأثر بالعاطفة الحادة،

ولكنها تخفي هذا كله عن الناس، فلا يحسونه ولا يشعرون به، وقد تستطيع أن تخفيه على نفسها، جميلة ذكية فاضلة عالمة، ولكنها مع هذا كله سيئة الحظ، سيئة الحظ منذ ولدت، بل قبل أن تولد، فقدت أباها قبل أن تُقبل على هذه الحياة بيومين، فلما ولدت أفقدت أمها الحياة، فكان مهدها — كما تقول — يهتز بين نعشين، ثم أخذت كلما شبَّت فقدت بعض أهلها وذوي قرباها، حتى إذا استكملت قوتها وبلغت الشباب، كانت وحيدة، أو كالوحيدة في الحياة، ولكنها بحكم هذا الاسم المتصل، كانت غنية ضخمة الثروة لما ورثت عن هؤلاء الراحلين، فكان من المعقول وقد جمعت بين الجمال والذكاء والثروة، أن يكون حظها في الزواج حسناً، وقد خُيل إليها أنه حسن، خطبها شاب غني، عظيم الاسم، ماجد الأسرة، أنيق رشيق، هو الدوق «دي شاي» فأحبته، أو خيل إليها أنها أحبته، ولكنها لم تك تقرن به، حتى تبيّنت أنَّ حظها في الزواج ليس خيراً من حظها في غير الزواج، فهذا الزوج الذي فتنها بجماله وثراته ومجد أسرته، كان مريضاً أو قل: إنه كان مجنوناً، أسرف في اللذة وتهاك عليها، وافتَّ في ضروب الفساد حتى أصابته بلادة الحس، فاصطنع «المورفين»، وما يشبه المورفين، وأتت هذه المدرات على ما كان قد بقي من عقله وصحته، فهو الآن مجنون، وهو يعالج في مستشفى يديره الدكتور «هنري موري»، وهو الشخص الثاني من أشخاص هذه القصة.

عالم مشهور بمهارته في طب المجانين، قد نبع في هذا الفن، ووقف حياته وقوته عليه، حادُّ العاطفة قويُّها، شديد التأثر بأهوائه وشهوات نفسه، ملحد ولكنه يؤمن بالمثل الأعلى، ويطمح إلى الكمال، ويعتقد أنَّ في هذه الحياة أشياء غير المادة، خليقة بعنایة الإنسان وإكباره، وأهم هذه الأشياء الحب، وهو ملحد، ولكنه كان شديد الإيمان قبل إلحاده، كان مسرفاً في التبعيد وضروب النسك، حتى سخط عليه أبوه الذي كان يحتقر الدين ورجال الدين، ويكره أن يتصل أبناؤه بالدين ورجال الدين، كان شديد الإيمان فأصبح شديد الإلحاد، وله أخ، هو الشخص الثالث من أشخاص هذه القصة، كان في شبابه فاجراً مسرفاً في الفجور، وكان بحكم هذا الإسراف في الفجور قرة لعين أبيه، مقربياً عنه مختصاً بياتاره، ولكنه أسرف في اللذة حتى عافها، ومال عنها إلى شيء من الزهد، اضطرب إلى شيء من الدين، ثم إلى الإسراف في الدين، حتى وقف حياته على الدين وأصبح قسيساً، فغضب عليه أبوه وطرده، وحضر عليه أنْ يتسمى باسمه.

أما الشخص الرابع من أشخاص هذه القصة فرجل من رجال الدين أيضاً، هو الأسقف «بللين» من أساقفة الصين، رجلشيخ وقور، واسع العقل، راجح الحلم، شديد

الإيمان، قد وَفَقَ في نفسه بين الدين الخالص الظاهر وبين العلم، وبين حاجات الحياة وضرورتها، فهي لا تتناقض في نفسه، وهو لا يفهم مصدر تناقضها عند الناس، وهو يستطيع أن يتحدث إلى الملحدين، فإذا هم يشعرون بحاجاتهم إلى إكباره وإجلاله، وأن يتحدث إلى المؤمنين المسرفين في الإيمان، فإذا هم يشعرون بضعف إيمانهم، وهو يستطيع أن يتحدث إلى الأغنياء والمرتفيين والملفتين في اللذات والشهوات، فيحبب إليهم الخير دون أن يؤذيهم، بدون أن يمكنهم من أن يؤذوه، وهو مبتسم أبداً، يقول الجد ولكن في مزاح، ويمزح فإذا فakahته جُدُّ مُرًّا، أصابه الآذى والاضطهاد في الصين، فلقي ألواناً من العذاب، عطفت عليه قلوب الناس جميعاً، فأعجب به المعجبون، وأنعمت عليه حكومة الجمهورية بأوسمتها، وهو يسخر مما لقي من الآذى، ويعجب أن يكون هذا الشيء اليسير مصدرًا لهذا العطف الكبير، أثر هذا الإيذاء فيه، فيناله من حين إلى حين ضعف عصبي، وهو الآن في مستشفى الدكتور «موري»، يتهدى أعضائه بشيء من الراحة، ومن حول هؤلاء الأشخاص الأربع أشخاص آخرون ليس لهم شيء من الخطير.

إذا كان الفصل الأول رأيت الطبيب في مكتبه، وقد دخلت عليه الدوقة، فأخذ يسألها عن زوجها، فتبين أن حاله لا بأس بها، وإن لم يكن قد برع، وإن لم يكن ينتظر له الشفاء، وتتبين أنه سيترك المستشفى هذا اليوم، على أن يتعهد الطبيب في قصره، ولكنك تتبين بنوع خاص أن الطبيب يحب هذه المرأة حباً ليس يعدله حب، وهو يجاهد في كتمان هذا الحب، دون أن يحرص على هذا الكتمان، يريد أن تشعر به الدوقة، ولكنه لا يريد أن ينبعها به، وتتبين أيضاً أن هذه الدوقة شقيقة سيئة الحال، لكل ما قدمت لك من أمرها، ولكنك تشعر بأن نفسها تتزع إلى شيء غير بين، وأنها تحارب هذه النفس، وتلزمها أن تطمئن إلى ما هي فيه من حال سيئة، فإذا ذكر الحب، أعلنت في شدة وعنه أنها تكرهه وتتنفر منه كل النفور؛ لأنه مصدر ألم لا حد له، ثم إذا ذكر الدين أعلن الطبيب إلحاده، وأنباته هي أيضاً بأنها ملحدة، وهما في هذا الحديث إذ يستأنن الأسقف، فإذا دخل وقدمت إليه الدوقة، وتحدث القوم فيما أصاب الأسقف من العذاب في الصين، وحاولت المرأة أن تخرج، فقبلت يد الأسقف قبل خروجها، ظهرت على وجه الطبيب مظاهر تدل على شيء من الألم والامتعاض، ثم يخلو الطبيب إلى الأسقف، فيتحدثان في أمر هذه المرأة، يمدحها الطبيب، فيسأله الأسقف في صوت هادئ طبيعياً: *الله عاشق؟* فإذا غضب الطبيب لهذا السؤال، وزعم أن هذه المرأة أظهر النساء وأشرفهن، أجابه الأسقف: وإذا كانت – كما

تقول — شريفة عفيفة طاهرة، لا عاشق لها، فما بالك تحاول أن تكون أنت عاشقها؟ فَهِمَ الأسقف إذن حب الطبيب، ويحاول الطبيب أنْ ينكر هذا الحب، فلا يلح الأسقف، ثم يسأله الطبيب عن رأيه في هذه المرأة، فيجيبه: هي امرأة مؤمنة خالصة للكنيسة، فيسخر الطبيب؛ لأن هذه المرأة قد أنبأته بأنها ملحدة، ولكن الأسقف ينفيه بأن الطبيب الماهر يستطيع أنْ ينظر إلى الرجل الذي يخيل إلى الناس أنه صحيح الجسم، فلا يكاد ينظر إليه حتى يتبيّن أنه مريض، وحتى يشخص علته، وكذلك المهرة من رجال الكنيسة ينظرون إلى الإنسان يخيل إليك أنه ملحد، فيتبنّون إيمانه وإخلاصه للدين، يقع هذا الحديث موقعًا سيئًا من نفس الطبيب، ولكنه يخفي ذلك، وهمما يتحدثان إذ يدخل الخادم ومعه بطاقة يقدمها إلى الأسقف، فيفهم الأسقف بالخروج لاستقبال زائره، فيمسكه الطبيب، ويعرض عليه أنْ يستقبله في مكتبه ويخرج، يبقى الأسقف ويدخل الزائر، فإذا هو القسيس أخو الطبيب، وكان هذا القسيس تلميذًا للأسقف، فكلّاهما يحب صاحبه حبًّا شديداً، وكان القسيس قد أقبل إلى هذا المستشفى؛ ليり أخاه في أمر من الأمور، فلما سمع اسم الأسقف أسرع إلى لقائه، يدهش الأسقف حين يعلم أنَّ الطبيب أخو القسيس، فينفيه القسيس بكل ما قدمت لك، وينفيه بأنه مقاطع أخاه منذ عشر سنين، وأنه سيراه لأول مرة منذ ماتت أمّهما.

ثم يخرج الأسقف ويرافقه القسيس، فإذا عاد الطبيب إلى مكتبه ودخل عليه القسيس، كانت بينهما ألفاظ فيها شيء من المودة، ولكن المودة الجافة؛ ذلك أنَّ الطبيب يكره الدين، وإذا كان لا يستطيع أنْ يفرق بين الأشخاص وأرائهم ومذاهبهم، فهو يكره الأشخاص إذا كره آرائهم، ولكنه مع ذلك يتلطّف بأخيه، أما أخوه فقد أقبل يسأله المعونة في شيئاً، الأول أنَّ طائفة من المؤمنين في حيّه قد أنشئوا مستوصفاً لمرضى الفقراء، فهو يعرض على أخيه أنْ يعمل في هذا المستوصف ساعة أو ساعتين في الأسبوع، ولكن الطبيب يرفض؛ لأنَّه لا يستطيع أنْ يعمل مع رجال الدين، الثاني أنَّ الطبيب يعالج الدوق «دي شاي»، وامرأة هذا الدوق غنية محسنة، فيريد القسيس أنْ يتوسط له أخوه عند هذه المرأة لتعيينه بشيء من المال في عمله الخيري، ولكن الطبيب يرفض أيضًا؛ لأنه لا يريد أنْ يثقل على الدوقة في شيء كهذا، وانظر إلى هذا الحوار الذي يبيّن موقف الأخوين كل من الآخر:

القسیس: هذا حسن، سأعمل وحدي، أترى بأساً في أن أكتب إلى الدوقة أو أزورها؟
الطبیب: لا بأس! ولكن على شرط، ألا تعلم الدوقة أنك أخي.

القسیس: ستجهل ذلك!

الطبیب: هذه منفعتك.

القسیس: ومنفعتك أيضاً.

(يظهر الطبیب إنكار ذلك.)

القسیس: نعم! أنا أضايقك، فأنت خجل من انتسابي إليك.

الطبیب: لا يخجلني انتسابك إلى أكثر مما يخجلك انتسابي إليك؛ فليس لأحد هنا أن يخجل من صاحبه، أو أن يفاخر به، لقد وجهت حياتك كما أحببت، وكذلك فعلت أنا، ثم انقطع التزاور بيننا.

القسیس: فهل انقطع بيننا الحب؟

الطبیب: تأمل، لم يحب أحد منا صاحبه قط.

القسیس: قليلاً فيما مضى.

الطبیب: قليلاً جداً في غير عمد، ولكن منذ ذلك الوقت! الآن؟ ليس من اليسير على أن أفرق بين الأشخاص وآرائهم! وإنذ فمما يريده؟ أنا أكره آراءك كما تكره أنت آرائي! أما أشخاصنا فأنت أحب إلى من الأجنبي!

القسیس: أو دون الأجنبي!

الطبیب: أتظن أنني أكرهك؟ كلا! وإنما تبعث في نفسي شعوراً آخر، غضباً يمازجه الإشراق، حينما أفك في هذه الصنعة التي تنفق فيها حياتك، فأنت لا تحيا، وأنت لا تفيض.

القسیس: لست من الجور بحيث أصفك بما تصفني به.

الطبیب: أنت مكره على ذلك بحكم البداهة، فأنا أحارب، وأنا أجاهد العلل والآلام، وربما أسرت هذه العلل والآلام، وجردتتها من أسلحتها، فهذا وحده يستأثر بالنفس، وهذا وحده يجعل الحياة خلية أن يحرص عليها أصحابها، هذا الصراع في كل لحظة صراع الألم والموت، ومن هنا أكاد أبكي حين أرى قوة كقوتك، جميلة شابة تضيع في تقبل الاعتراف من الخادمات.

القسيس: تستطيع أن تمسح عينيك، فهذا الكلام يدهشني من عالم، ذكرت الاعتراف، ألم تفكر قط في أنَّ قسيساً متواضعاً يقضي سنة في تقبيل الاعتراف، قد يعلم أمر الإنسانية أكثر مما يعلم الفلسفه جميعاً، إنك تذكر الصراع، ولكن ضروب الصراع التي تنفق فيها حياتك، ليست إلا الألعيب أطفال مضحكه بالقياس إلى الصراع الذي أحيا أنه فيه، صراعي أنا أشد من صراعك حدة، وأقرب منه إلى العنف، وأنا في كنيستي الصغيرة الخالية أحيا منك ألف مرة في مستشفياتك ومستوصفاتك.

الطبيب: لا أنفهم!

القسيس: انظر، (ثم يدنو منه) اسمع، إنَّ بين اللاتي أسمع لهن امرأة تستطيع أنْ أتحدث عنها في غير حرج، فأنا لا أعرفها، لم أرَ قط وجهها، فهو مستور أبداً، وقد أسمعها تتحدث غداً، فلا أعرف من صوتها شيئاً، فكل هذه الأصوات الهماسة التي تتحدث في الاعتراف، مجهولة من القسيس، ومهما يكثُر عدد المعترفين ويبلغ المئات، فنحن لا نسمع إلا رجلاً واحداً وامرأة واحدة.

الطبيب: إذن فمعترفت ...

القسيس: هي متزوجة شقيّة، وهي تحب رجلاً غير زوجها، ومع أنها مضطّرة إلى معاشرة هذا الرجل، لم تشعره قط بهذا الحب، مع أنها تعلم أنه يحبها، ولقد كانت شهوتها المكظومة تنفجر عشر مرات، فخرجت مسرعة إلى هذا الذي تسميه فيما بينها وبين نفسها عاشقها، ولكنها في كل مرة أسرعت إلى المعترف فبكت وتضرعت، ثم عادت منتصرة فرحة.

الطبيب: إلى متى؟

القسيس: عهدي بهذا الجهاد منذ شهرين، فانا أمسك هذه النفس، وأنا أذود عنها، وأحميها من السقوط في هوة الحب، هذا صراعي، هذا ما أفعل.

الطبيب: هذا وحشى!

القسيس: أنا أمنع هذه المرأة من السقوط، فانظر فائدتي في الحياة.

الطبيب: أنت لا تمنع شيئاً لحسن الحظ، وكل ما تفعل أنت تؤخر إلى دقائق هذا اللقاء الذي لا بد منه لهذين الشخصين، ولن تكون بينهما أبداً حين تهب عاصفة الرغبة، غداً أو هذا المساء تسرع صاحبتك المنتصرة إلى عاشقها، وتعترف هناك ذاتفة دموعاً أخرى، تقول لعاشقها كل ما لم تقل لك، ويتحابان حباً عظيماً قويّاً؛ لأنهما انتظرا طويلاً، ولن يكون عملك في آخر الأمر، إلا ترقية لحظهما من السعادة؟

القسیس: ستعود إلى!

الطبیب: تعود إليك بعد أن تكون قد سقطت!

القسیس: سأنهضها!

الطبیب: ستسقط مرة أخرى!

القسیس: لقد سقط المسيح مرات ثلاثة، فستكون لي الكلمة الأخيرة.

الطبیب: نعم حين تبلغ الشیخوخة، وهكذا تنتزعاها من بين ذراعي الحب، فلن تستطيع أن تمنع أنها أحببت، هذا كل ما أردت أن أثبت، فالرجال جمیعاً غنیمة، ولو مرة واحدة في الحياة لهذه الجذوة الملتهبة الضرورية، جذوة الحب، تخیل إلى نفسك في سذاجة أن قصتك هذه معجزة، انظر، (ثم يدنو) اعف عن اعتراضي هذا مقابل اعترافك، إني أحب أنا أيضاً.

القسیس: أنت؟

الطبیب: أنا! فأنا حر، ولم أنذر العفة، أحب امرأة متزوجة أيضاً، امرأة متکبرة قوية الإرادة، تقاوم وتمانع هذا الألم اللذيد، ومع أننا كتمنا الأمر، ولم يتحدث أحدنا إلى صاحبه بشيء، فإن لحاظنا قد فضحت هذا السر، وقد نهض ببعضنا البعض، وأنذر بعضنا بعضاً، ونحن الآن نتقدم بحكم القضاء، وفي سعادة وغبطه، وبيننا مصاعب وعقاب، أشد من تلك التي تحول بين صاحبتك المؤمنة وبين عاشقها، ومع ذلك فسننتصر مثلهما قبلهما، وسيملک كل واحد منا صاحبه، فليس الأمر إلا إلى ساعات.

القسیس: ليست الساعة بيد أحد.

الطبیب: نعم أعلم.

فقد فهمت من هذا كله إلى أي حد بلغت الخصومة بين هذين الأخوين، وقف أحدهما نفسه على الدين، ووقف الآخر نفسه على العلم، فكلاهما يزدرى صاحبه، وقد فهمت أيضاً أنَّ الأمر بينهما قد ازداد تعقيداً، فليست هذه المرأة التي تلتهمها جذوة الحب، ولكنها تجاهد وتمانع، وتستمد القوة على هذا الجهد من القسیس والدين، إلا الدوقة التي تحب الطبیب والتي يحبها الطبیب، وهي تنكر حبها ولكنها تصطليه، والطبیب ينتظر أن تعرف به، يخرج القسیس وتأتي الدوقة؛ لتتبئي الطبیب بأن زوجها قد عاد إلى القصر في خير، فما أسرع ما يصلان إلى الحب، وإذا الطبیب يلح عليها فيه، فإذا هي وجلة، وإذا هي تنفر من هذا الحب وتأباه، وإذا الطبیب يلح عليها فيه، وإذا هو ينبعها بأنها تحبه أيضاً، تنكر وتأبى، ولكن إلحادها في الإنكار وإصرارها على الإباء، لا يزيدان حبها

إلا وضوحاً، ولا يزيدان ميلها إلى الإنذان إلا ظهوراً، ما أسرع ما تتغلب إرادة الطبيب، وما أسرع ما ينتصر الحب، فإذا المرأة مذعنة، وإذا هي معرفة بالحب، وإذا هي قابلة لكل ما يطلب إليها، وماذا يطلب إليها صاحبها غير الموعد! هو الذي يضرب الموعد، ويحدد مكانه و ساعته، وهي قد فقدت كل إرادة وكل قوة على المقاومة، فلا تستطيع أن تجاوب إلا بالرضا.

فإذا كان الفصل الثاني فنحن في بيت القسيس، وهذا القسيس قد جلس إلى مكتبه في غرفة فقيرة، ولكنها لا تخلي من جمال فني؛ لأن هذا القسيس يحب الفن ويكلف بالجمال؛ بل هو لا يعبد الله ولا يحبه إلا لأنه يرى الدين مظهراً من مظاهر الفن والجمال، هو يتحدث إلى خادمه، وإذا الباب يطرق، فينكر القسيس نفسه، ولكن الطارق يلح، ويعلن أنه سينتظر عودته، فإذا أذن له في الدخول، رأيت الدوقة قد أقبلت إلى القسيس تستغشه وتستتجده، ذلك لأنَّ القسيس كتب إليها وهو لا يعرفها، كتب يطلب معونتها على عمله الخيري، فلما قرأت كتابه، وكانت لا تفكِّر إلا في الحب ولا تنتظر إلا الموعد، ذكرت الدين، وذكرت القسيس، فأسرعت إلى الكنيسة لا إلى الموعد، ولكنها لم تجد القسيس في الكنيسة، فأسرعت إليه في بيته، وماذا تريد من القسيس في هذا البيت، وهو لا يملك قبول الاعتراف إلا في الكنيسة، وهو لا يستطيع أن يذهب معها إلى الكنيسة ليسمع اعترافها، وينزل عليها رحمة الله، لا يستطيع؛ لأنه مدعو لعيادة مريض يشرف على الموت، وهذا المريض أحوج إلى كلمة الله من هذه التي تجاهد الإثم، لا يستطيع أن يذهب معها فلتنتظر إلى غد، وهو يتركها الآن، ولها أنْ تجثو أمام هذه الصور – صور القديسين – وأمام هذا الصليب، فتستمد القوة والمعونة، ولكن القسيس لا يكاد يخرج حتى يطرق الباب، فإذا أخوه الطبيب، ذلك أنه انظر صاحبته، فأبطأه عليه فخرج يترقبها فرأها تنحو نحو الكنيسة فتبعدها، ثم رأها تنحو نحو بيت القسيس فتبعدها، ثم رأها تدخل فدخل، وقد علم الآن أنَّ أخيه إنما ينزعه حبيبه، وقد علم الآن أنَّ هذه الحبيبة قد خدعته، حين زعمت له أنها ملحدة، وقد علم الآن أنَّ الأسقف كان موفقاً، حين زعم أنها مؤمنة، يريد أن يأخذها فتائبي، ويمانع القسيس، ويأخذه بالخروج، ولكنه يأبى أنْ يخرج حتى يتحدث إلى صاحبته في خلوة، يمانع القسيس، ولكن المرأة تقبل ذلك فيتركهما، فإذا موقف عنيف مؤثر فيه الجهاد بين الحب الذي لا يعرف رحمة ولا ليناً، وبين الحرص على الشرف القديم، والوفاء للفضيلة الموروثة، فليست هذه المرأة مؤمنة، ولكنها تكره الإثم، وقد دافعت نفسها عن هذا الإثم،

وقد دافعت هذا الإثم ما استطاعت، فقدت كل سلاح، ولم يبق لها إلا الدين، فهي تتعلق به، وتتهالك عليه، رجاء أن يعصمها من النقيصة، ولم تكن تعلم أنَّ هذا القسيس أخوه الطبيب، أما الآن فقد علمته، وتغير كل شيء، ليست أشد ميلاً إلى الحب، بل هي أشد نفوراً مما كانت، ولكن الحب قوي عنيف، وما يزال صاحبها بها حتى يغلب إرادتها مرة أخرى، وحتى يستهويها ويأخذها، وهم يخرجان إذ يدخل القسيس فينقض كل شيء، وتنظر بشاعة الأمر لهذه المرأة واضحة جلية، فتنصرف وتترك الأخوين يتنازعان، عنيف جدًا هذا النزاع بين الأخوين، كنت أود لو ترجمته لك؛ لأنني لن أستطيع أن أبلغه بالتلخيص والتحليل.

يتهم الطبيب أخيه؛ بأنه ليس مخلصاً في دينه، وأنه لا يدفع هذه المرأة عن الإثم ابتغاء مرضاة الله، وإنما هو يشتفيها، هو لا يفرق بين دينه وبين نفسه، هو يزعم أنه يستخلاص هذه المرأة للدين، والحق أنه يريد أن يستخلصها لنفسه، ليس قسيساً، ولكنه رجل فاجر، وعما قليل سيزعم ثوب القسيس، وعما قليل سيعود إلى ما كان فيه من الإثم، يلح الطبيب على أخيه في هذا إلحاحاً شديداً، ويدافع القسيس فيخلي إلى نفسه أنَّ أخيه يريد أن يؤثر فيه، وأنْ يخيفه من الإثم، ولكنه كلما ازداد إلحاحاً في الدفاع، ازدادت الصورة وضوحاً في نفسه، فهو لا يدافع حقاً عن الدين منذ عرف هذه المرأة، وإنما هو ألوعبة في يد طائف من الطوائف، هو ألوعبة في يد الحب؛ لأنه يحب هذه المرأة، وإنْ أنكر ذلك، يحبها ويعجب بها، وإنْ لما ذكر قصتها لأخيه! هو يحبها، وهو ألوعبة في يد الحب، هو ألوعبة في يد الغيرة أيضاً، منذ عرف أنَّ هذه المرأة تحب أخيه، هو يحب هذه المرأة، ويكره أن تكون لأخيه، وهو لا يستطيع أن تكون له، فهو يريد أن تكون للفضيلة، وأنْ تكون الله، ليس إذن مخلصاً، وقد أحس ذلك وشعر به، فجثا أمام الصليب مستغيثاً متضرعاً بعد أنْ تركه أخوه.

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في دار للمسلمين من القسس، ينزلون فيها كلما أقبلوا إلى باريس، والأسقف في هذه الدار يستعد لرحلته إلى الصين، وقد أقبل خادم فأنبأه بأنَّ الدوقة قد خرجت تريد زيارته، ولكن زوجها ألقى بنفسه من النافذة، فهو مُحْتَضر والطبيب عنده، وقد أقبل الخادم يطلب إليه أنْ يرافق بالدوقة، وأنْ ينبعئها بالأمر في لطفه، ينصرف الخادم، وتقبل الدوقة فلا تتحدث عن زوجها، وإنما تتحدث عن نفسها وعن صاحبها، فإذا هي ما زالت تحب الطبيب حباً شديداً، ولكنها تكره هذا الحب، وتتفر منه نفوراً عظيماً؛ لأنها عرفت أمر القسيس.

وأحسست أنها موضوع النزاع بين أخوين، فكرهت الحب، وكرهت الحياة، وأقبلت تستشير الأسقف في أن ترك الحب وتترك الحياة، وتذهب إلى الدير متى مات زوجها، ولكن الأسقف يوضح منها، وبينبئها بأنها لم تخلق للدير، وأن واجبها ليس في الدير، وإنما هو في قصرها، واجبها أن تحيا، وأن تحب، وأن تكون مصدراً للسعادة، وهما كذلك وإذا القسيس يستأند، فتحتبي المرأة ويدخل القسيس، فإذا هو مستيقن بإيمانه، مؤمن بأنه ليس أهلاً لمركزه الديني، وإذا هو يريد أن يخلع ثوب القسيس؛ لأنّه يحب؛ ولأنه يغار، ولأن الحب والغيرة لا يتفقان مع الدين، والدين في نفس القسيس، ولكنه لم يأثم بالفعل، ولعله لا يحب بالفعل، وإنما يخيل إليه أنه يحب، ويessim إله أنه يغار، ويessim إليه أنه آثم، هو إذن يستطيع أن يجاهد، ذلك حديث الأسقف، يريد أن يعصم صاحبه من الانقياد للهوى والتأثر بالعاطفة، وما يزال به حتى يقنعه بأنه يستطيع أن يظل قسيساً.

- إذن فيجب أن أترك هذه الحياة التي أخالط فيها الناس، وأن أذهب إلى الدير.

- كلا! يجب أن تظل قسيساً.

- لا تستطيع.

- كلا! تستطيع ويجب أن تستطيع.

- إذن فخذني معك إلى الصين هناك، حيث أستطيع أن أعالج المجنومين الذين تُعنى بهم.

وهنا حديث لذيد مؤثر بين الأستاذ وتلميذه، تفهم منه أن الإيمان بالله والوفاء للدين، ليسا في حاجة إلى التكلف وإجهاد النفس، والتلذخ في احتمال الآلام، وتذوق المكره المادي، وإنما هما شيئاً يسيران، يجب أن يصدرا عن القلب في هدوء وسلام — كما يصدر الماء عن الينبوع — فإذا لم يكن بد من العنف، فيجب ألا يكون هذا العنف مادياً، يجب أن يكون نفسياً، يجب أن يكون فيأخذ النفس بالخير، وصرفها عن الشر.

- سأخذك إلى الصين، ولكنني أشرط لذلك شرطاً، هو أن تلقى هذه المرأة قبل سفرك، وأن تخلو إليها، وأن تقف منها موقف القسيس حقاً، وأنا واثق بأنك قادر على ذلك، وأنا واثق بأنك تظلم نفسك، حين تزعم أنك غير قادر، وستثبت لك التجربة صدق ما أقول، نعم ستلقى هذه المرأة، وسأتركتكما وأنذهب؛ لأرى زوجها الذي يموت، لا تمانع فليس من هذا بد. ثم يتركه ويعود ومعه الدوقة: سيدتي إن هذا القسيس يريد أن يودعك، قبل أن يسافر سفراً طويلاً جداً، ثم ينصرف، ويخلو القسيس إلى هذه المرأة فإذا هما وجلن، وإذا هما ضيقاً الصبر، ولكن المرأة تبتدىء الحديث فتسأله عن السفر ومتي، وهو يجد من

الحديث وسيلة إلى أمرهما، فإذا الأسقف لم يخطئ، وإذا النفس الإنسانية ضعيفة قوية حقاً، أليس الطبيب قد استطاع أن يؤثر في نفس القسيس، حتى أقنعه بأنه فاجر، وبأنه سيخلع ثوب الدين، ألم يكن هذا القسيس معتزاً منذ لحظة مفارقة الحياة الدينية، انظر إليه الآن، لقد استطاع الأسقف أن يبعث به عبئاً جديداً، وأن يؤثر فيه تأثيراً جديداً، أقنعه بأنه قسيس، وبأنه برب الدين وربه، وبأنه يستطيع، ويجب أن يقف من هذه المرأة موقف القسيس، انظر إليه، وقد جرد نفسه من كل حياتها المادية حتى أصبحت جوهراً نقىًّا صافياً، هو يعظ هذه المرأة، ويأمرها أن تحب وأن تسعد، فإذا ذكرت الدير أنكره، وحثها على الحياة الدنيا، على أن تألم وتلذ، على أن تفرح وتحزن، على أن تسعد وتشقى.

ثم حدد أغراضه، وأوضح نصيحته فأمرها بأن تحب، وأمرها بأن تحب أخاه، وأن تكون له زوجاً، وهم كذلك إذ يقبل الأسقف والطبيب فيستمعان، ثم يظهران، فينبئان بموت الزوج والمرأة واجمة، ولكنها متأثرة بموقف هذا القسيس، متأثرة بمنظر هذا الطبيب الذي يحبها والذي تحبه، وإذا هي تتبع الطبيب بسفر أخيه، وتطلب إليه أن يودعه، فما أسرع ما يفهم الطبيب تضحية أخيه، وما أسرع ما يتعانق الأخوان، وأددهما ملحد مسرف في الإلحاد، والآخر مؤمن متشدد في الإيمان.

فما مصدر هذا التعانق بين الإلحاد والإيمان؟ وكيف انتهت هذه الضروب المختلفة من الجهاد العنيف إلى هذا الاتفاق، بل إلى هذا التعانق؟ أمران — فيما أعتقد — يفسران هذا كله، أحدهما معقول، والآخر تكلفه الفن، فاما الأول فهو هذا الأسقف الذي بيانت لك خلاله في أول هذا الفصل، والذي هو رمز السلام والوفاق بين الناس وأهوائهم وعواطفهم لو استطاعوا أن يتذمروا وأن يفهموا بعضهم بعضاً، وأن يجتهد كل منهم في أن يفهم نفسه. وقف هذا الأسقف جده على أن يوفق بين هؤلاء المختلفين، بل بينهم وبين أنفسهم، فأفلاج وأعنه التكلف الفني، أعاذه موت هذا الدوق الذي حل المشكلة، وجعل تدخله ممكناً، فقد أصبح يستطيع أن ينصح لهذين العاشقين بالزواج، ولم يكن يستطيع أن ينصح لهما بالإثم، استطاع أن ينصح لهما بالزواج، وأن يبين للقسيس أنه من حيث هو قسيس يجب أن يؤيد هذا الزواج ويبارك عليه، وأن جهاده في حماية هذه المرأة لم يبق له نفع ولافائدة، فهو بين اثنتين، إما أن يكون قسيساً حقاً، وإما أن يكون رجلاً قد ازدرى الدين، وازدرى نفسه، وازدرى الفضيلة، وقد آثر القسيس أن يكون قسيساً، ولكن بعد جهاد عنيف، وبعد تضحية هي سفره إلى الصين.

أنت وأنا

للشاعر الفرنسي «بول جرالدي»

ولكنك تخطئ الخطأ كله، إذا ظننت أني جاد في هذا الحديث، وأني أريد أن أكتب فصلاً ببقي، وتخطئ الخطأ كله، إذا ظننت أني مازح في هذا الحديث، وأني أريد أن أضحك ليس غير، وإنما أريد أن أجده، وأريد أن نمزح أو — بعبارة أوضح — أريد أن أضحك ضحكاً لا يخلو منفائدة، فقد سئمت الجد، وأحسب أنك سئمته أيضاً، ومن حقك ومن حقي أن نمزح ولو قليلاً، ولو يوماً في الشهر، على لا يخلو هذا المزح من نفع، وعلى لا يكون كلاماً يقال، ثم ينسى لأن لم يُقل.

وقد حدثك، وسأحدثك عن أبي نواس، فأضحكت في نفع وفائدة، وحاللت بين المزح والجد، فرضي قوم، وغضب آخرون، وأريد اليوم أن أحذث عن شاعر فرنسي، أو عن ديوان لهذا الشاعر، يشبه من بعض الوجوه شعر أبي نواس في الغزل.

ليس في هذا الديوان إلا غزل، وليس في هذا الديوان إلا غزل كغزل أبي نواس، موضوعه العبث والمداعبة، ليس فيه شيء من وصف العواطف القوية، وليس فيه شيء من التحدث إلى الحرائر، اللاتي يأخذنك بالإكبار والإجلال؛ لأنهن كبيرات جليلات، وإنما هو عبث، ووصف لطائفة من العواطف الدقيقة الهادئة الباسمة، وتحدث إلى امرأة، أو طائفة من النساء، كأولئك اللاتي كان يتحدث إليهن أبو نواس، ومع ذلك فهذا الديوان يخلو من الإثم وفاحش القول، كله ألفاظ مألوفة لمعان منها المألوف، ومنها غير المألوف، ولكنها كلها صحيحة صادقة، وهي لا تخلو من فلسفة، أو قل: إنها كلها فلسفة، غير أنها نظمت في سذاجة ويسر، دون تكلف وتعسّف، بل لم يتقييد الشاعر فيها باختيار الألفاظ المتينة،

أو التراكيب الرصينة، أو بتكلف ما يتكلفه الشعراء المتكلفون، وإنما تحدث إلى صاحبته باللغة التي تفهمها صاحبته، وليس صاحبته أدبية بارعة في الأدب، ولا فيلسوفة متعمقة في الفلسفة، وإنما هي امرأة عادية تشعر وتلذ وتالم، وتفهم الحياة على ألا تكون الحياة معقدة، فمن الحق أن يتحدث إليها الشاعر بهذه اللغة السهلة، التي يألفها الناس جميعاً، ويفهمها الناس جميعاً، بل هو قد ذهب إلى أبعد من هذا، فلم يتقييد في شعره بما يتقييد به الشعراء من ضروب التضييق في القافية والوزن، وإنما أرسل نفسه إرسالاً، واصططع ضربوا من الحرية يغضب لها «بوالو» وأمثال «بوالو»، والحق أن لهذا الديوان مكانة عظيمة في نفس الشباب الفرنسي، وفي نفس الفتيات الفرنسيات بنوع خاص، فهو على يسره وسداجة موضوعه ومعانيه وألفاظه غنيٌّ بالمعاني الظرفية، غنيٌّ بوصف المعاني التي تشعر بها في نفسك في كثير من الظروف والأحيان، وأنا أزعم أنك لا تكاد تقرأ هذا الديوان القصير، حتى ترى نفسك فيه غير مرة، وحتى تمر بالمعنى من معانيه، فتضطر أن تقول: هذا حق؛ لأنك شعرت به في ظرف من الظروف؛ ولأنك مستعد للشعور به إذا تجدد هذا الظرف.

ليس الديوان إذن هزاً من الهزل، وليس ضرباً من ضروب العبث، وإنما هو طائفة من المقطوعات الشعرية الحلوة التي تقرؤها فتسيجها، ثم تعيد قراءتها وتعيدها حتى تستظهرها استظهاراً، وقد كنت أستطيع أن أتحدث إليك فيه جاداً، وأن أترجم لك منه ترجمة عربية صحيحة، لا تخلو من مтанة، وإن كان هذا عسيراً، ولكنني مع ذلك تعمدت أن أتحدث إليك فيه مازحاً، وأن أتكلف الترجمة الحرافية التي يأبها الذوق العربي، وأباهما أنا أيضاً أشد الإباء؛ لأنني أردت من هذا الخلط بين الجد والمزح، أن تعرف هذا الشاعر من جهة، وتعرف كيف يفكر القوم، وكيف يتحدون من جهة أخرى، وتشعر بأن الترجمة الحرافية في الأدب قد تكون نافعة، وقد تكون قيمة، ولكنها مفسدة للجمال الأدبي في كثير من الأحيان، ثم أردت أن أبين لك مصدر هذا الأسلوب الغريب، الذي يصطنعه طائفة من الشباب عندنا؛ لأنهم يقرءون الشعراء والكتاب من الفرنسيين والإنجليز، ولم يقراءوا الشعراء والكتاب من العرب، فيحاولون أن يكتبوا – كما يقرءون – ويحاولون أن يقلدوا أساتذتهم من الفرنسيين والإنجليز، فيأتون بالأعاجيب، ويحوّلون بينك وبيني أن تفهم ما أرادوا أن يقولوا، ومن يدرى؟ لعلهم لم يريدوا أن يقولوا شيئاً، وإنما أعجبهم الأسلوب فقلدوه.

أنا أترجم إذن ترجمة حرافية خالصة، وأنتكلف الأسلوب الفرنسي في اللغة العربية، وأعرف أنَّ هذا الأسلوب قد يغضب كثيراً من الناس، فأسارع بأن أعلن أنه يُغضبني أيضاً،

وأعرف أنه قد يعجب كثيراً من الناس، فأسارع بأن أعلن أنه يعجبني أيضاً، فهو يغضبني حين أريد الجدّ، وهو يعجبني حين أريد الضحك.

وانظر إلى هذه المقطوعة التي سماها الشاعر «تبسطاً»، والتي أراد أن يتحدث فيها إلى صاحبته، بأن الحب أدق وأعظم من أن تصفه الألفاظ، ولا سيما إذا ألفها الناس وابتذلها الاستعمال، وأنه مع ذلك عاجز عن أن ينبعها بحبه من طريق غير طريق الألفاظ، بل هو عاجز عن أن يحيا بغير الألفاظ، وأنه مهما يقل ومهما يفعل، فلن يستطيع أن يقول، أو يعرب عن شعور أقوى من هذا الشعور، الذي يجده حين يخاطب صاحبته، وقد أخذ رأسها بين يديه فيقول لها: «أنت»، ويختصر بهذا الضمير جمالها ومكانتها من قلبها، وكل ما يحيط به وبها من حب وعاطفة وإعجاب.

تبسط

آه! أحبك! أحبك! أتسمعين؟ أنا هائم أردد أبداً كلمات بعينها، ولكنني أحبك!
أحبك! أتفهمين! تضحكين! ترييني سخيفاً؟ ولكن كيف أعمل إذن لتعريف حقاً،
ولتشعرني حقاً! فالألفاظ لا تدل على شيء! إني لأبحث، إني لأبحث عن وسيلة، ليس من
الحق أن القبل تغنى، إن شيئاً يختفي هنا كأنه الزفرة، أنا في حاجة إلى أن أعرب، أنا في
حاجة إلى أن أنسر، إلى أن لا أترجم، فلن يشعر الإنسان حقاً إلا بما أحسن الإفصاح عنه،
 وإنما نحن قليلاً أو كثيراً في الألفاظ، أنا في حاجة إلى الألفاظ، إلى التحليل، يجب أن أقول
لك، يجب أن تعلمي، ولكن ماذ؟! أحببي! لو عرفت أن أصل إلى ما يجد الشعراء، أفتظنين
أني أستطيع أن أقول لك أكثر من هذه الكلمة التي أرددتها وأرددتها مائة مرة وألف مرة،
وأرددتها في هيات، وقد أخذت بين يدي هذا الرأس الصغير: أنت! أنت! أنت!

وانظر إلى هذه المقطوعة التي سماها الشاعر «حزناً»، والتي هي في الحق حزن شديد،
تشعر به إذا أحببت حقاً، وفكرت فيمن أحببت، وفي هذا الوقت الذي فاتك من من تحب، وفي
هذه الضروب المختلفة من الشعور الذي وجده من تحب، دون أن تشاركه فيه، ألسنت إذا
أحببت قاسمت هواك لذته وألمه ويسه وأمله؟ ألسنت إذا أحببت ودلت لو أنك استأثرت
بحياة من تحب، وبكل ما يقع من هذه الحياة من الأحداث!

حزن

لحظات

ماضيك! فإن لك ماضياً أنت أينساً! ماضياً عظيماً، مليئاً بالسعادة و مليئاً بالألم، أليس عجيباً أن يمتلك هذا الرأس بالأفراح القديمة والهموم القديمة، وبالظلالي العظيمة والضئيلة، وبألف صورة لست منها في شيء! أغidi على كل هذه الأشياء التي قلتها مائة مرة، ذكرياتك لست أعرفها جيداً، آه! هذا الليل وهذا اللغز دون عينيك! إذن فمن الحق أن قد مضى عليك عصر من العصور كنت فيه تثبّت تحت الضوء، وقد انتشر شعرك الطويل – كما أرى على هذه الصورة – قصّي على، لهذا حق؟ أكنت كهذه الصورة التي لا أراك فيها جميلة؟ قولي، في ذلك الزمان ماذا كنت تصنعين؟ ماذا كنت تفكرين؟ ماذا كنت تقولين؟ ماذا كان يحدث في حياتك؟ أوجدت هذه الحديقة الواسعة التي تلمح، وأين كان منها مكان الباب؟ أوثقة أنت بأن صورة هذه الصبية القبيحة تمثل حقاً؟ وهذه القانسوة التي بعد بها العهد أكانت قلنوسوك؟ أوثقة أنت؟ وكل هذه الوجوه الفانية أهي وجوه الذين عرفوك من قبل؟ أنت مدينة لهؤلاء الناس بأول سيارة لك، بأول ليلة في القطار، بأول غابة رأيتها، بأول ساحل لعبت فيه؟ الذين أعطوك يدهم وأغاروك أكتافهم، وقالوا لك: «انظري هنا» وا لهفتاه! ما بال هؤلاء الناس لم يترکوا لي هذا المقام؟ ما كان أحب إلى أن أحملك وحدك إلى بعيد، وأن أبتعد لك أسفاراً عجيبة! إذن لأظهرتُك على جمال المساء والصيف، إذن لحبّيت إليك الطرق الطوال الخالية، إذن لعلّمتك أسماء القرى الجميلة التي نلمحها من بعيد، إذن لقدمت إليك الأرض، وأظن أنني كنت أحسن ذلك الإحسان كلّه، وإنْ لمْكنْ أنْ تفيض هذه الآفاق الرائعة، وهذه المدن والبلاد شيئاً من المجد، ولو قليلاً على الدليل، آه! هؤلاء الناس جميعاً، أيتها العزيزة علي، أيقدرون ما حرموني؟ لقد قُضي الأمر وليس إلى استدراكه من سبيل، ومع هذا فقد أرى هؤلاء الناس جميعاً لأنهم قوم عاديون لا يميزهم شيء، ثقي بأننا إذا أحسسنا شيئاً من الفرق والخلاف فيما بيننا فهم مصدر هذا الفرق والخلاف، نعم، هم مصدره، هم الذين تعللوا بأ أيام الراحة فأخذوا ينقولونك من مكان إلى مكان، وطبعوا حياتك بتطابعهم قبل، لا تفكّر في شيء من هذا، خبئي عنّي هذه الصور.

و هذه المقطوعة الأخرى التي سماها الشاعر «مصابحاً»، والتي تصحّك إذا قرأتها بالعربية، وتعجبك إذا قرأتها بالفرنسية، والتي تمثل الحياة تمثيلاً صحيحاً لا مزّوة في أنه صادق.

انظر إلى الشاعر قد خلا إلى صاحبته وقدم قبل المساء، فشملتها الظلمة لولا المصباح، أقبل المساء ومعه هذا النوع من الحزن العميق الشامل، الذي ينال العاشقين إذا ولت الشمس وأقبل الليل، والذي يبعث فيهم شيئاً عظيماً من الحاجة إلى الحنان، والميل إلى الشعور بآثار الحب، فإذا قلوبهم تخفق، وإذا هم يمسكون أعينهم لأن تفيض بعبراتها، وإذا هم يتمنون ألا يحسوا إلا الحنان، وألا يشعروا إلا بالحنان، وإذا هم يتهاالكون على الحب والحنان، وهم في ذلك مستمتعين بذلك إذ حركة من حركات الحياة العادمة قد نبهتهم من الحلم، فشعروا أنهم أناس كغيرهم من الناس، انظر إلى الشاعر يحس بهذا كله، ويطلب هذا كله، ويبداً بالاستمتع بشيء من هذا، وإذا الخامد تحمل القهوة فيحس الشاعر أنه جسم يأكل ويشرب ويُلذُّ ويُلأم، وهل الحياة إلا هذا!

مصابح

تسألين مالي لا أقول شيئاً! ذلك أنتا في اللحظة القيمة، في ساعة الحظ والابتسام، في المساء وأنا أحبك هذا المساء حباً لا حد له! ضميمي إليك أنا في حاجة إلى الملاطفة، لو تعلمين كل ما يقصد في هذا المساء من طمع وكبراء، من رغبة وحنان وخير! كلا تستطعين أن تعلمي! أخفضي المصباح قليلاً، أتریدين! ذلك خير، ففي الظلام وحده تحسن القلوب الحديث، وإنما تراءى الأعين حقاً حين لا ترى الأشياء إلا قليلاً، أنا أحبك هذا المساء أكثر من أن أتحدث إليك في الحب، ضميمي إلى صدرك، أحب أن تكون أنا موضع الملاطفة الآن، أخفضي المصباح قليلاً أيضاً، هذا حسن، لنصمت، لنهدأ، لنسكن، ما الذي يديك الدافترين على وجهي! ولكن ماذا! ماذا يراد منا! آه! إنهم يحملون القهوة! إذن ضعي القهوة هنا! أسرعى! وأغلقي الباب! ماذا كنت أقول لك؟ نشرب القهوة الآن؟ تفضلين ذلك! نعم فأنت تحبينها حارة، أتریدين أن أصبها لك؟ انتظري، دعيني أفعل، هي قوية اليوم! تريدين سكرراً؟ قطعة واحدة؟ أيكفي هذا؟ تريدين أن أذوق دونك! هذه قهوتك أيتها الحبيبة، ولكن ما أشد الظلمة فلسنا نكاد نرى شيئاً، ارفعي المصباح قليلاً.

ثم اقرأ هذه المقطوعة وحدثني أليس صادقة؟ أليس هذا الحكم الذي تشتمل عليه مع أنه جميل، ومع أنه قد أورد في لفظ شعري، وفي صورة شعرية موافق كل الموافقة لاصح نتائج الفلسفة، وأصدق نظريات العلم؟ تلقى من تحب، فهل قدرت أنك ستلقاه؟ أليس يخيل إليك أنك لقيته مصادفة، ومع ذلك فليس للمصادفة وجود، وإنما لكل شيء علته،

ولكل علة نتيجتها، وقد تعاونت الأسباب وتظاهرت العلل منذ كان العالم على أن تلقي من أحببت فتسعدا معاً، وتشقيا معاً، والأمر ليس مقصوراً على الحب، وإنما يتناول مع الحب كل شيء.

حظ

ومع ذلك فقد كان من الممكن ألا نتعارف! تخيلي أيتها الحبيبة كل ما وجب أن يأذن به الحظ لنجتمع هنا، وليرحب كل صاحبه، ولنكون إيانا!

تقولين: «خلق كل منا لصاحبه»، ولكن فكري في كل ما كان يجب من حظ، ومن تعاون، ومن أسباب، ومن مصادفات لتحقيق هذا الشيء اليسير، حبنا! فكري في أننا قبل أن نجمع بين رأسينا الهائمين قد عشنا منفردين، منفصلين، ضالين، وفي أن الزمن طويل، وأن الأرض واسعة، وأنه كان من الممكن ألا نلتقي، أفكرت فقط – أيتها المخاطرة الجميلة – في هذا الخطر الذي تعرضت له سعادتنا، حين كان قلبنا يتجادل سرّاً في أعماق الطبيعة التي لا حد لها؟ أتعلمين أن قد كان مشكوكاً فيه ذلك الشوط الذي كان يدفعنا إلى اللقاء، وأنّ عناداً أو صداعاً أو كانا يستطيعان أن يفرقوا بيتنا أبداً؟ لم أقل لك فقط، هذا الشيء العجيب، لمحتك لأول مرة، فلم أر بادئ الأمر أنك جميلة، ولم أك التفت إليك، فقد كانت صاحبتك تشغلي عنك بضحكها، وإنما التقت لحظانا في وقت متاخر، متاخر جداً، فكري، فقد كان من الممكن ألا تفهمي، وكان من الممكن ألا أجربؤ.

أين كنا نكون هذه الليلة لو أنّ أمك عجلت العودة بك في تلك الليلة، ولو أنّ وجهك لم يمر تحت الضوء حينما أردت أن أعينك على لبس المعطف؟

تذكري! فقد كانت كل هذه الأسباب، ولو كان شيء من التأخير، ولو عرض مانع من المانع لما أحسسنا شيئاً من هذه النسوة العزيزة، ولا من هذا التحول اللذيد، لقد كان من الممكن ألا يوجد حبنا أبداً! وكان من الممكن ألا تكوني في حياتي اليوم!

وانظر إلى هذه «المحنة» أليست تترجم ما يقع بين العاشقين! أليس من الحق أنَّ العاشق كثيراً ما يتتكلف إيناء صاحبه امتحاناً له وفتنة؟

تنبئيني بأنك في هذا المرقص، ضحكت، ضحكت كمجنونة، وتشكين إذ يظهر لك أنَّ الفاظك تؤذيني، وددت لو لم أظهر حزيناً، ولكنني محزون، هذا حق، تقولين إبني أثر، ومع ذلك فقد تعمدت ما فعلت، هذا الحزن الذي أحسه أيتها القاسية لقد كانت عينك تلتمسه في عيني، ولو أني ظهرت مبهجاً لما كنت أنت راضية.

وهذه «هزيمة»، ألم يكن الرجل في كل وقت منهزاً أمام المرأة! يظهر القوة والباس ويتكلف أنواع الغيظ والغضب، ولكن لحظة واحدة من يحب، وإذا قوته وبأسه وغضبه وغيبته كأن لم تكن، أيهما القوي حقاً؛ الرجل أم المرأة الساحرة؟

هزيمة

وبعد فليس هذا عدلاً! أنا شديد التأثر، تسيئين إليَّ، فأحاول أحياناً أن أجزيك بالشر شرًّا، ولكن هذا مستحيل أبداً، فأنا آلم دائمًا أكثر مما تأملين. أنت تعلمين كيف تحتملين الإعراض الطويل، واللحاظ القاسية والصمت المتصل، آه! لا تقسي عليَّ أيتها الحبيبة إلى! فأنا مسرف في الحزن حين أحزن. ولكنني مجنون! لا تسمعي لي! فأنا أعترف لك في سذاجة بحقائق خطيرة، أنت تعرفين الآن ضعفي، ولعلك تستغلينه.

واقرأ هذه المقطوعة وحدثني عن الجملة الأخيرة منها، وهي بيت القصيد، أليس من الحق أنَّ الصلات الجنسية هي وحدها التي تقاد توجد الحب؟

تفكير

مع أنَّ كلاً منا يحب صاحبه، ومع أننا نتقسم الألم، فنحن في الحق لا نتشابه إلا قليلاً جدًّا، يكفي أنْ يشجر بيننا خلاف ولو كان ضئيلاً؛ ليظهر أنَّ بيننا هُواً عميقاً! يخيل إلينا أننا نهيم أحياناً، ولكن لا نكاد نفرغ من الملاطفة حتى نشعر بأن بعضنا لا يكاد يفهم بعضاً، لو أنك رجل أكنا نكون صديقين؟

وانظر إلى نهاية ما بين العاشقين كيف سئم كل منهما عشرة صاحبه، فاعترما أنْ يفترقا وودع بعضهما بعضاً، وهمت أنْ تصرخ، فإذا السماء تمطر، وإذا هو ي يريد أنْ يمسكها حتى يقلع المطر، وإذا هو ينتهز هذه الفرصة فيذكر بهما، كيف نشأ، وكيف نمى، وكيف أخذ يضمحل، وكيف انتهى إلى السالم، وإذا هو يذكر ما سيصيران إليه من الجفوة وعدم الاكتراش، وإذا يشعر بأنْ حياة الإنسان غرور، وأنَّ قلب الإنسان ضعيف، وإذا هو يحس العجز عن احتمال هذه الفرقة، فينظر فإذا المطر لم يقلع، فيت忤د المطر تulle فيمسك صاحبته ويدعوها إلى البقاء، على أنْ يتحملها، وعلى أنْ تحتمله في غير حب ولا كلف، ولكن خضوعاً للعادة واطمئناناً إليها.

نهاية!

إذن فالوداع، ألا تنسين شيئاً؟ حسن، انطلاقي، فليس لدينا ما نقول، اتركيني، تريدين أنْ تمضي. ومع ذلك فانتظري قليلاً، انظري، إنَّ السماء تمطر، انتظري حتى ينقطع المطر، استري نفسك جيداً! إنَّ البرد شديد خارج البيت، لقد كان يجب أنْ تتخدني معطف الشتاء، لقد ردت إليك كل شيء، ولم يبق لك عندي شيء، هل أخذت صورتك ورسائلك؟ إذن فانتظري إلى ما دمنا سنفترق، ولكن احذري! لا تبك! فذلك سخيف، ما أشد الجهد الذي يجب أنْ نبذله لذكر عشقنا القديم، لقد منح كل منا صاحبه حياته كلها منحاً دائماً، وهذا نحن أولاء نسترد هذه الحياة وسيدة كل منا باسمه إلى حيث يستأنف حياته، إلى كل شيء، وإلى حيث ينبه، وإلى حيث يحيا، قد نالم حيناً، ثم مازا! ثم يأتي النسيان، هو الشيء الوحيد الذي يعفو، ثم توجدin في ناحية أخرى، ونكون بين الناس شخصين، وإن فستدخلين في حياتي الماضية! وقد نلتقي مصادفة في الطرق فأنظر إليك من بعيد دون أنْ أعبر إليك، تمررين في ثياب لا أعرفها ونظل أشهرًا لا نلتقي، ويتحدث إليك أصحابي بأنباءي، وأسأل عنك وقد كنت حياتي، عنك وقد كنت سعادتي ولذتي فأقول: «كيف هي؟»

إذن فقلبنا العظيم كان هذا الشيء الحقير؟ ومع ذلك أكنا مجنونين في أيامنا الأولى؟ أتذكرين سعادتك؟ أتذكري رقينا إلى السماء؟ أكنا عاشقين! انظري! كذلك كان حبنا! إذن! نحن، نحن أنفسنا حين نقول: «أحبك» لا تدل هذه الكلمة على أكثر مما نرى الآن، يا الله! حقاً إنَّ هذا مخجل، إذن فالناس جميعاً متشابهون، ونحن كغيرنا من الناس! ما أشد المطر! لا تستطيعين أنْ تخرجي تحت هذا الجو، أقيمي! نعم أقيمي! سنجتهد في أنْ نعش، من يدرى فقلبنا، وإن تغيرة سيسألنداز حركاتنا المألوفة.

أنت وأنا

سنفعل ما نستطيع، سنكون أخيراً، ثم مهما نُقلْ فهناك العادة، اجلس! استأنفي
إلى جانبي شقائق، وسألستأنف إلى جانبك عزلتي.

لعلك قرأت فأعجبت بالشاعر، وسخطت على المترجم، وودت لو أني تكلفت الجد فترجمت
ترجمة صحيحة مقبولة يسيغها الأسلوب العربي، وقد أفعل.

أكتوبر سنة ١٩٢٣

دينيز

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي ألكسندر دوما الصغير

أريد منذ اليوم أن أقف هذا الحديث على الأوبرا الملكية، وما يمثل فيها من آيات التمثيل، ويحيل إلى أنَّ الأوبرا الملكية خلقة بهذه العناية، فنحن لا نشهد آيات الفن كل يوم، ومن الحق إذا أتيح لنا أنْ نشهد هذه الآيات في بلادنا، يمثلها قوم مهرة بارعون أنْ نبتهج لذلك، ونشجع هؤلاء الممثلين، ونحمد لهم وللذين دعوهم إلى مصر نعمتهم على المشغوفين به المشوقين إليه، وقد يكون من الحق علينا أنْ نذيع أمر هذا التمثيل، وما فيه من منفعة ولذة؛ ليقصد إلى الأوبرا من استطاع أنْ يفهم اللغة الفرنسية، ويتدوّق جمال الفن الفرنسي، فقد آن لنا ألا ننظر إلى التمثيل كأنه فن من فنون اللهو والسمسر ليس غير، بل أنْ نسعى إليه — كما يسعى الإنسان إلى مدرسة — يجد فيها ما يشتهي من علم وفلسفة، ومن أدب وفن، ويجد فيها ما لا يوجد في المدارس عادة من لهو لا يصرف عن الجد، وفكاهة لا تلهي عن نفع.

ولقد كانت القصة التي مثلت في الأوبرا الملكية مساء يوم الاثنين جامعة لهذه الخالل كلها، فهي درس في الأخلاق والتاريخ، يمثل نظاماً اجتماعياً خاصاً كان له سلطانه في عصر من العصور، ويمثل نظاماً اجتماعياً جديداً كان الكاتب يود لو انبسط سلطانه على حياة الناس، ولا يخلو مع ذلك مما يلذ ويعجب، ويعين على إساغة الجد والانتفاع به.

«أندريه پاردان» شاب غنيٌّ، فقد أبويه منذ عشر سنين، له ثروة ضخمة، ولكنه لم يحسن تدبيرها، وإنما أخذ يعبث بها ويبدها تبديلاً حتى فسد أمره وأشرف على الفقر، وله أخت

فتاة في الدير اسمها «مارت» لا يستطيع أنْ يضمهما إليه؛ لأنَّه لا يحسن تدبير أمورها، فيتركها في الدير عشر سنين ينتظِر أنْ تتاح له فرصة تمكنه من أنْ يخرجها من الدير، ولكن هذه الفرصة لا تتاح له إلا بعد مشقة، وبعد أنْ تركت حياة الدير في أخْتة آثاراً قوية، فنُزعت بها إلى شيء من التصوف، والميل إلى الرهبانية من جهة، وملأت نفسها سخطاً على الناس واتهاماً لهم من جهة أخرى.

صادف أخوها رجلاً من الشعب، عاملًا شديد النشاط، قوي الذكاء، عظيم الأمل في المستقبل، ولكنه فقير، واسمه « توفنان »، فأعانه بقليل من المال، وجدَ هذا الرجل حتى أصبح من أكبر المشرفيين على الصناعة المتصرفين في تدبير الثروة العامة، وبينما كان هذا الرجل يشرى وتضخم ثروته، كان المحسن إليه يدنو من العدم قليلاً قليلاً، حتى فكر في أنْ يبيع الأرض الواسعة التي ورثها عن أبويه، فأشار عليه صاحبه أنْ يفرغ لتدبير ثروته واستغلال أرضه، وأنْ يلتمس له معيناً شريفاً، فبحث عن هذا المعين ودلته عليه صديقة اسمها « مدام دي توزيت »، وهي امرأة في السادسة والأربعين من عمرها، بارعة الجمال، فتاة المنطق، قد ابتسمت لها الحياة، وابتسمت هي للحياة؛ فهي لا تعرف إلى الحزن سبيلاً، قوية الجسم، محتفظة بشبابها، مزمعة أنْ تستمتع به ما استطاعت، لا تضيع لحظة منه في غير لذة، متزوجة ولكن جمالها وشبابها وكفالتها باللذة حرمتها الوفاء لزوجها، فهي تنتقل من خليل إلى خليل، أو قل: إنها تستبدل خليلاً من خليل.

وكان صاحبنا رفيقاً لابنها في المدرسة، فلما رأها وهو غلامٌ حدث لا علم له بالحياة فتن بها، ورأته هي فلم تكره حداثته وجهله فاتخذته خليلاً حيناً، ثم أعرضت عنه إلى غيره، فكان هذا الإعراض مصدر ألم الشاب ويأسه وتهاجمه على الملهايات، حتى بلغ من سوء الحال ما قدمت، بحث إذن عن رجل شريف يدبر ثروته، فدلته صاحبته هذه على رجل كان صديقاً لزوجها الذي مات منذ حين واسمه «بريسو»، كان ضابطاً بالجيش، ولكنه أحب فتاة وأراد أن يتزوجها، وكانت فقيرة فاضطر إلى أن يترك الجيش؛ لأن القانون لا يبيح للضباط أن يتزوجوا من الفقيرات، ترك الجيش وعاش مع امرأته عيشة ضيقية مؤلمة، ورزق منها طفلة هي «دينيز» نشأت نشأة الفقيرات، ولكنها تعلمت، وكانت ذكية فانتفعت بعلمها، وأخذت تستعين به على الحياة، وكانت تستعد بنوع خاص للموسيقى والتمثيل، ولكنها صادفت في طريقها غلاماً كان يقاربها في السن، وهو «فرناند» ابن هذه المرأة التي وصفتها لك، فأختلف الصبيان وتحاباً، وأزمعت الأستان أن تصلا بينهما بالزواج، فلما بلغا سن الزواج أثري أبو الفتى، وظل أبو الفتاة فقيراً، فانصرف الغلام

عن صاحبته، فأصابها من ذلك يأس كاد يبلغ بها الموت، وانقطعت الصلة بين الأسرتين حتى مات أبو الفتى، ودللت أمه صاحبها على أبي الفتاة فاتخذه مدیراً لأمره، وما هي إلا أشهر حتى أخذ الأمر يستقيم لهذا الشاب، فنقص دینه وزاد دخله، واطمأن إلى هذا المدير، فكلف زوجه أن تشرف على القصر، وأخرج أخته من الدير، وكلف دينيز أن تقوم على إرشادها.

إذا كان الفصل الأول رأيت «أندريه پاردان» في قصره قد دعا إليه طائفة من أصحابه يقضون عنده أياماً، فأقبل صديقه «توفنان»، وأقبلت صاحبته «مدام دي توزيت» وابنها فرناند، وأقبل جار له يزوره مع امرأته، وأقبلت «مدام بريسو» أم «دينيز»، وأزمع هؤلاء جميعاً أن يجتمعوا إلى العشاء إلى مائدة القصر، وترى في هذا الفصل اغتباط صاحب القصر بحسن حاله وانتظام ثروته، وإعجابه الذي لا حد له «بدينيز»، ثم ترى أنَّ صاحبته القديمة تدور حول أخته ترید أن تتخذها زوجاً لابنها، وأخذ هذا الفتى يمثل الفتاة فصل العاشق الولهان حتى فتنها فماتت إليه، وأخذ يكتب إليها رسائل الغرام فتقرؤها وترد عليها، وقد اعتزمت في هذا اليوم أن تخرج معه ومع أمه؛ للتروض على ظهور الخيل، فتقبل «دينيز» إلى أخيها فتبئه بهذا، وتحثده إليه بأن الفتاة متيبة مغضبة هذا اليوم، وبأنَّ الخير لا تخرج وحدها مع هذين الرفيقين؛ لأنها ليست ماهرة في الفروسية، وبأنها ستكتف أباها أن يرافقها في هذه النزهة، تنصح لصاحب القصر أن يتلطف بأخته ويكسب ثقتها؛ لأنها توشك أن تتورط فيما لا يليق بها ولا به، وتخرج «دينيز» وإذا «مدام دي توزيت» قد أقبلت في زَيِّ الفارس، ترید أن تتحدث إلى صاحبها في أمر ذي بال، فيذكران بهما القديم في غير ألم ولا لوعة، ثم تخطب المرأة إلى صاحبها أخته لتكون زوجاً لابنها، وكانت تقدر أنَّ ذكرى الماضي وإحياء الأمل في المستقبل يكفلان رضاه، وكانت تقول له فيما تقول: إذا تم هذا الزواج استطاعت أنْ أعيش معك في القصر، دون أن يرى الناس في ذلك شيئاً، حتى إذا كان ما لا بد منه، فاتخذت لك زوجاً لزمت غرفتي، ووقفت شيخوختي الباسمة على تربية أبنائك وأبناء ابني، فكنت جدة جميلة خفيفة الظل — كما أنها الآن رقيقة حلوة لذيدة المحضر — ولكنه رفض الخطبة؛ لأن ابنها لا يليق بأخته، رفض الخطبة وانتهى الحديث بهما إلى «دينيز»، فظهر أنَّ إعجابه بها مصدره حبه لها، ولم تك تشعر المرأة بهذا الحب حتى اضطربت في نفسها نار الغيرة فاتهمت به بإغوائها، وزعمت له أنه ليس أول من أغواها، وانصرفت وقد تركت في نفسه من الغيرة جرحاً دامياً، لا يشفيه إلا أنَّ يستكشف من أمر «دينيز» كل ما خفي عليه.

فإذا كان الفصل الثاني رأيته يسأل «بريسو» عن ماضيه وماضي ابنته، وما كان بينها وبين فرناند من صلة، فينبئه الرجل بما قدمت لك في صراحة وهدوء، فإذا أ Nichols بأن قد كان بين الغلامين حب، عظم الشك في نفسه، حتى بلغ اليأس أو كاد، فاعترض السفر لينسى.

وتراه يتحدث إلى صديقه « توفنان » فينبئه نباءً، ويعرّب له عن شكه، أما صديقه فينصح له أنْ يعلن إلى الفتاة حبه، ويطلب إليها أنْ تكون له زوجاً، فإنها إنْ تكون طاهرة السيرة نقية الماضي قبلت في غير تردد وإلا فسترفض؛ لأنَّه يثق بأنها أشرف وأبيل من أنْ تخدعه عن نفسها، ولكن صاحب القصر لا يزداد إلا شگاً، ولا يزيد الشك إلا اهتياجاً، فإذا هو مضطرب، وإذا هو نار تتلذلي، وإذا هو يصبح بلعن المرأة واستنزال السخط عليها، وإذا هو يعلن في يأس ساخر أنه لا يستطيع أنْ يطمئن إلى شيء، أليس من أشد الأشياء نكراً أنْ تنتظر إلى هذا الرأس الجميل الذي تعبد، وأنت تعلم أنَّ فيه سرًّا مكنوناً، ولكن مهما تفعل فلن تتبيّن من هذا السرّ شيئاً، ولقد يملك حب الاستطلاع فتحطم هذا الرأس تحطيمًا، تريده أنْ تظرف بما فيه، فلا تظرف إلا بعظام وعصب ودم!

أريد أنْ أعرف الحقيقة، ويجب أنْ أعرفها وسأعرفها، ولكن صاحبها يلح عليه في ألا يسلك إلى هذه الحقيقة إلا هذه الطريق التي وصفها له، طريق إعلان الحب وعرض الزواج، حتى لا تتعرض حياة الفتاة للافتضاح، فيكون مصدر الشقاء لقوم لا يستحقون الشقاء.

ثم تدخل أخته، فلا يكاد يتحدث إليها حتى يشعر بأنها ساخطة عليه وعلى « دينيز »، وبأنها تكره الحياة معهما، وبأنها تحب « فرناند » وتريده أنْ تتزوجه مهما يكن رأي أخيها، فيغضب أخوها وينبئها بأنها عائدة إلى الديار، فمقيمة فيه حتى تبلغ الرشد، ويومئذ تستطيع أنْ تقترب من شفاء، يتركها وتدخل « دينيز » فلا تكاد توجه إليها القول حتى تشعر منها بالسخط ثم بالإهانة، وحتى تسمع منها أنها لن تقيل في هذا القصر؛ لأنها تكره أنْ تخضع لهذه المراقبة الدينية وهذا التجسس المرذول، ألسْتِ كلفت أباك أنْ يراقبنا في النزهة ليكون علىٰ رقيباً؟ بلى! لأنني أرى ذلك محظوماً، ولا آمن عليك هذا الشاب الذي أعرف سوء سيرته مع الفتيات، والذي يعرضك للشقاء، والذي يجب علىٰ أنْ أحميك من شهر، وسأحميك رضيت أو كرهت.

ثم تتركها ويقبل « فرناند »، فيسألها عن كتاب كتبه إليها، أقرأته؟ ويتحدثان في أمرهما، فتنبئه برفض أخيها وإصرارها هي، وما كان من عزمها على العودة إلى الديار، ثم

تسأله عن شيء فتحس منه ميلاً إلى الكذب، فتندره بأنها لا تكره شيئاً كما تكره الكذب، وبأنها إنْ أخذته بكنبة فستقطع بينها وبينه كل صلة حتى لو كانت زوجة.

فإذا كان الفصل الثالثرأيت «دام بريسو» أم «دينيز» وقد دخلت عليها «دام توزيت»، فأنبأتها بأنها إنْ تكن سعيدة اليوم فتظفر غداً بسعادة لا حد لها، فتجزع المرأة لهذا النباء؛ لأنها سيئة الظن بالأيام وبالناس، وبهذه المرأة بنوع خاص، وتستتبّع صاحبتها فتنبهأها بأن صاحب القصر يحب ابنتها، ويريد أنْ يتذمّر لها زوجاً، فلا تزداد بذلك إلا جزعاً حتى يأخذها شيء من الدوار، وتشعر أنت بأنها تشفق من أمر عظيم، ولكن «دام دي توزيت» تلاطفها وتزين لها أمر هذا الزواج؛ لأنَّ فيه سعادة كثرين، فيه سعادة «دينيز» التي ستتصبح «كونتس»، وقد كانت بائسة، وفيه سعادة «مارت» أخته التي تحب «فرناند»، وتريد أنْ تقرن به، ولن تظفر بذلك إلا إذا أشارت به «دينيز» على صاحب القصر؛ لأنَّه لا يرى إلا بعينيها، تتحدث إليها بهذا كله فلا تزداد إلا وجلاً وإشفاقاً، لأنها تعلم شيئاً تخشاه.

ثم يقبل صاحب القصر فتلقاه «دام دي توزيت»، وقد تكفلت الحزن والغضب وتستأذنه في الانصراف والعودة إلى باريس، ولكنهم يتحثان، فيسألها عما تعلم من أمر «دينيز»، فتقسم له أنها لا تعلم من أمرها شيئاً، وأنها إنما اتهمتها غيرة وحسداً، ويظهر هذا كله معقولاً لصاحب القصر فيطمئن إليه، ويقبل «فرناند» مستأنناً في السفر، فإذا كل شيء قد تغير، وإذا صاحب القصر يلح عليه في البقاء، ويقبله زوجاً لأخته، ولكنه يستخلفه بالشرف أنْ يتبئه، أكان خليلاً «لدينيز»؟ فيجيبه: كلا! ويقسم على ذلك، فإذا هم جميعاً سعداء، أليس يستطيع أنْ يقترن «بدينيز»! أليس الآخر يستطيع أنْ يقترب «مارت»؟ أليس الأمر قد انتهى إلى ما كانوا يحبون جميعاً؟

يخطب صاحب القصر الفتاة إلى أبيها، فيتردد الأب ثم يرضى، أما الأم فسعيدة ولكنها جزعة، وهي تشير بأن يتحدث صاحب القصر إلى بنتها، فإذا خلا صاحب القصر إلى «دينيز» أنبأها بحبه إليها، وأنبأته بحبها إليها، ثم يطلب إليها أن تكون زوجة فتجيب: كلا!

– لماذا؟

– لأنني من الاتي يحببن دون أن يكن للزواج أهلاً، ثم تتبئه بأنها مسافرة غداً بعد أن تعود أخته إلى الدير.

- ولكن أختي لن تعود إلى الدير، فقد رضيت أن تقرن «بفرناند».

إذا سمعت ذلك جرعت له جزاً شديداً، وأنبأته بأنها كانت خليلة لهذا الشاب، خدعاً عن نفسها فرزقت منه طفلاً، ثم أعرض عنها أثناء الحمل وبعد الميلاد، ومات هذا الطفل، وجهل أبوها الأمر كله، فلا ينبغي أن يكون هذا الشاب مصدر شقاء الفتاة بريئة «كمارت»، إنه لا يريد أن يتزوجها، وإنما يريد أن يتزوج ثروتها!

الموقف هنا مؤلم جداً، فليس من اليسير أن تملك نفسك أمام جزع هذه الفتاة، وهي تفضح أمرها لمن أحبها وأحبته، وأمام صاحب القصر يبكي رحمة لها وحزناً على حبه! ولكن أبا الفتاة قد سمع الحديث فأقبل، وقد جن جنونه فطرد الفتاة طرداً عنيفاً، وأعلن إلى صاحب القصر أنه مرتحل لساعته؛ ليطهر هذا القصر من هذه الأسرة الدنسة، ثم يرتب أوراقه، وهو في ذلك إذ يقبل «فرناند»، فلا يكاد يراه حتى يهجم عليه يريد أن يقتله، ثم يتعدد أمام الجريمة فيرسله قائلاً: اذهب إلى أمك، فأنبئها بأنني انتظرها هنا؛ لخطب إليّ ابنتي على أن تكون زوجاً لك، فإذا لم تتم هذه الخطبة في ساعة فأنا قاتلك!

إذا كان الفصل الرابع رأيت الأبوين محزونين يتحدثان، أما الأم فمكلومة مستسلمة، وكأنها مرتاحة إلى هذه النكبة التي أباحت سرها لزوجها، وأخفتها من الحذر والكتمان، وأما الأب فمحزون، ولكن ثورته لم تهدأ بعد، فهو يلعن ابنته، وينكر إخفاء الأمر عليه، وزوجه تستعطفه وتترضاه دون أن تجد إلى العطف في قلبه سبيلاً، وهي تكره أن تقرن ابنتها بهذا الفتى، والفتاة تكره ذلك، ولكن الرجل يلح فيه مهما يكن شراً، لقد اشتركا في الإثم فيجب أن يحملاه معاً.

تقبل أم الفتى، فتح الخطبة الفتاة إلى أبيها أمام صاحب القصر وصديقه توفنان، ويقبل الأب وتقبل الفتاة، ويستعد هؤلاء للسفر إلى باريس، ويخلو الصديقان، فإذا صاحب القصر محزون ولكنه مطمئن؛ لأنه عرف ما كان يبحث عنه، أما صاحبه فيشبعه لوًما وتأنيتاً؛ لأنه جنى هذه الجناية المنكرة على هذه الفتاة التي يحبها وتحبه، والتي ضحت بشرفها وكرامتها في سبيله وفي سبيل أخته، ثم من الملوم في هذا كله؟ أنت؛ لأنك عشقت أم الفتى فعرفت أختك وحبيبت إليها ابنها، وهي التي دلتك على هؤلاء الناس جميعاً فاستخدمتهم، ولولا هذا العشق القديم وهذا الحب الجديد، وما نشأ عنهمَا من الغيرة لما نال هذه الأسرة ما هي فيه الآن من شقاء، وليس لك أن تسخط على الفتى؛ لأنك سألته أمراً فأخلفاه عليك، فمثل هذا السر لا يباح، أتستطيع أنت أن تنبئه بأنك كنت خليل أمه لو

سؤالك؟ ولم لا تقرن بالفتاة؟ ألم تعرف لك بخطيئتها! ألم تر جزعها لهذه الخطيئة! ألم تبك معها على هذه الخطيئة! ألم تغسل دموعكما آثارها! أنت تحبها ولن تتعزي عنها، وأنت الآن تركتها لما ينتظرها من شقاء، فاحذر عاقبة هذا الجبن، وهذه القسوة فقد تندم حين لا ينفع الندم.

وتقبل أخته، فإذا عرفت كل ما كان أخذها ندم شديد لما قدمت من الإساءة إلى «دينيز»، فدعتها وأخذت تضمها إليها وتسألاها عفوها ومغفرتها، لقد خانك هذا الفتى وخانتي أيضًا، وكانت خيانته دليلاً على أنها لا نصلح للزواج، أحبتنا هذا الفتى الخائن، فلنبدأ من حبه، ولنقدم حبنا إلى من لا يخون، لذهب معًا إلى الدير، ثم تنطلقان فلا تكادان تبلغان الباب حتى يصبح صاحب القصر: «دينيز» لا أستطيع! وإذا هي بين ذراعيه، وإذا أخذته فرحة مبهجة تفكير في العشاء ومن دعوا إليه، فإذا سئلت عن الدير أجبت بعد أن تتزوج «دينيز».

والآن وقد لخصت لك هذه القصة لا أجد بدًا من أن ألحوظ أنها لذيدة ممتعة إذا قرأتها، ولكنك لا تكاد تشهدها في ملعب التمثيل حتى يأخذك شيء من الدهش، ولا أريد أن أقول من خيبة الأمل، فقد يكون اللفظ أشد مما ينبع.

بعد العهد بهذه القصة؛ فقد مثلت في آخر القرن الماضي، وما أسرع ما تطورت أخلاق الناس وعاداتهم وأوضاعهم الاجتماعية منذ ثلاثين سنة، ولا سيما في فرنسا، ولا سيما بعد الحرب!

ولهذا تشعر في كثير من المواقف بأنك تشاهد شيئاً ليس بينك وبينه صلة، وهو إلى التاريخ أقرب منه إلى تمثيل الحياة التي تحياها.

أضف إلى هذا شيئاً آخر ليس أقل منه خطراً، وهو أنَّ الكاتب يطيل في حواره حتى إنك لتensi في كثير من المواقف أنك تسمع ممثلاً، ولتشك في أنك تسمع خطيباً، وقد يتكلم الممثل ربع ساعة أو نحو ذلك أو أكثر من دون أنْ ينقطع عن الكلام، أو يسمع جواباً من محاوره.

إذا اجتمع هذان الأمران في قصة كالتى مثلت مساء الاثنين لم تجد بدًا من أنْ تعذر الممثلين يمثلون آيات الفن الحديث، وأيات التمثيل في القرن السابع عشر.

بل أنا أعترف بأنني كنت أعجب بمسيسيو ألبير إعجاباً لا حد له، ولكن يشوبه شيء من الرفق به والإشفاق عليه، فقد كلف نفسه عناه كثيراً في تمثيل المواقف التي وقفها أندرية پارдан، واستطاع أنْ يخلب الجمهور غير مرة.

وكان المسيو شارل جرفال بارغاً في تمثيل فرناند، وأحس به أمهر الممثلين بعد مسيو ألبير لامبير في هذه القصة.

وهل أسمح لنفسي بأن لألاحظ أنني لم أجده ما كنت أنتظر من الآنسة «دي لوك» التي كانت تمثل «دينيز»، فربما نقصها في هذا الموقف شيء من الشباب.

ولست أدرى كيف أثني على السيدة سوزان فرنيل، فهي الوحيدة التي أنسنتي أنها ممثلة، ووقفت موقف الأم الرفيقة المهزونة، والزوج الشفيفة المؤاسية حقاً.

وكانت السيدة «مارت مارسان» خلبة في تمثيلها «مدام دي توزيت»، فكانت تراها تتنقل في سهولة ويسر من التمثيل الصحيح المتقن للخليلة الفتانة إلى التمثيل الصحيح المتقن للأم، التي لا تحيا إلا ليكون ابنها سعيداً.

وقد أظهرت السيدة «بلانش جاكسون» مقدرة غريبة في موقف «مارت پارдан»، ولا سيما في الفصل الثاني حين كانت تعاتب أخاهما، وتهين «دينيز»، وتتحدث في الحب إلى «فرناند».

ومهما يكن من شيء فإني إن أوجه نقداً فإنما أوجهه إلى لجنة البرنامج لا إلى الممثلين؛ فقد كان من الميسور أن تختر لنا قصصاً غير هذه القصص التي إن تكون ممتدة قيمة، فقد لا تعطينا من التمثيل الفرنسي العصري صورة صحيحة، وقد تحول بيننا وبين الاستمتاع ببراعة الممثلين كلهم أو بعضهم على أقل تقدير.

نوفمبر سنة ١٩٢٣

روي بلاس

قصة تمثيلية شعرية «لـفكتور هوجو»

كانت لذىدة قيمة تلك الساعات التي قضيناها مساء الاثنين في الأوبيرا الملكية، نسمع أمهر الممثلين الفرنسيين ينشدون، ويمثلون شعر أنبغ الشعراء الفرنسيين، كانت تلك الساعات لذىدة ممتعة، وربما استطعت أن أقول: إنها كانت ساحرة، تستهوي اللب، وتخلب العقل، وتنسى النظارة أنهم في ملعب من ملاعب التمثيل، يسمعون قوماً يلقون الشعر، أو يرون قوماً يذهبون ويجبئون ويختصمون ويتفقون، تنسفهم هذا كلّه، ويخيل إليهم أنهم في عالم آخر ليس من الميسور وصفه أو تحديده، وإنما أستطيع أن أقول: إنه عالم كله تأثر، كله ألم ولذة يكادان يتجردان من الحياة المادية، وليس في ذلك شيء من العجب، فقد كان «البير لمبير» يفسر «فكتور هوجو».

كانت لذىدة قيمة تلك الساعات، والغريب من أمرها أنها لم تكن تلذك لفكرة فلسفية، أو نظرية من نظريات العلم، أو قضية من قضايا الاجتماع، وإنما كانت للفن وحده، كانت تلذك؛ لأن الممثل نابغة في التمثيل، ولأن الشاعر نابغة في الشعر، ولأن الشاعر قد استطاع بقوته التي تشبه قوة المردة أن يتنزعك من هذا العالم انتزاعاً، وأن يصعد بك في سماء من الجمال الفنِّي، لا تجد فيها إلا بهجة واستبشراراً، وإلا نعمة واغتباطاً مهما تكن البيئة التي يمر بك فيها الشاعر، ومهما يختلف على نفسك من لذة وألم ومن أمل و Yas، واستطاع الممثل أن ينفح في هذا الشعر القوي الحي روحًا آخر قوياً حياً منحه من القوة والحياة حظاً ليس إلى وصفه من سبيل.

قلت: إنَّ هذه القصة لا تستهويك لفكرة فلسفية أو نظرية من نظريات العلم، وأية ذلك أنك تقرأ القصة من أولها إلى آخرها فيبهرك جمالها الفني، وجمالها الفني وحده، وتشهد هذه القصة في ملعب التمثيل، فيبهرك نبوغ الشاعر ومهارة الممثل، ولا تكاد تفكر في شيء غير هذا، ومع ذلك فإن «فكتور هوجو» كان يعتقد — حين وضع هذه القصة — أنها قصة فلسفية تاريخية، وأنه لم يقصد بها إلى الفن وحده، وإنما قصد بها إلى الفن وإلى العلم، قصد بها إلى أنْ يرضي العقل، وإلى أنْ يرضي الشعور، ماذا أقول؟! بل قصد بها أنْ يرضي الحس أيضًا، وأستريحك المعدنة في أنْ أتحدث إليك في هذا الفصل عن «فكتور هوجو» أكثر مما أتحدث إليك عن القصة نفسها، فسترى أنَّ الحديث عن القصة ليس بالأمر البسيط، وأني مهما أبذل من جهد وأنفق من قوة، فلن أظهر على شيء من جمالها الفني، وأين السبيل إلى ترجمة الشعر، ولا سيما شعر «فيكتور هوجو»! وإلى إعطاء صورة صادقة من التمثيل المتقن، ولا سيما تمثيل «أليير لمبير».

أريد إذن أنْ أتحدث إليك عن «فكتور هوجو»، فقد وضع فيكتور هوجو لهذه القصة مقدمة لا تخلو من لذة، بل لا تخلو من شيء يحمل المؤرخ الحديث على الابتسام. «فكتور هوجو» يرى أنَّ النظارة منقسمون بطبيعتهم إلى طبقات ثلاث، تختلف أغراضها حين تذهب إلى دار التمثيل اختلافاً شديداً:

الطبقة الأولى: النساء، وهن حين يذهبن إلى دار التمثيل إنما يريدن إرضاء العاطفة والشعور، يريدن أنْ يجدن من اختلاف الأهواء وتتنازعها، ومن جهاد الشهوات واصطدامها ما يؤثر في شعورهن؛ لأنهن إنما يحيين بالشعور.

الطبقة الثانية: طبقة المفكرين، وهؤلاء يريدون حين يذهبون إلى دار التمثيل أنْ يروا في الملعب خلاًلا تستحق أن تدرس، وأنْ يفكر فيها الباحث، وأنْ يجد من درسها والتفكير فيها علماً جديداً يدله على شيء جديد.

الطبقة الثالثة: طبقة الجمهور أو الطبقة العامة، هؤلاء يذهبون إلى دار التمثيل؛ لأنهم يريدون أنْ يروا حركة تمثيلية تستهوي أعينهم، وتخلب حسهم، وتتيح لهم ما هم في حاجة إليه من اللهو.

النساء إذن يريدن أنْ يتأنشن، والمفكرون يريدون أنْ يتعلموا، والجمهور أو العامة يريدون أنْ يلهوا، ولقد يشعر فكتور هوجو بأنَّ في هذا التقسيم شيئاً من الغلو، فيعتذر ويعرف بأنَّ تقسيمه غير دقيق، وبأنَّ من الممكن بل من الحق الواقع أنْ تطلب المرأة شيئاً

غير التأثر فتطبع في اللهو وفي لذة العقل، وأن يطلب المفكر شيئاً غير التعلم، فيطمح إلى التأثر واهتزاز العاطفة، وأن يكون في جمهور النظارة من يجمع بين هذه الحال جميعاً، فيليهو ويتأثر ويفكر، ويعترف بها، ولكنه يلح في أن هذه الحال الثلاث هي الحال التي لا بد من أن تشمل عليها قصة تمثيلية متقنة، وهذه القصة التي تشتمل على هذه الحال كلها، هي عنده المثل الأعلى في التمثيل، هي خير من «الراجيديا»؛ لأن الراجيديا تؤثر في الشعور وحده، ولهذا يحبها النساء، وهي خير من «الكوميديا»؛ لأن الكوميديا تلذ العقل وحده، ولهذا يحبها المفكرون، وهي خير من قصص الهزل والحركة؛ لأن هذه الشخص تعجب الحس وحده، ولهذا يكلف بها عامة الناس.

هذه القصة التي يكلف بها فكتور هوجو تجمع بين هذين النوعين العظيمين من أنواع التمثيل، أو قل بين هذه الأنواع الثلاثة التي تقدمت الإشارة إليها، ويقول: إن «كورنيل» زعيم الراجيديا و«مولير» زعيم الكوميديا يستطيعان أن يعيشَا مستقلين، وألا يتقيا أبداً لولا أن «شكسبير» يستطيع أن يمسك أحدهما بيسراه والآخر بيمناه، وأن يجمع بين فنيهما جميعاً، ف تكون قصته راجيديا وكوميديا معًا.

على هذا النحو تصوّر فكتور هوجو القصة التمثيلية، وعلى هذا النحو أنشأها، فستري في هذه القصة التي نحن بإزائها ما يؤثر في الشعور، وما يلذ العقل، وما يلهي؛ أي إنك ستري فيها ما يرضي الطبقات الثلاث التي تولّف النظارة في ملعب من ملاعب التمثيل، فإذا سألت فكتور هوجو عن موضوع هذه القصة أو عن الفكرة التي صدرت عنها هذه القصة، أجابك بأن هذا الموضوع يختلف باختلاف الناحية التي تنظر منها إلى القصة، فقد تستطيع أن تنظر إليها من الناحية الإنسانية العامة، وقد تستطيع أن تنظر إليها من الناحية الأدبية الخالصة، فإذا نظرت إليها من ناحية فلسفة التاريخ فموضوعها عظيم الخطير جداً؛ لأنه يمثل لك حال الدولة الملكية العظمى قد أشرفت على الانحلال، ثم يعرض عليك صورة جميلة مؤثرة لهذا الانحلال، لا عيب فيها إلا أن فكتور هوجو قد أسرف في تعليمها واتخذها قاعدة، وربما تكون هذه الصورة صحيحة في إسبانيا، وربما تكون صحيحة في بعض الدول الملكية، ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أنها لا تصلح قاعدة من قواعد التاريخ، ولا أصلاً من أصول الفلسفة الاجتماعية، ولكن لا تننس أن فكتور هوجو كان يكتب هذه القصة و يقدمتها في أوائل الثلث الثاني للقرن الماضي؛ أي في العصر الذي أخذت تظهر فيه فلسفة التاريخ ظهوراً قوياً وتبسط سلطانها على كل شيء، وتزعم أنها قادرة على أن تفسر الحياة الإنسانية على اختلاف صورها وأشكالها.

أُفلاستْ فلسفة التاريخ في أواخر القرن الماضي.

فليس عجيباً أن نبتسم نحن مع شيء من العطف لهذه القواعد العامة، التي كان يضعها ثكور هوجو متأثراً بهؤلاء الفلاسفة المؤرخين، الذين كانوا يعاصرونه ويسلطون على عقول المفكرين، وليس عجيباً أن ينظر المفكرون، ولا سيما الشبان منهم في عصر ثكور هوجو إلى هذه القواعد نظرة المعجب المفتون، الذي كان قويّ الإيمان بفلسفة «أوجست كومت» و«سان سيمون»، وغيرهما من الذين كانوا يريدون أن يفسدوا الحياة الاجتماعية الماضية، ويضعوا أساس الحياة الاجتماعية المقبلة.

يظهر أنَّ الدولة إذا أشرفت على الانحلال، ظهر الفساد ظهوراً قوياً في أشرافها؛ لأنَّ الدولة إذا مرضت فمرضها في الرأس، والأشراف رأس الدولة، ولهذا الفساد مظهران: أحدهما الأثرة والإسراف في حب المنفعة والتهاك عليها والتضحية بكل شيء في سبيلها، والآخر الازدراء والسخرية والتهاك على اللذة دون تضحية للشرف والكرامة، ويقول ثيكور هوجو: إنَّ الأشراف ينقسمون أيام فساد الدولة قسمين: قسم شعر بالضعف واستيقن السقوط، فهو ينتهز الفرصة، ويريد أنْ ينتفع ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإنْ فأموال الدولة ومرافقها نهب لمنافعه يسخرها كما يحب، وقسم شعر بهذا الضعف واستيقن الانحلال أيضًا، ولكنه شريف نقى، فيعتزل الأعمال ويفرغ للذاته وأهوائه يستمتع منها بما استطاع أنْ يستمتع به قبل أنْ تنزل النازلة.

فأما القسم الأول فهو قسم الدس والكيد والاختلاس والإفساد، وأما القسم الثاني فهو قسم اللهو واللذة والإسراف، لا يزال بما لديه من المال يتلفه ويبدده حتى يعدم، فينحط من منزلته العليا إلى حيث يعيش عامة الناس، كان في القمة فأصبح في الحضيض، لا يحتفظ من ماضيه – كما يقول ثكور هوجو – إلا بشرفه، واسمه الذي يخفيه، وسيفه الذي يظهره، وهو يرى القسم الآخر من أقربائه وذوي عمومته مستأثراً بالعزبة والشرف منتفعاً بالمناصب وثروة الدولة، فلا يدفعه ذلك إلا إلى الازدراء والسخرية، وكذلك كانت الحال في إسبانيا آخر القرن السابع عشر وهو العصر الذي تمثله قصة «ري بلاس».

وقد يكون هذا صحيحاً من بعض الوجوه، ولكنني لاأشك في أنَّ الشاعر العظيم لا يصور لنا في هذا الفصل إلا صورة خيالية، هي التي ملكت عليه أمره، فحملته على إنشاء هذه القصة، فسترى أنَّ لهذه القصة بطلين من أسرة واحدة، كلاهما شريف، ولكن أحدهما قد فقد شرفه الخلقي، وضحى بكل شيء في سبيل منفعته، فهو يدس ويكيد ويائمر، والآخر قد فقد مظهر شرفه المادي، فهو فقير مشرد يعاشر اللصوص وال مجرمين، ولكنه محتفظ بخلقه ومرءته، فهو لا يؤثر نفسه، وإنما يؤثر عليها.

إلى جانب هؤلاء الأشراف — الذين أخذوا يضعفون وينحلون — توجد قوة أخرى عظيمة عنيفة تملأها الصحة، ذات من الذل ألوًناً ولكنها ينعشها الأمل، فهي تتجمع في المستقبل وتتطمح إلى الرقي، وهذه القوة هي الشعب، يقوى ويشتد أيدُهُ في حين يضعف سادته وينحلون، فأنت ترى من هذا نفسه أنك في عصر الثورة الفرنسية، وأنَّ الذي يتحدث إليك هو ابن من أبناء هذه الثورة، متأثر بالديمقراطية، قد آمن بها إيماناً شديداً، واجتهد في أنْ يوفق بين إيمانه وبين عقله، وفي أنْ يصطنع مذهب الفلسفه المعاصرين له الذين كانوا يتحدثون دائمًا عن عصر مضى هو عصر الاستقرار، وعصر مقبل هو عصر الشعب!

وما أيسر ما خيل إلى الشاعر أنه يمثل في قصته إلى جانب هؤلاء الأشراف المنحلين قوة الشعب ناهضة مصعدة في السماء، في حين يهوي الأشراف إلى الأرض، ذلك أنك سترى في هذه القصة بطلًا باسمه سميت القصة، كان خادمًا، فسما إلى ما لا يسمو إليه الخادم، ومثل بذلك طموح الشعب إلى الرقي والفوز.

ثم هناك غير بعيد من هاتين القوتين المتناهضتين قوة أخرى هادئة باسمة كلها رحمة ورفق، وكلها عطف وإحسان، وكلها حب وجمال، يكيد لها أولئك ويطمح إليها هؤلاء، يأتمر بها الأشراف ويسمو إليها الشعب، هذه القوة التي تمثل الفضيلة، والتي تمثل المثل الأعلى للحياة الإنسانية الصالحة، هي السلطان ممثلاً في شخص الملكة، فسترى في هذه القصة بطلة هي ملكة إسبانيا الوديعة الرءوم البائسة، يأتمر بها الأشراف، ويكفل بها ممثل الشعب.

فأنت ترى أنَّ لهذه القصة موضوعاً فلسفياً تاريخياً عميقاً، ولكنني أعتذر لك بأنك لا تحس هذا الموضوع، ولا تتأثر به إلا حين تقرأ مقدمة الشاعر، فإذا قرأت القصة أو شهدتها في دار التمثيل لم تفكر في شيء من هذا إلا في موقف واحد، يضطرك الشاعر إلى أنْ تفك في شيء؛ لأنَّه يتحدث إليك في عنف وقوة عن انحطاط إسبانيا وإشرافها على الفناء، ولولا هذا لما فكرت إلا في أنْ شريفاً يأتمر، وشريفاً آخر يلهو، وفتى من أبناء الشعب يحب الملكة.

فإذا نظرت إلى هذه القصة من الناحية الإنسانية الحالصة رأيت لها موضوعاً آخر أرقى من موضوعها الأول؛ لأنَّ أحد أبطالها وهو هذا الشريف المؤتمِر، يمثل الآثار العنيفة التي لا تحفل بشيء، والآخر وهو هذا الشريف الساخر اللاهي، يمثل الإيثار والانصراف عن المنفعة، والثالث يمثل النبوغ الذي أخذت ناره تصعد في الجو دون أنْ تحفل بمقاومة، وهو هذا الفتى الذي يمثل الشعب، أما البطل الرابع فيمثل الفضيلة مهضومة وهي الملكة.

فإذا نظرت إلى القصة من الوجهة الأدبية الخالصة رأيت مظهراً آخر، واجتمعت لك فيها صور التمثيل الثلاث، فرأيت الشريف المؤتمر يمثل «الدراما»، وهو هذا النوع من التمثيل الذي لا يخلص للكوميديا ولا للtragédie، وإنما يؤلف بينهما، ورأيت الشريف الساخر يمثل الكوميديا، ورأيت ابن الشعب يمثل التراجيديا، وكانت هذه القصة مجتمعًا صادقاً لصور التمثيل.

أتري أنَّ موضوع القصة وقيمتها يختلفان باختلاف الناحية التي تنظر منها إلى هذه القصة، ولهذا يمثل فكتور هوجو الفكرة بالجبل الشامخ يختلف منظره باختلاف المكان الذي تطلع عليه منه، ثم يرى أنَّ في هذه القصة أشياء كثيرة وأغراضًا متباعدة، وأنَّ لكل فرد أو فردتين من الناظرة أنْ يأخذ من هذه الأشياء والأغراض ما أراد، ثم يعترف بحقيقة لا شك فيها: لأنها تخلو من كل فلسفة أو محاولة للفلسفة، وهي أنَّ الذي يعني جمهور الناظرة من هذه القصة بنوع خاص، إنما هو هذا الخادم الذي يحب الملكة، ويلقى في حبها ما يلقى من أسي.

هناك شيء في هذه المقدمة لا يخلو — كما قلت — من لذة، ولا مما يبعث على الابتسام، وهو تأثر فكتور هوجو بطائفة من المصادرات، أو قل بطائفة من الحوادث خلية أنَّ تؤثر في نفس العامة فتبعد فيها العجب، وخليقة أنْ تؤثر في نفس الشاعر فتخرج منها الشعر، فقد ولد «شارل كان» سنة ١٥٠٠، ومات شارل الثاني آخر سلالته سنة ١٧٠٠ ثم ورث لويس الرابع عشر «شارل كان» سنة ١٧٠٠، وورث نابليون لويس الرابع عشر سنة ١٨٠٠، فوقع هذه الحوادث في هذه السنين التي تفتح العصور شيء من شأنه أنَّ يبهر العامة، كما أنَّ من شأنه أنَّ يبهر الشعراء، ويظهر أنه بهر فكتور هوجو، فحمله على أنْ يفكر في أمر هذه المملكة الإسبانية العظيمة، فوصل إلى هذه الصيغة البدعة، وهي أنَّ شمس هذه الأسرة النمساوية التي ملكت إسبانيا قد أسرقت سنة ١٥٠٠، وغربت ١٧٠٠، وكان من نتائج هذا التفكير في إسبانيا وملوكها وأشرافها آيتان من آيات الفن، الأولى هرناني تمثل فجر العظمة الإسبانية، والأخرى «ري بلاس» تمثيل أصيل هذه العظمة. وأظن أنه قد حان لي أنَّ ألخص لك هذه القصة، ولن يكون تلخيصها طويلاً، فقد قلت: إنني مهما أفعل فلن أظهرك من جمالها على قليل أو كثير.

إذا كان الفصل الأول رأيت دون ساللوست — وهو رجل شريف من عظماء الدولة وذوي المكانة الممتازة في القصر — مغضباً محنقاً؛ لأن الملكة قد غضبت عليه، فكُلّف أنْ يغادر

القصر والعاصمة، وأنْ يعود إلى أرضه، وهو يريد أنْ ينتقم لنفسه، ويبحث عن وسيلة لهذا الانتقام، فيدخل عليه ابن عم له هو دون سizar، كان غنّياً فأعدم لكثرة ما عكف على اللهو ثم استخفى، فتحدى الناس عنه الأحاديث، فمنهم من زعم أنه ارتحل، ولكنه ما زال في مدريد مستخفياً يعاشر المشردين واللصوص، فإذا دخل على ابن عمه أخذ هذا يلومه ويذكر سيئاته، فيدفع عن نفسه ضاحكاً معترفاً باثامه مفاجراً بها ساخراً من كل شيء، لا يشكوا إلا الفقر وكثرة الدين، فيعده ابن عمه بالمعونة وأداء دينه، بل يعد بأكثر من هذا لأنْ يجعله عظيماً، ولكنه يشترط لذلك شروطاً لا يكاد يعلمها صاحبه حتى يرفضها رفضاً عنيفاً ملؤه النذير؛ لأنه يحس منها الاتتmar بأمرأة، فتأبى نفسه هذا، ويؤثر حياة الإجرام والفحور على الكيد لامرأة ضعيفة مهما يكن مكانها.

ولكن ابن عمه لم يتحدث إليه في هذا كله إلا ضاحكاً متنكراً، فما أسرع ما يقنعه بأنه كان يعيث، ثم يتركه ليأتي له بشيء من المال، وبينما هذا الشريف المعدم ينتظر ابن عمه إذ يدخل عليه «ري بلاس»، وهو خادم دون سالوست، فلا يتراءى الرجال حتى يتعارفاً؛ لأنهما كانا رفيفي بوس، ويقص كل منهما على صاحبه ما كان من أمره، فإذا هذا الخادم شاب قد أحسن تعليمه فكفا بالفلسفه، وأسرف في هذا الكلف حتى صرفه عن الحياة العاملة، فتكلف ضرباً من البؤس والشقاء، وانتهى إلى خدمة دون سالوست، ولكن حياته الأليمية ليست شيئاً بالقياس إلى هم يفعم قلبه وينغص عليه أيامه، وهو يحاول أنْ يجد له اسمًا فلا يوفق، وهذا الهم هو أنه يحب ويغار، يحب الملكة ويغار من الملك، وهو في كل يوم يقطع فراسخ ليحمل أزهاراً تحبها الملكة، فإذا كان الليل تسلق سور القصر، واندس حتى يضع أزهاره بحيث تستطيع الملكة أنْ تراها.

وقد أسرف في الجنون حتى أضاف اليوم إلى طاقة رسالة غرام لم يمضها، وكان سيده قد سمع لهذا الحديث، فيدخل هادئاً، ويدفع إلى ابن عمه المال وقد أوصى به من يتبعه، حتى إذا خرج من القصر عدا عليه وحمله إلى البحر فباعه من قرصان أفريقيا، ثم يخلو إلى خادمه، فيكلفه أنْ ينزع ثياب الخادم، ويلبس ثياب الرجل الشريف، ويملي عليه رسالة غرامية، فإذا كتبها أخذها منه واحتفظ بها، ثم ي ملي عليه كتاباً آخر فيه عهد على نفسه بأنه خادم مولاه، وأنه سيخلص له أبداً، يأمره فيمضي الكتاب ويدفعه إليه، ثم يعلن إليه ما يريد، فهو يريد أنْ يجعله رجلاً شريفاً لما آنس فيه من الكفافية والشرف والوفاء، وما هي إلا أنْ يقبل أشراف القصر، فيقدمه إليهم على أنه ابن عم «دون سizar»، ويوصيهما به خيراً عند الملك.

فإذا كان الفصل الثاني رأيت الملكة قد جلست إلى وصائفيها يتحدثن ويطرزن، وهي تتنقل من حديث إلى حديث، ولكن السأم عليها ظاهر؛ لأن الملك يهجرها منصرفًا عنها إلى الصيد، ثم هي لا تجد في الحياة لذة ولا سبيلاً إلى الله، تريد أن تخرج فتلتفتها رئيسة قصرها إلى أنها لن تستطيع أن تخرج ما دام الملك غائبًا، تريد أن تنظر إلى النافذة فتلتفتها إلى أن ذلك لا يباح للملكة، تريد أن تأكل مع وصائفيها فتلتفتها إلى أن الملكة يجب أن تأكل وحدها ما دام الملك غائبًا، تريد أن تلاعب وصائفيها بالورق فتلتفتها إلى أن الملكة يجب أن لا تلاعب إلا أسرة الملك، ثم لا تسمح حتى بالحديث، فتأمر الوصائق بالانصراف لتخلو الملكة إلى نفسها، وتفكر فيما بينها وبين الله حينًا.

فإذا خلت الملكة إلى نفسها فكرت في المسيح والعذراء، ولكن ل تستعينها على الحب، فهي تحب هذا الشخص المجهول الذي يحمل الزهر، وهي لا تعرفه، والذي ترك لها كتاباً منذ أيام، والذي يظهر أنه خرج وهو يتسلق غرفتها، فتمزقت ثيابه، وبقيت منها قطعة معلقة، وترك أثراً من دمه على الحائط، فهي تضم إلى صدرها كتابه وما بقي من ثوبه، وتنتظر إلى هذا الدم، وتحاول أن تنصرف عن هذا كله فلا تستطيع، تحب هذا الفتى، ولكن حبها غير آثم، ولو لا أنَّ الملك منصرف عنها لما فكرت في غيره.

ثم يدخل عليها الوصائف ورئيسة قصرها وغلامان يحملان كتاباً على وسادة فخمة، فإذا بالكتاب من الملك قد حمله إلى الملكة بعض أتباعه، تبتهج الملكة، وتحاول أن تقرأ الكتاب، ولكن رئيسة قصرها تلتفتها إلى أنَّ التقاليد تقضي بأن تقرأ هي الكتاب أولاً، تفُضُّل رئيسة الكتاب وتقرأ، فإذا الملك يقول: سيدتي! الريح عاصفة وأنا أصيده، وقد قتلت ستة ذئاب، ثم يمضي، ولا تسل عما أصاب الملكة من يأس، وقد كانت تنتظر كتاب حب، ولكنها لا تكاد تنظر في الكتاب حتى تدهش، إنَّ الملك لم يكتبه وإنما أمضاه! وخط الكتاب يشبه خط كتاب آخر تضمه إلى صدرها، تسأله عن حامل الكتاب، فتقديم إليها الرئيسة ري بيلاس، وتتبئها بأن الملك قد ألحق هذا الشاب بخدمتها، فلا تكاد تنظر إليه حتى يظهر عليها الافتتان به.

أما الشاب فاضطرابه لا يخفى على أحد، وفي ناحية من نواحي الغرفة وقف شيخ قوي مفتون بالملكة، ولكنه يقنع من حبه بالابتسام والتحية، فإذا رأى هذا الشاب واضطرب له، وتبيّن ميل الملكة إليه أراد أن يمتحن الشاب، فأقبل ينبيءه بأن عمله هو أن يقف في هذه الغرفة، حتى إذا أقبل الملك هذه الليلة، وأراد أن يدخل على الملكة فتح له الباب ثم أغلقه دونه، فلا يكاد الشاب يسمع هذا الحديث حتى تأخذه الغيرة، فإذا رأسه يدور، وإذا هو يوشك أن فقد الصواب.

وترى الملكة ووصائفها منه هذا، فيقبلن عليه يردن إسعافه، فلا تكاد تدنو الملكة منه حتى تتبيّن الجرح في ذراعه، فلا تشک في أنه صاحبها.
ثم يكون بين هذا الشاب وبين متحنه الشيخ خصم عنيف.

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضى على هذا الشهـر، وارتقى الشاب حتى أصبح زعيم الدولة ورئيس الوزارة، والوزراء يتحدون عنه ويحقدون عليه وعلى الملكة، وهم يذكرون منافعهم، فيتقسمون فيما بينهم ثروة الدولة، ولكنهم يجهلون مكان رـي بلاس الذي يسمعهم ويراهـم دون أن يروهـ، فـما هي إلا أن يـقبل عليهمـ، فيـزجرـهم زـجراً عـنيـفاًـ، هو آية من آياتـ الشـعـرـ الوـطـنـيـ، ثم إذا خـلـاـ إلىـ نـفـسـهـ أـقـبـلـ المـلـكـةـ فـهـنـأـتـهـ بـمـاـ سـمـعـتـ مـنـ زـجـرـهـ للـوزـراءـ، وـتـحـدـثـاـ عـنـ الـحـبـ وـتـعـاهـداـ عـلـيـهـ، وـهـوـ سـعـيـدـ مـغـبـطـ يـكـادـ يـجـنـ فـرـحاـ، وـلـكـنـ أـمـدـ سـعادـتـهـ قـصـيرـ، فـإـنـ سـيـدـهـ الـقـيـمـ يـدـخـلـ عـلـيـهـ، فـيـشـبـعـهـ لـوـمـاـ وـتـأـنـيـاـ؛ـ لـأـنـ هـمـلـهـ وـأـغـضـ عـظـمـاءـ الدـوـلـةـ حـرـصـاـ عـلـىـ مـنـفـعـةـ إـسـبـانـيـاـ وـتـدـبـيرـ ثـرـوـتـهـ وـحـيـاطـةـ كـرـامـتـهـ، ثم لا يـزالـ بهـ يـأـمـرـهـ وـيـهـيـنـهـ حـتـىـ يـثـورـ الشـابـ، وـلـكـنـ سـيـدـهـ يـذـكـرـهـ مـنـ هـوـ، وـيـذـكـرـهـ الـعـهـدـ الـذـيـ أـعـطاـهـ عـلـىـ نـفـسـهـ، وـيـنـذـرـهـ بـإـظـهـارـ الـمـلـكـةـ عـلـىـ هـذـاـ كـلـهـ، ثم يـأـمـرـهـ أـنـ يـلـزـمـ بـيـتـهـ عـدـاـ، وـأـنـ يـنـتـظـرـ هـذـاـ مـاـ سـيـصـدـرـ إـلـيـهـ مـنـ أـمـرـ.

يـحـسـ الشـابـ أـنـ هـنـاكـ اـنـتـمـارـاـ بـالـمـلـكـةـ، فـيـتـضـرـعـ إـلـىـ سـيـدـهـ أـلـاـ يـعـرـضـ لـحـبـيـتـهـ بـسـوءـ، وـأـلـاـ يـتـخـذـ وـسـيـلـةـ لـهـذـهـ إـسـاءـةـ، وـلـكـنـ سـيـدـهـ يـسـخـرـ مـنـ هـوـ وـمـنـ حـبـيـتـهـ وـمـنـ حـبـهـ.

فـإـذـاـ كـانـ الفـصـلـ الـرـابـعـ رـأـيـتـ «ـرـيـ بـلاـسـ»ـ فـيـ بـيـتـهـ وـلـهـانـ جـزـعـاـ مـشـفـقـاـ عـلـىـ الـمـلـكـةـ، ثم يـنـفـذـ إـلـىـ الـمـلـكـةـ كـتـابـاـ يـدـعـوـهـاـ فـيـهـ أـلـاـ تـرـكـ الـقـصـرـ أـيـامـاـ، وـيـخـرـجـ لـيـسـلـيـ عـنـ نـفـسـهـ، وـلـاـ يـكـادـ يـخـرـجـ حـتـىـ يـظـهـرـ فـيـ الـبـيـتـ ذـلـكـ الشـرـيفـ الـمـدـمـ، الـذـيـ رـأـيـنـاـ فـيـ الـفـصـلـ الـأـوـلـ وـقـدـ بـيـعـ، فـمـاـ زـالـ يـجـدـ حـتـىـ خـلـصـ وـعـادـ إـلـىـ الـعـاصـمـةـ، وـرـأـتـهـ الشـرـطـةـ فـتـبـعـتـهـ، فـمـاـ زـالـ يـعـدـوـ حـتـىـ التـجـأـ إـلـىـ هـذـاـ الـبـيـتـ، وـهـذـاـ الفـصـلـ كـانـ مـضـحـكـ مـتـقـنـ.

فـإـذـاـ كـانـ الفـصـلـ الـخـامـسـ رـأـيـتـ «ـرـيـ بـلاـسـ»ـ قـدـ عـادـ إـلـىـ الـبـيـتـ وـهـوـ هـارـئـ مـطـمـئـنـ؛ـ لـأـنـ الـمـلـكـةـ لـنـ تـخـرـجـ، أـمـاـ هـوـ فـيـرـيدـ أـنـ يـقـتـلـ نـفـسـهـ قـبـلـ أـنـ تـعـرـفـ الـمـلـكـةـ حـقـيقـةـ أـمـرـهـ، وـهـوـ فـيـ لـوـعـةـ إـذـ تـدـخـلـ الـمـلـكـةـ؛ـ لـأـنـ كـتـابـهـ لـمـ يـصـلـ إـلـيـهـ، وـإـنـماـ وـصـلـ إـلـيـهـ كـتـابـ آـخـرـ هـوـ الـذـيـ أـمـلـاهـ دـوـنـ سـالـوـسـتـ عـلـىـ «ـرـيـ بـلاـسـ»ـ فـيـ الـفـصـلـ الـأـوـلـ فـأـقـبـلـتـ.

يلاح عليها ربي بلاس في أنْ تعود أدرجها، ويقاد ينبعها بكل شيء، ولكن دون سالوست يدخل فيعلن إليها أنها ليست ملكة إسبانيا منذ الآن؛ لأن خلوتها إلى هذا الشاب تكفي للطلاق، ويطلب إليها أنْ تمضي اعترافاً بهذه الخلوة سيرفعه إلى الملك، أما هي فتستطيع أنْ ترحل مع حبيبها إلى حيث تشاء.

تکاد الملكة تمضي لولا أنَّ ربي بلاس ينبعها بكل شيء، وبأنه خادم لا شريف، ثم تكون بين الملكة وبين دون سالوست خصومة تهان فيها الملكة إهانة شديدة، يغضب لها ربي بلاس فيقتل مولاه انتقاماً لمولاته، ثم يسألها: أتعفو عنه فتجيبه ناحبة، ويشرب السم، فإذا رأت الملكة أقبلت عليه جزعة، فأعلنت إليه حبها وغفوها ومات بين يديها.

ديسمبر سنة ١٩٢٣

أنصاف الحرائر

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «دوماس الصغير»

دوماس الصغير نَفْل^١ لدوماس الكبير، ولد له في ٢٩ يونيو سنة ١٨٢٤ من رابطة لم يحلها القانون، وقد رُبِّي في حجر ظئر ظل عندها بعد فطامه زماناً، وفي الخامسة من عمره انتقل إلى مدرسة يقوم بأمرها أحد أصدقاء أبيه، ومنها انتقل إلى مدرسة أرقى، ثم ترك الدراسة في السادسة عشرة من عمره، وظل إلى الحادية والعشرين لا صناعة له إلا التنقل بين الأوساط التي يتعدد إليها أمثاله من الشبان، وأشغل الدين كاهله في تلك الفترة، فلم يجد سبيلاً للخلاص منه إلا أن يلجأ للتحرير مستفيداً من اسم أبيه، وتلك مصادفة من المصادفات السعيدة التي تفيد أصحابها وتفيض الإنسانية كلها؛ لأنها مصادفة أصابت روحاً قوياً، ونفساً طموحاً، وقلباً كبيراً، وعقلًا ناميًّا، وخياراً خصبًا، وأعصاباً حساسة، وفؤادًا عرف الألم فامتلاه بالأمل، وأحاطت به عظمة أبيه، فلم يتعد لحظة في أنه مصيب من العظمة ما أصاب أبوه.

على أنَّ هذه القوى الكبيرة والملكات الجمة لم تلق النجاح لأول ما عالجت سبيله، ذلك بأن دوماس أراد أن يسلك في الكتابة طريق أبيه، ودوماس لم يكن صاحب تلك النفس الضعيفة التي تأتم بإمام لها، بل كان قوة لذاته، فلم يفده ضغط نفسه إلا ضياع مجده، ورأى هو ذلك رأي العين، فأطلق نفسه من كل قيد، وأراد أن يغامر في الحياة

^١ ولد غير شرعي.

بكل ما فيه من قوى الحياة، أراد أن يكون سيداً لا أسيراً، أراد أن ينشر على الحياة المحيطة به لون نفسه، فكتب لأول ما كتب في هذا النوع قصته الكبيرة «غادة الكاميليا»، وحكي في الفصلين الأولين من هذه القصة صورة نفسه والمحيطات التي أحاطت به أيام صباه؛ فكان فيما كتب صادق التصوير قويه، فلم تلبث روايته حين نشرت أن لقيت ما قدر لها من نجاح لا يزال إلى اليوم في حده؛ فما تزال «غادة الكاميليا» غادة على المسرح رغم تماضي السنين، وما تزال النفوس تستيقظ إليها كما تستيقظ إلى كل شيء محبوب.

وصف دوماس في «غادة الكاميليا» بعض صور حياته، وحياته — كمارأيت — شاذة، خارجة على متعارف الناس في الحياة، ولد في وسط غير شرعي، وعاش في جماعة الأدباء والكتاب والمفكرين، وهؤلاء لا يعيشون عيشاً عادياً أغلب الأمر؛ لذلك كان ما جاء في غادة الكاميليا خارجاً على تعارف الناس في الحياة؛ لأنّه جعل بطلة روايته إحدى أولئك الجميلات اللاتي ولدن في أحضان الفقر والفاقة، وفي وسط من الأوساط الوضيعة المقام، ولكن هذه البطلة امتازت بجمال فتان يرفع المرأة إلى ذروة لا يتسامي إليها المال ولا تتسامي إليها الألقاب، وإنّ كأن الجمال ثروة لذاته، وكان ثروة طبيعية، ثم إنّ كان الفقر وكانت ضعة القدر لا تتنافى مع العواطف السامية، فقد جعل دوماس لمرجريت حظاً من هذه العواطف يعدل حظها من الجمال، وأسمى العواطف الحب، الحب عاطفة قوية تأسر القلب، وتحكم في الفؤاد، وتدفع صاحبها لكل صور التضحية، انتهت هذه العاطفة بـ«غادة الكاميليا» إلى الموت.

هذه القصة الأولى لدوماس لقيت من الناس إعجاباً؛ ولكنها لقيت كذلك اعتراضاً عليها وتبرماً بها، وكيف لا يعرض الناس على قصة تضع قواعد الخلق المتعارفة موضع الشك! وكيف يقر الناس رجلاً يرى في بغي موضعًا لفضيلة! وهل قام نظام الاجتماع إلا على الفضيلة القاسية الضيقة التي تأخذ الناس بخطاياهم فتجزفهم عنها أشد الجزاء! ولو أبىح لأمثال دوماس أن يكتبو، فيسوغوا ما تنكره الجماعة من بعض صور الحياة لما ظلت الجماعة قائمة قوية متينة الأساس.

كذلك اعترض غير جماعة على دوماس، لكن للكتاب ورجال الفن ردّهم على هذا الاعتراض، وليس أبلغ من كلمة دوماس نفسه في التعبير عن هذا الرد، قال:

أول شرائط العبقرية الصدق، وكل ما كان صادقاً كان ظاهراً، والزهرة العذراء عريانة وهي مع ذلك عذراء، والانفعال الذي يحدث عن تصوير عاطفة من العواطف تصویراً تعبّر عنه لغة جميلة وحركة جميلة كذلك، هو — أيّاً كان

نوع تلك العاطفة — خير ألف مرة من تلك التدابير الموضوعة التي تطلبون إلينا كتابتها مقابل رضاكم عنا، على نحو ما توضع تلك المناقشات التي تقرر في أعمال البلديات، وتلك الانفعالات أبعد أثراً في تقويم أخلاق الإنسان بما تدفعه إليه من النظر في أعماق نفسه، ومن تحريك غرائز الطبع الإنساني تحريكاً يدفع بخيالها الفؤاد إلى الظهور أمام بصيرته.

إذن فهؤلاء الفنانون من الكتاب لا يريدون أن يقف الكاتب عند تكرار ما تعارف الناس عليه من ألفاظ برقة وجمل خلابة، ولكنهم يريدون أن يبحث في مختلف صور الحياة مما صادفه، وأن يحلل ما وقع تحت حسه من هذه الصور، وأن يسرير غورها ويجلو حقيقتها، وأن يعرضها على الناس كما يراها، حتى يعرف الناس دخائلها وحتى يحيطوا بكل ما في الحياة، يجب ألا يبقى الكثير من زوايا الجماعة مظلماً لا يعرفه إلا بعض الناس منمن دفعتهم إليها صروف القدر، بل يجب على الذين احتكوا بها، وعرفوا جوانبها وبحثوها أن يطلعوا الناس على كل ما وجدوه فيها، يجب أن يطلعوهم على الطريق في جماله، وعلى الطريق في وحشيته، والطريق في نفعه، والطريق في ضره، يجب أن تكون غاية صاحب الفن — مصوراً كان أو رساماً أو شاعراً أو كاتباً — أن يقصد إلى الحقيقة، يجلوها مهما كانت هذه الحقيقة مرعبة مخيفة، ولكن صاحب الفن إنما يقصد إلى تجميل الحسن وتقبیح القبح، وإنما يكون ذلك بصدق الوصف صدقًا يجعلك تحس بالصورة، وكأنها الشيء انتقل كل ما فيه من المعانى إلى نفسك، فأحدث فيها كل ما يمكن أن يحدثه من الانفعالات.

وحياة دوماس الصغير شاذة كمارأيت، هو قد عرف من حياة الجماعة تلك الروايا المظلمة التي لا يتاح لكتيرين أن يعروفها، عرف مرارة إحساس الابن الذي يولد من علاقة غير مشروعة، وعرف صور الحياة التي يلجأ هذا النَّفَل إلى أن يعيشها، عرف حياة إماء وأشباه الإماء، وعرف ما يدفع إلى هذه الحياة من النضال بين هبات الطبيعة وتقاليد الجماعة، وعرف معاذير الأشخاص الذين ينزلون إلى هذا النضال، وعرف النتائج السيئة التي تعلق بهم منه، والأثار الخطيرة التي تترتب على ذلك في حياة المجتمع، فكان من ذلك كله موضع بحث وتفكير عميق عنده.

وقد تطورت استنباطاته في هذه المسائل تطوراً عجيباً، فقد كان في صباح رءوفاً بالمرأة الساقطة، وكان يجد لها من جمالها ومن إحاطة الناس بها عذرًا عما قد ترتكبه من هفوات، ورأيه هذا أبداه في «غادة الكاميليا»، ثم إنه تحول عن هذا الرأي بعد ذلك،

ورأى في وجود هذا الصنف من الساقطات أذى للجماعة وإضراراً بها يجب معه تجنبها ومحاذرتها، ورأيه هذا أبداً في أنصاف الحرائر. ثم انتقل إلى أبعد مدى من هذا، فلم ير مجرماً من يقتل المرأة الخائنة، وهذا هو رأيه في قصته «قضية كلمنسو».

قد مثلت روايته «أنصاف الحرائر» في دار الأوبرا الملكية مساء الاثنين الماضي، وكانت واحدة من الروايات القليلة التي قامت بتمثيلها الممثلة الفرنسية البارعة الآنسة سيسيل سوريل، وكانت من بين الروايات التي نالت نجاحاً باهراً، فحق علينا وقد شهدناها أنْ نثبت أمرها في «السياسة»، وأنْ نعرضها للقراء.

موضوع هذه القصة بسيط كل البساطة، خلاصته أنَّ جماعة من النساء اللاتي أوتين حظاً من الجمال، وكن طمحةً إلى ما حلَّ وحرم من نعم الحياة، جماعة من النساء اللاتي يجدن في المدن وفي اجتماعاتها من صور الاستمتاع ما يحب إلينهن اتباع هواهن، والخروج على متعارف قواعد المجتمع إذا اجتمعن، وهذا الطراز من النساء المولعات بنعيم الحياة وأنواع الاستمتاع فيها يوجد في كل مدينة من المدائن الكبرى، حيث لا يعرف الناس بعضهم بعضاً، وحيث لا يقف الواحد من شئون جاره على الكثير ولا القليل، وحيث يتأتى لكل أنْ يحاذني الجريمة أو يقارفها وهو مرتد برداء المجد والشرف، وهو طراز يمتاز بأن النساء من أهله كلهن متزوجات، ولا يرى واحد لإحداهن زوجاً؛ لأن زوج واحدة منهن منقطع عنها لوفاة أو لغربة، وهن لذلك في انتظار الزوج لا يأتين المتعدة، وفي يد كل واحدة عصمتها، وعقد هذه المتعدة الحب أو دعوى الحب، وهي تدوم ما دام عقدها.

اجتمع إذن جماعة من هذا الطراز من النساء، إحداهن سوزان التي أسمت نفسها البارونة دانج نسبة إلى زوج لم تعرفه حياتها، ولكن اسمه يجعل لها في الحياة بريقاً محبوباً، و«الفيكونتس دفرينير» وابنة أختها «مارسل» وابنة الأخت هذه فتاة طيبة القلب، لم تعرف حراماً في الحياة، ولكنها ولدت، ثم سارع إليها اليم، فلم يكن بد من أنْ تتجأ إلى خالتها، وأنْ تبقى في جماعتها، وإلى جانب هؤلاء الثلاث «فالنتين دسانتيس»، وهي زوج من يدعى «فرنان شاربان» الذي هجرها منذ عشر سنوات؛ أي بعد زواجهما بقليل، إذ ثبت لديه أنها خانته، ولم يك عجيباً أنْ تخونه، فقد ولدت في بيئه بهذه البيئة التي وصفناها، وعاشت فيها ثم ابتعدت عنها زمناً حتى تزوجت، فكان طبيعياً بعد ذلك أنْ تعود إلى مثل أخلاق البيئة التي خرجت منها.

وكانت «سوزان» رفيقة «المركيز تومران» زمناً، فحصلت منه على ثروة كانت تدر عليها خمسة عشر ألف فرانك كل سنة، فلما هجرته أحبت شاباً من ذوي النبل يدعى «أولقيبيه دجاشي» زمناً، ثم بدا لها أنْ تهجر هذه الحياة التي عاشتها إلى الثامنة والعشرين من عمرها، وفكرت في الزواج من شاب مستقيم غني كريم المحتد، ولم يكن ذلك الشاب ميسوراً لها بين من عرفتهم وعرفوها، لذلك انتظرت تتحين الفرصة، فلما عاد «ريمون دمانجاك» من أفريقيا، وكان جندياً قضى بها عشر سنوات، أقبلت عليه وجعلت الزواج منه غايتها وهبها.

وإذ خشيت إنْ هي بقيت معه في باريس أنْ يقف على حقيقة أمرها فيتداعى ما تدبره، فكرت في أنْ ت safِر معه بعيداً عن فرنسا إذا اقتضى الحال، ورأت أنْ تخبر «أولقيبيه» بعزمها وبانقطاع ما كان بينهما من صلة، وأنْ تودعه قبل سفرها، وإنها لتدخل إلى بيته فتجد عنده «الفيكونتس دفرينيير»، وكانت قد جاءت تحدثه في شأن ابنة اختها «مارسل» التي تهواه، وتسأله لم لا يتزوجها؟ فيرفض؛ لأنَّه قد يعتقد بطهارة مارسل، ولكن أمامه مدام دسانتيis مثلًا حياً على أنَّ المرأة تعود إلى بيئتها وإنْ خرجت منها أول خروجها نقية طاهرة، تدخل سوزان عند أولقيبيه وترجع دفرينيير، وتخبر سوزان صاحبها بانقطاع ما بينهما وبعزمها على السفر، وبإحلال الصداقة محل ما كان بينهما من علاقة قديمة، وإنهما ليتحدثان إذ يعلن الخادم مقدم المسوِّي ريمون دمنجاك، فتضطر سوزان؛ لأنَّها لم تكن ترى أنْ يعرف واحداً من يعرفونها، وبعد هنية من رؤية تامر الخادم أنْ يدخل ريمون، ولا تبقى هي في حضرة الرجلين طويلاً بل تدعهما وتتنصرف.

ولم يكن ريمون يعرف أولقيبيه من قبل، وإنما جاء من قبل صديق له، يتحدث في أمر مبارزة تقع بين صديقه وصديق لأولقيبيه، وقد أخذ حين رأى البارونة دنج «سوزان» عنده؛ لذلك كان حديثه أول الأمر حاداً قاسياً، فكان يقف في سبيل كل حل يتقدم به أولقيبيه لمنع المبارزة، وقد أبدى له أولقيبيه دهشته عند ذلك، فسألَه عما يمكن أن يكون بينه وبين سوزان من علاقة، فلما علم منه أنها الصداقة ليس غير، ولما اقتنع حين أخبره أولقيبيه بأنه كان يستطيع أنْ يخبيها في أي غرفة من غرف الدار لو أنَّ في الأمر شيئاً، اتفق على ما ارتآه أولقيبيه من منع تلك المبارزة، وأصبح الرجالان صديقين، وأفضى ريمون إلى أولقيبيه بعزمِه على التزوج من سوزان، وبما بينهما من حب جاوز حدود العقل، هنا ينتهي الفصل الأول.

فإذا كان الفصل الثاني فقد اعتزم أولقييه أنْ يحول دون زواج سوزان بريمون، وهو يزعم خلال القصة كلها، ويتابعه في زعمه نفاد الرواية أنه أخذ نفسه بذلك كثريف ي يريد أنْ يحقق لصديق شريف معنى الشرف، وأنْ يحيط أباطيل هذه المرأة الساقطة، وقد يكون ما يزعمه أولقييه من ذلك صحيحاً، قد يكون الدافع له على العمل للحيلولة دون هذا الزواج، هو هذه الصدقة الجديدة التي تمت بينه وبين ريمون، وحبه لطبقة الأشراف التي هو منها، ولكنني أحسب أنْ ثمت دافعاً آخر، فقد كان أولقييه يحب سوزان، وهو لم يزل يحبها، وهي التي أرادت أنْ تقطع ما بينه وبينها من حب، وهي التي أرادت أنْ تستبدل به رجلاً آخر، وهي التي أعلنت ذلك إليه حين أخبرته بعزمها على السفر، وحين أفضى إليها صديقه الجديد بأنه سيتزوج من سوزان، فالغيرة التي حركت نفسه، والتي حركت عوامل الحقد على سوزان؛ لأنها ستتركه، وحرصه على أنْ تبقى إلى جانبه، وأنْ لا يستأثر بها رجل سواه، هذه الغيرة وهذا الحرص هما اللذان دفعا إلى نفسه هذا العزم، وهما اللذان حركاه بقية فصول الرواية، وهما اللذان هونا عليه المخاطرة بحياته في آخرها.

اعتزم أولقييه إذن أنْ يحول دون زواج سوزان بريمون، وقد تهيأت له أول فرصة لذلك حين كان معه في منزل الكونتس دفرنيير، وكانت هناك سوزان وفالنتين وسانتييس ومارسل، فقد جعل يقص على صاحبه من حياة أولئك النساء، ويصف له طرازهن ونوع حياتهن وصورة مجتمعهن، هذا المجتمع الوبيء الذي تهوي إليه كل زوجة لا تحرص على الوفاء لزوجها، والذي ترتفع إليه كل ساقطة عافت الهوى وسيلة للكسب، وتعلقت به سبيلاً للاستمتاع بلذذات الحياة، صور له هذا المجتمع، وأشهاده ما يدور من حوار بين السيدات فيه، وقد تنبهت سوزان إلى الحديث فأسرعت إلى منعه، ولما سألت أولقييه كيف يعدها الصدقة بالأمس، ثم يطعن عليها اليوم – ولو بالطعن على بيتها – أجابها بأنَّ الصدقة لا تمنع الرجل من المحافظة على شرف الشريف، وكذلك أعلنت الحرب بينهما.

على أنَّ هذا الحديث الذي جرى بين أولقييه وريمون لم يفتح عين هذا الأخير بعد، إذ غشَّ عليها الحب الذي نصب سوزان له حبايله، وكانت لا تفتَّأ تغدوه بدعوى الحب من جانبها، وبما تظهره من عواطف ملتهبة، وكل ما فعله أنْ خاطب سوزان فيما قاله صاحبه: فكفى أنْ تظهر الصدقة والعدول عن فكرتها؛ ليعود هو إليها خاضعاً ذليلاً.

لم يغير ذلك من نفس أولقييه ولم يثنه عن عزمه، بل تراه في الفصل الثالث أكثر إمعاناً في تنفيذ ما اعتزم، وأشد إقداماً على اقتحام كل العقبات، تراه وقد منعت سوزان عليه

بابها ينتهز فرصة دخول ريمون فيستأنن هو الآخر، ويتساءل عن ربة البيت، فيعلم أنها خرجت، فيهم بالانصراف ويطلب إلى ريمون أنْ يبلغها أنه كان يحمل إليها رسالة، ولكنه يعود فيخاطب ريمون في أمر سوزان من جديد، ويطلب إليه أنْ يسألها عن زوجها الأول، فإذا انتهى من حديثه وهم بالانصراف سأله صاحبه عن الرسالة التي يريد أنْ يحمله إياها لخطوبته، فيتردد، ثم يسلمه الرسالة بعد أنْ يأخذ عليه عهداً لا يفتها، وبعد أنْ يخبره أنها خطابات غرام كانت ترسلها إليه سوزان، هناك يغلي الدم في عروق ريمون، وينتظر عودة سوزان بصدر ذاهب، فإذا عادت قدمت إليه شهادة ميلادها، وعقد زواجهما، وشهادة وفاة زوجها، وأنت لا شك تعلم أنَّ هذه الأوراق الرسمية الثلاث مزورة كلها، ولكن الرجل الساذج الذي قضى عشر سنوات في أفريقيا، الذي يحسب أنَّ كل بِرَأْق نهباً لا يلتفت إلى هذا التزوير، ويضعف أمام الماكنة الماهرة ولكنه يظل مأخوذاً بفكرة الخطابات التي تبودلت بين سوزان وأولقييه، فيطلب إلى سوزان أنْ تكتب خطاباً يخطها، ثم يحضر الرسائل ويفرضها ويقارن الخط، فإذا كل شبهة ساقطة، إذ ليس بين خطها وخط هذه الرسائل شيء، حينذاك يقتنع، ويستغفر لها عن سوء ظنه بها، ويكرر لها أحر عبارات الحب وأقواها.

وعاد أولقييه وقابل سوزان، فسخرت منه، وأخبرته بأنها عرفت كيف أسلم رسائلها ريمون، وأنها لم تكن مكتوبة بخطها، وإنما كانت تملئها على مدام دسانتييس كما أخبرته بأنها قدمت شهادة ميلادها، وعقد زواجهما، وشهادة وفاة زوجها، وتحدثه إنْ استطاع أنْ ينقض ما أبرمت.

فلما كان الفصل الرابع عاد أولقييه إلى حيث صديقه ورفيقته، وذكر ريمون ما عرفه من أمر الخطابات، ومن تزييف الأوراق التي قدمتها سوزان، فطرده ريمون، ولما لم يخرج انتهيا إلى أنهما سيتبارزان، فلما رأت سوزان عظيم الخطر الذي يتهدد رفيقها القديم وزوجها، جاءحت تريد أنْ تمنع هذه المبارزة، فتوسلت لريمون فلم يُجد توسلاها، وأخيراً قابلت «مارسل» وأخبرته بما سيكون، ومارسل – كمارأيت – مولعة ولها بأولقييه، فذهبت إليه أول الفصل الخامس تريد منعه، فأبدى أنه نازل على إرادتها، لكنه تركها وخرج من باب آخر، وجاءتها سوزان فذكرت لها أنَّ أولقييه الذي يبدي أنه يحبها، يقول لها هي أيضاً أنه يحبها، فترددت مارسل في تصديق الخبر، فطلبت إليها أنْ تخرج وتدع لها المكان، وعاد أولقييه من المبارزة جريحاً، فلما رأى سوزان ذكر سابق حبه ولائع

غرامه، وعند ذلك دخل ريمون فوجدهما على هذه الحال، فانفتحت عينه وأيقن أنَّ ما ذكره أولئك فيه له عن سوزان صحيح، فألقى إليها بعقد لها، فأخذته فمزقته مغضبة حانقة أنْ أخفق كل ما كانت ترجوه، ودخلت مارسل، فاستقبلها أولئك فيه في حفاوة وترحاب، وطلب يدها، ومدحها له ريمون، وتم زواجهما وانتهت الرواية.

هذه القصة — أنصاف الحرائر — هي الدور الثاني من تطورات تفكير دوماس الصغير في أمر أنصاف الحرائر، فقد رأيت أنه كان يعطف عليهن حين كتب «غادة الكاميلايا». فلما كتب أنصاف الحرائر كان قد بدأ يحقد عليهن، وقد تم تطوره حين كتب «قضية كلمنسو»، فإنه جعل موضوعها دائِرًا حول امرأة تزوجت، فخانت زوجها، فقتلها زوجها وأبرأه القضاء.

ولعلك ترى ما في قصة أنصاف الحرائر من بعض أوجه النقد، فهذا جالن يعني مدام دسانتييس سيرها، ويرد سوءه إلى نشأتها، ويجعل ذلك سببًا لرفض التزوج من مارسل أول الرواية، ثم هو يعود فيقبل زوجها في آخر الرواية، ولم يحدث ما يدعو إلى تغيير رأيه، وهذا دمانجاك يظل الأيام والأسابيع تتالي عنده الشبهات، فإذا الحب قد غشي على بصره فلا يرى، وهذا قد لا يكون عيبًا، ولكن هذه سوزان اعتزمت السفر حتى لا يقف أحد من أمرها على شيء، وهي أشد ما تكون رغبة في الفرار بعيدًا عن أولئك فيه جالن، وهي تطيق هذا الفرار، ولكنها على الرغم من ذلك تبقى، وال الحرب بينها وبينه حرب ضروس لن تنتهي إلى حين.

ولكن مواضع النقد هذه ليست ذات خطر إلى جانب قيمة الرواية وقوتها، وقد وضعنا دوماس أمام مشاهد بلغت من الإبداع في الفن غايتها، مشاهد ليست مما يراه الكثيرون في الحياة، وقد يرى بعض الخلقين عرضها في غير مصلحة الأخلاق، ولكنها مشاهد تمثل حياة طائفة كبيرة من أهل المدن، وقد يكون من الخير أنْ تعرض حتى يعرف الناس موضع المرض فيتقوا جرثومته.

وقد مثلت جوقة الكوميدي بالأوبرال الملكية هذه القصة خير تمثيل، ولستنا بحاجة للثناء على مدموازل سيسيل سوريل في تمثيلها دور «سوزان»، فقد كانت هذه الحرب بينها وبين أولئك فيه، وحرصها على أنْ تصل إلى الفوز، وإلى تحقيق ما اعتزمته من التزوج من ريمون

دمانجاك تحتاج إلى قوة في بعض المواقف، ورقة في البعض الآخر، وضعف في مواقف أخرى، فلم يكن صوت سوريل وحده هو الذي يعبر عن القوة وعن الرقة وعن الضعف، بل كانت مقدرتها في العبارة راجعة إلى كل كيانها، وإنك ل تستعبر في بعض المواقف حين تراها، وقد رأت نفس ريمون يدخلها الريب، قد صارت كلها حباً واستعطافاً ورقة وضعفاً، ثم إذا بك تراها أمام أوليقبيه، وقد ملكت كل وسائل القوة في حالة من الهدوء النفسي، تتجلى معها القوة القاسية في سكينتها وسخرها.

وقد نفتت مدموازل سوريل على الرواية من روتها قوة، وكان المثلون إلى جانبها يزيدون هذه القوة وضوحاً وجلاً، لولا بعض مواضع كانت تبدو في الأدوار الثانوية. وقد مثلت جوقة الكوميديا بالأوبرا الملكية هذا العام تمثيلاً حاز أكبر الإعجاب.

ديسمبر سنة ١٩٢٣

خياطة لونيفيل

للكاتب الفرنسي «ألفريد سقوار»

لا تقل إنها امرأة ذكية حادة الذكاء، ولكن قل: إنها جذوة من الذكاء، ولا تقل: إنها ماهرة في الفن، ولكن قل: إنها الفن يحيا ويتحرك، فأنت إذا شهادتها لم تستطع أنْ تفرق بين الذكاء والذكي، ولا بين الفن والفنان، وإنما اختلط عليك الأمر اختلاطاً، ثم اقتنعت بأنك تشهد الذكاء والفن يضطربان ويترددان في ملعب التمثيل فيستأثران بهواك، ويخلبان لك، وينسيانك نفسك وما يحيط بك، ويقصران حياتك على ما تسمع وعلى ما ترى.

فأنت معلق بالألفاظ المثلثة، وأنت معلق بحركاتها، وغريب جدًا ما تشعر به حين يلقى الستار، وتعود إلى نفسك فتشعر بها وتفكر فيما يحيط بك، وأنا زعيم بأنَّ هذه العودة لن تكون يسيرة عليك ولا محببة إليك، فستظل بعد أنْ تفارق ملعب التمثيل أسيرًا في الملعب، وستسمع صوت المثلثة، وسترى حركاتها، وستحب هذا الأسر وترغب فيه، وتكره أنْ تصرفك عنه صاراتات الحياة، ستتصل نفسك بما سمعت؛ لأنَّ جميل، وستتصل نفسك بما رأيت؛ لأنَّ جميل، وستستعدُّ هذا الاتصال وستتسلَّل الحديث الذي يصرفك عنه، وتتبرِّم بغير الحديث من شئون الحياة التي تضطرك إلى أنْ تفكِّر في غير ما رأيت أو سمعت، وستتمنى حين تخرج من ملعب التمثيل أنْ تخلو إلى نفسك، أو أنْ تخلو إلى ما سمعت وإلى ما رأيت، أو أنْ تخلو ليتاح لك أنْ تستعدُّ الفن وتسيره، وأنْ تستعدُّه وتسويقه إلى غير حد، وبم يمتاز الجمال الفني؟ وبم يمتاز أثر الجمال الفني في نفسك؟

أليس يمتاز بأنك لا تزال منه حظاً إلا استعذبه وتمنيت منه المزيد، ومهما أتيح لك منه فلن يثقل عليك، ولن تنصرف عنه نفسك، ولن تزداد إلا اتصالاً به وفناء فيه!

أنا زعيم لك بهذا كله إذا شهدت هذه المثلثة فسمعتها تقول، ورأيتها تلعب، وقد أطيل القول فلا أقول شيئاً، وقد أتكلف تخير الألفاظ فلا أجد ما أؤدي به شيئاً مما أجد في نفسي، من ذا الذي يستطيع أنْ يصور بالألفاظ ما يحس في نفسه من جمال الفن! ومن ذا الذي يستطيع أنْ يترجم الموسيقى ترجمة صادقة إلى الكلام! أستطيع أنْ أقرأ كتاباً من كتب العلم أو الأدب أو الفلسفة فأعجب به، ثم أنقل إليك خلاصة ما قرأت، وأصف لك لذتي بما قرأت، وأشركك في هذه اللذة، ولكنني أعترف، وأظن أنْ غيري من الكتاب يعترفون بالعجز كل العجز عن أنْ نشهد آية من آيات الفن، ثم ننقل إليك منها صورة صادقة أو قريبة من الصدق، ثم نصف لك لذتنا بهذه الآية واغباطنا بها، ونشرك في هذه اللذة وفي هذا الاغباط نحن عاجزون عن هذا العجز كله؛ لأن استعدادنا للشعور أعظم من قدرتنا على الوصف، ولأن الألفاظ التي أتيحت لنا حين حاول الوصف أقل عدداً وأضيق نطاقاً من هذه العواطف والأهواء التي لا تحصى، والتي تثيرها في أنفسنا آيات الفن على اختلافه، وإذا ضاقت اللغة بالعلم والفلسفة فهي بالفن أشد ضيقاً، وأحسب أنَّ اللغة لم تخلق لتعبير عن الفن، وإنْ تكن قد خلقت لتعبير عن الفن فأنا أعتقد أنْ بينها وبين تحقيق هذه الغاية التي خلقت لها أمداً لا يزال بعيداً.

لقد رأيت السيدة سيمون في مواقف مختلفة الاختلاف كله، متباعدة أشد التباين، وحاولت أنْ أفضل بينها في هذه المواقف المختلفة المتباعدة، وأفضلها على نفسها في موقف دون موقف، فما وجدت إلى ذلك سبيلاً، ومع ذلك فإن اختلاف هذه الموقف عظيم، عظيم بحيث لا تكاد تتصور أنْ يوفق فرد إلى إتقانها جميعاً، انظر إلى هذه المثلثة في موقف كله لعب وفتنة، وكله لذة ولهو، انظر إليها فإذا هي تأخذ بحظها من ذلك موفوراً، كأنها لم تعرف في حياتها إلا اللعب والفتنة، وإلا اللذة واللهو، وكأنها خلقت لهذا الموقف، وخلق لها هذا الموقف! ولكن احذر أنْ تحكم عليها مثل هذا الحكم، فما أسرع ما تراها قد انتقلت من هذا الموقف إلى أشد المواقف بعدها ومناقضة له، إلى الحزن والكآبة، إلى البؤس العميق الذي امتزج باللحم والدم، وصور النفس على صورته، فإذا هي ببؤس وكآبة، تنتقل إلى هذا الموقف في سرعة مدهشة، فانظر إليها فيه، فتشعر بأنها ليست أقل اطمئناناً إليه وقدرة عليه وبراعة في تمثيله مما كانت في الموقف الأول، ثم دع هذين الموقفين وانظر إليها في موقف آخر، في موقف يزدرى اللذة واللهو كما يزدرى الحزن والبؤس، في موقف

يشرف منه الإنسان على الحياة ولذاتها وألامها إشراف الفيلسوف يزدريها، ويبتسم لها ابتسامة لا تستطيع أن تتبين أهي ابتسامة سخط أم رضا، انظر إليها في هذا الموقف فستضطر إلى الحكم بأنها قد خلقت له وخلق لها، وليس العجب أنها تستطيع أن تتقن هذه المواقف وتبرع في تمثيلها فحسب، وإنما العجب كل العجب أنها تستطيع أن تنتقل بين هذه المواقف في غير هدنة ولا مهلة، وفي غير تكلف ولا تصنع.

ماذا أقول! هي إلى التأثير فيك أسرع منك إلى التأثر بها، فبينا أنت مغرق في الضحك؛ لأنها بعثتك على الضحك، وبيننا أنت في حاجة إلى شيء من الملة؛ لتقضى العجب وتأخذ بحظك من هذا الضحك، إذا هي مغرقة في حزن لا أول له ولا آخر، وإذا هي اختطفتك في عنف وحفة من الابتهاج والسرور إلى الابتئاس والعبوس، وإذا أنت لعبه في يدها، تضحك؛ لأنها أرادت أن تضحكك، وتبكى؛ لأنها أرادت أن تبكيك، وقد نسيت نفسك فما تدرى لم تضحك ولم تبكي! وكيف تنتقل من ذلك الضحك إلى هذا البكاء!

شهادتها تمثل قصتين، إحداهما التي أحدهك عنها اليوم، وأعترف بأن هاتين القصتين في نفسها لم تعجباني، ولم تتركا في نفسي من الأثر القوي ما كنت أنتظر أن تتركا، ولكنني مع ذلك لم أتعجب قط بقصة تمثيلية قرأتها أو شهدتها إعجابي بهاتين القصتين حين شهدتهما في الأوبرا الملكة، لا أستثنى من ذلك إلا قصة «بيرينيس» لراسين حين كانت تمثلها «بارتية»، وإلا قصة «الحب» لبول جيرلدي حين تمثلها «بييرا»، لا أستثنى غير هاتين القصتين، على أني شهدت قصصاً تمثيلية كثيرة وحظها من الإبداع الفني عظيم، وشهدت مثلثات كثيرات فيهن «سيسيل سوريل» ونظائرها.

وقد أستطيع أن أحدهك فلا أفرغ من الحديث، دون أن آتي بشيء مما أشعر به من الحق للسيدة «سيمون» فلأرُحُكَ، ولأرُحُ نفسِي من هذا العناء غير المفيد، ولأخلص لك القصتين تلخيصاً موجزاً.

«خياطة لونيفيل» قصة غريبة في نفسها، كلها أشياء غير متوقعة، ويكفي لإثبات ذلك أن تعلم أنَّ التلخيص الذي وضع لها ليقرأه الجمهور قبل التمثيل، لا يشتمل إلا على خلاصة الفصل الأول، فاما الفصول الثلاثة الباقية فقد أشير إليها بأصفار، وهذا يبين مقدار اعتماد الكاتب على الممثلة وأمله فيها، فقد أنشأ القصة لها وحدتها.

يرفع الستار فإذا مطعم من مطاعم باريس الفرحة المبتهجة يختلف إليه آخر الليل أولئك الذين استمتعوا بما أتيح لهم من اللذة في ملاعب التمثيل والموسيقى، فلما قضوا

حظهم من ذلك أقبلوا يأكلون ويشربون ويتمون الليل في لهو ولعب، وهذه الليلة من ليالي الرقص في الأوبرا، فالمزدحمون على هذه المطاعم كثيرون، تضيق بهم غرفاتها الخاصة والعامة، وقد أقبل فيمن أقبل على هذا المطعم فتى فرح مبتهج، ومعه امرأة جميلة فتنته، أو قل إنها فتنتها، أو قل إنها تعبث به، هذا الفتى هو «بيير رولون»، وهذه المرأة هي «إيرين سلافاجو»، كانت في أحد ألواج الأوبرا، فلاحظت هذا الشاب فأشارت إليه، فسعى إليها، فأقبل ياتمان ليلاً في اللهو بهذا المطعم، فلا تكاد تسمع حديثهما حتى تتبين أنَّ هذه المرأة أجنبية، وحتى تتبين من صوتها أو حديثها أنها غامضة شديدة الغموض، مبهمة إيهاماً لا حدَّ له، شديدة الانتقال من طور إلى طور في عبث وتحكم، مالكة أمر نفسها، لا تأكل ولا تشرب ولا تلهو إلا بمقدار ما تريد، أما الفتى فعلى عكس هذا كلُّه، سمح، طلق، سهل القياد، لم يك يخلو إلى صاحبته وتدفعه إلى الحديث حتى أخذ يتحدث ويتحدث، ويقول عن نفسه ما يقال وما لا يقال، وهو نشوان، ثم لا يلبث أنْ يسُكر ويندفع في القول، وقد زعم لصاحبته أنه يحبها ويهيم بها حباً وهياماً لا عهد له بمثلهما، وأنه حر لا يقيده حب آخر، ولكن نظرة في صحيفة من الصحف تظهر صاحبته على أنه سيتزوج غداً، أو قل سيتزوج ظهر اليوم، فنحن في الساعة الثالثة صباحاً، هذه المرأة روسية معروفة، تلع في السينما توغراف، فإذا علمت أمر صاحبها وإنَّه سيتزوج بعد ساعات، وعلمت من قصته في ماضيه أنه كان ضابطاً في الجيش، وأنه رابط في مدينة لونيفيل غاظها خداعه وكذبه وإخفاؤه أمر الزواج، فأضمرت في نفسها شيئاً، فأقبلت عليه تلطفه وتلهيه وتتكلف الشرب وتغريمه به، فيشرب حتى يفقد صوابه، وحينئذ تدعوه سائق سيارتها وتتكلفه أنَّ يحمل هذا السكران إلى لونيفيل، وأنَّ يعزله في قهوة هناك بالقرب من القلعة ثم يعود، وهي إنما ت يريد بذلك أنَّ تفوت عليه ميعاد الزواج.

فإذا كان الفصل الثاني رأيت صاحبنا في باريس، وقد مضى على قصته هذه ستة أشهر، وكان مالياً يعمل في المصارف والبورصة، فما زالت به صاحبته الروسية هذه حتى بدَّ ثروته وانصرف إليها عن كل شيء، وما هي إلا أنَّ أسرع إليه الإفلات، فقد ما كان عنده وأضاع ثقة الناس به، واعزم أنَّ يترك باريس، وأنَّ يذهب إلى حيث تقيم أمَّه في الأقاليم، وهو مع ذلك كلف بهذه المرأة التي حملته كل هذه الأعباء دون أنْ يظفر منها بشيء، كلف بها حتى إنه ليرجو من خادمه أنَّ يبعث إليها بأزهار، وأنَّ يدفع ثمن هذه الأزهار من دين له على سيده، يخرج الخادم، ولكنه يعود مسرعاً؛ لأنَّه يرى هذه المرأة مقبلة،

فلا يكاد ينبع سيده بمقدمها حتى يهيم هذا فرحاً، فيأخذن لخادمه في أن ينصرف، ويلهو طول يومه، يريد أن يخلو إلى صاحبته، فإذا دخلت عليه أتبها ولامها لوماً عنيقاً، فتظره له أنها قد أقبلت لتنيله ما يريد، وأنها إنما امتحنته طول هذه المدة فاطمأنّت إليه، وأقبلت تريد أن تعيش معه، ولكنها جائعة فهي تريد أن تأكل، وعطشى فهي تريد أن تشرب، وقد انصرف الخادم، فصاحبنا مضطراً إلى أن يذهب ليحمل طعاماً وشراباً، ولكنه لا يكاد يخرج حتى تتغير هذه المرأة تغيراً غريباً، فإذا شكلها ولباسها أبعد الأشياء عن شكلها ولباسها حين دخلت، ويعود صاحبها، فلا يكاد يراها حتى يدهش ويبحث عن صاحبته ويناديها، فتجيبه هذه المرأة في حركة جنونية وصوت ملائمة لهذه الحركة، حتى يخيل إلى الرجل أنه أمام مجونة، وهو حانق على هذه المرأة؛ لأنّه لا يجد صاحبته، وما هي إلا دقائق حتى يتبيّن أمر هذه المرأة التي أمامه، فإذا هي امرأة من لونيقيل كانت بنت رجل يبيع التبغ، وعرفها صاحبنا حين كان مرابطاً في هذه المدينة فأغواها ثم هجرها، وعرف أبوها الأمر فطردها، وكانت حاملاً فولد لها طفل لم يلبث أن مات، وقد مضت على هذه القصة أعوام طوال حتى نسيها صاحبنا نسياناً تماماً، أما هي فلم تنسها، ولم تفكّر إلا في هذا الفتى الذي أغواها وهجرها، والذي تحبه هي حباً شديداً وتريد أن تلقاه، عاشت وحدها، فاتخذت حرف الخياطة، ثم انتقلت إلى باريس فوصلت إلى ملاعب السينما توغراف، ولكنها لا تقص على صاحبنا تفاصيل أمرها، وإنما تنبئه منه بما يكفي، فإذا علم أنها كانت حاملاً وأنها فقدت طفلها، ذكر ماضيه وماضيها ورق لابنها وعطف على الفتاة، وسألها ماذا تريد، فتنبئه بأنها اقتصرت، وأنّ لديها ١٠٠٠٠ فرنك تريد أن تُثمرها، وهي تأتمنه على هذا المقدار؛ لأنّه يعمل في المصارف، صاحبنا سعيد بهذا؛ لأنّ هذا المال سيصلح من أمرها، وسيرد إليها ثقة الناس به، فهو مغبط، وصاحبته هذه كلفة به، فهي تعرض عليه حبها وتعزيتها، وما أسرع ما يطمئن إليها الفتى فيقضيان الليل معاً.

إذا كان الفصل الثالث أصبح الفتى فلم يجد صاحبته، فيفترض أنها خرجت، وهو سعيد؛ لأنّه سيصلح من أمره المالي، سيبقى في باريس وسيستأنف عمله، ولكن الروسية تقبل مغصبة، فتزعم له أنها بينما كانت متظاهرة حين ذهب ليأتي بالطعام دخلت امرأة اسمها «أناطريبيي»، وعرفت هي أنّ هذه المرأة صاحبته فانصرفت مغصبة، يجتهد صاحبنا في إقناعها بأنّ هذه المرأة ليست صاحبته الآن، وإنما عرفها قديماً حين كان في الجيش، وهجرها منذ أعوام طوال، وقد أقبلت إليه لحاجة.

ولكنك قضيت الليل معها! وما تزال به حتى يعترف، ولكنه إنما قضى الليل معها فرقـت له ووـاسته، ثم عرضـت نفسـها عليهـ، ثم لا تزال به صاحـبـته حتى تـكرـهـهـ علىـ أنـ يـصـفـ لهاـ لـيلـتهـ وـصـفـاـ مـفـصـلاـ فـيـفـعـلـ، ولكـنهـ يـكـذـبـ كـثـيرـاـ، فـيـصـفـ نـفـسـهـ بـالـبـرـاءـةـ، ويـصـفـ صـاحـبـتـهـ بـالـكـرـ والـخـدـيـعـةـ، وقدـ لاـ يـكـتـفـيـ بـذـلـكـ فـيـذـمـ جـسـمـ صـاحـبـتـهـ ذـمـاـ يـغـضـبـ هـذـهـ الـمـرأـةـ؛ لأنـهاـ هيـ بـعـينـهاـ، حتـىـ إـذـ أـتـمـ لـهـ وـصـفـ الـلـيـلـ أـظـهـرـتـ عـفـوـهـاـ عـنـهـ وـسـمـاحـهـاـ، ولـكـنـهاـ تـطـلـبـ إـلـيـهـ ١٠٠٠٠ فـرـنـكـ؛ لأنـهاـ مـحـاجـةـ إـلـىـ هـذـاـ المـقـارـ اـحـتـيـاجـاـ شـدـيـداـ؛ ولـأـنـهاـ إـذـ لمـ تـظـفـرـ بـهـ فـسـتـضـطـرـ إـلـىـ أـنـ تـبـيـعـ خـاتـمـاـ فـيـ يـدـهـاـ، وهـيـ حـرـيـصـةـ عـلـىـ هـذـاـ الـخـاتـمـ، يـعـذـرـ فـتـلـحـ، فـيـعـتـرـفـ بـفـقـرـهـ وـإـلـاـسـهـ، فـلـاـ تـصـدـقـهـ، ثمـ تـعـدـمـ إـلـىـ خـرـانـتـهـ فـتـفـتـحـهـاـ وـتـبـحـثـ فـيـهـاـ، فإـذـ الـمـالـ الذـيـ أـوـدـعـتـهـ «ـأـنـاـ»ـ، تـحـصـيـهـ وـتـرـيـدـهـ فـيـأـيـ، وـيـنـبـئـهـ أـنـهـ لـاـ يـمـلـكـ هـذـاـ الـمـالـ، وـلـاـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـعـرـضـهـ، ولكـنـهاـ تـلـحـ وـتـنـذـرـ، وـتـعـلـنـ أـنـهاـ سـتـسـلـمـ نـفـسـهـاـ إـلـىـ شـرـيكـهـ الـقـدـيمـ، وـمـاـ تـزـالـ بـهـ حتـىـ يـفـقـدـ صـوـابـهـ، فـيـدـفعـ إـلـيـهـ الـمـالـ فـتـنـصـرـفـ فـرـحةـ.

أماـ هوـ فـتـعـسـ مـحـزـونـ؛ لأنـهـ أـصـاعـ مـاـ لـيـمـلـكـ، وأـضـاعـهـ فـيـ شـهـوـةـ دـيـنـيـةـ، لـيـرـضـيـ اـمـرـأـةـ، يـشـتـهـيـهاـ وـلـاـ يـحـبـهاـ، بلـ هوـ يـمـقـتـهاـ؛ لأنـهاـ تـعـبـثـ بـهـ وـتـسـخـرـ مـنـهـ، وهـوـ فـيـ حـزـنـهـ إـذـ تـقـبـلـ «ـأـنـاـ»ـ فـرـحةـ مـبـهـجـةـ، وـقـدـ حـمـلـتـ إـلـيـهـ مـتـاعـاـ، وـنـظـرـتـ فـيـ شـؤـونـهـ، فـهـيـ تـرـيـدـ أـنـ تـصلـحـ الـفـاسـدـ مـنـهـاـ، هيـ فـرـحةـ مـبـهـجـةـ، وـهـوـ تـعـسـ حـزـينـ، وـقـدـ أـحـضـرـتـ صـحـيـفـةـ مـالـيـةـ، فـيـسـأـلـهـاـ ماـ هـذـهـ الصـحـيـفـةـ؟ أـحـضـرـتـهـ لـنـبـحـثـ مـعـاـ عـنـ أـحـسـنـ مـورـدـ نـسـتـغـلـ فـيـهـ مـائـةـ أـلـفـ الـفـرنـكـ، ماـ رـأـيـكـ فـيـ مـنـاجـمـ الـذـهـبـ؟ يـعـتـرـفـ لـهـ بـجـريـمـتـهـ فـتـبـكـيـ وـبـكـيـ، ثـمـ يـرـيدـ أـنـ يـصلـحـ مـاـ أـفـسـدـ، فـيـعـرـضـ عـلـيـهـ أـنـ يـتـخـذـهـ زـوـجـاـ؛ لأنـهـ عـرـفـهـاـ فـقـيـرـةـ ثـمـ هـجـرـهـاـ، ثـمـ عـرـفـهـاـ غـنـيـةـ فـأـضـاعـ ثـرـوـتـهـاـ، وـهـوـ فـقـيرـ، فـيـسـتـطـيـعـانـ أـنـ يـقـرـنـاـ وـسـيـحـبـهـاـ وـسـيـفـيـ لـهـاـ، أـمـاـ هـيـ فـتـظـهـرـ الشـكـ، ثـمـ تـمـتـحـنـهـ فـتـسـأـلـهـ أـعـنـدـكـ رـسـائـلـ لـهـذـهـ الـمـرأـةـ؟ نـعـمـ! إـذـنـ فـهـاتـهـاـ وـاـحـرـقـهـاـ، يـتـرـدـدـ، ثـمـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ يـحـضـرـ هـذـهـ الرـسـائـلـ فـإـذـ عـادـ أـبـيـأـتـهـ بـأـنـ هـذـهـ الـمـرأـةـ تـحـدـثـ فـيـ التـلـفـونـ، فـقـالـتـ: إـنـهـاـ تـنـتـظـرـهـ نـصـفـ الـلـيـلـ، فـلـاـ يـكـادـ يـسـمـعـ هـذـاـ الـحـدـيـثـ حتـىـ يـجـنـ جـنـونـهـ فـيـنـسـيـ كلـ شـيءـ إـلـاـ هـذـهـ الـمـرأـةـ وـمـيـعـادـهـ، وـتـحـذـرـهـ هـيـ وـتـنـهـاهـ أـنـ يـذـهـبـ.

فـإـذـاـ كـانـ الفـصـلـ الـرـابـعـ فـنـحنـ فـيـ بـيـتـ هـذـهـ الـمـرأـةـ الـرـوـسـيـةـ، بـلـ فـيـ غـرـفـةـ نـومـهـاـ، وـهـيـ تـتـحـدـثـ إـلـىـ نـفـسـهـاـ وـبـيـنـ يـدـيـهـاـ رسـالـةـ تـنـظـرـ فـيـهـاـ، كـتـبـتـ هـذـهـ الرـسـالـةـ مـنـذـ أـعـوـامـ إـلـىـ «ـأـنـاـ»ـ فـيـ لـوـنـيـقـيلـ، وـكـاتـبـهـاـ هـذـاـ الفـتـىـ «ـبـيـرـرـولـونـ»ـ يـعـلـنـ فـيـهـاـ القـطـيـعـةـ إـلـىـ صـاحـبـتـهـ.

تـتـحـدـثـ إـلـىـ نـفـسـهـاـ بـأـنـ هـذـاـ الفـتـىـ إـنـ لـمـ يـرـدـهـاـ فـقـدـ تـابـ وـصـلـحـ أـمـرـهـ، فـهـوـ إـذـنـ يـحـبـهـاـ، وـهـيـ إـذـنـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ تـظـهـرـ لـهـ حـقـيـقـةـ أـمـرـهـاـ، وـأـنـ تـقـرـنـ بـهـ، وـأـنـ تـسـعـدـ بـالـحـيـاةـ مـعـهـ؛ لأنـهـاـ

تحبه إلى غير حد، وهي تتكلف ما يتلطف، ويؤلها ما يؤله؛ لأنها تحبه وتريد أن يحبها، وهي الآن أمام مسألة دقيقة أي المرأتين يحب؟ أحب هذه المرأة القاسية اللعوب، أم يحب تلك المرأة الهدائة الصريحة؟ أحب الرحمة أم يحب العنف؟ أحب الشرف أم يحب الإثم؟ إن لم يأتِ فسأسعد بالحياة معه، فإن أتى فهي تضمر في نفسها أموراً عظامًا تفهمها من حديثها إلى الخادم، فهي تذكر لها صوت المسدس، وأنها قد تسمعه، وأنها قد تدعوه الطبيب، وهي إذ يدق الجرس، إذن فقد أقبل، إذن فهو لا يحب الرحمة ولا الشرف، وإنما يضحي بهما في سبيل القسوة والإثم، يدخل فإذا هي في سريرها فيهجم عليها فتلتاه عابثة مقطبة، ولكنها مقصبة، ثم يكون بينهما حديث فتشترط عليه ليظفر بما يريد أن يقطع ما بينه وبين «أنا» فيقبل! إذن فاكتب الآن إليها رسالة القطيعة، يريد أن يؤجل فتأبي، يمانع فتح، وتأمره أن يجلس ويكتب ما تملي عليه نص الرسالة التي كانت تنتظر فيها أول هذا الفصل، والتي كتبها منذ أعوام طوال إلى «أنا» حين هجرها في «لونيفيل». يكتب كارهًا، ولكنه لا يكاد يتوسط الرسالة حتى يكف عن الكتابة، تأمره فيأبى، ثم يشتد بينهما الخدام، فإذا هو قد أطلق عليها المسدس، ولكنه قد أخطأها!

- إذن فقد كنت تريد أن تقتلني!

- نعم!

- في سبيل «أنا»؟!

- نعم!

ثم يعترف لها بأنه لا يحبها، وإنما يشتهيها عناداً، ويريد أن ينتقم لنفسه من هذا العبث الطويل، أما جبه فمقصور على «أنا»، ثم يريد أن ينصرف ولكنها تدعوه، إذن فتعال! يلتفت فإذا «أنا» أمامه! من أنت أكنت اثنتين؟ من أنت؟ أنت «أنا» أنت «أنا» إيرين؟ من أنت؟ فتجيبه: أنا «أنا» التي تحبك، وأنا «إيرين» التي تفتتنك! يجيبها: إني لأحبك «أنا»، وإنني لأحبك «إيرين»!

ديسمبر سنة ١٩٢٤

الحارسة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «بيير فروندي»

أريد اليوم أن أحذثك عن قصة اختلفت فيها آراء النقاد اختلافاً عظيماً، فمنهم من أكبّرها حتى كاد يقرنها إلى آيات الفن في القرن السابع عشر، ومنهم من أصغرها حتى أشفرها منها على صاحبها، بل إنَّ الاختلاف في أمر هذه القصة لم يقتصر على النقاد وحدهم، بل تجاوزهم إلى الجمهور، ويمكن أن يقال: إنَّ هذه القصة أخفقت أمام الجمهور، فلم تمثل إلا مرات قليلة آخر السنة الماضية.

بل نستطيع أن نقول: إنَّ الخلاف تجاوز النقاد والجمهور إلى الممثلين أنفسهم، فقد وقع الخلاف في أمور تفصيلية من هذه القصة بين السيدة سيمون التي كانت تلعب دور البطلة، وبين الكاتب نفسه، فألغت الممثلة أثناء التمثيل مناظر وحذفت جملًا طوالًا، وحرض الكاتب على هذه المناظر، وهذه الجمل عندما نشر قصته، وفي الحق أنَّ كل هذا الخلاف يفهم إذا قرأت القصة بإمعان وتبرير، فقد أراد الكاتب أنْ يجمع في قصته بين مذهبين مختلفين من مذاهب التمثيل، أو قل بين مذاهب مختلفة في التمثيل، أراد أنْ يتآثر بما رسم أرسططليس من مناهج «التراجيديا»، وأنْ يتآثر أيضاً بما رسم القرن السابع عشر من هذه المناهج، ثم أراد مع ذلك أنْ يكون ملائماً للعصر الذي يعيش فيه والذوق الذي يحيط به، وأنْ يكون متاثراً بالحوادث التي خضعت لها الإنسانية في هذه الأعوام الأخيرة، ثم أراد مع هذا وذاك ألا تكون قصته خالصة لأحد المذهبين أو خالصة لهما معاً، وإنما حرص على أنْ تكون قصته فلسفية، فيها فكرة أساسية تقوم عليها وتنتهي إلى ما تنتهي إليه من النتائج، وإنْ فهو أراد أنْ تكون قصته ساذجة سهلة على نحو قصص

القدماء، مركبة معقدة على نحو قصص المحدثين، وفلسفية غنية بالآراء على نحو ما كتب «فرانسوا دي كوريل»، ومن الواضح أن التوفيق بين هذه المذاهب المختلفة، والجمع بين هذه الأنحاء المتباعدة ليس بالأمر الهين ولا اليسير.

لست أدربي بم كان يشعر النظارة الذين شهدوا تمثيل هذه القصة في باريس! ولكنني أعلم أنك إذا قرأت هذه القصة شعرت بأشياء مختلفة، وشعرت بهذه الأشياء المختلفة بانتقالك من فصل إلى فصل، فإذا قرأت الفصل الأول أعجبتك اللغة، وراوك الأسلوب الكاتبِي وما فيه من دقة ومهارة، ولكنك تحس شيئاً من البطء والفتور، وتتمنى لو انتهى هذا الفصل لتعلم ماذا يريد الكاتب أن يقول، وماذا يريد أن يفعل، ثم إذا انتهى هذا الفصل لم تتبن شيئاً، أو تبيّن شيئاً ولكنك غير ما أراد الكاتب، أو لمحت ما أراد الكاتب لحًا دون أن تتبينه أو تستيقنه، فأنت مشوق كل الشوق إلى الفصل الثاني، وأنت في الوقت نفسه مشوق كل الإشراق أن تكون قراءة الفصل الثاني القراءة الفصل الأول، لا تخلو من شعور بالبطء ومن إحساس بالملل، ولكنك لا تكاد تقرأ هذا الفصل الثاني حتى يأخذك دهش ليس بدهش؛ لأنك تشهد تغييرًا عظيمًا في موقف الأشخاص وسيرتهم، تغييرًا كنت تتوهمه في الفصل الأول، ولكنك كنت تستبعده الاستبعاد كله، فإذا وقع لم تستطع أن تقول: إنه شيء، وإنما اضطررت إلى أن تقف موقف الدهش الحائر، فإذا قرأت الفصل الثالث فلا حد لما تشعر به من خوف وإشراق، ثم لا حد لما تشعر به من ألم ويأس، فإذا انتهيت من قراءة هذا الفصل لم تشک في أنَّ القصة تستطيع أن تنتهي بانتهاهه، وأنها إنْ وقفت عند هذا الحد فقد حققت ما كان يريد أرسطوطيلاس والممثلون القدماء من اليونان، وممثلو القرن السابع عشر من الفرنسيين حين يذكرون «التراجيديا»، أو يعمدون إليها، ولكن القصة لا تنتهي، وإنما هناك فصل رابع هو أقوى وأشد عنفًا من الفصل الثالث، وهو أدق وأبعد أثراً في التحليل، وهو في الوقت نفسه يجمع بين مذهب القدماء ومذهب المحدثين من فلاسفة الكتاب التمثيليين، حتى إذا أتممت قراءة هذه القصة استيقنت أنها قوية عنيفة، ولكنك تحس مع هذا اليقين أنَّ شيئاً ينقص هذه القصة لا تدرى ما هو، وأنَّ هذه القصة على جمالها وقوتها وقدرتها على أن تؤثر في نفسك أعظم تأثير، وتثير فيها الجهاد بين طائفة من العواطف العنيفة لم تلائم هواك، ولم ترضك كل الرضا، ولكنك قد قطعت بك كل الطرق التي قطعتها القصة دون أنْ أنتبهك من أمرها بشيء، فلأنه في تحليلها، فسيكون هذا التحليل دليلاً صادقاً على ما قدمت.

«أودلف دي كوبورج» أمير شاب، فيه ما في الشباب والأمراء من ضعف وطمع، ومن استراحة إلى الأمل وإشراق من الجهد، من حب لله وحرص على الاستمتاع بالحياة، وكلف باسترداد الحق الضائع على أن يرده إليه غيره، وعلى ألا يكلفه ذلك عناء، وهو ضحية من ضحايا الحرب، فقد مملكته في ثورة من هذه الثورات التي بدللت أمور أوروبا الشرقية، فهو منفيٌ، يقيم في سويسرا مع أخته «ماريابيا»، وهي أميرة شابة، ولكنها تختلف أخيها الخلاف كلّه، فهي تظهر قوية أبية شديدة الإيمان بحقها، شديدة الحرص على أن تسترد هذا الحق، وقد انصرفت إلى العمل لاسترداد الملك الضائع، فهي تدبر وتتأمر، وقد شغلتها التدبير والائتمار عن جمالها وقلبها وأهواها، وعن الحياة وما فيها من لذة، فانصرفت إلى ذلك، وانصرفت معه إلى الدين والتقوى، وشاء ذلك عنها حتى فُتن بها أهل مملكتها فأجلوها إجلالاً عظيماً، ولقبوها بالقديسة، ويعيش معها ومع أخيها مُربٌ لها من رجال الدين هو أسقف «فرتنبرج»، وهو مثال هؤلاء الأساقفة الذين يجمعون بين الدين والسياسة، فهم يمثلون الله في الأرض، ولكنهم يمثلون حقوق الملك أيضاً، وهو لا يتصورون الفرق بين حقوق الله وحقوق الملك، بل هم يؤمنون بهذه الحقوق جميعها إيماناً واحداً، وهم مهرة في فهم هذه الحقوق، يؤلفون بين متناقضاتها، ويوفون بين متبنياتها، ويجدون الحل لكل شكل منها، فهم يجدون للملوك وسيلة يجمعون بها بين رضا الله ورضا لذاتهم وشهواتهم، وهم قادرون على الائتمار وما يتصل به من الكيد والدس.

فإذا كان الفصل الأول رأيت الأمير الشاب جاثياً بين يدي الأسقف يعترف، ويستغفر الله خططيyah، ثم يغفر له الأسقف باسم الله ويحثه على رغم هذه التوبة على أن يظهر هذا المساء في مرقص سيكون لهواً كلّه، ويجري بينهما حديث قصير، تشعر منه بأنّ الأسقف يعمل في رد الملك إلى الأمير، وأنّ الأمير يريد ذلك ويرجوه، ولكن أمله ضعيف، ثم يدخل عليهم رجل قد اتخذ صورة الكناديين وأسماءهم، وما هو في الحقيقة إلا ضابط من ضباط الأمير، قد أقبل إلى سويسرا ليتم المؤامرة بعد أن أحسن لها التمهيد في أرض المملكة، واسم هذا الضابط «ميشيل زوريش»، وهو شاب جميل الطلة، حسن الخلق، قويٌ الإرادة، لا يعني بالتفكير، وإنما يعني بالعمل والمضي فيه، وهو شجاع قد امتحنته الحرب فأحسنت امتحانه، وقد خلص أميره مرة من مخالب الموت، وهو معجب بالأميرية، أو قل إنه مفتون بها؛ لأنّه رأها في صباح فأحبها، ولكنّه كتم هذا الحب؛ لأنّه يائس من

الفوز، فتدخل الأميرة فيقدم إليها هذا الشاب، فتحس أنَّ الأميرة تعجب به، ثم تدخل طائفة من الصحفيين يريدون أنْ يتحدثوا إلى الأمير والأميرة، وقد استعدا لهذا الحديث، فأما الأمير فقد تكلف اللهو والعبث حتى لا يحس أحد أنه يريد استرجاع ملكه، وقد أتقن هذا التكلف، أما الأميرة فلم تتكلف شيئاً، وإنما ظهرت بطبيعتها ميالة كل الميل إلى أنْ تسترد الملك وتنتقم لأبيها، وتجلس أخاهَا على العرش، فإذا انصرف الصحفيون وخلا الشاب الضابط إلى الأميرة لحظة أحست أنه يتحبب إليها، وأنها لا تكره منه ذلك، ثم ينصرف كل هؤلاء الناس، وتخلو الأميرة إلى نفسها تريدها أنْ تعمل استعداداً لحادث قريب سيرد الملك إلى أهله، ولكنها لا تجد من نفسها ميلاً إلى العمل، وإنما هي متأثرة تأثراً غريباً، وتذهب إلى كتاب تريده أنْ تقرأ فيه فلا تستطيع أنْ تقرأ، تذهب إلى الموسيقى فلا تستطيع أنْ توقع، هي ثائرة مضطربة؛ لأنَّ شيئاً غريباً قد ملك عليها أمرها.

إذا كان الفصل الثاني فأنت في البيت الذي يقيم فيه الضابط منذ أشهر، وقد أعدت في هذا البيت أسباب اللهو وأدواته من شراب وطعام وزهر، ثم يدخل الضابط ويتبعه الأسقف، فتشعر من الحديث بينهما أنَّ الضابط قد اعتزم السفر فجأة، وأنَّ الأسقف يريده أنْ يثنيه عن هذا السفر، فإذا استمر الحديث عرفت أنَّ هذا الضابط إنما يريد السفر؛ لأنه يحب الأميرة، وهو يعلم أنَّ هذا الحب عقيم، ويشعر أنه يهين الأميرة بهذا الحب، وقد حاول أنْ يكتم هذا الحب، وأنْ يقتله فلم يوفق، وإنَّ فهو يريده أنْ يفارق الأميرة أبداً، يحاول الأسقف صرفه عن السفر، ثم عن الحب فلا يوفق، فيحاول أنْ يقنعه بأنَّ الواجب عليه إنما هو أنْ يعمل لمن يحب، وأنْ يكتم هذا الحب ويوضحي به في سبيل الواجب، ولكن الضابط - كما قدمنا - لا يحب التفكير ولا الفلسفة، وإنما هو رجل عمل، وليس له في الحياة غاية إلا أنْ يحارب ويحب، وهو لا يعرف الحب العذري ولا يطمئن إليه، وإنما للحب عنده نتائج لا بد أنْ ينتهي إليها، وإذا كان يائساً من هذه النتائج فهو يريده أنْ يسلِّي عن نفسه بالسفر، ينصرف الأسقف ويبقى الضابط لحظة مضطربًا، ثم يقبل عليه قوم دعاهم للهو، وفيه نساء ورجال، ومن بينهم امرأة مغنية اسمها «مارت سوريكى» قد أحبها الضابط حباً يسلِّي عن حبه الآخر؛ لأنه ينسيه باللهو واللهة ما يجد من ألم ووحشة، يتحدثون ويمزحون وينصرفون إلى المائدة، ولكن جرس التليفون يدق، فلا يكاد الضابط يتحدث في التليفون قليلاً حتى يضطرب، ويدعو خادمه فيعلن إليه أنه سيصرف من عنده من الناس، وأنَّ زائراً سيأتي، فعليه أنْ يدخله دون أنْ يسأل عن اسمه، ودون

أن يدخل بعده أحداً، ثم يذهب فيصرف أصحابه معذراً إليهم وينتظر، فإذا الأميرة قد أقبلت، وإذا هي مضطربة اضطراباً شديداً لا تستطيع معه أن تقف دون أن تعتمد على شيء، فإذا جلست وقف الضابط بين يديها كما يقف الرعية بين يدي مولاه، وتتكلف أن يسألها عن مصدر هذه الزيارة الغريبة، فلا يجد منها إلا اضطراباً وترددًا، ثم تنبئه بأنها كانت تريد أن تقول له شيئاً كثيراً، ولكنها نسيت كل ما كانت تريد، وأنها عرفت أنه اعتزم السفر فأقبلت لتراه قبل أن يسافر، ثم ينتهي بهما هذا الحديث المضطرب إلى ما لم يكن بد من أن ينتهي إليه؛ لأن الأميرة تحب هذا الضابط كما يحبها، وقد كتمت هذا الحب ما استطاعت، فلما علمت أنه مسافر لم تستطع صبراً، فأقبلت إليه ونسى منزلتها وأمالها ومطامعها وسمعتها، ولم تفكك إلا في الحب، فإذا صرحت له بذلك، كانت لأنها قد خلعت كل عذر، وقد تجردت من شخصيتها الأولى، فلم تصبح أميرة ولا قديسة، وإنما أصبحت امرأة تملكتها العاطفة وتستأثر بها الحاجة إلى اللذة، وهي بين ذراعي حبيبها فانية، تناجيه مناجاة حلوة هادئة حيناً، ثم مرة عنيفة حيناً آخر، وقد سحر الحبيبان فنسيا من حولهما كل شيء، ثم يستيقظان فإذا هي تريد أن تعود، وإذا هو يأبى عليها هذه العودة، ولم تكن الأميرة قد فكرت في نتائج زيارتها هذه، ولم تكن قد أرادت إلا أن ترى صاحبها، ولكنها الآن تشعر بأنها لن تستطيع أن تعود، فما أسرع ما يحملها صاحبها بين ذراعيه.

ذلك أن هذه المرأة التي كانت منصرفة إلى الملك والدين، قد جاهدت جهاداً عنيفاً في إنكار نفسها وعواطفها، وفي الانصراف إلى الزهد والتقوى، وكان الناس من حولها قد أحسوا منها ذلك فقدسواها، فلم توجه إليها كلمة حب ولا نظرة غرام، ولكنها لم تك ترى هذا الضابط حتى تنبهت فيها تلك العواطف المكظومة كظمًا عنيفاً، فانفجرت انفجاراً عنيفاً.

إذا كان الفصل الثالث فقد انتهى الحب إلى نتائجه بين هذين العاشقين، ولكنه ظل أمراً مكتوماً لا يكاد يعلم به أحد إلا اثنان، أحدهما تلك المرأة المغنية التي تركت سويسرا، ثم عادت إليها لا مغنية فحسب بل مغنية وجاسوسة أيضاً، وهي تحب هذا الضابط، فما زالت به حتى خدعته وأضطرته إليها مرات واسترقت سره كله، فعرفت مكانه من الأميرة ومن الأمير، والثاني رجل عدو للأمير وملكه، وقد أوفد إلى سويسرا ليتبع الأمير ويخلص منه الدولة، وقد اتفقا هذان الشخصان، فتراهما في أول الفصل يعملان معًا في

بيت الضابط يفتshan أدراجه، ويفحصان أوراقه ويُسخران من الأميرة القديسة ويتحدثان بقتل الأمير، ثم ينظر الرجل من النافذة، فإذا الضابط مقبلاً فيرتاع ويطلب إلى المرأة أن تخفيه، فتضطره المرأة إلى مخبأ يلجاً إليه، ويدخل الضابط فينكر مكان هذه المرأة، ولكنها تلطفه وتعرض نفسها عليه، فينصرف ويأبى؛ لأنّه مشغول الليلة؛ ولأنّه ينتظر الأمير، فتلح المرأة في أنْ ترى الأمير، وتنتظر حتى يأتي الأمير ثم تنصرف، ويتحدث الأمير إلى ضابطه، فإذا اتّمّارهما قد نجح، وإذا هما يريدان أنْ يسافرا الليلة في طيارة إلى حيث ينتظّرّهما أنصارهما، وقد أعلنت الثورة في المملكة، وتم الأمر على ما كانا يريديان، وتأتي الأميرة فتحدثون في هذا وهم سعداء مغبطون، ثم ينصرف الأمير حيناً ليغير ثيابه ويتذكر، فينتهز العاشقان هذه الفرصة ليتحدثا في الحب، فتتبين أنهما قد اعتزما الزواج بعد أنْ يتم رُدُّ الملك إلى الأمير، ولكنّهما يريدان أنْ يخلوّا لحظة قبل هذا السفر الذي سيكون بعد ساعتين، فيدبران بهذه الخلوة أمرهما، ويفتقان على أنْ ينتظرا الأمير، حتى إذا أقبل انصرف الضابط لحاجة، ثم تنصرف الأميرة بعده بقليل، ثم تعرف الأميرة لأخيها بكل ما كان بينها وبين صاحبها، فلا يسع الأمير إلا أنْ يغبط بذلك، ويعد بأنه سيعرف لهذا الضابط حقه، ولكن الأميرة تطلب إليه أنْ يأذن لها بالزواج وبالعيشة الهدأة بعيداً عن الملك ومناصبه، ثم تستأذن أخاه في الغيبة حيناً، فيفهم ويأذن لها كارهاً؛ لأنّه مشفق من الوحدة، فإذا خلا الأمير إلى نفسه اضطرب خوفاً، وتردد في الغرفة قليلاً، ثم يشتد اضطرابه، فيحاول أنْ يخرج ليمشي في الشارع حيناً، ولا يكاد يخرج حتى يظهر الرجل من مخبئه، ويقبل إلى النافذة، ويطلق مسدسه على الأمير فإذا هو قتيل.

إلى هنا يمكن أنْ تنتهي القصة، فقد استوفيت كل الشرائط الازمة لتكوين قصة قوية لذيدة، وانتهت هذه الشرائط إلى نتيجتها العلمية والفلسفية، فقتل الأمير وقتل حين كان يستعد لاسترجاع عرشه، قتل في الساعة التي تحقق فيها أمله، وذهبت مساعديه ومساعي أخيه ومساعي الأسقف هباء، ثم قتل الأمير، وكان مصدر قتله هذا الحب الذي وصل بين أخيه وبين الضابط، فلولا أنْ هذين العاشقين حرصاً على أنْ يخلوّا لحظة قبل السفر لما وجد الأمير منفراً، ولما استطاع هذا القاتل أنْ يظهر من مخبئه، وإنّ فهذه الأميرة التي أنفقت من القوة والجهد شيئاً كثيراً لجعل أخاه ملكاً، هي التي قتلت أخاه لا لشيء إلا لأنّها سمحت لنفسها بأن تعيش كما يعيش الناس، وبأن تحب كما يحب الناس، فأنت ترى أنَّ هذا التصور أشبه لأشياء بما كان يتصور للقدماء اليونان في قصصهم التمثيلية

المحزنة، ولكن القصة لم تنتهِ بعد، وهي لم تنتهِ لأن الكاتب لا يكتفي بما وصل إليه من الحوادث، وإنما يريد أن يصل إلى أكثر من هذا، يريد أن يصل إلى نتائج هذه الحوادث، على أنها نحن الذين نعلمون إلى الآن بمقتل الأمير ومصدره، أما أخته والضابط فيسمعنان حين يعودان أنَّ الأمير قد قُتل، ولكنهما سيجهلان مصدر هذا القتل، ولا بد من أنْ يعلماه، وهذا هو موضوع الفصل الرابع.

فإذا ابتدأ هذا الفصل فنحن في إيطاليا لا في سويسرا، ونحن في مدينة «فينز»، وقد جلست الأميرة إلى أسقفها وهما يتحديثان، وفي صوت الأميرة نبرات الحزن والأسى، ولكن هذا الحديث غريب، فنحن نفهم منه أنَّ الأميرة قد يئست من كل شيء، فهي لا تطالب بملك ولا تطمع فيه، وهي لا تفكِّر في أنْ تثار لأخيها، وإنما انصرفت عن كل شيء إلا عن شيء واحد وهو حبها؛ ذلك أنَّ صاحبها الضابط الذي كان يظهر لها قبل المحنَّة حباً لا يعدله حب، ولكنه حب شهوة وحرص على اللذة، قد استطاع بعد المحنَّة أنْ يظهر لها حباً لا يعدله حب، ولكنه حب رحمة وعطف وإشفاق، فهو لا يطمع إلا في شيء واحد هو أنْ يعزِّيها وييهنُّ عليها احتمال الحياة، وقد أثر هذا في نفس الأميرة، فعرفت أنها تستطيع أنْ تتعتمد أيام المحنَّة على صديق لذتها أيام السعادة، فاعتزمت أنْ تترك كل شيء وكل إنسان لتعيش مع صاحبها هذا بعيدين عن أوروبا وما فيها مما يذكرهما الآلام والأمال، وهما يريدان أنْ يهاجرا إلى أمريكا.

أما الأسقف فبذل ما يستطيع من قوة ليقنع الأميرة بالعدول عن هذا الجنون، ولكنها لا تسمع له، فإذا طال الحديث بينهما رأيت أنَّ هذه الأميرة القديسة لم تكف باليأس من كل شيء، بل تجاوزت ذلك فجحدت الدين فهي لا تؤمن بالله، وكيف تؤمن به وقد اضطربها إلى هذه المظلمة الفادحة، ففتح لها باب الأمل والله لحظة قصيرة ريثما تذوقهما وتحرص عليهما، ثم أسرع فأغلق أمامها هذا الباب! هي لا تؤمن بالله؛ لأنَّه لو وُجد لكان أعدل من هذا، وإذا ذكر لها الأسقف ضابطها أجابت بأنَّ وجود هذا الضابط ورحمته لها وَبِرُّه بها أكدر، وأثبتت من وجود الله ورحمته وَبِرُّه! يئس منها الأسقف، وأراد أنْ يودعها، فينبئها بأنه سيقيم في روما أشهرًا، وأنَّه مستعد لإجابتها متى دعته، ثم يلقى إليها في خفة أنها لو بحثت قليلاً لتعرفت السبب في مقتل أخيها؛ لأنَّه بحث فعرف أنَّ هناك جاسوسة مغنية ترددت إلى المدينة التي كانوا يقيمون فيها في سويسرا، وأنَّ هذه الجاسوسة كانت تعرف الضابط، ينصرف، ويدخل الضابط فيتحديثان في سفرهما وما ينتظر كل منهما

من صاحبه من مودة وعطف وحنان، ويتعزيزان عن فقرهما وألامهما، ولكنهما يذكران القتل، فنقص على صاحبها ما سمعت من الأسقف، فلا يكاد هذا الضابط يسمع ذكر المرأة المغنية التي ترددت على سويسرا حتى يذكرها، ثم لا يكاد يفكر حتى يبدو له الأمر واضحاً جلياً، ولكنه فظيع منكر، أما الأميرة فكانت تفترض أنَّ هذه الجاسوسية كانت صديقة أخيها، فإذا الضابط ينبعها بأنها لم تكن صديقة الأمير، وإنما كانت صديقته هو، نعم! كانت صديقتي، فأنا الذي قتلت الأمير! إذن فقد ارتكب إثمين: قتل ملكه وخان عشيقته، وهو يعترف بهذا كله في صوت المرؤَّع الذي فقد رشه أو كاد، وهو يعترف على نفسه بهاتين الجريمتين وبجرائم أخرى؛ فقد كان مقتل الأمير مصدرًا لنكبات ألمت بأنصاره الذين أعلنوا الثورة، فقد الحياة خلق كثير، وقد الحرية خلق أكثر، وهو مصدر هذا كله؛ لأنَّ لها بجاسوسية، ولها بها خائناً عهد الحب.

أما الأميرة فلا تسل عن روعها وغضبها حين تعلم هذا، فهي ساخطة على هذا الضابط تطربه، ثم تعمد إلى مسدس تريد أنْ تقتله، فيكيف يدها قائلاً: لا تفعلي، فسأل فعل ذلك أنا، ولكن كفي عن البكاء، واجتهدي في أنْ تعيشي، وأنْ تكوني أقل شقاء منه الآن، ثم يحاول أنْ يتركها، فإذا هي لا تزال متصلة به، لا تزال حريصة على حبه، ولكن ليس من سبيل إلى الحياة معه، فقد قتل أخاه، قتل الملك، وقد خانها ولم يخنها إلا حباً للاستطلاع، وإلا لأنَّه يحب المرأة من حيث هي امرأة، وإنْ فليست هي بالقياس إليه إلا امرأة كغيرها من النساء! نعم! ما زالت تحبه، وتوشك أنْ تعلن إليه ذلك، ولكن قتل الملك والخيانة أمامها يعقدان لسانها، فتمسك صاحبها قبل أنْ ينصرف، ولا تطلب إليه إلا شيئاً واحداً هو أنْ يصلي، وأنْ يذكر الله، ويؤمن بالدين، إذن فقد عادت هي إلى إيمانها، أما الضابط فقد أرسل يطلب الأُسقف ثم انصرف، ولا يكاد ينصرف حتى يدخل الأُسقف، فإذا الأميرة قد نال منها الذهول، فما تكاد تعي شيئاً، والأُسقف يبالغ في تعزيتها، فلا يصل إلى شيء، هلم! تعالى! إنَّ أنصار الملك قرييون، وهم يريدون أنْ يروك، فاستجمعي قواك، واظهرى لهم كما تعودت أنْ تظهرى، وهو يقول لها ذلك إذ يسمع طلق مسدس فتقول: هذا ميشيل يقتل نفسه، يجيئها الضابط: سأفعل ما يجب أنْ أفعل، ولكن تعالى واذكري أنك تمثرين الملك، فتبقيه، وكأنها آلة تتحرك بلا إرادة.

فأنت ترى أنَّ هذه القصة تجمع بين السذاجة والتعقيد، وتجمع بين العمل والفلسفة، وتجمع بين أساليب القدماء وأساليب المحدثين في التمثيل، وما أحسب أني في حاجة إلى أنْ أطيل القول، أو إلى أنْ أقول شيئاً في تعليل ما شجر حولها من الخلاف بين النقاد.

الأمير جان

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «شارل ميري»

أما أنا فأعترف بأن هذه القصة لم تعجبني، ولو خيرت لتحدثت إليك هذا الأسبوع في قصة أخرى، ولكن أمررين أضطراني إلى أن أتحدث إليك فيها دون غيرها: الأول أنني أجهد في أن يلم قراء هذه الصحيفة لا بفن التمثيل من حيث هو فحسب، بل بالحركة التمثيلية المعاصرة أيضًا؛ أي إنني أريد أن يعلم قراء هذه الصحيفة شيئاً – ولو قليلاً – من أمراض التمثيلية المستحدثة في فرنسا في هذا الفصل، الذي تستحدث فيه الشخصون عادة، الثاني أنني قرأت من هذه الشخصون في هذا الأسبوع الماضي طائفنة لم تعجبني، وكانت هذه القصة التي أخوها اليوم آخر ما قرأت.

وهي لم تعجبني أيضًا فكنت بين اثنتين: إما أن أعدل عن الكتابة هذا الأسبوع، وإنما أن أحذث عن خير ما قرأت، فآثرت الثانية، ولم أوثرها عبئًا ولا رغبة في الكتابة، وإنما آثرتها؛ لأن النقاد كادوا يجمعون على استحسانها والرضا عنها، ولأن جمهور الفرنسيين فتن بها إلى غير حد، حتى أن بعض النقاد تنبأ بأنها ستتمثل مائتي مرة، ومع ذلك لم تعجبني، لم تعجبني؛ لأنني حين أقرأ قصة تمثيلية إنما أبحث فيها عن فكرة أو رأي أو مسألة فلسفية أو خلقية أو اجتماعية، فأنا لا أقرأ شخص التمثيل من حيث هي شخص، وإنما أقرؤها من حيث هي غنية بما يغدو العقل أو يغدو الشعور أو يغدوهما معًا، ولا أكاد أتصور الفن الأدبي منفصلاً عن اللذة العقلية الفلسفية، فأنا أكلّف بنوع خاص ب الشخصون التمثيل، وليس هذه القصة التي أخوها اليوم من هذه الشخصون، فهي لا تقصد إلى إثبات فكرة بعينها، ولا إلى تحقيق نظرية من نظريات الاجتماع والفلسفة والأخلاق،

وإنما هي تقصد إلى شيء آخر، تقصد إلى إلهاء الجمهور والتأثير فيه دون أن يكون هذا اللهو مناقضاً لما ألل الناس من أخلاق وعادات ومن نظم وأساليب للحياة، هي قصة يراد بها القصص لا أكثر ولا أقل، ويظهر أنَّ هذا مصدر فوزها وكلف الجمهور بها، فإنَّ الجمهور يريد أنْ يلهم، وأنْ ينفق في ملعب التمثيل جزءاً من وقته، يخضع فيه لطائفة من المؤثرات القوية، فيحسن فيه اللذة القوية مرة والألم القوي مرة أخرى، يستشعر فيه الخوف حيناً والرجاء حيناً آخر، وهو لا يكره في بعض الأحيان أنْ يُخْلِي بيته وبين اللذة والألم والخوف والرجاء، دون أنْ يُضطر إلى التفكير العقلي للحكم على قضية من القضايا، أو تمحى نظرية من النظريات، يريد الجمهور في بعض الأحيان أنْ يكون طفلاً يلهم بالقصص والأحاديث؛ لأنها قصص وأحاديث لا لأنها تفسر مذهبًا من مذاهب الفلاسفة، أو تشرح رأياً من آراء العلماء في الاجتماع، وفي هذا النحو من القصص يعتمد الكاتب على الخيال وحده، ويطلق لنفسه من الحرية ما لا يملك لو أنه تقيد برأي أو نظرية، وهو بهذه الحرية نفسها أقدر على أنْ يلهم الجمهور ويلده، وهذا ما يقصد إليه كاتبنا الذي نتحدث عنه اليوم في طائفة غير قليلة من قصصه، فهو أشبه بالذين يضعون قصص التمثيل أو يلعبونها للسينما توغراف، فلا ينبغي أنْ نقارب بيته وبين «فرانسوا دي كوريل» أو «هنري بتايل» أو «هنري فدان» أو «برنسين»، وإنما ينبغي أنْ نقارن بيته وبين كاتب آخر فتن به الجمهور الفرنسي حيناً هو «ساردو»، ومن غريب أمر هذا الكاتب أنه يجتهد في أنْ يوفق بين خياله وبين حياته، أو بعبارة أصح يجتهد في أنْ يحقق خياله، فهو يتخيل موضوعه، ويخلق أشخاصه، وينظم قصته، ولكنه لا يبدأ في الكتابة حتى يمثل بنفسه تمثيلاً علمياً أهم أشخاصه وأجلهم خطراً، ويجتهد في أنْ ينشئ لنفسه الحوادث التي يريد أنْ يضيفها إلى شخص قصته أو إلى أشخاصها، فسترى في قصة اليوم أنَّ البطل شاب تكفل الأسفار، واقتصر طائفة من الخطوب، ونزل في بيئات مختلفة متباعدة، و يحدثنا بعض النقاد أنَّ الكاتب بعد أنْ ابتكر هذا البطل تكفل أسفاراً، واقتصر خطوبًا، ونزل في بيئات مختلفة متباعدة، ثم بدأ في كتابة قصته، ثم دفعها إلى المثلثين، فنالت ما نالت من الفوز.

في مدينة بروكسل عاصمة بلجيكا أسرة غنية ممتازة؛ لأنها من أسرة الأمراء، هي أسرة «داكسيل»، تتألف هذه الأسرة من زعيمها الشيخ وولده الثلاثة، جان، وليوبلد، وإيزابيل، فاما أكبرهم وأحدهم بوراثة اللقب وزعامة الأسرة فهو جان، وهو شاب قويٌّ، حسن

الطلعة، ولكنه مشغوف بالحركة والإسراف فيها، فهو لا يستقر على حال، وهو كلف باللهو وفنونه، وبالعمل وضروبه، فهو يندفع باللهو إلى غير حد، ويتكلف طائفة من الأعمال يبدأها في نشاط وقوة، ثم لا يلبث أن ينصرف عنها، وقد أصحاب الإخفاق أو ما هو شرُّ من الإخفاق، وقد جرَّت عليه هذه الخصال طائفة من المحن، فهو مقامر مسرف في القمار، يخسر كثيراً ولا يربح شيئاً، وهو مع ذلك ملح في اللعب، وقد بدأ طائفة من الأعمال فأخفق فيها، وأضاع مقادير ضخمة من المال كان قد افترضها أو أؤمن عليها، وأراد أن يكسب ما أضاع من الميسر فلم يبنه التوفيق، بلغ به اليأس ذات ليلة أن حاول الغش، وأخذ وهو يحاوله، فافتضح أمره وضاع شرفه، وأكره على أن يستقيل من النادي الذي كان يختلف إليه، ولم يجد وسيلة للنجاة من السجن والفضيحة إلا أن يهرب، فترك المدينة من ليلته، وكان يحب فيها امرأة جميلة تحبه هي أيضاً، وهي «كلاير دارلون»، فلما نزلت به هذه النازلة استحيا أن يراها، فهاجر دون أن يودعها، وانقطعت أخباره عن أهله وحبيبه ومواطنه، حتى شاع في الناس أنه قد مات، ودببت أسرته أمرها على أنه قد مات، فاجتهدت في إرضاء الدائنين، ولما مات أبوه ورث أخوه الأصغر لقب الإمارة وزعامة الأسرة، وأخذ يتصرف في الأمر كما لو كان حراً لا يشاركه فيه شريك، ولكن «جان» هذا لم يمت، وأسرته تعلم أنه لم يمت؛ لأنها ترقبه وتتبعه بالعيون والجوايس، وهي حرية كل الحرث على أن يعتقد الناس أنه قد مات، أو أنه قد غاب غيبة منقطعة، وحقيقة أمره أنه هاجر إلى فرنسا، فتطوع في فرقة الأجانب من الجيش، ثم أعلنت الحرب الكبرى فاقتلت وجروح ونال وساماً، ثم أرسل في فرقته إلى سلانيك، ثم أرسل في فرقته أيضاً إلى أفريقيا الشمالية، فاقتلت في مراكش وأصاب عناه كثيراً، وقد انتهت الحرب وأبلى في قمع ثورة من الثورات في مراكش بلاء حسناً، ثم ردت إليه حرفيته فغادر الجيش، وقد اتخذ لنفسه اسمًا غير اسمه الحقيقي فتسمى «لوسيان جيرو».

إذا كان الفصل الأول من القصة، فنحن في مرسيليا في فندق من فنادقها مشرف على البحر، وفي قاعة هذا الفندق رجال ونساء يلهون ويلعبون، ينتظرون السفن التي ستقلهم إلى وجهة من السفر مختلفة، وهم كذلك إذ يدخل شاب غريب الأطوار، تردد قبل الدخول، ثم صحت عزيمته فدخل، فتلقاءه صاحب الفندق مبتسماً يسأله عما يريده، فإذا الشاب كان قد نزل في هذا الفندق منذ خمس سنين، ثم سافر وترك في الفندق متاعاً له، وهو الآن يريد هذا المتاع، أما صاحب الفندق فيترد؛ لأنه لم يكن يملك الفندق حين نزل فيه

هذا الشاب، وإنما اشتراه منذ عهد قريب، فلا يكاد ينبع الشاب بذلك حتى يتور هذا الشاب، فيتذر ويهدد مرة بالعصا وأخرى بالمسدس، فيضطرب صاحب الفندق ويجزع، ويذهب للبحث عن هذه الأمتعة، أما الشاب فقد جلس إلى مائدة ودعا بأجود الشراب فقدم إليه فهو يشرب، وما أسرع ما يتعرف إلى سيدات فيشاربهن ويداعبهن، ويأتي صاحب الفندق فينبئه بأنه قد وجد المتعة، ولكن إحدى هذه الحقائب مفتوحة وقد فتحت بأمره، ثم يقدم إليه كتاباً أرسله هو إلى صاحبه أن يخلي بين الذين يحملون هذا الكتاب وبين متاعه يأخذون منه ما يشاءون، فلا يكاد يظهر على الكتاب حتى يتور ثائره، ويعلن أنَّ الكتاب مزور، ويهدد بالقتل ويهدد بالشكوى إلى الشرطة، ويهدد بشيء كثير، وهو كلما بلغ منه الغضب أقصاه استطاع بشيء من الجهد أنْ يملأ نفسه ويعود إلى صوابه.

أما من حوله من الناس فمضطربون يبلغ الخوف بهم أقصاه أحياناً، ثم ينتهيون إلى الضحك والإغراق فيه أحياناً أخرى، ثم يتركهم هذا الشاب، ويصعد إلى غرفة طلب أنْ تهياً له، وإنهم ليتحدثون في أمره بعد أنْ فارقهم إذ يدخل رجلان يظهر عليهما أنهما أقبلوا من سفر بعيد، فيسألان عن «لوسيان جيرو»، فإذا أجبوا أنه في الفندق اطمأناً وجلسا ينتظرانه، يشك صاحب الفندق ومن معه في أنَّ الشاب لص، وفي أنَّ هذين الرجلين أقبلوا يلتمسانه وهما من الشرطة، ثم يأتي الفتى، فإذا لمح الرجلين اضطراب وجلس ناحية، وأخفى وجهه في صحيفة يتتكلف قراءتها، ولكنه لا يكاد يستقر حتى ينهض إليه أحد الرجلين فيدينو منه، وصاحب الفندق ينظر هذا في لذة وانتظار للحدث العظيم، فإذا بلغ الرجل الشاب حياء وانصرف عنه الشاب ورده رداً عنيفاً، فيلح الرجل في التحية والملاءفة، ويلح الشاب في الكف والانصراف، ولكن الرجل يستطيع أن يكرهه على الكلام فيتحدثان، فإذا هذا الرجل ليس شرطياً، وإنما هو رجل من أهل بروكسل كلف مراقبة الشاب والاجتهاد في منعه من العودة إلى المدينة، وقد أقبل يعرض عليه بلسان أخيه أنْ يختار من بلاد الله ما شاء أنْ يقيم فيها ناعماً موفوراً تدر عليه الأرزاق في سعة وسخاء على لا يعود إلى بروكسل؛ لأنَّ الناس في بروكسل لا يشكون في موته؛ ولأنَّ عودته إلى المدينة ستُذكر الناس بما كان من آثامه ومخاذه، فيضيّع شرف الأسرة في غير نفع ولافائدة، أما هو فلا ينتظره في المدينة إلا السجن والعار.

يسمع الفتى هذا كله مغضباً مرة، مازحاً مرة أخرى، معلناً عزمه على العودة، ولا سيما حين يعلم أنَّ أباً قد مات، وأنه يستطيع أنْ يرث اللقب وحظاً ضخماً من الثروة، وإن فليس ما يمنعه من أنْ يعود فيصبح أميراً، ويؤدي دينه ويسترد مكانته وشرفه،

ولكن أخاه قد ورث اللقب، واقسم الثروة مع أخيه، وهو لا يريد أن يعود هذا الغائب فيفسد عليه ما يستمتع به من نعيم.

وبلغ اليأس والاشمئزاز من نفس الشاب أنْ كره الحياة، وازدرى الأحياء وأسرته بنوع خاص، فاقتتنع بألا يعود، ورفض ما يعرض عليه من رزق، ولكن سأل صاحبه قبل انصرافه عن حبيبته ما خطبها؟ فينبئه صاحبه بأنها سعيدة ناعمة البال، يفارقها زوجها أكثر الأحيان لأعماله، وقد اتخذت لها عشيقاً جديداً، فهي تلقاء وتستقبله لا تخشى في ذلك رقبياً ولا حسبياً، وهو «البارون درانيم»، ينصرف الرجل وقد ألقى في قلب الفتى هذا النبأ، فوقع منه موقع الجذوة من الهشيم، فإذا نار الغيرة قد تأججت، وإذا الاضطراب قد ملك على الفتى أمره، فنسى كل شيء، ولم يذكر إلا شيئاً واحداً وهو السفر إلى بروكسل؛ ليり حبيبته الخائنة؛ ولينتقم من عشيقها الجديد.

فإذا كان الفصل الثاني، فتحن في مدينة بروكسل في منزل هذه الحسناء «كلاير دارلون»، وقد أقبل المساء وهي تستقبل هذه الليلة، فإذا امرأة صديقة لها قد أقبلت قبل ميعاد الزيارة تريد أنْ تلقاءاها وتلح في ذلك، ويدهب الخادم لينبئها، ويدخل أثناء ذلك «درانيم» العشيق الجديد، فيكون بينه وبين هذه المرأة حديث تفهم منه أنها متابغضان، ثم تقبل صاحبة البيت، وينصرف الفتى فتتحدث إلى صديقتها، فتنبئها هذه بعودة صاحبها القديم، وبأنه يريد أنْ يراها، أما «كلاير» فلا تكاد تسمع ذلك حتى تضطرب ويملكها الغضب، وتذكر ما لقيت في ذلك الحب القديم من ألم، وتعلن أنها لا تريد أنْ ترى هذا الذي هجرها هجراً غير جميل، فلم يسمع لها، ولم يودعها، ولم يكتب لها أثناء غيابه، وهي لا تريد أنْ تستأنف الألم الذي لقيته، أما صاحبتها فتتعطفها وتترضاها ولكن في غير نفع، فإذا يئست منها عمدت إلى التليفون تريد أنْ تأمر الفتى بألا يجيء، فتمسكتها صاحبتها، وإن فهى تألم، ولكنها ما زالت تحب، ونفسها تواقة إلى أنْ ترى هذا الشاب، وهمما في هذا التردد إذ يقبل الزائرون جماعات، وفيهم أخو الشاب وأخته، وهما يطلبان إليها سرّاً لا تستقبل هذا الفتى في بيتها؛ لأنها إنْ استقبلته حبيب إليه المقام، وإنْ أبت استقباله يئس من كل شيء وعاد أدراجه، فيتم عزمها على ألا تستقبله مخافة الفضيحة، وتهم بأن تكشف صاحبتها بإبلاغه ذلك، ولكن صاحبتها تتلأً وتتشاغل بالزائرين، تتحدث إلى هذا وإلى ذاك، وفي أثناء ذلك يخلو إلى الفتاة عاشقها الجديد، فيتحدث إليها في حبه، ويطلب إليها الوفاء ويلح في ذلك، فنفهم أنَّ حبهما على قوته لم ينته إلى نتيجة، ولم يتجاوز الأماني

والآمال، يلح الفتى وتجبيه المرأة في ازدراء وإباء، ولكن الفتى مشقق بعد أن علم بعودة العاشق القديم، فهو ينذرها ويخوّفها نتيجة الإصرار على الإباء، وبينما هي متربدة في أمر صاحبها القديم أتلقاه أم ترده إذ يقبل هذا الصاحب، فلا تكاد تراه حتى تضطرب، ولا تكاد تتحدث إليه وتستمع له حتى يزول ترددتها، فإذا هي عشيقته كما كانت، وإذا هو عشيقها كما كان، وإذا هو قد اكتسب من هذا الفوز قوة يلقي بها ما سينزل به من المحن وما يدبر له أخوه وأصحابه من كيد، وهي تنصح له أن يكتفي الليلة بهذا اللقاء وأن ينصرف، ولكنه يأبى ويتربّد، وإذا القوم قد أقبلوا وفيهم أخوه وأخته فرأياده، ولم يبق بد من أن يبقى ويثبت لأعدائه وخصومه، وفي هؤلاء الناس خال له يحبه حباً جماً، ويعطف عليه عطفاً شديداً، ف تكون بين الشاب، وهؤلاء الناس على اختلافهم ضروب من الحوار المؤلم المر لا حاجة بنا إلى تفصيله، وإنما نذكر منها حواراً بينه وبين أخيه، يدعوه أخوه إلى أن يستخفّي فيأبى، ويشتّت الخصام بينهما فيقول له أخوه كلاماً فيه تعريض بصحّة نسبة لأبيه، فلا يكاد الفتى يسمع هذا التعريض حتى يشتّد اللجاج بينه وبين أخيه، ويکاد الأمر ينتهي بينهما إلى الشر لولا أن يدخل بينهما خالهما فيصرفهمما عما کادا يتورطان فيه، وتنتهي الليلة انتهاء سيّاً، تنتهي بخصوصة عنيفة بين هذا الشاب وخصمه العاشق الجديد.

إذا كان الفصل الثالث فقد مضت على هذه الليلة أيام، وما زال الفتى مقیماً في بروكسل، وقد استأنف حبه القديم، وأخذت أسرته وخصوصه ودائنوه يکیدون له، يريدون أن يقفوه بين يدي القضاء، ونحن في بيت هذه الصديقة التي توسطت بين الفتى وبين صاحبته، ذلك أن هذين العاشقين قد اتخاذا بيت صديقتهما هذه مأوى لحبهما فهما يلتقيان فيه، فترى «كليير» قد أقبلت لموعدها، فانصرفت صاحبة البيت، وأخذت هذه تنتظر عاشقها، وإذا بالباب يطرق ثم يفتح ويدخل عاشقها الجديد: مuderراً! لقد زرتك غير مرة، فأبكيت استقبالي، ولا بد من أن أراك وأتحدث إليك، وقد ترقبتك حتى إذا خرجت من البيت تبعتك إلى هذا المكان، فلا بد أن تستمعي لي.

إذا استمعت له أعاد عليها إلحاشه القديم، فرفضت مزدرية، ولكنه ينذرها فهو يملك في يده سلاحاً قوياً، فإذا تبيّنت أمر هذا السلاح أظهر لها كتبها إلى عاشقها الأول، وفيها ما يثبت أنه سارق، وأنه مبدداً لا يملك، ثم يبنّئها بأن هذه الكتب ستدفع إلى القاضي ثم تنشر، وهي تكفي لسجن الفتى ولتلويث اسمها واضطرار زوجها إلى الطلاق،

وهو يطلب إليها شيئاً، الأول لا بد منه إذا كانت تخن بصاحبها على السجن وبنفسها على العار، وهو أنْ تقطع الصلة بينها وبين هذا العاشق، وأنْ تقنه بمحارقة بروكسل، والثاني اختياري، تستطيع أنْ تطمئن إليه وأنْ ترضه؛ ذلك أنه سيحتفظ بهذه الرسائل، فإذا كانت تريد أنْ تستردها لتأمين شرها فلا بد لها من أنْ ترضي له بما يريد، فإذا سمعت هذا تضرعت إليه، واستعطفته ليرد إليها هذه الرسائل، ولكنه يأبى إلا أنْ ترضي له، فتغضب وتطرده طرداً عنيفاً، أما هو فينصرف متذراً وقد أجلها إلى غد.

ثم يقبل الفتى عاشقها الأول، فإذا هو مضطرب قد أخذ منه السكر، فهو يهذي ويتكلف الفرح والابتهاج، تشك في أمره وتسأله، فلا تتبن منه شيئاً، ولكنه يشهد اضطرابها، فإذا قصت عليه ما كان من أمر الرسائل أفاق من سكره، وظهر عليه حزن شديد؛ لأنَّه يشعر بأنه لن يهوي وحده، وإنما ستهوي معه هذه المرأة البريئة إذا ظلت هذه الكتب في يد هذا الخصم، وهو يفكُّر في ذلك إذ يدق جرس التليفون، فإذا سألت الخادم عرفت أنَّ أخَا الفتى يسأل عنه يريد أنْ يراه، فيأمرها أنْ تنبئه بأنه ينتظره، وتخرج صاحبته «كلاير» مضطربة، أما هو فيأمر الخادم أنْ تدعوه خصمه «درانيم» باسم صاحبته؛ ليزورها الآن في هذا البيت فتفعل.

ويقبل أخوه فينصح له بالفرار؛ لأنَّ النائب العمومي أمضى أمر القبض عليه، فيأبى، ويكون بينهما جدال عنيف، ينتهي بأن يظهر الفتى من أخيه على أنه ينكر نسبه إلى أبيه، وهو لا يقول هذا عفوًّا، وإنما يقوله لأنه سمعه من أبيه، ولو لا ثقته بأنَّ نسبه غير صحيح، وأنَّه ليس أخاه حقاً لما نازعه ولما كاد له، ولكنه يعلم أنه مدسوس في الأسرة، وأنَّه قد أساء إلى هذه الأسرة، فهو يريد أنْ يخلص شرف هذه الأسرة من فتى ليس منها في شيء، ثم ينصرف، ويظل الفتى محزوناً، وقد شك في أمره، وأصبح يتتساءل أهو أمير حقاً؟ أهو وارث لأبيه شرعاً؟ وأخذ ينظر في المرأة، فيتبين ملامح تحالف ملامح الأسرة، ثم تدخل صاحبته فينبئها بأنه دعا عاشقها الثاني وأنَّه مقبل الآن، فعليها أنْ تلتقا، وسيستخفி هو لحظة حتى إذا جلس خصمه ظهر هو، فعليها إذن أنْ تتركهما حيناً، ويأتي «درانيم» فيستخفِي الشاب، فإذا دخل «درانيم» تلقته المرأة مضطربة خافتة الصوت، فيجلس إليها ويستانف إلحاده وإنذاره، ولكن الفتى يظهر من مخبئه، وتتركهما المرأة وجهاً لوجه، وقد عمَّ الفتى إلى الأنوار فأحكم إغلاقها، فإذا خلا الحصمان طلب الفتى إلى خصمه الرسائل، فيتأبى، فيخرج مسدسه ويقسم ليりدن الرسائل أو ليقتلن! يشك الخصم في هذا النذير، ولكن الفتى ينبئه بأنه سيقتل نفسه بعد قليل، فهو لا يخشى القضاء ولا العقاب

ولا ما سيقول الناس، ويمهله دقيقه لرد الرسائل إليه، فلا يكاد خصميه يمانع؛ لأنَّه يرى المسدس قد صُوبَ إليه، فيدفع إليه الرسائل وينصرف، أما هو فقد أخذ الرسائل ووضعها على المائدة ودعا صاحبته، فتجيئه من وراء الباب المغلق وتدعوه إلى أنْ يفتح لها وتلخ، ولكنه لا يفتح ولا يجيب إلا بكلمة الوداع، ثم ينصرف مسرعاً! وتأتي صاحبته فإذا لم تجده خرجت جزعة.

فإذا كان الفصل الرابع فنحن في الريف في مكان موحش، وقد قام فيه قصر فخم تحيط به غابة موحشة، وفي هذا القصر يقيم خال الفتى، وهو شيخ فيلسوف قد كره الناس وحضارتهم وأخلاقهم، واحتقر الحياة الاجتماعية كلها؛ لأنَّها تفسد على الفرد حريته وتجعله كالكلب المستأنس، لا يمتاز من غيره إلا بقلادة في عنقه، هو إذن يحتقر الحياة والأحياء من الناس، ويؤثر عشرة الحيوان، وهو كُلُّ بالصيد ومعاشرة الحيوان، يربى بعضه ويقتل بعضه كما يقول، وله لذة هي المزاوجة بين الكلاب والذئاب، وقد أقبل إلى هذا القصر ذلك الرجل الذي رأيناها في الفصل الأول يتحدث إلى الشاب في مرسيليا، يطلب إليه ألا يعود؛ أقبل لأنَّ صاحب القصر دعاه وقد علم ما كان من أمر ابن أخيه، ومن أنه مقبوض عليه إذا لم يؤدِّ دينه، فهو يريد أنْ يؤدي عنه هذا الدين، وأنْ يصلح من أمره، وقد دعا إليه أيضاً أخا الفتى وأخته، وهو يريد أنْ يصلح بين هؤلاء جميعاً، وقد أبرق إلى النائب العمومي يعلن إليه أنه مؤدٌّ دين ابن أخيه، وهو في هذا الحديث إذ يقبل الفتى مضطرباً ذاهلاً، فيخلو إلى خاله يسألُه أمره، وماذا يعرف من نسبة، فيحاول الشيخ أنْ ينكر أو يفر، ولكن الفتى يلح فيجيئه الشيخ بأنه لا يعرف من هذا الأمر شيئاً، إلا أنَّ أخته تزوجت كارهة من زوجها فلم تحبه يوماً، وعاشت معه سنين، ثم فارقها زوجها أعواماً لمهمة سياسية في الخارج، وكانت في الخامسة والعشرين من عمرها، وكانت جميلة خلبة، وكان المفتونون بها كثيرين، ولكن لم يذع أحد عنها قالة سوء، وهو يعلم أنَّ أباها لم يكن يحبه ولا يميل إليه، وأنَّه كان يشك في نسبة.

ثم ما يزال الفتى بحاله حتى يذكر له طائفة من الذين فتنوا بأمه، فإذا ذكر منهم ضابطاً فرنسيّاً ألح في ذكره، وأشار إلى تشابه بينه وبين الفتى، فقد كان هذا الضابط جسوراً مخاطراً مسرفاً في حب الحركة كارهًا للنظام، حتى إنه استقال من الجيش وذهب إلى أفريقيا الشمالية يستكشف الصحراء، فقتله هناك أهل الباادية، لا يشك الفتى في أنه ابن هذا الضابط، وإنَّ فقد تغير كل شيء في نفسه، فهو ليس خصماً لأخيه؛ لأنَّه ليس

أخاه؛ ولأنه لا يستحق لقب أبيه لا يستحق ميراثه، وهو يريد أن يقتل نفسه ليتخلص من هذا الشقاء، وإنه ليتحدث إلى خاله إذ تدخل «كلاير»؛ لأنها عندما افتقدته فلم تجده جزعت كما رأينا، وانصرفت تبحث عنه، فأقبلت تلتمسه عند خاله فوجده، فيتركهما الشيخ، وينصرف إلى مكتبه ليدير أمر هذا الدين وما بين الأخوين من الخلاف، ويخلو العاشقان فيكون بينهما حوار مؤثر حقاً، يعلن إليها أنه مجرم، فتجيئه بأنها تحبه، ويعلن إليها أنه ليس لأبيه، فتجيئه بأنها تحبه، ويعلن إليها أنه فقد كل شيء، فقد الثروة، فقد الشرف، فقد اللقب، وقد حتى النسب الصحيح، فتجيئه: ولكنك لم تفقدني فلم تفقد الحب!

ثم تعلن إليها أنها قد نظمت حياتها، فقطعت صلتها الزوجية، واعترضت أن تعيش معه، وأن ترافقه إلى حيث يريد، وهما في هذا إذ يقبل خاله ومعه أخيه وأخته وزوجها والرجل الآخر الذي رأيناه أول هذا الفصل، فتنصرف المرأة، ويعلن خال الفتى إليه أنه قد تم كل شيء، فأما دينه فقد أدي عنده، وأما لقبه فقد رد إليه واعترف بذلك أخيه، أما هو فلا يكاد يسمع هذا حتى يأباه، ويجبب مبتسمًا: «هذا ما دبرتم، انتظروا فسأكتب لكم وصيتي» وينصرف، فإذا طالت غيبته على القوم افتقدوه فلم يجدوه، فيأخذ الشيخ جزع شديد، ويدعو ابن أخيه بصوت عال تسمعه «كلاير»، فتقبل جزعة، وقد اشتد اضطراب القوم، فهم يدعون الخدم يسألونهم ويأمرونهم بالبحث، ويقبل غلام معه كتاباً، يدفع أحدهما إلى الشيخ والأخر إلى أخي الفتى، فيفضي هذا كتابه ويقرؤه، فإذا الفتى يعلن إلى أخيه أنه قاتل نفسه وقادف بها في هوة عميقة بعيدة عن القصر يسمى بها، فلا يكاد القوم يسمعون هذا حتى يأخذهم الهلع.

أما المرأة فقد أغضي عليها، وأما الشيخ فما زال هادئاً، ولكن تبدو عليه مظاهر اليأس، حتى إذا انصرف القوم جميعاً، يريدون أدراج الفتى، دفع الشيخ إلى المرأة — وقد أفاقـت — كتابه مبتسمًا، وخرج فلحـق بال القوم، أما المرأة فتنظر في الكتاب، ولكنها لا تكاد تمضي في القراءة حتى يدخل عليها الفتى، فتلقـي بنفسها بين ذراعيه، وتدعوه باسمه «جان»، فيجيب: لا تذكرـي هذا الاسم، فإن «جان» قد مات، وقد ألقـي بنفسه في تلك الهوة، أما الاسم الذي أمـاك فاسمـه «لوسيـان جـيلـو»، وقد تركـت على هذه الورقة عنوانـي في باريس، فإذا كنت تـريـدين أنـ تـشارـطـينـيـ ماـ بـقـيـ لـيـ منـ هـذـهـ الـحـيـاـةـ السـيـئـةـ فالـحـقـيـ بيـ، وإـلاـ فـكـونـيـ سـعـيـدةـ، ولـكـنـ لاـ تـقـولـيـ شـيـئـاـ، تـجيـيـهـ سـأـلـحـقـ بـكـ غـدـاـ.

فأنت ترى إلى هذه القصة وإلى خلوها من كل فكرة قيمة، أو رأي ذي خطر، وإلى امتلأها بالحركة والأحداث والمواقف العنيفة التي تخلع القلوب فرقاً وترقصها أملأ، وأنت ترى

إلى هذه القصة كيف استطاع الكاتب أن يصور الجزء حتى ملك على هؤلاء القوم وعلى الجمهور نفوسهم وأهواءهم، فلم يشكوا في أن الفتى قد قتل نفسه، وهم في هذا الجزء العنيف، وإذا الفتى يظهر مبتسمًا هادئًا قانعًا من الحياة بما قسم له، وإذا شيء من الأمل الهدائى المتواضع يقوم مقام ذلك الأمل الضخم الذى لا حد له، ومقام ذلك اليأس الذى كاد يأبى على كل شيء.

اعترف بأن هذه القصة مما يلهمي الجمهور ويرضيه، ولكننى أعترف أيضًا بأنها لم تلهنى ولم ترضنى.

يناير ١٩٢٤

الرجل المغلول

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «إدوار بورديه»

أما اليوم فسأحدثك عن قصة تمثيلية بالمعنى الصحيح، بالمعنى الذي أعجب به وأرتاح إليه؛ لأن فيها ما يرضي الخاصة وال العامة معاً، فيها ما يسر الفيلسوف الباحث، وفيها ما يبتهج له النظارة الذين يختلفون إلى ملاعب التمثيل؛ ليقضوا فيها جزءاً من الوقت، وليجدوا فيها شيئاً من هذه اللذة المقدسة التي يخلقها الفن فينال بها العقول والقلوب.

ليست هذه القصة درساً في الفلسفة، أو فصلاً من فصول العلم لا يفهمه إلا الأخصائيون، وليس هذه القصة بناء شامخاً كثير الحنايا والتاريخ، من هذه الأبنية التي يشيدها الخيال دون أن يسيطر عليه العقل أو تشرف عليه الفلسفة، وإنما هي قصة، للفلسفة فيها حظ وللخيال منها قسط، فهي – كما قلت – ترضي العقل لما فيها من فكرة وصدق وتحليل، وترضي القلب لما فيها من جهاد بين العواطف المختلفة المتناقضة، وهي من هاتين الناحيتين مرضية للعامة والخاصة، ولقد تبحث عن الفكرة التي قامت عليها هذه القصة، فلا تكاد تجدها، أو لا تكاد تشعر بأنها فكرة جديدة أو غريبة، ومع ذلك فالقصة لذذة ممتعة للعقل، لأنها تشتمل على شيء جديد، ولا لأنها تفصل رأياً من آراء العلماء أو نظرية من نظريات الفلسفة؛ بل لأنها تتناول نفسين أو نفوساً ثلاثة بشيء من التحليل الدقيق يظهر خفاياها، ويعلن ما كمن فيها من عاطفة أو شعور، ثم هي إلى هذا التحليل قد وفقت إلى طائفة من المواقف الدقيقة الرقيقة التي تؤثر في نفسك أقوى التأثير دون أن تصدمك صدمة قوية أو تهزك هزة عنيفة، وإنما هي تحدث في نفسك هذا التأثير قليلاً قليلاً، وتترقى بك في الألم شيئاً فشيئاً حتى تصل بك إلى أقصاه، مثلث في

ذلك مثل الذي يصَّعد في جبل شاهق دون أن يلقى في تصعيده عناء؛ لأن طريقه إلى القمة سهلة معبدة.

فالكاتب لا يجذبك إلى ما يريد جذبًا، وإنما يماشيك إليه، ويقودك في لطف ورفق، كأنه يسرقك أو يختلسك، ذلك إلى حلاوة في اللفظ، وسحر في البيان، وتجنب للتلف، واقتصاد في الحركة، والغريب من أمر هذه القصة أنك تشهدها أو تقرؤها، فلا تكاد تشعر بأنك تشهد قصة أو تقرؤها، وإنما يملأك شعور قويٌّ هادئٌ؛ لأنك تشهد فصلًا من فصول الحياة، أو تطلع على صورة من صور الحياة، ومن هنا كان ما تشعر به من لذة أو ألم صادقاً؛ لأنه لم يتكلف ولم يعتمد، وإنما نشأ في نفسك كما تنشأ فيها اللذات والألام اليومية أمام هذه المظاهر الفطرية التي تبعث في النفس اللذة والألم، ومن هنا لم يختلف النقاد في أمر هذه القصة، وإنما اجتمعت كلمتهم على الإعجاب بها والثناء على كاتبها وانتظار الخير الكثير منه، ولعل مصدر هذا الإتقان الذي أجمع النقاد عليه أنَّ الكاتب هادئ محب للأثناة، لا يتوجل الفوز، ولا يتهاك على التصفيق، ولا يحرص على كثرة الإنتاج، هو بطيء في إنتاجه؛ يتصور القصة، ثم لا يكتبها حتى تطول العشرة بينه وبين الصورة التي يتصورها، فإذا أصبحت هذه الصورة كأنها جزء من نفسه أقبل على قلمه فرسم هذه الصورة في هدوء وبعد عن التكلف، فإذا تم له من ذلك ما أراد ونالت قصته حقها من الفوز لم يطمعه ذلك، ولم يدخل إلى نفسه الغرور، ولم يبعثه على أنْ يستزيد من الفوز، وإنما يبعثه على أنْ يتمهل، ويستأنسي ويتيح لنفسه الفرصة التي تمكنا من الراحة والتجدد، فيمكث السنين لا يكتب ولا يفكر في الكتابة، وإنما يستريح ويقرأ ويشاهد ويتنقل في مظاهر الحياة، متفهمًا لها محلًا إياها، حتى تعرض له صورة أخرى، وإذا هو يسلك معها سبيله مع القصة الأولى، فهو من أقل الكتاب المثلثين إنتاجاً، ولكنه من أغزرهم مادة وأحسنهم أثراً، وهو ينال على ذلك من الفوز والمكافأة أكثر مما يناله غيره من المتعجلين.

«ميشيل فريدييه» محام معروف، عظيم الشهرة، بعيد الصوت، كثير العمل، لا تكاد تسمع لحديثه حتى تشعر بأنه ذكيُّ القلب، رقيق العاطفة، حاد المزاج، قويُّ الحس، وهو متزوج من امرأة يحبها حبًا لا حد له، وتحبه هي كذلك حبًا لا يعدله حب، واسمها «هيلين»، لا تكاد تسمع لحديثها حتى تتبين فيها مثلاً للمرأة التي تراها، فإذا أنت مأخذك بإكثارها وإجلالها؛ لأنها جمعت إلى الجمال والفتنة نفسًا عالية، وقلباً ملؤه الحنان، وأخلاقاً

مستقيمة فُطرت على الطهارة والوفاء، وهي كزوجها رقيقة العاطفة، ولكنها قوية الحس، تراهما في الفصل الأول يتحدثان عن سياحة يعتzman أن يسيحاهما في إسبانيا.

أما هي فمبهجة مغبطة؛ لأنها سترى ما لم تر؛ ولأنها ستخلوا إلى زوجها أسابيع لا يشاركتها فيه شريك، وأما هو فسعيد ولكنه يتوجه العودة؛ لأن عمله كثير؛ ولأنه لا يستطيع أن يؤجل هذا العمل إلا قليلاً، وتفهم من حديثهما أنها قد تزوجاً منذ ثلاث سنين، وأنهما تحاباً قبل أن يتزوجاً، وأنها أسلمت نفسها له قبل الزواج، أذكرته أسرته كلها، وما زالت تنكره وتزدرى امرأته إلا أختاً له هي «جنثيف»، وهي أرملة لا ولد لها، تحب أخاها وتكبر زوجه، وتضمر لها مودة قوية، يسألها ماذا تصنع هذا اليوم فتبته بأنها تنتظر جماعة من الزائرين، سيتناولون عندها الشاي، فإذا سألها عن مصدر هذا أنيتها بأن أخيه تفك في أن تُعرّف فتاة إلى شاب، وهي تريد أن يكون بينهما زواج، أما هذه الفتاة فاسمها «كلاودين أرفو» جميلة، ذكية، مُثْرية، ولكنها فقدت أمها، وهي تعيش مع أبيها الذي لا يحفل بها ولا يلتفت إليها، وإنما ينصرف عنها إلى لذاته وشهواته، فمن الخير أن تتغير حياتها، وأن تجد في الزواج ما ينقدها من شر هذه الوحدة التي تعيش فيها، وأما الشاب فهو «فيليب دارتيز»، وهو صديق هذه الأسرة، وهو جميل، حسن الطاعة، غنيٌّ، اشتغل بالمحمامات فتفوق فيها، وكاد يبلغ مكانة عالية لو لا أن عرضت له امرأة نَصَافُ ولكنها غنية جداً، فأحبها وأحبته وعاشاً حيناً، فما هي إلا أن صرفته عن العمل، فأصبح لا يعيش إلا لها، وأصبح يضحي بملكاته ومكانته في سبيل هذه المرأة، ومن الخير أن يتركها إلى حياة الزوجية المنظمة التي تمكنت من إحياء ملكاته واسترداد مكانته في المحمامات، أما زوجها فلا يكاد يسمع هذا حتى يسخر منها ومن أخيه، ومن عنايتهما بتزويج الناس بعضهم من بعض، ثم تقبل أخيه فينصرف، ويقبل الزائرون قليلاً قليلاً حتى يتم اجتماعهم إلا الشاب فإنه لا يحضر، ومع ذلك فقد وعد بالحضور، وصاحبة البيت تنتظره وقد أعلنت مقدمه إلى الزائرين.

وهنا قسم لذيد من القصة، فيه ضروب من الحوار مختلفة، كل واحد منها على قَصْرِه يصور لك تصويراً صادقاً دقيقاً نفساً إنسانية أو شخصاً من أشخاص هذه الحياة الخاصة: حياة الأغنياء والمترفين، فهناك في ناحية من نواحي الغرفة رجل وامرأة يتحدثان، يتحبب الرجل إلى المرأة ويغريها بالحب ولذاته، فتجيبه بأنها تفهم ذلك وتميل إليه فلا تنفر منه، ولكنها مع ذلك لا تورط نفسها فيه؛ لأنها تعودت ألا تكتم زوجها سرّاً، فهي تقص عليه أمر يومها إذا اجتمعا إلى مائدة العشاء، وهي تخشى إن اتخذت لها عاشقاً

أن تقص أمره على زوجها لما تعودت من ذلك، ولكنه يغريها ويهون عليها الأمر، ويفتح لها أبواب الحيل، وما يزال بها حتى يظهر أنه قد ملك عليها أمرها، فيخرجان بعد أنْ يقسم لها أنها تستطيع أنْ تقص على زوجها كل ما سيحدثها به في الطريق، وهذه المرأة نفسها مشهورة بالتورط في طائفة من الأغلال المذكورة كلما ظهرت في جماعة، ولم تخطر حظها من ذلك هذا اليوم، فبينما هم إلى الشاي يذكرون «فيليپ» وانتظاره إذ ذكرت صلته بتلك المرأة التي يحبها وتحبه، فسمعت الفتاة ذلك، وتكلفت صاحبة البيت مشقة لتصرف الحديث عن هذا الوجه.

وهناك في ناحية أخرى أبو الفتاة، وهو رجل قد كان يتقدم في السن، ولكنه شاب أو يتكلف الشباب، مكبٌ على لدته، لا يعدل بها شيئاً آخر، وهو حريص على أنْ يزوج ابنته ليخلاص منها ويفرغ للذاته، وحرصه هذا على تزويج ابنته ينسيه واجبه، فهو لا يتحرى من أمر الشاب الذي يعرض عليه شيئاً، وإنما يكل الأمر في خفة إلى «هيلين» و«جنثيف»، فإذا أبطأ الشاب انصرف وترك ابنته بين هاتين الصديقتين.

وهنالك الفتاة «كلودين» يظهر عليها أنها قد بلغت من السذاجة والبراءة حظاً عظيماً، ولكنها ليست بالساذجة ولا الجاهلة، فهي تعلم لم دعيت إلى هذا الشاي، وإنْ أخفوا ذلك عليها، وهي تفطن لكل ما تسمع من حديث، وهي تعلم من أمر هذا الشاب الذي يراد تقديمها إليها كل شيء، وهي تميل إليه؛ لأنَّ خلقه جميل، وتتفرَّ منه لكانه من تلك المرأة، ولكن انتظار هذا الشاب يطول، فتنصرف «جنثيف» والفتاة، وتبقى «هيلين» وحدها لحظة، ثم يدخل الخادم فينبئها بأنَّ «فيليپ» قد جاء حين كان عندها الزائرون، فلما عرف مكانهم انصرف على أنْ يعود بعد قليل، وقد عاد، فيدخل فتلتقاها «هيلين» ساخطة مغضبة؛ لأنها دعته إلى الشاي وكانت تريد أنْ تقدم إليه ناساً، أما هو فيجيب بأنه أقبل ليراها لا يرى غيرها؛ لأنَّ رؤية غيرها تؤذيه، ورؤيتها هي تسره، وقد أقبل ليُسرَّ لا ليتأذى، ثم يكون بينهما حديث تظهر فيه قيمة القصة، وتبدأ فيه المعضلة التي سيعالجها الكاتب في الفصلين الآخرين، يتحدثان فتذكر له قصة الزائرين وقصة الفتاة، وأنها تريد أنْ تقدمها إليه فيتخذها له زوجاً، فيجيبها بأنه لا يريد أنْ يتزوج، فإذا ألحت عليه، أجابها في تبرم وسخط بأنَّ ذلك لا يعنيها، وليس من حقها أنْ تفكِّر في أمره الآن، أو تحرص على سعادته بعد أنْ ازدرت هذه السعادة وضحت بها منذ ثلاثة سنين، وإنْ فقد كان بينهما حب قبل زواج «هيلين»، وقد ضحت هيلين بهذا الحب وتزوجت، ولكن الحديث يستمر بينهما فيوضِّح لنا هذه القصة، ففهم أنَّ «فيليپ» عرف هيلين هذه فأحبها ولم

تحبه، ثم قدم إليها صديقه «ميشيل»، فأحبها أيضًا وأحبته، أو قل مالت إليه، وكانت بينهما صلات العاشقين، فتألم «فيليب» لذلك، ولكنه أخفى الله، ثم أصبحوا ذات يوم فإذا ميشيل قد سافر فجأة إلى أمريكا، وانقطعت أخباره ورسائله حيناً، فانتهز فيليب هذه الفرصة، واستأنف ملاطفة «هيلين» والتحبب إليها، وما زال يتبعها بحبه وإلحاحه حتى رضيت له، ومضت على ذلك أشهر، ثم أقبل «ميشيل» من أمريكا، فإذا هو لم يسافر إلا ليبحث عن الثروة ولি�ضمن مستقبلاً سعيداً، فلما ظفر بذلك عاد فعرض على «هيلين» الزواج، وكانت تريده أن تتبئه بخيانتها إياه، ولكنها رأته سعيداً مبتهجاً، فأشفقت عليه من الألم، ورأت أن المستقبل أمامها مبتسם سعيد، فأشفقت على نفسها من الحرمان، وكتمت خيانتها وقبلت الزواج، وكتبت إلى «فيليب» تقطع ما بينهما من الصلة، وتعاهد فيليب وهيلين على أن يجهدا في نسيان هذه الصلة.

ومضت على ذلك أعوام ثلاثة، أما هي فنسحت كل شيء؛ لأنها أحبت زوجها؛ ولأن زوجها عرف كيف يضمن لها السعادة، وأما هو فلم ينس شيئاً؛ لأنه ما زال يحبها، وما زال يأمل لهذه القطيعة، فإذا سألت عن هذا الحب كيف يستطيع «فيليب» أن يجمع بينه وبين معاشرته لتلك المرأة التي قدمنا الإشارة إليها، قلت لك: إن هذا هو سر القصة، وستظهر عليه في الفصل الثاني.

إذا كان هذا الفصل الثاني فقد عاد الزوجان من سياحتهما في إسبانيا، وقد أقبلت «جنثيف» تريده أن تلقى «هيلين» لتحببها بعد العودة، فإذا رأتها وحيتها أنتبهما بأنها لم تتأس من الزواج بين «فيليب» و«كلودين»، وأنها قد عملت لذلك وجّدت فيه فوفقاً لشيء كثير، ذلك أنها ما زالت تحتمل حتى قدمت الفتاة إلى الفتى في ملعب من الملاعب الرياضية، وكانت بين الفتاة والفتى مسابقات ومغالبات في هذه الألعاب الرياضية انتصرت فيها الفتاة غير مرة، ثم نشأ بينهما شيء من الميل الظاهر، ولكنه في نفس الفتاة قويٌ يكاد يبلغ الحب الذي تنهلُ من أجله العبرات، وهي تريده الآن أن تعلم علم فيليب وما اعتزمه في أمر هذا الزواج، وقد احتاطت لذلك، فتحدث صباح اليوم في التليفون إلى «فيليب» باسم «هيلين» تتبئه بعودتها وتدعوه لزيارتها، فوعد بهذه الزيارة في الساعة الثانية بعد الظهر، وهو قادم من غير شك بعد قليل، أما «هيلين» فتنكر عليها سعيها هذا، وتلومها لوّماً شديداً، ولكن «فيليب» يقبل فتستخفـي «جنثيف» وتتلـقاه «هيلين» فيكون بينهما حديث نفهم منه أنه معجب بالفتاة ميال إليها، يود لو استطاع أن يقترب منها، ولكنه

لن يفعل، فإذا سأله عن سر هذا لج في كتمانه، وهي تتضرع إليه وتذكر له حب الفتاة وأملها، فلا يحفل بشيءٍ من ذلك، ثم ينصرف، وتعود «جنثيف» فتبتهأ «هيلين» بأن لا أمل في الزواج، وهمما تحدثان إذ يدخل الخادم فينبئ بأن «سيمون» — وهي عشيقه «فيليب» — قد أقبلت تريد أنْ ترى «هيلين»، فتشاءم المرأةان لهذه الزيارة، وتنصرف «جنثيف» وتدخل «سيمون»، فيبدأ بينها وبين «هيلين» حديث ملؤه التورية والتعريض، ولمؤه الغمز واللمز، ولكنه ينتهي إلى جزء هو عقدة القصة ومشكلتها الحقيقية، ذلك لأنَّ «سيمون» تصريح «هيلين» بأنها تريد أنْ تتزوج من «فيليب»، وتطلب معونتها على ذلك، فإذا أظهرت «هيلين» شيئاً من التردد جاهرتها سيمون في عنف وقسوة بأنها مدينة لها بهذه المعونة، وأنها إذا لم تعنها فستلقى من ذلك شرًّا ليس فوقه شر؛ لأنَّ «سيمون» تعلم ما كان بينها وبين «فيليب» من الخيانة، وأنها إنما علمت ذلك؛ لأنها كانت تحب «فيليب»، فانصرف عنها حين فتن «بهيلين»، فما زالت تتبعين أسباب هذا الانصراف حتى عرفتها، وإنْ «فهيلين» عدوتها قد أساءت إليها حين فنت «فيليب»، وما زال «فيليب» متاثراً بهذه الفتنة، فيكفي أنْ تأمره «هيلين» بشيءٍ لي فعله، وإنْ فهي تطلب إلى هيلين أنْ ترغبه في هذا الزواج، فإن لم تفعل فستقص أمرها على ميشيل زوجها، وستكون شقيقة مثلها ثم تنصرف، فإذا هيلين جزعة مضطربة يتنازعها أمران كلاهما شر، فهي لا تريد أنْ تعلم زوجها بما كان من خيانتها إياه، وهي لا تريد أنْ يقترب «فيليب» بهذه المرأة التي يكرهها ويزدريها، فتسرع إلى التليفون، وتدعوه «فيليب» لزيارتها، وهي في انتظاره واجمة جزعة إذ يقبل زوجها، فتجزع لرؤيته، وكلما تلطّف لها زادها ذلك ألمًا وحسرة، فإذا سألاها زوجها عن ذلك اعتذر بطبع السفر، وما يزال بها حتى تطمئن إليه قليلاً فيتحدثان، ثم يتركها لعمله.

ويأتي فيليب، فتقصد عليه من أمر «سيمون» ما قدمنا، ويظهر لنا أنَّ هذا هو الذي يحول بين الفتى وبين الزواج، ذلك أنَّ «سيمون» أخذت كلما أحسست ميلاً من «فيليب» إلى أنْ ينصرف عنها، تندره بأنها ستقص أمره على «ميشيل»، فتقضي على سعادة «هيلين»، وإنْ فهو يعيش مع هذه المرأة التي يكرهها ويزدريها لا شيء إلا الحرث على أنْ تظل «هيلين» سعيدة، وعلى أنْ يظل سرها مكتوماً، أما الآن وقد ظهر أنها لا تكتفي منه بالعشرة، وإنما تريد منه الزواج، فأمره مضطرب كأمر «هيلين»، وهمما يتشاروان إذ يدخل «ميشيل»، فيحيي صديقه القديم، ويتحدث إليه بأن الناس يذكرون عشرته لهذه المرأة فينكرونها ويسيخطون عليها، ويلومون «فيليب» لوماً عنيفاً، ويتهمنه بأنه إنما يعاشرها

لثروتها، وينصح له بأن يقطع هذه الصلة، فيجيبه «فيليب» بأنه لن يقطعها، بل هو سيزيدها قوة ومتانة؛ لأنَّه سيخذ «سيمون» زوجاً له، ثم ينصرف ويترك هيلين في حال من الوجوم غريبة، وينصرف ميشيل إلى عمله، أما هيلين فتظل واجمة حيناً، ثم يظهر عليها أنها قد اعتزرت أمراً ذا خطر، فتعتمد إلى منضدة وتكتب كتاباً، وتدعى خادمتها فتأمرها أنْ تتصرف بهذا الكتاب إلى «فيليب» فتدفعه إليه وتعود، فإذا انصرفت الخادمة نهضت هي في ذهول ووجوم إلى مكتب زوجها، فطرقت الباب ودعت «ميشيل»: أَسْتُطِيع أَنْ أَحْدُث إِلَيْكَ؟ فتسمع من وراء الباب صوتاً يجيبها أنْ نعم! فتسخفي وراء الباب ويسدل الستار.

إِنَّما كان الفصل الثالث فنحن في مكتب ميشيل والمسرح خال لحظة، ثم يقبل ميشيل مضطرباً، فيدعوه الخادم ويطلب إليه التليفون، فإذا حمله إليه دعا الطبيب، ثم تدخل أخته جنثيف، فتفهم من حديثهما أنَّ هيلين مريضة، وأنَّها أقبلت إليه تحدثه، وكانت أمارات التعب والاضطراب ظاهرة على وجهها، فسألته أَنْ يجتهد في منع هذا الزواج بين فيليب وصاحبته، ثم أخذتها نوبة عصبية عنيفة، فإذا هي ترتعد ارتعاداً قوياً، وإذا دعوها تنهل، وإذا زفراتها متصلة، وإذا هي ترفع من وقت إلى آخر يدها إلى رأسها كأنَّها تحس ألمًا فيه، فحملها إلى مضجعها، وتعهدها بشيء من العناية حتى هدأت قليلاً، وهي الآن في سنة من النوم، فإذا قص ذلك على أخته حزنت له، وأخذت تهدئ من روع أخيها، ولكن أخاهما مضطرب يفترض الفروض، ويخشى على زوجه كل مكره، ولكنه يسأل أخته فيما أقبلت؟ فتقصر عليه كل ما قدمت لك في الفصل الماضي، فإذا علم أَنَّ فيليب قد زار زوجه مرتين، وأنَّ سيمون قد زارتها أيضاً دخله شيء من الخوف والتحفون، وعيثت بنفسه الشكوك؛ لأن زوجته لم تحدثه بشيء من ذلك، فأخذت يسائل عن هذه الزيارات، وأخذ يفهم ما بال زوجه كانت مضطربة متعبة حين دخل عليها في الفصل الثاني، وأخذ يسائل عن مقدم سيمون، وأخذت أخته تزيل من نفسه هذه الشكوك والأوهام، ولكنه كان قد دعا خادم زوجه فأخبر أنها غائبة.

وقد عادت هذه الخادمة فأقبلت، فسألتها أين كانت، فتنبئه أَنَّ سيدتها كلفتها أَنْ تحمل كتاباً إلى فيليب، فحملته وسلمته إياه، فلا يزيد هذا النبأ إلا شگّاً أو قل إلا يقيناً بأنَّ امرأته تحب هذا الرجل، وما أسرع ما يتمثل تفسيراً لحال امرأته، فهي تحب فيليب وتكره هذا الزواج، وقد اجتهدت في أَنْ تصرفه عنه، وهي تجتهد في ذلك إذ دخل هو عليهما

فانقطع الحديث، فلما انصرف فيليب كتبت إليه تزعم عليه ألا يتم هذا الزواج، وقد اشتد يقينه وقوى حتى كاد يجن جنونه، ولكن أخته تسأله: ولم تجتهد زوجك في أن تمنع هذا الزواج؟ وماذا عسى أن يغير هذا الزواج من حبهما إن كان بينهما حب؟ ف فهي كانت تعلم أنه كان يعيش مع هذه المرأة عيشة الزوج، أفتظن أنها تعلم ذلك، وتطمئن إليه، ثم تجتهد في أن تمنع إقراره رسميًا! ألسنت تعلم أنها كانت تجتهد معي في تزويج فيليب من هذه الفتاة كلوبين؟ وإن فكيف تستطيع أن تفسر ذلك، وأن تفترض أنَّ بينهما حبًا، فيظهر لميشيل أنه مسرف متجل في افتراضه، ولكنه يظل مضطربًا؛ لأنَّه لا يفهم أمر هذا الكتاب، فتهدهُ أخته، وتطلب إليه أنْ ينتظر حتى إذا أبلغت هيلين من مرضها سألاها عن هذا الكتاب، فأجابته بما يرضيه ويريحه، وتعلن إليه أنها ذاهبة تتوجه الطبيب، فإذا خرجت تبعها، وظل المسرح خالياً حيناً، وإذا هيلين قد أقبلت وهي شاحبة ممتدة عليها آثار التعب والعلة، فإذا دخلت ولم تر زوجها أقبلت إلى التليفون تريده أن تتحدث، ولكن زوجها يدخل فتنصرف عن التليفون ولما يمكن من أنْ يراها، ثم يسألها كيف هي وما بالها خرجت من غرفتها؟ فتبئه بأنها بخير، وأنها تسترد قوتها بعض الشيء، ولكن صاحبنا مضطرب، وهو أشد اضطراباً من أنْ يصر على زوجه، ويجبها الأسئلة المولدة، فيسألها عن زيارة فيليب، وعن زيارة سيمون، وعن هذا الكتاب الذي بعثت به إلى فيليب، وهو كلما ألقى عليها سؤالاً لم ير منها إلا اضطراباً وارتباكاً، ولم يحس منها إلا تورطاً في الكذب والتلفيق، ولم يشهد منها إلا ضعفاً وإسراها إلى استئناف النوبة العصبية التي شهدتها منذ حين، فلا يبقى في نفسه مكان للشك في أنها خانته، وفي أنها تحب فيليب، فيصرفها إلى غرفتها وهي ضعيفة لا تقاوم إلا قليلاً، فتنصرف وتتركه ذاهلاً قد بهت، وتدخل أخته فتبئه بأن الطبيب غائب عن باريس، فيجيبها: لسنا في حاجة إلى الطبيب، فليست مريضة، وقد ظهر لي كل شيء، ثم يطلب إلى أخته أن تلحق بهيلين في غرفتها، وأن تلازمها وتحول بينها وبين مفارقة هذه الغرفة حيناً، وأن تمنعها من اللحاق به؛ لأنه ينتظر رجلاً، ويريد أن يخلو إليه، فتستطيع أخته مشفقة.

أما هو فقد عمد إلى التلفون ودعا فيليب، فوعده أنْ يقدم حالاً، ويأمر الخادم ألا يدخل عليه أحداً غير فيليب، فإذا أقبل فيليب أجلسه، وعمد إلى أبواب المكتب فأحكم إغلاقها، ثم جلس وقال لصاحبها: لقد عرفت كل شيء، فقد أنيأتني هيلين بما كان بينكما، وهو إنما قال ذلك ليتحسن صاحبه وبيتليه، ولكن صاحبه يجيءه في هدوء، أعلم ذلك! وكيف تعلمه؟ فقد كتبت إلى تنبئي بماذا؟ تنبئني بأنها ستقص عليك كل

شيء، ثم يجتهد فيليب في أن يفسر له هذا الأمر، فيذكره بتقديمه إياه إلى هيلين وبأنه كان يحبها، فلم يحفل ميشيل بهذا الحب، ولم يلتفت إليه، أو لم يشعر به، وما زال يتملق هيلين ويسلط لها حتى كان منها مكان العاشق، فهو إذن قد خان فيليب أو اعتدى عليه، ثم سافر فجأة دون أن ينبي بسفره، وكان فيليب لا يفكر إلا في شيء واحد وهو أن ينتقم من هذا الاعتداء، وكان يحب هيلين، فأخذ يتبعها ويلح عليها، وينتهز ضعفها ووحدتها حتى ظفر منها بما أراد، ثم كانت عودة ميشيل من أمريكا وعرضه الزواج على هيلين، فكتبت هيلين إلى فيليب تقطع ما بينهما من صلة، وكان هذا كل شيء، أما ميشيل فقد استمع لهذا الحديث والغضب مالك عليه أمره، وهو لا يكاد يصدق أنَّ الأمر قد انتهى بالعاشقين إلى هذا الحد، وإنما هو موقن أنهما قد مضيا في الخيانة بعد الزواج، ولكنه يحس من صاحبه الصدق، فلا يفعل هذا الإحساس في نفسه شيئاً، وإنما هو متاثر بالغضب والإهانة، وقد اعترض أنْ يطرد زوجه، وأنْ يقطع ما بينهما من صلة، وهو يعلن إلى صاحبه أنه يستطيع أنْ يسافر معها إلى حيث أراد، ثم يسأله: «ولتكن تكره هذا السفر فسيحول بينك وبين الاقتران بهذه المرأة الغنية».

يجيبه صاحبه: لا تتكلف نفسك عناء، فلم يبق من سبب لهذا الزواج.
- وكيف ذلك؟

- لأنني كنت مقدمًا على هذا الزواج وأنا كاره له، كنت أضحي بنفسي في سبيله وفي سبيل هيلين، وفي سبيل سعادتكما كانت هذه المرأة قد عرفت كل شيء، وأمسكتني ثلاثة سنين، كلما حاولت فراقها أندرتني بأنها ستقص عليك ما تعلم فأبقي، ثم خطر لها الزواج فأندرت هيلين نفس الذئير، فأشفقت عليها وعليك وقبلت الزواج، أما الآن وقد علمت كل شيء، فليس ما يدعو إلى هذا الزواج، ثم أريد أنْ أقول لك قبل أنْ أنصرف: إنك ستعفو عن زوجك، وإنَّ هذا العفو هو أجدر الأشياء بك، ولقد أعلم أنك تأمِّل كثيراً، ولكنني أعلم أنَّ أملك هذا سيزول؛ لأنها تحبك، أما أنا فالآن كثيراً منذ سنين، ولن يزول هذا الألم؛ لأنها لا تحبني، وهو في هذا الحديث إذ تقبل جنثييف تدعوه أخاهما، فینصرف فيليب وتتبئ جنثييف أخاهما أنَّ هيلين مضطربة قد عاودتها التوبة، فهي تدعوه صائحة باكية مرتعدة باسطة ذراعيها كالطفل، ولكنه يأبى أنْ يذهب إليها، ويصرُّ أخته ويجلس وقد وضع رأسه بين يديه مفكراً، ويلبث كذلك حيناً، وإذا هيلين قد أقبلت فتدعواه، فإذا رفع إليها رأسه أخذت تحدثه بصوت متهدج وهي تدافع عبراتها: لقد سألتني فأأخفيت عليك، وأنا الآن أريد أنْ أنبئك بالحق، فلست أجد من ذلك بدًا، لا تتكلفي نفسك ذلك فقد علمت

كل شيء، دعوته فسألته فأنْبأني ثم انصرف، وإذا هي جاثية بين يديه تستغفره وتسأله العفو!

وهنا موقف أقل ما يوصف به أنه آية من آيات الدقة الفنية في وصف العاطفة الرقيقة المؤثرة، انظر إلى هذه المرأة تقدر خطيبتها، وتشعر بجهل هذه الخطيبة، ولكنها تحب زوجها حباً لا حد له، وهي لا تستطيع أن تعيش بدونه، وهي لا تستطيع أن تطمع في عفوه؛ لأنها تعلم أنَّ هذا العفو عسير، فهي تعترض وتترى وتضرع ولا تطلب إلى زوجها إلا أنْ ينتظر، وأنْ يكون شجاعاً على احتمال الألم، وانظر إلى هذا الرجل يحب زوجه حباً لا حد له، ويثق بها ثقته بنفسه، وقد كان يؤمن بالإيمان كله بأنها فوق ما يتورط فيه النساء من الضعف، وفوق ما يتعرض له النساء من الشك، فما هي إلا لحظة حتى انهدم هذا البناء الفخم، وأصبحت امرأته أمامه امرأة كغيرها من عامة النساء، وهو على هذه الخيبة يحب امرأته، وهو يحاول أنْ يخفى هذا الحب، ولكنه لا يجد سبيلاً إلى ذلك، وهو يلتمس وسيلة يستأنف بها الإيمان بزوجه، وهو يكفل نفسه المشقة في تلمس هذه الوسيلة، فكلما فتحت له امرأته باباً من أبواب الألم نهض شبح الشك الفظيع فأغلق هذا الباب إغلاقاً عنيناً، وكيف يستطيع أنْ يؤمن بامرأته وقد خانته وكذبت عليه، واستطاعت أنْ تخفي هذه الخيانة وهذا الكذب ثلاثة سنين دون أنْ يحس من ذلك شيئاً أو يتوجه لها؟ كيف يستطيع أنْ يؤمن لها؟ أليست قادرة على أنْ تستأنف الكذب والخيانة وإخفاهم؟ كلا! لا أستطيع! إنك تحبين هذا الرجل، وإنما بالك قد كرهت هذا الزواج، واجتهدت في منعه حتى أظهرت ما خفي من أمرك أمامي، ووصمت نفسك أمامي هذه الوصمة المخزية المنكرة؟ أليست هذه تضحية؟ أكان يحملك على هذه التضحية شيء إلا الحب؟!

- ولكنك رجل تفهم معنى الشرف ومعنى الواجب خيراً مما أفهمه، وما أشك في أنني لم أقدم هذه التضحية متأثرة بالشرف والواجب، رأيت هذا الرجل وقد ضحي بنفسه في سبلي ثلاثة سنين، وهو يريد أنْ يضحي بما بقي له في سبلي أيضاً، فكرهت ذلك وأبيته، وأية حبي لك أني وجدت نفسي أمام أمر شاق، هو منع هذا الزواج، فلم أستعن إلا بك، أفتراني كنت أستعين بك لولا أنْ لي بك ثقة عظيمة.

إذا جرس التليفون يدق، فتعمد إليه هيلين وتتبئ زوجها أنَّ أخته تريد أنْ تتحدث إليه، فتجيب عنه، ونفهم من الحديث أنَّ جنكييف تساءل عن المريضة وعن أمر الزوجين، وهي قلقة وتريد أنْ تطمئن، فتبذل لها هيلين مما يبعث في نفسها الطمأنينة، ثم

الرجل المغلول

تسمع هيلين تقول: نعم أعدك بأنني سأفعل ذلك، ثم تنصرف عن التليفون متربدة، فتقبل على زوجها: «ميشيل، إِنَّ جنثيف تكلفني أَنْ أُقْبِلَكَ!» ولا ترى من زوجها انصرافاً عنها فتطوّه بذراعيها.

فبراير سنة ١٩٢٤

منا فنا

للكاتب البلجيكي «موريس ماترلانك»

مُثُلتْ منذ عشرين سنة فُتنَتْ بها الناس، وكان النقاد يُجمِعون على إكبَارها، وغلا بعضهم في ذلك فذهب إلى أنها آية من آيات الفن، ولم يتردد «إميل فاجيه» في أن يثنى عليها أجمل الثناء، ثم تناساها الناس في فرنسا، ولكنها طافت أقطار أوروبا وأمريكا، ثم عادت في السنة الماضية إلى فرنسا، فمثُلت في بيت «مولير»، ولم يتردد أحد من النقاد المعاصرين في باريس في أن يثنى عليها، ويحمد «لبيت مولير» اتخاذه إياها بين قصصه التمثيلية؛ ذلك أنها خليقة بهذا الثناء، بل نستطيع أن نقول: إنها خليقة بالإعجاب الذي لا حد له، ففيها كل ما تمتاز به القصة التمثيلية المتقدة، فيها الفكرة التي تغدو العقل، وفيها العاطفة التي تغدو الشعور، وفيها الحركة التي تلذ الحس، ثم هي فوق هذا كله جميلة؛ لأنها تمثل فصلاً من فصول التاريخ.

وليس من شك في أنها ليست من الدقة التاريخية بحيث ترضي المؤرخ الحرير على الصدق والإصابة، ولست أقصد إلى هذا النحو حين أذكر أنها تمثل التاريخ، وإنما أريد أنها لا تمثل الحياة العصرية التي نحن فيها ولا تمثل عصرًا قريباً من العصر الذي نعيش فيه، وإنما تمثل شيئاً بعد العهد به، فاشتد الميل إليه لا شيء إلا أنه قديم؛ بل لشيء آخر غير أنه قديم، هو أنَّ هذا العصر الذي تقع فيه القصة كثيراً ما تشتت الرغبة في درسه وتعرف أخباره وأثاره؛ لأنه عصر النهضة الأوروبية يوم كانت هذه النهضة حديثة العهد، لا يتاح العلم بها والتبؤ بمستقبلها إلا للأقلين عدداً، ثم تقع هذه القصة في إيطاليا مهد النهضة، فليس عجيباً أن نجد شيئاً من اللذة حين نرى هؤلاء الإيطاليين الذين يتفاوتون

في رقي العقل تفاوتاً شديداً، فمنهم من مسته النهضة، فقرأ آثار الفلسفه من اليونان، وتأثر بما قرأ حتى أصبح فيلسوفاً يزدري ما حوله ويكره الحياة التي يحيها، ويتحذ للحياة مثلاً آخر غير المثل الذي يتحذه الناس، وأكثراهم لا يزال محفظاً بما ورث من نظم الحياة في القرون الوسطى، فهو يجهل الفلسفة أو يزدرها، وهو يكره هذه المثل العليا التي يسعى إليها الفلسفه ويحرصون عليها، ثم نجد نفس هذه الحياة - حياة القرون الوسطى - ممثلاً أمامنا بما فيها من عادات وأخلاق ونظم ننكرها، فتقطع من أنفسنا موقع العجب، كل ذلك يحبب إلينا هذه القصة، ولكن موضوعها نفسه خلب مستهو للأباب؛ لأنه قديم وجديد معًا؛ ولأنه من هذه الموضوعات التي قد تختلف الأزمنة دون أن تناولها الشيخوخة، أو ينقص حظها من الشباب، فهي حية أبداً، قوية أبداً، مؤثرة أبداً في نفوس الناس، ولقد قرأ الناس في تاريخ الرومان وفي تاريخ بني إسرائيل شيئاً يشبه هذا الموضوع شبهًا قوياً، فكان مؤثراً في نفوس شعراهم وكتابهم وأهل الفن منهم، وتناولوه بالشعر والكتابة والتصوير، فلم يزده هذا إلا قوة وشباباً وقدرة على التأثير في النفوس.

الموضوع في نفسه يسير: رجل قوي جبار، ينتهي حرمة الآداب والأخلاق والبيانات، ويستغل قوته وجبروته ليرضي لذة منكرة أو شهوة مرذولة، فيغتصب امرأة من الحق لها أن تُرعى حرمتها، وقد روت أساطير الرومان شيئاً من هذا كان من شأنه أن تل عرش الملوك في روما وأقام مكانه الحكم الجمهوريّ، وروى تاريخ بني إسرائيل شيئاً من هذا كان من شأنه أن أنقذ مدينة اليهود المقدسة من الفناء والدمار؛ لأن فاتحاً أغار عليها فحصرها وألح عليها في الحصار حتى لم يبق لها بدًّ من التسليم، ولكن امرأة جميلة كان الشعب بها مفتوناً ولها محبّاً، وكانت آية في الجمال والروعة، ذهبت إلى هذا الفاتح، فما زالت به تلطفه وتداعبه حتى فتنته وأغوطته ثم قتلتة، فارتدى الجيش عن المدينة خاسراً، وقد أعجبت الشعوب بمثل هذه الأساطير، وتناقلت أخبار هؤلاء النساء على أنها تمثل البطولة.

فأنت ترى أنَّ الموضوع ليس في نفسه شيئاً جديداً، وأنَّ الكاتب لم يخترعه اختراعاً، وسواء أصحت قصته من الوجهة التاريخية أم لم تصح، فليس من شك في أنه أحسن استثماره وتناوله على وجه أرضي العقل وأرضي الشعور وأرضي جمهور النظارة، ولقد مثلت سنة ١٩٢٣ قصة هذه المرأة الإسرائيليّة التي قدمت الإشارة إليها، وكان واضح القصة «برنستين» الكاتب الفرنسي المشهور، فلم تزل ما كان ينتظره الكاتب من الفوز؛ لأنَّه لم يوفق فيها لمثل ما وفق له «ماترلانك» من الجمال والصدق والإتقان.

ولقد يكون من النافع أن نوازن بين هاتين القصتين لولا أنها لم تخلص لك قصة «برنسين»، فلنتكلّف اليوم بتلخيص القصة التي نحن بإياها، ولعلنا نعود إلى قصة «برنسين» في يوم آخر.

نحن في أواخر القرن الخامس عشر في إيطاليا، وال Herb قائمة بين مدینتين عظيمتين، إحداهما مدینة «فلورنسا» والأخرى مدینة «بيز»، وقد اشتدت هذه الحرب حتى بلغت أقصى ما كان يمكن أن تبلغ من القسوة والعنف، وأتيح النصر لـ«فلورنسا»، فهي تحاصر مدینة «بيز»، وتضيق عليها الحصار حتى استنفذت ما كان فيها من قوة ومناعة وذخيرة وصبر، فالمدینة مشرفة على التسلیم، وهي ترسل الوفود إلى القائد المنتصر ترید أن تفاوضه في شروط التسلیم فلا تعود هذه الوفود.

وقد ضاق الشعب بالأمر، وسُئِمَ الجندي هذا الموقف، فالجندي ينذر بالفرار، والشعب يستعد للثورة، وقائد الجيش المحصور واسمه «جويدو» يدبر أمره مع اثنين من ضباطه، يبنّيه الضابطان بما قدمنا من فشل الجيش، وإفلاس المدينة، واستعداد الأمر للفساد، وبأن جيّشاً من مدینة «فينيس» كان مقبلاً لنجدۃ المدينة، ولكن جيّشاً من «فلورنسا» لقيه فهزمه، وكان الشعب والجيش المحصوران ينتظران الخير من هذه النجدة، وهو يجهلان ما أصابهما، فينبئهما القائد بأنه قد بدأ كل ما كان يستطيع ليتفق مع المنتصر على الإذعان والتسلیم، ولكن هذا المنتصر لم يجبه ولم يرد عليه، فهو في حيرة من أمره، وقد انتهت به هذه الحيرة إلى أن أرسل أباً يفاوض هذا القائد، وهو ينتظر أباً من حين إلى حين، ويخشى أن يكون قد أصابه ما أصاب الوفود التي سبقته.

على أنه سيء الظن بمدینة «فلورنسا»، لا ينتظر منها إلا الشر كله، وهو يرى الخير لجنه ومواطنه في أن يعرفوا الحقيقة كلها ويموتوا كراماً، وهم يتحدثون في ذلك إذ يقبل الشيخ أبو القائد، واسمه «ماركو» فيسرع إليه ابنه وصاحباه يسألونه عن المفاوضة ونتائجها، ويسأله ابنه ماذا لقي من القائد المنتصر «برتر فالي»، فيجيبه بأنه لم يلق منه إلا خيراً وإنجلاً؛ ذلك لأن هذا القائد المنتصر الذي يختلف الناس في أمره ليس فظاً ولا متواحشاً، وإنما هو رجل رقيق الحاشية، مهذب، متعلم، قدقرأ كثيراً، وكان مما قرأ كتب هذا الشيخ، فهو إذن قد لقيه في إجلال وإكبار، كما يلقى التلميذ أستاذه، ثم يتحدث الشيخ إلى ابنه وصاحبيه بأنه لقي فلاناً عند القائد، وأنه كان سعيداً بهذا اللقاء؛ لأن فلاناً هذا من الذين استكشفوا فلسفة أفلاطون واعتقوها وأذاعوها، فكان أفلاطون قد بعث

بعثًا جديداً، ويمضي الشيخ في حديثه عن أفلاطون وفلسفته، وفي حديثه عما يستكشف الباحثون من آثار الأولين، فيحدثهم عن تمثال من تماثيل الآلهة وجد في غابة من الغابات، وكأنه قد نسي أنه أرسل ليقاوض في التسليم، وأنَّ من ورائه شعباً يموت جوعاً، وجيشاً ينذر بالفرار والثورة، فيذكره ابنه بهذا كله، فيذكر ويجيب: نعم! لقد نسيت أنكم في حرب، على أنني أحمل إليكم السلامة والعافية، ثم يسألونه عما يحمل، فتحس أنه يتکلف تأخير الجواب، ويقدم بين يديه كثيراً من النصح والموعظة والتزهيد في لذات الحياة والترغيب في التضحية، ثم يضيق ابنه بهذه الفلسفة مبيناً أنَّ سعادة الفرد ليست شيئاً بالقياس إلى حياة رجل واحد، فكيف بحياة شعب بأسره! وكما مضى في هذا الحديث لم يزد الأمر إلا غموضاً على السامعين، فيلigh ابنه وقد كاد يفقد الصبر، فيجيئه أبوه بأنه يحمل السلامة والعافية للناس جميعاً، ولكنه يحمل الشقاء لأحب الناس إليه وأكرمههم عليه، وهو قد قبل ووعد بتنفيذ ما شرط المنتصر، فإن لم يوفق لهذا التنفيذ، فقد وعد بأن يعود إلى هذا المنتصر ليلقى عنده ما أعد له من العذاب، وهو بار بوعده، فيلigh ابنه في تبيين الأمر، فينبئه به وإذا هو منكر فظيع.

ذلك أنَّ القائد قد يئس من الحياة، فهو متهم في فلورنسا بالخيانة، وهو مقتول إنْ عاد إليها، وهو لا يريد أنْ يعود، ولكنه يريد أنْ ينتقم، فهو يريد أنْ يبعث إلى المدينة المحصرة بكل ما تحتاج إليه من قوة ومئونة وذخيرة، لتصبح بين اليوم والغد قادرة على أنْ تستأنف الحرب وتنتصر فيها، وهو لا يشترط لذلك إلا شرطاً واحداً، ولكن الشيخ قبل أنْ يتبئهم بهذا الشرط يتبئهم بأن مدينة «فلورنسا» المنتصرة قد أزمعت أنْ تمحو هذه المدينة المحصرة محواً لا تقوم بعده، فإذا تعجلوه في ذكر ما يشترط المنتصر أنباءهم بأن المنتصر يطلب أنْ ترسل إليه «منا فنا» زوج ابنه «جويدو» عارية لا يسترها إلا معطفها، فتمضي هذه الليلة، فإن قبل أهل المدينة هذا الشرط وأرسلوا إليه هذه المرأة، فهو مرسل إليهم كل ما وعد به من مئونة وذخيرة في الليلة نفسها، وإن أبوا فالحرب وتدمير المدينة. لا يكاد القائد الشاب يسمع هذا الشرط حتى يثور ثائره، ويبلغ الغيط منه أقصاه، وإذا هو مقتنع بأن أباه يرى رأيه، وإذا هو يهنىء أباه بهذه الشجاعة التي سيصطفعها حين يعود إلى القائد فيلقي عنده الموت، وإذا هو يزمع أنْ يذهب إلى الأسوار مع جيشه فيثبت لهجمة هذا الطاغية حتى يموت كريماً ويموت أصحابه كراماً، ولكن أباه يتبئه في هدوء وفلسفة أنه قبل الشرط، وأنه ينصح بقبوله وإنْ كان يراه عسيراً أليماً؛ لأنَّ فيه حياة شعب وجيش، وليس من الحق لفرد مهما يكن أنْ يؤثر سعادته على حياةآلاف من الناس.

هنا حوار بين الأب وابنه مهما أقل فلن أستطيع أن أصف لك رقته وصدقه وجماله، هناك الشيخ يحب ابنه ويعطف عليه ويرثي له، ويرى أنه شقّي مظلوم، ولكنه يحب الشعب ويعطف عليه ويرثي له من الجوعاليوم، ومن الموت والتشريد غالباً، وهو يُقدر الحياة الإنسانية والحرية الإنسانية، ويرى أن سعادة ابنه مهما تكن ليست شيئاً، أو لا ينبغي أن تكون شيئاً بالقياس إلى حياة فرد فضلاً عن شعب بأسره، وهناك الشاب قوياً شريفاً محظوظاً بشرفه مؤثراً إيماناً على كل شيء، محباً لزوجه شديد الغيرة عليها، فهو لا يسمع لأبيه إلا ساخطاً عليه، وهو لا يحفل بالشعب ولا بحياته ولا بالألم، وهو لا يرى أن من حق الجماعة على الفرد أن تكلفه مثل هذه التضحية التي لا يستطيع أن يتحملها الإنسان، فقد ضحي بقوته ودمه، وهو مستعد لأن يضحي بحياته دفاعاً عن مدینته، ولكنه لا يستطيع أن يضحي، ولا يريد أن يضحي، وليس لأحد أن يطلب إليه أن يضحي بشرفه وحبه وسعادته دفاعاً عن هذه المدينة، فيجيئه أبوه بأن هذا كله قد يكون حقاً في نظر الشباب، ولكنه إذا فكر وروأى استيقن أن التضحية بالحياة على ما فيها من جمال ليست شيئاً بالقياس إلى التضحية بالشرف التي تطلب إليه الآن، على أن شيئاً من العقل والرواية يهون عليه احتمال هذه التضحية، فالبشر واقع من غير شك، وستصبح امرأته في يد المنتصر غالباً إن لم تذهب إليه اليوم، ولكن الفرق أنها إن ذهبت إليه اليوم أحيلت آلافاً من النفوس، وإن لم تذهب أضاعت شرفها وشرف زوجها، وأهللت المدينة بأسرها.

أما الفتى فقد جن جنونه حتى أعتقد أن أباه مجنون، وأن الشيخوخة والإشفاقي من الموت هما اللذان انتهيا به إلى هذه الضرر، وقد اعتزم لا يسمع لأبيه، وهو يشفق إن ترك أباه غالباً أن يتحدث أباه بشيء من هذا إلى الناس فيغيريهم به، أليس الناس حريصين على الحياة! فهو يأمر إذن صاحبه بأن يتخذ أباه سجيناً، ولكن أباه يجيئه بأن ليس في ذلك خير ولا نفع؛ لأن الناس يعلمون من ذلك أنه تحدث إلى مجلس الحكم بما يشترط المنتصر قبل أن يتتحدث به إلى ابنه القائد، وإن فليس الأمر سراً، فإذا سأله عن رأي مجلس الحكم في هذا الشرط أجابه بأن مجلس الحكم لم يرد أن يقبل أو يرفض دون أن يسأل في ذلك «منا فنا» نفسها، يزداد سخط الفتى حين يعلم أن شيئاً من ذلك قد يُلقي على مسامع امرأته، فهو مشفق على حياتها وعفتها وشرفها، ثم هو مع ذلك واثق بجوابها قابل له مطمئن إليه، فينبئه أبوه بأنه سعيد بهذا الرضا، ذلك أن «منا فنا» قد قبلت ما اشترط المنتصر، وأزمعت أن تذهب إليه الليلة، وهو في ذلك إذ تقبل «منا فنا» شاحبة ممتقطعة فيتقاها زوجها متلهفاً يسألها ويعلن أنها راضفة، ولكنها تجيئه في هدوء: «سأذهب!»

ومهما يلح ومهما يضرع ومهما يغضب ومهما ينذر، فهو لا يجد منها إلا جواباً واحداً:
«سأذهب!»

فإذا كان الفصل الثاني فنحن في خيمة القائد المنتصر «برنزفال» وهو بين اليأس والأمل، ينتظر الساعة الموقعة، لا يدري أتقبل إليه المرأة التي ينتظرها أم يقبل إليه الشيخ، وقد دخل عليه كاتبه، يحمل إليه رسالة من ممثل حكومة «فلورنسا» في الجيش، وفي هذه الرسالة أمر بمحاجمة المدينة غداً وإنذار بالقبض عليه إذا لم ينفذ هذا الأمر، فيسرخ القائد من هذا الكتاب، فيظهر سخطه على ممثل الحكومة في الجيش وعلى مدينة «فلورنسا»، ونفهم منه أنَّ هذا الممثل كان قد كاد للقائد في «فلورنسا»، وأنَّ القائد عليم بهذا الكيد، ولكنه لا يريد أنْ يموت دون أنْ ينتقم، ودون أنْ يقضي أذن ساعة من ساعات حياته وأسعد وقت من أوقاته بلقاء هذه المرأة، ثم يدخل عليه ممثل حكومة «فلورنسا»، فترى شخصاً قد بلغ الكاتب أقصى ما يمكن أنْ يبلغ من الإتقان في تصويره، هو ماهر في المكر والدهاء، هو النفاق ممثلاً، يتحدث إلى القائد، فإذا حديثه حلو خلاب، وإذا هو كأنه أحقر الناس عليه وأشدهم رغبة في استبقاء مودته ورفع شأنه، ولكنك تشعر بأنه لا يقول هذا كله إلا كذباً ورياء، ويشتت الحوار بين الرجلين فإذا النفاق قد أزيل، وإذا هما يتصارحان، وإذا القائد ينبي صاحبه بأنه على بصيرة بكل شيء، وأنه منتقم منه ومن «فلورنسا»، وأنَّ مدينة «بيز» ستصبح غداً قوية منيعة عزيزة الجانب، وهو يتحدث بذلك إلى صاحبه، وإذا هذا الرجل الضعيف الذي لا يمثل إلا الخداع والمكر قد نهض إليه بخجره يريد أنْ يقتله، ولكن الضربة أخطأت صدر القائد وأصابت وجهه، ثم يغفو القائد عن هذا الرجل ويأمر به، فيؤخذ سجينًا دون أنْ يصييه أذى، وتقبل «منا فنا» فإذا دخلت تلقاها القائد في شيء من الاضطراب، أما هي فهادئة ثابتة مطمئنة لا تتكلم إلا قليلاً، تجيب «نعم» أو «لا» حين تُسأل، وهي تعلم ما ينتظراها، وهي مズمعة أن تكون عند ما يريد القائد، أليس قد أقبلت لهذا!

- أراضية أنت به؟

- نعم!

- ألا تأسفين له؟

- أكنت تريدين على ألاَّ آسف!

- أتريدين أنْ تري ما سأرسله إلى المدينة من مؤونة وذخيرة؟

- نعم!

فيأخذ بيدها، ويخرج أمام الخيمة، ويشهدان معًا انطلاق العربات تحمل ما يرسل به إلى المدينة، ثم يعودان وقد أدى ما عليه، فيجب أن تؤدي هي ما عليها، يقودها في لين ورفق إلى سرير غليظ جاف فتجلس، وإذا هو قد جثا بين يديها وإذا هو يدعوها باسمها الذي لا يعرفه إلا زوجها وأهلها، وإذا هو يتحدث إليها في صوت عذب، وإذا حديثه رفيق بريء من كل غلطة أو جفاء، وإذا هو ليس المنتصر الذي يريد أن يلهو، وإنما هو محب يعبد حبيبته.

- من أنت؟ أتعرفني؟

ثم يستمر بينهما حديث آية في الرقة والطهارة والعفة، ذلك أنهما كانا صديقين، كانت هي تعيش مع أمها في مدينة «فينيز» في قصر فخم عيشة الأغنياء، وكان هو يعيش مع أبيه الصائغ عيشة التجار، فأقبل أبوه ذات يوم إلى القصر يحمل إلى أمها عقدًا ورافق أباه وانتظره في الحديقة، فرأى عند فسقية طفلة في الثامنة من عمرها تتنحّب؛ لأن خاتمتها سقطت في الماء، فألقى بنفسه في الماء يلتقط الخاتم، وكاد يفقد الحياة، وكان في الثانية عشرة من عمره، ولكنه استطاع أن يلتقط الخاتم، وأن يضعه في إصبع الطفلة، فقبلته وكانت بينهما مودة اتصلت حيناً.

- إذن! فأنت «جانلو»؟

- نعم!

- وكيف عبّرت بك صروف الحياة؟ وكيف انقطعت بك الغيبة عنِّي؟

- سافرت مع أبي إلى أفريقيا، فضلّلنا الطريق في الصحراء، ثم وقعت أسرًا في يد العرب ثم في يد الإسبانيين، ثم عدت إلى إيطاليا فالتمستك في «فينيز»، فعرفت أنَّ أمك فقدت ثروتها وماتت فقيرة، وأنك تزوجت من رجل غنيٌّ عظيم الجاه في مدينة «بيز»، وكانت أحبك حبًا لا أستطيع أن أصفه.

- وكيف لم تسْعَ في أن تلحق بي؟

- كنت سعيدة، وكانت شقيّاً، فتأثرتُ لك السعادة، ولنفسِي الشقاء، ولقد طفت حول هذه المدينة ووقفت على أبوابها، واجتهدت في أنْ أراك فلم أوفق لذلك، ثم حاربت وانتصرت وأجّرت نفسِي للمدن، وأجّرت نفسِي لمدينة فلورنسا، فانتصرت لها في حرب أو حربين، وإذا أنا قائدًا أمًا هذه المدينة، وإذا أنا أستطيع أنْ أراك! هذه هي القصة.

هنا حوار لذيد بينهما في قمة هذا الحب الذي أضمره لها الشاب، ترى هي أنَّ هذا الشاب لم يَفِ للحب بحقه، فقد كان يجب عليه أنْ يسعى إليها ويلاح في السعي حتى يصل إليها، ويرى أنه قد وَفِي للحب بحقه؛ لأنَّه إنما أحباها لنفسها لا نفسه.
ـ وإنْ فأنت تصحي بشرفك وماضيك ووطنك لتراني؟ يجب أنْ اعترف بأنَّ هذه التضحية عظيمة جدًا.

ـ يجب أنْ أنبئك بأني لم أُضَحِّ بشيءٍ، فليس لي وطن، ولو أنَّ لي وطني لما ضحيت به في سبيل الحب، وإنما أنا أجير، وقد استيقنت أنَّي مقتول في فلورنسا، فأنت ترين أنَّي لم أخسر شيئاً بهذه الخيانة، ولم أشرت هذه السعادة التي أذوقها الآن بثمن قليل أو كثير.
إِنَّما إذا اعترف لها بهذا في هذه الصراحة وهذا الصدق كان قد وصل من قلبها إلى كل شيءٍ، فإذا هي تحبه، وإذا هي كانت تحبه، وإذا هي كانت تتكلَّف إخفاء هذا الحب، ولكنها وفيه لزوجها تحبه أيضًا وتتعطف عليه، وهو يحبها ولكنه يحبها حبًا شريفيًّا نقديًّا، فهو لا يريد لها على سوءٍ، وهو يتعرَّف حتى عن تقبيل يدها، وهي ترك له يدها لا تضمن عليه بشيءٍ؛ لأنَّها تعلم أنه لا يطمع منها في شيءٍ، وإذا هما يستكشفان معًا هذا الحب العظيم الذي لا يعدله شيءٌ في الحياة عظمة وطهارة وقوه، وإنَّهما لفي هذه النجوى الظاهرة الحلوة التي تتجاوز بهما حدود الإنسانية، إذ يذكران من ينتظراها في المدينة، وهو شقيٌّ بهذا الانتظار، فتتم بالعودة لأنَّ الفجر قد أقبل، ولكن كاتب القائد يدخل مضطربًا ينبيء بأنَّ ممثلاً آخر لحكومة «فلورنسا» قد أقبل وقد انتصر على جيش «فينيز»، وهذا الممثل يتهم القائد بالخيانة، ويريد القبض عليه، فيجب أنْ يفر القائد وأنْ ينجو بنفسه، وهو يتحدث بهذا وإذا جلبة تسمع خارج الخيمة على بعد كأنَّ الجيش يثور بقائده، أما القائد فهادئ مطمئنٌ؛ لأنَّه ينتظر الموت دون أنْ يكرهه أو يخافه بعد هذه الليلة السعيدة التي قضاهَا مع من يحب، ولكنها جزعة مشفقة تزيد أنْ تنجي صاحبها.

ـ تعال معي إلى المدينة، فأنت في ذمتِي، ولن يكون زوجي أقل شرفاً وكرامة منك، فسأقص عليه كل شيءٍ، وسيعرف لك مكانك مني.

يتردد القائد قليلاً ثم يَقْبِلُ، ويخرجان أمام الخيمة، وينظران في الأفق، فإذا مدينة «بيز» مضيئة، وإذا آيات الابتهاج والغبطة ظاهرة تملأ الأفق، وإذا هما مسحوران بهذه الزينة مبتهجان لما بعثا في هذه المدينة من حياة.
إِنَّما إذا الحب والابتهاج قد بلغا من هذه المرأة أقصاها، فضعفَت لشدة ما قاومت ولشدة ما كظمت من عواطفها، فهي تضطرب الآن، وهي محتاجة إلى أنْ تعتمد على صاحبها لتمشي.

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في مدينة «بيز» في قصر «جويدو»، والصبح قد أخذ يشرق، «جويدو» يتحدث إلى أبيه وإلى صاحبيه، فهو مثقل بما احتمل من همٌ وما لقى من ضيم، وهو يذكر أنْ قد تم البيع والشراء، فأكلت المدينة وشربت وفرحت وابتهجت وأخذت بحظها من السعادة، وأخذ هو بحظه من الشقاء، وقد تمت إرادة المدينة فيجب أنْ تتم إرادته، أما أبوه فيري له ويعطف عليه، وينصح له بالإلأة والرواية، ويعرف بأن مصابه عظيم، ولكنه يعترف بأن الأمر لو استونف لما تردد في أنْ يسلك السبيل التي سلكها من قبل، ويشتت الحوار بينهما، فإذا القائد مغضب يريد أنْ ينتقم لنفسه، وإذا هو ساخط على أبيه يحتقره ويبغضه ولا يريد أنْ يراه، ولكن أصواتاً تسمع خارج القصر ولا تلبث أنْ تندو، فإذا صحيحة وعجبية، وإذا صياح وهتاف، فإذا تبين القوم ذلك عرفوا أنَّ «منا فنا» قد أقبلت، وأنَّ الشعب يحييها ويحتفل بها ناثراً عليها الأزهار باذلاً ما يستطيع لإجلالها وإكبارها، حتى إذا دخلت القصر ودخلت معها الجماعات المحتشدة ظهرت فرحة ومبتهجة، وتلقاها الشيخ فضمها إليه وقادها يريد أنْ يضمها إلى ابنه قبل أنْ ينصرف؛ لأنَّ ابنه كان قد طرده، ولكن القائد لا يكاد يرى زوجه مقبلة إليه حتى يدفعها دفعاً عنيفاً، وحتى يصبح بهذه الجماعات المحتشدة يطردتها ويزجرها.

- ماذا تريدون؟ لقد أكلتم وشربتم، و تستطرون أنْ تأكلوا وتشربوا، فانصرفوا إلى ما تريدون، إنَّ في عيني دموعاً لستم أهلاً لأنْ تروها.

يدفعهم في عنف ويفغرى بهم الحرس، فينصروفون إلا شخصاً واحداً هو «برتزفال» يدفعه وينذره ويهجم عليه يريد أنْ يؤذيه، فإذا امرأته قد قامت من دونه تحميء: دعه. ثم ما تزال به حتى تتبئ بأنَّ هذا هو «برنزفال»، فإذا سمع اسمه تغير في نفسه كل شيء، فابتاهج ابتهاجاً لا حد له، وأقبل إلى الناس يدعوهם ويستعيدهم ليسمعوا النبأ العظيم؛ ذلك أنه استيقن أنَّ امرأته قد أسلمت نفسها لهذا القائد الوحشى، ولكنها ما زالت به تخادعه حتى قادته إلى المدينة لينتقم لها زوجها منه وزوجها سعيد، فهو لم يكن يريد إلا أنْ يقتل هذا الرجل، وهو كان يعتقد أنه سيلقى في ذلك عنا، وسيتكلفه حيناً طويلاً، فكيف به وقد أصبح عدوه بين يديه!

يعلن هذا إلى الجماهير، ويقبل على امرأته يريد أنْ يضمها ويقبلها شاكراً مغبطة، ولكنها تدفعه وما تزال به وبالناس حتى تسمعهم صوتها عالياً، ألا إنَّ هذا الرجل لم يمسني، لقد قضيت الليل عنده وحيدة عارية لا يسترنني إلا معطفى، ثم خرجت من عنده وكأني خرجت من عند أخي، ولقد دعوته إلى المدينة على أنه جارٌ لاجئ، فله ذمتى وله ذمتك جميعاً.

أما زوجها فلا يكاد يسمع هذا حتى يسقط في يده، وكأنه قد فقد رشده وصوابه، فهو لا يصدق ما يسمع، وكيف يصدق ما يسمع! وهل مثل هذا الحديث يلائم طباع الناس! وكيف يستطيع أنْ يؤمن بأنَّ القائد قد أمسك عنده هذه المرأة الجميلة فخلا إليها وهي وحيدة عارية ثم لم يمسها ولم ينلها بأذى! ومن الذي يستطيع أنْ يصدق ذلك؟! وفي الحق أنَّ أحدًا من هذه الجماهير لا يصدق ذلك ولا يؤمن له إلا الشيخ، فإنه يخرج من الصفوف ويعلن أنَّ المرأة صادقة، فلا يلبث ابنه أنْ يتهمه بأنه يشارك هذين المجرمين في جريمتهما.

إذن فقد عجز عقل الزوج وعجزت معه عقول هذه الجماهير عن تصديق هذه القصة، فهم لا يستطيعون أنْ يؤمنوا بأنَّ الإنسان يستطيع أنْ يصل من الطهارة والغففة والسمو إلى هذا الحد، وإذا هذا الزوج يلطف زوجه، ويصطفع ما يملك من حيلة ليحملها على الاعتراف بالإثم، وإذا شيء من الجنون قد أصابه، فهو لا يستطيع أنْ يطمئن ولا أنْ يهدأ إلا إذا سمع من امرأته أنَّ هذا الرجل قد نالها بما تكره، وتيأس من تصديق زوجها، وتيأس من تصديق الجمهور، وهي واثقة بأنَّ صاحبها مقتول إذا لم تكذب ولم تعتذر بأنَّه قد نالها بالأذى، فما أسرع ما تتغير، وما أسرع ما تعتذر كاذبة وهي تعلم أنها كاذبة بأنَّ الرجل قد اقترف الإثم، وأنَّها قد خدعته ولطفته حتى قادته إلى المدينة لينتقم لها منه، ولكنها هي تريده أنْ تنتقم، هي تريده أنْ تعذب هذا الرجل، وأنْ تقيس تعذيبها إياه بما منحته من لذة هناك حيث خلا إليها، هي تطلب وتلح في الطلب ألا يناله أحد بالأذى، وأنْ يوضع في غرفة من غرف السجن، وأنْ يكون إليها وحدها مفتاح هذه الغرفة لتقتفي تعذيبها! فما أسرع ما يطمئن زوجها، وتطمئن معه الجماهير إلى هذا الحديث، وإذا هم جميعاً مقتتنعون بأنَّها الآن صادقة وهي تكذب، وبأنَّها كانت كاذبة حين كانت تصطعن الصدق.

خدعوا جميعاً إلا الشيخ فقد فطن لكل شيء، وأقبل إلى المرأة وقد أخذ ينالها شيء من الإغماء، أقبل إليها يشجعها همساً، ويحثها على أنْ تمضي في الكذب، فالكذب وحده وسيلة النجاة لهذا الرجل الوفيُّ الشريف، أما هي فمامضية في الكذب، ولكن حبها لصاحبها قد تجاوز كل حد، وأصبح لا يعدله إلا شيء واحد هو احترار هؤلاء الناس الذين لا تستطيع عقولهم ولا نفوسهم أنْ تؤمن للحق إلا إذا صاغته على مثالها.

فانظر إلى هذه القصة وإلى فصولها الثلاثة، فأما الفصل الأول منها فآية في تمثيل البطولة والتضحية والأثر، وهو يمثل هذا كله في صدق ودقة لا حد لها.

وأما الفصل الثاني فآية في تمثيل البطولة النقية الطاهرة، التي لا يكاد يعرفها الإنسان أو يلقاها إلا في الكتب والأقصاصين.

وأما الفصل الثالث فهو يهبط بك من هذه السماء الصافية النقية، التي صعد بك فيها الكاتب في الفصل الثاني إلى هذه الأرض التي يسكنها الناس ويعيشون فيها، متاثرين بأخلاقهم ورذائلهم ونفائصهم الاجتماعية، متاثرين فيها بالضعف الإنساني الذي يحول بينهم وبين أنْ يروا الحق، إلا إذا مُسخ هذا الحق مسخاً، وأصابه الفساد حتى لاعم نفوسهم.

نعم! ينحط بك هذا الفصل من ذلك الملا الأعلى الذي خلق لتعيش فيه الملائكة، والذي هو جو كله صدق وصراحة وطهارة وبر إلى هذه الأرض، التي لا يمكن أنْ تستقيم أمورها إلا بالكذب والرياء.

فبراير سنة ١٩٢٤

العذراء المفتونة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «هنري بتايل»

لست أريد أن أقدم إليك هذا الكاتب الذي تعرفه، وإنما أريد أن أقدم إليك فنه، وأعتقد أنَّ فنه في حاجة إلى شيء من التفسير، على أنك تستطيع أنْ تلم بهذا الفن إلاماً حسناً إذا قرأت قصة واحدة من قصص هذا الكاتب، وأحسب أنَّ أول ما يمتاز به «هنري بتايل» أنه لا يقصد في قصصه إلى فكرة ولا إلى نظرية، أو هو لا يتخذ الفكرة أو النظرية مقصده الأساسي، وإنما يقصد إلى الجمهور — يقصد إلى الجمهور دون غيره — ويعمل

في الجمهور لا في غيره، فموضوع القصص التي كتبها هذا الكاتب ليس في حقيقة الأمر شيئاً إلا النظارة، ولكن يجب أن نتفق، فلن تجد في قصة من قصصه شيئاً يتحدث عن النظارة أو يشير إليها، وإنما تجد موضوعات مختلفة قصد إليها الكاتب فأتقن درسها وتحليلها وعرضها، ولكنه بنفسه هذا الإتقان إنما تناول جمهوره من القراء أو النظارة فعبث بهم عبثاً لا حد له.

أريد أن أصف ما في نفسي فأجد شيئاً من الصعوبة في هذا الوصف؛ لأن الفكرة التي أريد أن أتحدث بها إليك دقيقة جدًا، أريد أن أقول: إنَّ الكاتب لا يفكر في أن يدخل في نفس النظارة أو القراء علمًا جديداً، أو يحدث فيها شعوراً جديداً، وإنما يريد أن يتناول شعور القراء والنظارة وعواطفهم فيبعث بها، ولكن في نظام يلائم بينها حيناً ويخالفها حيناً، وما يزال يجمع بعضها إلى بعض، ويفرق بعضها من بعض، حتى يصل إلى ما يريد، وهو الانتهاء بنفس القارئ أو الشاهد إلى أقصى ما يمكن أن تنتهي إليه من التأثر والانفعال، إنَّ صح هذا التعبير، فالكاتب في حقيقة الأمر لا يكتب، وإنما يتخد التمثيل سبيلاً يصل بها إلى نفوس النظارة وعواطفهم فيجمعها بين يديه، فإذا اجتمعت له أخذ يتصرف فيها كما يتصرف عالم الكيمياء في طائفة من المواد والعناصر اجتمعت له، فهو يلائم بينها ويضيف بعضها إلى بعض ليصل بهذه الملاعة والإضافة إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه من الفرقعة العنيفة، وهذه هي لذته، لذته أنَّ يثير عواطف الجمهور حتى يكاد يفنيها، لذته أنَّ يبعث بهذه العواطف فيؤلف من مختلفها نظماً تتباين بتبابين ضروب العبث التي يعمد إليها، كما يبعث الطفل بطائفة من الحصى جمعها بين يديه، فهو يتخد منها صوراً مختلفة متباعدة، ولكنه ليس طفلاً، وليس يقصد إلى العبث من حيث هو عبث، وإنما هو فنٌ، وهو يريد أنَّ يثير في نفس الجمهور أقوى العواطف وأشدتها عنفاً.

فليس التمثيل عنده شيئاً يغدو العقل، وليس التمثيل عنده شيئاً يغدو الشعور، أو هو لا يجعل غرضه الأساسي من التمثيل عنده فن يجب أن يؤثر في النفس، وأنَّ يؤثر فيها قبل كل شيء، وسواء عليه متى وصل إلى هذا التأثير العنيف أضاف إليه فكرة جديدة أم لم يضاف، أضاف إليه شعوراً جديداً أم لم يضاف، وهو في أكثر الأحيان خصب لا تخلو قصته من نفع، ولكن هذا النفع كما قلت ليس بالشيء الذي وُضِعَتِ القصة من أجله، وإذا كان هذا هو فن الكاتب، فهل نستطيع أن نقول: إنَّ هذا الفن حَسَنٌ؟ وهل نستطيع أن نقول: إنَّ هذا الفن خليق بالبقاء؟ وهل من الحق ألا يقصد من التمثيل إلا إلى التأثير في النفس وإثارة العواطف دون أنْ يفكر الكاتب في أنَّ هذا التأثير خصب أو عقيم؟ ثم

أليس في هذا النحو من فهم التمثيل شيء من الانحطاط المعنوي والإسراف في الميل إلى المادة؟! ت يريد أنْ تؤثر رغبة في التأثير، وأنْ تتأثر رغبة في التأثر لا ترمي إلى غرض آخر غير التأثير؟! فأيُّ فرق بينك وبين من يطلب اللذة رغبة في اللذة، فهو يأكل؛ لأنَّ الأكل لذيد لا لأنَّه يغدو، وهو يشرب؛ لأنَّ الشرب لذيد لا لأنَّه ينفع الغلة ويرموي الظماء، أليس في هذا النحو من تصور الفن والحياة شيء من ازدراء العقل والإعراض عنه، بل من ازدراء الخير والزهد فيه؟! أليس التمثيل على هذا النحو سلسلة من التجارب خليقة بالعالم يدرس علم النفس، ويريد أنْ يضع قواعده لا الفنان الذي يريده أنْ يظهر الناس على صورة من صور الجمال أو يهديهم إلى سبيل من سبل الخير؟! أعرف بأنَّ «هنري بتايل» عالم نفسيٌّ ماهر، يستطيع أنْ يحل العاطفة، فيصل من تحليله إلى أدق ما يمكن أنْ يصل إليه محلل، ثم يستطيع أنْ يلائم بين العواطف المختلفة فيصل من هذه الملاعة إلى تأليف أمزجة غريبة لم يعتدتها الناس، ولكن عالم الكيمياء نفسه حين يحلل وحين يلائم لا يقصد إلى التحليل وحده ولا يقصد إلى الملاعة وحدها، وإنما يقصد إلى شيء آخر هو فوق التحليل وفوق الملاعة، يقصد إلى العلم وإلى انتفاع الإنسانية بهذا العلم، قدْرَ هذا الانتفاع كما تشاء، قل: إنه الانتفاع المادي إنْ كنت من العلميين، وقل: إنه الانتفاع العقلي إنْ كنت من النظريين، ولكن هناك انتفاعاً إنسانياً ينتهي إليه مباحث العلماء الذين يحللون ويركبون، فما هذه المنفعة التي ينتهي إليها تمثيل هنري بتايل وتحليله للعواطف وملاءمتها بين المختلف منها؟ ما هذه المنفعة الأخلاقية أو الفلسفية أو الاجتماعية؟ لو أنه ظفر بإيجاد منفعة قيمة لفنه هذا لكان فنه أجمل فنون التمثيل الحديث، ولكنه لم يوقف في أكثر الأحيان لهذه المنفعة التي يمكن أنْ تنتظر من فن كفن التمثيل، يتوجه قبل كل شيء إلى الجمهور لا إلى علماء النفس.

وأريد أنْ تكون القصة التي أحدهُك عنها اليوم دليلاً صادقاً على ما قدمت.

نحن في باريس، في قصر فخم لرجل من أشرف فرنسا، بعيد الصوت، رفيع المكانة، عظيم الثروة، حريص على مكانته وصوته وما ورث عن طبقة الأشراف من العادات وشدة المحافظة، هو الدوق دي شارنس، وبين يدينا كاتبه الخاص يرتب أوراقاً على منضدة، فيدخل عليه قسيس صديق للأسرة شديد الاتصال بها، وعلى هذا القسيس آثار الإشفاق والاضطراب. يسأل عن صحة الدوق والدوقة والأسرة كلها، فلا يجيئه الكاتب إلا بالخير، يسأل هل حدث حدث؟ فيجيئه الكاتب: لا! ويدخل الدوق فيصرف كاته، ويخلو إلى

قسيسه، فينبئه بأنه دعاه لأمر جل، وأنه إن لم يكن قد أصاب الأسرة أو أحد أعضائها موت مادي فقد أصابها موت معنوي، هو شر من كل موت، ولا يطيل فينبئه بأن رجلاً صديقاً للأسرة كثير التردد عليها قد أغوى ابنته، فهو لذلك جزع، وليس امرأته أقل منه جزعاً، وهو جزع لأمر في نفسه، جزع لأنه لم يكن ينتظر هذا من ابنته التي لم تتجاوز الثامنة عشرة، والتي كان يراها مثل الطهر والنقاء، جزع لأنه لن يستطيع أن يضم ابنته إليه، وقد أصابها ما أصابها من الدنس، جزع لأنه لا يكاد يتعمق الأمر حتى تثور عواطفه وتملكه تلك العادات التي ورثها، والتي كلها حرص على الشرف واحتفاظ به، ثم جزع لأن المجرم صديق من أصدقائه المخلصين، وهو يحاول أن يكتم اسم هذا الصديق، ولكن الغيظ يملكه فإذا هو قد صرخ بهذا الاسم، فإذا هذا الاسم هو «مرسل أرموري» ذلك المحامي المعروف الذي وصل إلى نقابة المحامين، وبلغ من المجد منزلة دونها كل منزلة، والذي عرف بالشرف والمرءة وجميل الخلق، ثم يقص عليه الأمر، فإذا الصلات بين هذا الرجل وبين الأسرة ليست بعيدة العهد، ولكن هذا الرجل لم يكيد يتعرف إلى الدوق حتى مالت إليه الدوقة فلطفته، وبشت له، ودعته إليها كثيراً، ثم التقت الأسرتان في المصيف فاشتدت بينهما الصلات، ثم عادت إلى باريس فاستكشف الأب رسائل غرام بين ابنته «ديان» وبين هذا المحامي، وهذه الرسائل لا تدع سبيلاً للشك في أنهما آثمان، ولكن الفتاة قد آثرت الصمت واعتصمت به، فهي لا تجيب عن شيء، وهذا الأمر سر مكتوم يعرفه الزوجان وحدهما، وقد أفضيا به إلى القسيس ليستعينا برأيه ومشورته.

وتدخل الدوقة فإذا امرأة شديدة الحزن، ولكنها رقيقة العقل مفتونة بالحياة وزينتها ولذاتها، ظاهرة ولكنها لم تشعر بظهورها، ولا تظن أن الطهارة تحتاج إلى شيء من الجهد، أو أن في لذات الحياة البريئة ما يعرض الفتيات النساء للخطر، فهي المسئولة عن إثم ابنتها؛ لأنها أساءت تربيتها، وقوت في نفسها الميل إلى الزينة والاستعداد للفتنة، وهي تعرف بذلك، وتأسف له، وهم يشيران القسيس فيما يصنعان، فيشير إليهما بالمخفي في التكتم حتى لا يظهر الناس على شيء، وبالاجتهاد في إصلاح ما فسد من نفس الفتاة وخلقها، وإنما السبيل إلى ذلك أن تكون السيرة معها شديدة قاسية، فتحرم أسباب الزينة واللذة، وتضطر إلى دير من هذه الأديرة القاسية الخشنة تخضع فيه للمراقبة الدينية حتى تبلغ الرشد، ويلاح في ذلك ويبالغ حتى ينصح بأن يقص شعر الفتاة، أما الأم فتجزع لذلك ولكنها مضطربة إليه، وأما الأب فقد قبله فرحاً مبهجاً، وكلف القسيس أن يتخذ لذلك أسبابه، فيخرج القسيس ليسأل في دار الأسقف عن أشد الأديرة ملائمة لهذا الأمر،

فإذا خرج دعيت الفتاة، فيحاول أبوها أن يتبيّن منها جلية الأمر، فانظر إليه منذرًا مخيفًا، وانظر إلى زوجه رقيقة لينة، والفتاة صامتة لا يخفيفها النذير ولا تستطيلنها الرقة، ولكن الأب يتجاوز النذير إلى شيء من العنف، وقد ضاق بالفتاة صمتها، فبدأت تقصص أمرها، وبدأت تقصصه في خفة وازدراء كأنها لا تشعر بما أتت من إثم، وكأنها لا ترى في ذلك عارًا ولا عيبًا، وكلما مضت في ذلك ازداد أبوها سخطًا وعنفًا، ولكن أخاه يدخل، وهو فتى في المدرسة الابتدائية، قوي شديد النشاط، مبهج، مبتسم للحياة، مؤمن بمذاهب المحافظين، مخلص للملك، وهو يفاخر بأخته ويظهرها في كل مكان، وهو سعيد؛ لأن رفاقه معجبون بها يلاطفونها، ويطمع كل منهم في أن يتزوجها زوجًا له، فإذا دخل تحول الحديث، وأخبر بأن أخته مريضة، فأظهر شيئاً من الشدة، ثم اطمأن إلى الخبر فما زاح أخته وأبويه، وهم كذلك إذ ينبيء الخادم بأن سيدة أقبلت للزيارة، فينصرف الفتى، وإذا هذه السيدة هي زوج المحامي الأثم دعيت ليقص عليها الأمر، فلا تكاد تدخل حتى يتلقاها الزوج مقطبًا محزونًا، ثم لا تكاد تتحدث حتى يخبرها الخبر في غير لين ولا رفق، وإذا هذه المرأة قد صعقها الأمر، فهي بين نازلتين عظيمتين: إدحاماً أن زوجها قد خانها وهي تحبه وتهيم به، والأخرى أن زوجها قد أغوى هذه الفتاة ابنة صديقتها، فأساء إلى أحب الناس إليها، فهي لا تدري كيف تعذر، وهي لا تدري كيف تصلح ما أفسد زوجها، ولكن الدوق لا يطلب إليها إلا شيئاً واحدًا، وهو أن يستخفى هذا الزوج من وجهه، وألا يظهر الناس من إثمه على شيء، وأن تنقطع بيته وبين الفتاة كل صلة، فإذا خرجت المرأة أعيدت الفتاة، فما زال بها أبوها حتى عرف منها كل شيء، ثم يتركها لأمها، فتنبئها بما اعتزم من إرسالها إلى الدير، ترفض الفتاة ساخرة، فإذا ألحت أمها أظهرت الفتاة شيئاً من الرفض ثم من العصيان، ويدخل أبوها فينهرها نهراً شديداً، ثم يرق لها، وإذا هو يضرع إليها في أن تذهب إلى الدير لتحتفظ للأسرة بكرامتها، ولتصلح ما أفسد من أخلاقها، فتُظهر الفتاة الطاعة، وتجيب في رفق وقد أصلحت من أمرها ونظمت شعرها: «سأذهب إلى الدير».

فإذا كان الفصل الثاني فنحن في مكتب المحامي بباريس، وأمامنا هذا المحامي والفتاة وخدمتها، ولا نكاد نسمع إلى حديثهما حتى نفهم أنهما قد تکاتبا واتفقا على الفرار، وأن الفتاة خلّت إلى أبيها أنها ذاهبة إلى الدير، فأعدا لها كل شيء، وخرجت ذلك اليوم تزور القسيس، وضررت لأمها موعداً عند القسيس، ولكنها أقبلت إلى صاحبها الذي أعد كل شيء للفرار بعد حين، وقد تم رأيهمَا على هذا الفرار، وبعد دقائق ستأتي السيارة، فتق لهمَا

إلى حيث يركبان السفينة إلى إنجلترا، وقد أخفيا أمرهما وكتماه، فلم يُظهرها عليه إلا هذه الخادم.

ولكنهما يشفقان من هذه الخادم؛ لأنها تحب سائق سيارة، وهما يشفقان أن تكون هذه الخادم كارهة للرجال، وأن تكون قد أنبأت صاحبها به، فتنكر الخادم ذلك وتقسم، ويصدقها العاشقان ويأمرانها أن تذهب، فتأخذ القطار حتى تصل إلى محطة كذا فتنتظرهما هناك، فتنصرف ويخلوان.

ولست الشخص لك ما يدور بينهما من حديث كله حب وفتنة إلا شيئاً واحداً له خطره، وهو أن المحامي ينصح الفتاة أن تفك وتروي؛ لأنه جاوز الأربعين وهي في الثامنة عشرة، وهو يخشى أن يكون حبها شيئاً من نزق الشباب وغرور الأطفال، وكلما ألح عليها ذلك لقيته بالسخط مرة وبالسخرية مرة أخرى حتى يؤمن بأن عزيمتها صادقة، وأنها مستعدة لاحتمال ما ستلقى من الخطوب، ثم يسمع حركة السيارة، فيندو من النافذة وينظر، فإذا هو يرى امرأة، فهو جزع مضطرب، وهي أشد منه جزعاً واضطرباً، تتصحه ألا يلقي امرأته فيأتي إلا أن يلقاها، فتستحلفه ألا يضعف ولا يلين فيحلف، ثم يخفيها في غرفة ويلقي امرأته، أما امرأته فترעם له أنها مرت بالكتب عفواً فصعدت لتراه، وتطلب إليه أن يذهب ليدفع أجر السيارة، ويبحث عن شيء نسيته فيها، فإذا ذهب أسرعت إلى غرف المكتب تفتحها، ثم عادت ومعها مفتاح، ويعود زوجها فتبئه أنها تعلم كل شيء، وأنه كان يريد السفر مع الفتاة، وأنها أقبلت لتمتنع هذا السفر، فإذا انكر أظهرت له كتاباً تسلمه يتبئها بالأمر، فإذا انكر أنبأته بأن الفتاة في هذا المكتب، فإذا انكر أظهرت له المفتاح وأنبأته بأنها رأت الفتاة وأغلقت الباب من دونها، فيعترض بأن الفتاة عنده، ولكنها أقبلت لتراه قبل أن تذهب إلى الدير، أما هي فلا تصدقه بل تضرع إليه في ألا يفعل، وهما كذلك إذ تنظر من النافذة فترى أخا الفتاة مقلباً، تتبئ زوجها، فيشتد جزعاً، ويطلب إليها المفتاح ليختلي سبيلاً الفتاة وليرصرفها إلى بيتها متى أقبلت السيارة التي تنتظرها، ولكنها تأبى وتلح في الإباء، وتعد بأنها ستلقى الفتى لقاء حسناً، وستخفي عليه كل شيء، ثم تضطر زوجها إلى الدخول في غرفة، وتستقبل الفتى، فإذا سألها عن زوجها أنبأته بأنه هنا يتحدث إلى بعض الناس في أمر له، ثم تسأله عن سبب زيارته فيظهر لها كتاباً كالذي في يديها منكراً ذلك مستبعده، أما هي فتظهر الغضب؛ لأن الفتى شك في زوجها إلى هذا الحد، ويرى الفتى من اطمئنانها وهدوئها ما يقنعه بأنه كان مخطئاً، وبأن الكتاب ليس إلا دسيسة فيعتذر ويكثر من الاعتذار، وتذهب «فاني» إلى زوجها فتدعوه، فيظهر هادئاً

مطمئنًا، ويتحدثون فلا يظهر الفتى من أمره شيئاً؛ لأنَّه كان اتفق على ذلك مع «فاني»، ثم يزعم أنه أقبل يدعوهما إلى الصيد فيقلان الدعوة، ويسترق المحامي لحظة، فيلح على زوجه في أنْ تدفع إليه المفتاح ليرسل الفتاة إلى بيتها، فتدفعه إليه، ويأخذه هادئاً ويتركهما لحظة على أنْ يعود وهما يتحدثان، وهي تريد أنْ تشغله عن النافذة حتى لا يرى أحنته تخرج من المكتب وتتصعد في السيارة، وما تزال به حتى تسمع حركة السيارة وانصرافها، ثم تنتظر لعل زوجها يعود فلا يعود، ثم تدعوه فلا يجيب، وإذا هي مضطربة ذاهلة تدنو من الإغماء شيئاً فشيئاً، فيسرع الشاب إلى الباب فيدعوه، فإذا أقبل سأله «فاني» متحفظة عن السيارة: هل انصرفت؟ وهل صعد فيها زوجها ومعه امرأة؟ فإذا أجابها نعم صرفته ثم صاحت جزعة، فيسألها الشاب فتنبه بكل شيء، ولست أصف لك غضب الشاب ووعيده، ولكنهم يتفقان على الانتقام.

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في فندق من فنادق لندراء، وأمامنا المحامي يتحدث إلى كاتبه، ونفهم من حديثهما أنَّ أسرة الفتاة قد تبعته، وأنَّ أخاها أرسل إليه شاهدين، وطلب إليه المبارزة فرفض، وأنَّ الأسرة طلبت إليه موعداً للقاء، فضرب لها موعداً هذا الفندق وهذه الساعة، وهو لا يدري من سيلقاهم، وهو لا يدري ماذا ستكون نتيجة هذا اللقاء، وهو يخشى الغدر؛ ولذلك احتاط فكتب كتابين أحدهما إلى «ديان»، والآخر إلى وكيل أعماله في باريس، وهو يكفل كاتبه أنْ يحمل هذين الكتابين ويدفعهما إلى من كتباهما، ويدخل القسيس فبنصرف الكاتب، ويكون بين القسيس والمحامي حوار قيم لذيد، كنت أود لو استطعت أنْ أترجمه لك، فقد يكون خير ما في هذه القصة من حيث منفعتها العقلية، ولكن الوقت والمكان أضيق من ذلك، يطلب القسيس إلى المحامي باسم الشرف والمرودة وباسم ما تلقى الأسرة من الألم أنْ يرد الفتاة إلى أهلها، فيأبى باسم الشرف والمرودة وباسم الألم أيضاً، ذلك أنَّ الشرف شيء يختلف الناس في تصوره، فللقسبي فيه رأيُ، وللمحامي فيه رأيُ آخر، فإذا كان القسيس يرى أنَّ الشرف في أنْ ترد الفتاة إلى أهلها حتى لا تسوء سمعة هذه الأسرة، ولا يفسد مستقبل الفتاة والأسرة بريئة والفتاة جاهلة، فإنَّ المحامي يرى أنَّ الشرف إنما هو في أنْ يأبى تسليم الفتاة، أليست هذه الفتاة تحبه! أليست قد وهبت نفسها له! أليست قد لجأت إليه! أليس قد حماها ووعدها بالوفاء! أليس تسليمها نكلاً للعهد وخفرًا للذمة وحرمانًا للفتاة سعادة أطمعها فيها! وإذا كانت الأسرة تالم فملها سخيف؛ لأنَّ مصدره العادة والحرص على القديم، ولو أنَّ هذه الأسرة حرة حقاً

مستنيرة حًقا لما أنكرت من سيرة الفتاة شيئاً، ولما قطعت الصلة بينها وبينها، ولأقرت هذا الحب فلم تضطر الفتاة إلى الفرار.

أما ألم الفتاة إذا ردت إلى أهلها فألم قويٌ صادق، لا يعتمد على عادة باطلة أو قد يرى سخيف، وإنما هو ألم السعيد حرم سعادته، والمشغوف حيل بينه وبين من يهوى، ويجهل القسيس عن إقناع المحامي فينصرف قائلاً: لقد حرمت التوفيق، فلعل غيري أحسن مني حظاً، ويخرج، فتدخل من نفس الباب الذي خرج منه زوج المحامي، فانظر إلى الزوجين وجهاً لوجه، وانظر إلى ما يحدث في هذا الموقف من تغير العواطف وتبدلها، أقبلت شجاعة قوية العزم، وكانت تعتقد أنها ستكون عنيفة، وأنها ستحسن الدفاع عن حقها وعن شرفها، فأخذت كلما دنت من لندرها تفقد شيئاً من شجاعتها وقوتها، حتى إذا رأت زوجها كانت قد وصلت من الضعف إلى حيث تتتشجع، فتنظم عواطفها، وتغالب عبراتها، وتبحث عن القوة المادية فلا تجدها، وعن اللفظ فلا تكاد تظفر به.

أما هو فقد فجأه لقاها؛ لأنه لم يكن ينتظر هذا اللقاء؛ لأنه يكبر امرأته إكبارةً شديداً ويعطف عليها عطفاً شديداً، ويرى أنه قد ظلمها ظلماً منكراً، فإذا التقى على هذا النحو كان في موقفها جمال بشع، على أنها تحافظ بكرياتها، فلا تبكي ولا تستعطف، ولا تطلب إلى زوجها أن يرحمها أو يرد إليها، أليس تعلم أنه لم يحبها إلا أسبوعاً، ولم يشتهيها إلا شهراً، وأنه قد عاش معها أعواماً طوالاً لا يميل إليها إلا متكلفاً، أما هي فقد أحبته منذ عرفة، وما زالت تحبه رغم هذه الآثام وهذه المخزيات، وهو يدافع عن نفسه فلا تسمع له ولا تصدقه، ولكنها صادقة، فقد لا يكون حبه إليها قوياً ولكنه أحبه، وقد قوت المحن هذا الحب فأصبح الآن عظيماً، وهو كلما تكلم ظهر صدقه، وكلما ظهر صدقه أثر في نفس امرأته، وإذا تحول في العاطفة، أما هو فشديد الهيام بزوجه، يدنو منها يريد أن يضمها إليه، فاما هي فليست أقل منه هياماً، ولكنها أشد منه شجاعة وأعظم منه شعوراً بالكرامة، فهي تغالب عواطفها وتقف زوجها عند حده، وتسأله عن شيء واحد تريده أن تعرفه، تسأله عن هذا الحب الذي كلفته هذه الأموال: أقوى حًقاً أم هو لا يعدو الفتنة؟ فإذا هو متعدد يفكر، ولا يجد جواباً صريحاً، ولكن هذا التردد نفسه يكفيها، فتقتنع بأنه لا يهزل في هذا الحب، وبأنه لم يتكلف ما تكلف مفتوناً أو عابساً، فترى وتطمئن إلى المنازلة.

وانظر إلى التغيير الجديد في عواطفها، انظر إليها راضية مطمئنة تضرع إلى زوجها في شيء واحد، وهو أنْ يعودها بأن يكون إليها هي مرجعه إذا نابتة نائبة أو دهمه خطب

أو انقطعت الصلة بينه وبين صاحبته، تلح في هذا الوعد؛ لأنَّه سيكون الأمل الذي سيحب إليها الحياة، يدها، وإذا شيءٍ من الذهول لا حد له قد ملكهما جميعاً، هي هائمة بزوجها تضحي بنفسها في سبيله، وهو يعجب بها الحب وهذه التضحية إعجاباً لا يزيد إلا هياماً، ولكنها تصرفه وتلح في ذلك؛ لأنَّ أبا الفتاة وأخاهَا ينتظران ويوشكان أنْ يأتي، ينصرف ويدخلان، فإذا كل شيء قد تغير، وإذا هي تدافع عن زوجها، ولا تفهم بالإثم إلا الفتاة، وتصرف في هذا الدفاع حتى تغضب الرجلين، ويكون بينهما وبينها خصم عنيف، ينطق فيه الفتى بالألفاظ الوعيد.

فإذا كان الفصل الرابع فنحن مع العاشقين في فندق آخر من فنادق لندرا، وقد انتصف الليل وهما يتتحدثان، وقد أخذ منهاهما القلق، ولكنها يكتمانه، هي مشقة على صاحبها من أخيها، وهو مشقة على صاحبته من أسرتها، وهما يتتكلمان الفرح فلا يصلان إليه، وهي تلح عليه في ألا يخرج من غرفته، فيضحك ويهز بالإباء، ولكن الباب يطرق فيملؤها ذلك خوفاً، فإذا ذهب صاحبها إلى الباب دفع إليه الخادم كتاباً فيقرؤه، وإذا امرأته تتطلب إليه موعداً، وإذا هي تتوجه ذلك وتلح فيه، يأبى استقبال امرأته في غرفة صاحبته، فتلح عليه هذه في استقبالها؛ لأنَّ الأمر جل قد أصبح فوق هذه الاعتبارات كلها، فإذا استقبل امرأته — وقد استخفت صاحبته في غرفة النوم — أنبأته زوجه بما كان بينها وبين أسرة الفتاة من خصام، وبأنها أشفقت على حياته، فراقت الفتى حتى علمت أنه استأجر غرفة في هذا الفندق، فاستأجرت هي أيضاً غرفة فيه، وأقبلت تتبئه بمكان الخطر، وتسأله أنْ يلزم غرفته ولا يخرج، فتأبى، وتلح فيعدها، فإذا خرجت لم تك تجاوز باب الغرفة حتى عادت مضطربة؛ لأنَّها رأت الفتى واقفاً يترقب، وهي تحدث زوجها بذلك إذ تسمع دنو الفتى، فتكره زوجها على أنْ يستخف في غرفة نومه وتطفئ النور ويقبل متلطفاً؛ فإذا دخل الغرفة عمدت هي إلى النور فأضاءته ووقفت من الفتى موقف الخصم تردعه وتزجره، وتسأله عما أضمر من جريمة، فيجيبها: أقبلت أطلب أختي، ويردعها هو أيضاً! ألسْت تحمي عشق هذين الأثمين! ثم يرفع الفتى صوته يعيّر خصميه بالجبن والاحتماء بالنساء، فإذا أطل في ذلك ظهر المحامي ومعه صاحبته، فكان بين هؤلاء النفر موقف من هذه المواقف التي لا يحسنها إلا هذا الكاتب، يشتد الخصم بين الرجلين حتى يبلغ أقصاه، يخرج الفتى مسدسه ويوجهه إلى صدر صاحبه، وإذا المرأتان قد أقبلتا تحميانيه وتتلقيان من دونه الموت، يكف الفتى يده دهشاً، وإذا الزوج قد وقف من زوجها موقف من يحميه

ويتقي عنـه، فانظر إلى هذه الفتـاة العـاشـقة، وقد رأـت من خـصـمـها هـذـه التـضـحـيـة وهـذـا الحـب فـصـاحـت: إـنَّ غـيرـتـي مـنـك لـشـدـيـدـة! إـنَّ حـبـك إـيـاه لـأـعـظـمـ منـ حـبـي، إـنَّ أـلـك لـعـظـيمـ، وأـنـا مـصـدـرـ هـذـا الـأـلـمـ.

ثم انـظـرـ إـلـى هـؤـلـاءـ النـفـرـ، وقد ثـارـتـ عـوـاطـفـهـمـ حتـىـ كـادـواـ يـنـسـونـ العـالـمـ الذـيـ هـمـ فـيهـ، أـمـاـ الـفـتـىـ فـغـيـرـانـ، يـرـيدـ أـنـ يـسـتـرـدـ أـخـتـهـ، وـأـنـ يـقـرـفـ إـلـيـهـ إـذـاـ لمـ يـوـفـقـ، وـأـمـاـ الـحـامـيـ فـهـائـمـ بـالـفـتـاةـ مـعـجـبـ بـزـوـجـهـ إـعـجـابـاـ لـيـسـ دـوـنـ الـحـبـ، وـأـمـاـ الـزـوـجـ فـعـاشـقـةـ تـرـيدـ أـنـ تـسـفـكـ دـمـهـاـ لـتـحـمـيـ مـنـ تـحـبـ، وـأـمـاـ الـفـتـاةـ فـكـلـفـةـ بـصـاحـبـهـ، وـلـكـنـهاـ مـعـجـبـةـ بـهـذـهـ الـرـأـةـ، تـرـىـ أـنـهـ قدـ ظـلـمـتـهـ ظـلـلـاـ فـاحـشـاـ، فـتـسـأـلـ صـاحـبـهـ سـؤـالـاـ تـزـعـمـ أـنـهـ سـيـحـلـ كـلـ شـيـءـ: أـيـنـاـ تـحـبـ حـقـاـ؟ـ لـاـ يـرـدـدـ الـحـامـيـ فـيـ الـجـوابـ، بلـ يـقـولـ فـيـ صـراـحةـ وـهـيـامـ: إـنـهـ يـحـبـ الـفـتـاةـ وـيـؤـثـرـهـاـ عـلـىـ اـمـرـأـتـهـ، وـبـيـنـمـاـ الـفـتـاةـ تـسـمـعـ هـذـاـ الـجـوابـ فـيـتـأـلـقـ وـجـهـهـاـ بـشـرـاـ وـسـرـورـاـ، إـذـاـ الـمـرـأـةـ تـسـمـعـهـ فـتـئـنـ أـنـيـنـاـ مـؤـلـماـ، وـلـكـنـهاـ لـاـ تـغـيـرـ مـوـقـفـهـاـ شـيـئـاـ، ثـمـ انـظـرـ إـلـىـ الـفـتـاةـ وـقـدـ أـخـذـهـاـ ذـهـولـ يـشـبـهـ الـجـنـونـ، فـهـيـ تـدـعـوـهـمـ جـمـيـعـاـ فـيـ لـهـجـةـ الـهـائـمـةـ إـلـىـ أـنـ يـنـظـرـوـنـ فـيـ الـغـرـفـةـ كـأـنـ فـيـهـ شـيـئـاـ عـجـبـاـ، فـإـذـاـ أـقـبـلـوـاـ جـمـيـعـاـ يـنـظـرـوـنـ، فـلـمـ يـرـوـاـ شـيـئـاـ قـالـ الـحـامـيـ: إـنـاـ مـجـنـونـةـ، فـتـجـيـبـهـ: سـتـرـىـ أـنـيـ عـاقـلـةـ، وـيـسـمـعـونـ طـلـقـ الـمـسـدـسـ، فـإـذـاـ هـيـ صـرـيـعـةـ قـدـ قـتـلـتـ نـفـسـهـاـ.

فـبـرـايـرـ سـنـةـ ١٩٢٤

الأم المفتوحة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «هنري بتايل»

ليس هذا عنوان القصة، بل ليس هو عنواناً دقيقاً لخلاصة القصة، ولكنه مع ذلك يعطي منها صورة ما، أما العنوان الصحيح فهو «الأم كوليبري»، وهذا اللفظ اسم طائر صغير جدًّا، يعيش في خط الاستواء، له بهجة وجمال يخلبان الأ بصار، وفيه قوة ونزرق وخفة يضرب بها المثل، واضح أنَّ هذا اللفظ لم يطلق على بطلة القصة عبًّا، وإنما أطلق عليها الشبه بينها وبين هذا الطائر، فهي امرأة قد ناهزت الأربعين، ولكنها ما زالت محتفظة بشباب الفتاة التي لم تك تتجاوز العشرين، فهي رشيقـة، حلوة، صغيرة القد، خفيفة الحركة كثيرتها، منطلقة للسان، عذبة اللفظ، حرة فيه، لا تكاد تصمت، ولا تكاد تتكلم إلا بأبعد الكلام عن سنها ومقامها ومنزلتها من ولديها، فلها ولدان، أحدهما في الثانية والعشرين، والثاني في السادسة أو السابعة عشرة.

ولكن الناس إذا رأوا هذه المرأة مع أحد ابنيها لم يفكروا في أنها أم ترافق ابنها، وإنما فكر بعضهم في أنها أخت ترافق أخيها، وتحذر أصحاب الظنون السيئة في أنها فتاة لعوب ترافق عاشقها، وفي الحق أنَّ كل شيء في هذه المرأة يعطي منها صورة غريبة لا تمثل المرأة الجادة ولا الأم التي تشعر بأمومتها، وتعرف لهذه الأمومة ما لها من حق أو كرامة، وإنما هي فتاة نزقة لعوب، لا تفهم الحياة إلا على أنها فصل من فصول اللهـو وضرب من ضروب المجنون، وهي تريد أن تلهـو ما استطاعت إلى اللهـو سبيلاً، وأن تأخذ من المجنون والدعابة بأعظم حظ يمكن أن تأخذ به امرأة، وقد أحس ابناها شبابها هذا الغريب

وخفتها المدهشة، فلم يسمح لأنفسهما أنْ يدعواها كما يدعوا البن أمه، وإنما اتخذوا لها اسمًا يختصر شبابها وجمالها ولطف قدتها وخفة حركتها، فسمياها «الأم كولييري»، وهي تحب هذا الاسم وتقتن به، وتساير ابنيها لا كما تساير الأم أبناءها بل كما يساير الصديق صديقه، فهي تبعث معهما وتمزح، وهي تشرب معهما وتدخن، وهي تصغي لأحاديثهما وأسرار لهوهما وعيثهما، ولا تتردد في أنْ تضاحكهما، وربما نصحت لهما وأعانتهما على أسباب اللّه والمجون، وهما يحبانها حبًّا لا حد له، حبًّا مصدره الأمومة والبنوة من جهة، ثم الشباب وما يستتبعه من الافتتان في العبث والمجون من جهة أخرى.

وهذه الأسرة غنية نستطيع أنْ نقول: إنها فاحشة الثروة، أما زعيمها البارون «دي ريسبرج»، فرجل من أشراف بلجيكا عظيم الثروة، أراد أنْ يختلط دمه بدم الفرنسيين أو يعيش في فرنسا، ويكون من ذوي المكانة والأثر في حياتها العامة، فتزوج من هذه الفتاة «إيرين»، وكانت يتيمة، وكانت في السابعة عشرة من عمرها، ورزق منها غلامين أحدهما «ريشار» في الثانية والعشرين، قد تم درسه وأخذ يعمل مع أبيه ويشاركه في حياته المالية، وهو يريد أنْ يتزوج وقد خطبت له فتاة، وأما الآخر فهو «پول» في السابعة عشرة من عمره، وهو تلميذ يستعد لامتحان الشهادة الثانوية، وقد انصرف الأب إلى ثروته يدبّرها ويثيرها، وإلى حياته المالية يعكف عليها حتى أنسنته كل شيء، أنسنته زوجته، فلم يلتفت إليها، ولم يحفل بها، وربما طلب لذته في ساعات قصار بعيدًا عن داره، وهو مع ذلك يحب امرأته وابنيه، ويريد لهم حياة سعيدة لا يشوبها شُرّ ولا سوء، فهو يبيح لهم من أسباب النعيم شيئاً كثيراً، وقد أسكنهم قصراً فخماً، وأطلق أيديهم في المال يأخذون منه حاجتهم وفوق حاجتهم؛ لأنَّه يريد أنْ يستمتعوا بهذه الثروة الضخمة حقًا، ولكن امرأته على ضخامة ثروتها واجتماع أسباب النعيم لها لم تكن سعيدة؛ لأنَّ شيئاً آخر كان ينقصها هو الحب، الحب الذي يتحقق له القلب، ويفتح أمام النفس أبواب الأمل، وينهض بصاحبها إلى حياة ليست كالحياة، وإنما هي شيء كالحلم الذي لا يقظة منه، لم يتح لها هذا الحب؛ لأنَّ زوجها منصرف عنها بأعماله المادية؛ ولأنَّه لا يستطيع أنْ يتصور الحب على هذا النحو، ولكنها مع ذلك لم تشعر بهذا النقص في أول عهدها بالحياة الزوجية؛ لأنَّها شغلت بابنيها وتربيتهم، فكانت أمًا قبل أنْ تكون امرأة، وأما الآن وقد بلغ هذان الغلامان أشدّهما وأخذنا يستقلان بالحياة، فأخذ أحدهما يهيء له عشاً لا يليث أنْ يطير إليه، وأخذ الآخر يستعد للشهادة الثانوية حتى إذا نالها ترك البيت وذهب إلى إحدى المدارس العليا، فاستعد لحياة المستقبل، نقول: أما الآن فقد عادت هذه المرأة إلى نفسها،

وفكرت في أمرها، ونظرت فإذا هي قوية فتية، وإنما قلبها وجسمها جميل، وإنما عواطفها حادة وحسها في حاجة إلى التنبية، فأصابها شيء من القلق لم تتبينه أول الأمر، ولكنها لم تثبت أنْ عرفت كنهه وأسبابه وتعرضت لنتائجـه.

إذا كان الفصل الأول، فنحن في قصر هذه الأسرة، في أجمل أحياـء باريس، وقد دعت هذه الأسرة إلى العشاء نفراً من أصدقائـها، فيهم شباب قد انتـحوا ناحية يـشربون ويـدخـنون ويـتحدثـون بأـخبار لهـوـهم وعـبـثـهم، وفيـهم نـسـاءـ منـهـمـ سـيـدـاتـ تـقـدـمـنـ فيـ السـنـ وـاحـتـفـظـنـ بالـعادـاتـ وـالـآـدـابـ الـقـدـيمـةـ، فـهـنـ لاـ يـتـحدـثـنـ إـلـاـ فـيـ الجـدـ، وـفـيـهـنـ سـيـدـاتـ أـخـرـ مـنـ الجـيلـ الـحـدـيـثـ يـكـرـهـنـ الجـدـ وـيـنـفـرـنـ مـنـهـ، وـيـطـمـعـنـ فـيـ اللـهـ وـيـصـبـونـ إـلـيـهـ، وـبـيـنـ أـولـئـكـ وـهـؤـلـاءـ هـذـهـ الـفـتـاةـ «ـمـادـلـينـ» الـتـيـ خـطـبـتـ «ـلـوـشـارـ»، قدـ أـقـبـلـتـ هـذـهـ الـلـيـلـةـ وـمـعـهـاـ أـمـهـاـ تـرـيدـ أـنـ تـتـحدـثـ إـلـىـ خـطـيـبـهـاـ لـيـتـعـارـفـاـ وـبـيـلـوـ كـلـ مـنـهـاـ صـاحـبـهـ قـبـلـ الزـوـاجـ، وـبـيـنـماـ الشـبـانـ يـتـحدـثـونـ فـيـذـكـرـونـ الـلـهـ وـالـجـوـنـ، وـيـقـصـ كـلـ مـنـهـمـ أـخـبـارـهـ عـلـىـ أـصـحـابـهـ، إـذـ السـيـدـاتـ قـدـ خـلـونـ فـيـ غـرـفـةـ أـخـرـىـ، وـلـكـنـهـنـ لـاـ يـمـزـحـنـ وـلـاـ يـضـحـكـنـ لـكـانـ أـولـئـكـ السـيـدـاتـ الـمـحـافـظـاتـ، وـمـاـ هـيـ إـلـاـ أـنـ نـرـىـ الـأـمـ «ـكـوـلـيـرـيـ»ـ قدـ أـقـبـلـتـ مـنـدـفـعـةـ إـلـىـ الشـبـانـ فـيـ نـشـاطـ وـخـفـةـ، تـشـكـوـ سـأـمـهـاـ وـضـيقـ ذـرـعـهـاـ بـصـاحـبـتـهاـ، وـتـلـوـنـ هـذـاـ الشـبـابـ عـلـىـ اـعـتـزـالـهـ وـانـصـرافـهـ إـلـىـ أـحـادـيـثـ الـخـاصـةـ، وـتـلـحـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ الـفـتـيـانـ فـيـ أـنـ يـذـهـبـوـاـ إـلـىـ السـيـدـاتـ لـيـدـخـلـوـاـ عـلـىـ اـجـتمـاعـهـنـ الـفـاتـرـ شـيـئـاـ مـنـ حـدـةـ الشـبـابـ وـنـشـاطـهـ، ثـمـ هـيـ تـتـكـلـمـ فـيـ غـيرـ اـنـقـطـاعـ، وـتـتـحرـكـ فـيـ غـيرـ هـدوـءـ باـسـمـةـ لـهـذـاـ الشـابـ مـدـاعـبـةـ لـهـذـاـ الشـابـ، وـتـرـىـ الشـوـابـ فـتـسـقـيـهـمـ فـيـسـقـونـهـ، وـتـرـىـ الـبـيـانـوـ فـتـعـدـ إـلـيـهـ، وـتـجـريـ أـصـابـعـهـاـ عـلـيـهـ إـيـقـاعـ حـسـنـ، وـإـذـ الشـبـانـ قـدـ فـتـنـواـ بـهـ، فـهـمـ يـتـحدـثـونـ بـجـمـالـهـاـ وـخـفـتـهـاـ، مـنـهـمـ مـنـ يـجـهـرـ لـهـاـ بـذـلـكـ فـتـبـهـجـ، وـمـنـهـمـ مـنـ يـسـرـ ذـلـكـ، وـيـذـكـرـ لـصـاحـبـهـ أـنـهـ يـشـتـهـيـهاـ وـلـكـنـهـ يـائـسـ مـنـهـاـ!ـ أـلـيـسـ أـمـ صـدـيقـهـ!ـ ثـمـ هـيـ اـمـرـأـ عـلـىـ نـزـقـهـاـ وـخـفـتـهـاـ شـرـيفـةـ مـعـرـوفـةـ بـالـعـفـةـ لـمـ تـذـكـرـ عـنـهـ سـيـئـةـ قـطـ، وـهـوـ يـأـسـ لـذـلـكـ أـشـدـ الـأـسـفـ.

ثـمـ تـنـظـرـ الـمـرـأـةـ إـلـىـ الشـبـانـ يـدـخـنـونـ، فـتـرـيدـ أـنـ تـدـخـنـ، وـهـيـ لـاـ تـرـيدـ ذـلـكـ عـفـوـاـ، وـإـنـماـ تـرـيدـ أـنـ تـغـيـظـ السـيـدـاتـ الـمـحـافـظـاتـ لـعـهـنـ يـتـعـجلـ فـيـ الـاـنـصـرافـ وـتـوـقـعـ لـمـاـ تـرـيدـهـ، فـلـاـ تـكـادـ تـظـهـرـ لـلـسـيـدـاتـ وـفـيـ يـدـهـاـ لـفـافـةـ التـبـغـ حـتـىـ يـظـهـرـنـ كـرـهـ ذـلـكـ وـإـنـكـارـهـ، ثـمـ يـتـعـلـلـ وـيـهـمـنـ بـالـاـنـصـرافـ، وـلـاـ يـبـقـيـ إـلـاـ السـيـدـاتـ الـمـحـدـثـاتـ وـمـعـهـنـ الـخـطـيـبـةـ وـأـمـهـاـ قـدـ بـقـيـتـ كـارـهـةـ لـتـرـاقـقـ اـبـنـتـهـاـ، وـمـعـهـنـ اـمـرـأـ شـيـخـةـ، وـلـكـنـهاـ تـتـفـلـسـفـ فـتـزـدـرـيـ الـجـدـيـدـ، وـرـبـمـاـ اـبـتـسـمـتـ لـهـ وـعـطـفـتـ عـلـيـهـ وـهـيـ تـحـتـفـظـ بـالـقـدـيمـ لـنـفـسـهـاـ، وـهـمـ يـعـرـفـونـ مـنـهـاـ ذـلـكـ فـلـاـ يـحـفـلـونـ بـهـاـ وـلـاـ يـحـتـاطـونـ

أمامها، وفيها شيء من الصمم، فهم يستطيعون أن يتبادلوا من الحديث ما يريدون؛ لأنهم قد أمنوا أن تسمعهم، وهم لا يضنون على أنفسهم بالمازح والإسراف فيه، فيتبادلون أخف الألفاظ وأشدتها إيجالاً في العبث، كلهم فَرْحٌ، وكلهم مبهج إلا الفتاة الخطيبة، فهي تريد أن تتحدث إلى خطيبها، وهي تحتال في أن تنتهي به ناحية، وإن لم الفتاة فهي تكره هذا الابتهاج وتمقت هذا المجنون، ولا تخفي مقتها على الأم فتلومها وتعاتبها، ولكن الأم لا تجيئها إلا ساخرة مزدرية، فهي تهزأ بالزواج وقوانينه، وهي تسخر من النظم الاجتماعية، وهي لا تذكر إلا الحرية وإنما اللذة، وهم كذلك إذ يحمل إلى هذه الأم كتاب تنتظر فيه ثم تخلو إلى ابنها، فإذا هذا الكتاب من عشيقه الفتى تتندره بأنها ستفضح أمره إذا تزوج، فيغضب الفتى لذلك وينصرف مع أصحابه ليفكروا في الأمر، وليردوا هذه المرأة إلى رشدتها؛ ولكنهم لا يكادون ينصرفون حتى يقبل صديق لهم اسمه «جورج دي شموري»، فإذا ظهر أحمسينا من السيدات ميلاً إليه وإعجاباً به، ورأينا الأم تعنى به عنابة خاصة، فتتطفّل له وتتحدث إليه في دعاية ورفق.

وينصرف الشبان ويبقى هذا الفتى، فما هي إلا أن تنصرف الخطيبة وأمها، ولا يبقى إلا تلك الشيخة التي أشرنا إليها وسيدة أخرى شابة ليست أقل نزقاً وخفة من صاحبة البيت، على أنها لا تمكث طويلاً؛ لأن صاحبة البيت طلبت إليها أن تنصرف فلا يبقى إلا الفتى والشيخة الصماء وصاحبة البيت هذه، ولذيد جداً منظر هؤلاء الثلاثة، فأظنك قد فهمت أنَّ بين هذا الغلام وبين هذه المرأة صاحبة البيت صلات حب، وهما يتحرقان شوقاً إلى العزلة، ولكن الشيخة لا تبرح مكانها، فهما يخدعنها ويتغازلان، وهي تشعر مرة وتندفع أخرى، ولكنها لا تبرح مكانها، وكأنها تجد شيئاً من اللذة فيما تشهد؛ لأنه يذكرها شبابها، وقد كره العاشقان مقامها، فما يزالان بها حتى تشعر بأن الساعة متاخرة، فتنصرف ويخلو العاشقان، وإذا الفتى في الحادية والعشرين من عمره، كان رفيقاً لابن صاحبة البيت في المدرسة، وكان يختلف إلى صديقه، وكانت صاحبة البيت كثيراً ما تخرجهما من المدرسة للنزة كما تفعل الأم مع ابنها، ولكن الفتى جميل خلاب، وفيه خفة وسداقة، فلا تلبث الأم أن تفتنه، وقد كثر اختلافه إلى البيت فارتفعت الكلفة بينها وبينه شيئاً فشيئاً، ثم تجاوز الأمر بينهما حد الصلات المألوفة بين مثليهما، فإذا هما عاشقان، وهما بهذا العشق سعيدين، ولكن سعادتهما مختلفة، أما الفتى فسعيد على نحو ما يسعد الشبان، لا يفكر في غد ولا يحسب للمستقبل حساباً، وإنما هو مندفع في لذته وسعادته إلى غير حد، وهو مغتبط بهذا الحب، يشعر بشيء من الكبرياء؛ ظفر

بهذه المرأة التي كانت تستطيع أن تجد عنه منصرفًا لو أرادت إلى كثير من الرجال الذين يتبعونها ويتعلمونها، وأما هي فسعيدة ولكن مع شيء كثير من الحزن والخوف والأسف أيضًا، هي سعيدة؛ لأنها تحب الفتى؛ ولأنها قد وجدت ما يزيل ذلك القلق الذي أشرنا إليه؛ ولأنها تشعر بأنها كالزهرة قد تفتحت للضوء والندى، فكلها حياة، وكلها حسن، وكلها عاطفة، ولكنها تعلم أن هذا الحب غريب منكر، أليس منكراً أن تحب المرأة صبياً هو رفيق ابنتها في المدرسة؟ ثم ماذا يضم المستقبل لهذا الحب وعن أي نكبة سيكتشف لها الغد؟ هي سعيدة ولكنها محزونة مشفقة، على أن هذا الحزن والإشراق يزيدان في حرصها على السعادة، ويحملانها على أن تتزيد منها ما استطاعت، وعلى أن ترى لحظتها سنة لأنها لا تعرف بم سيلقاها الغد، وهم يغازلان فنراها مرة طفلة متلهلة على الحب واللذة، تعبد هذا الفتى عبادة لا حد لها، وترأها حيناً محزونة واجمة، ثم يطول بهما هذا الموقف وقد بلغ الحب من الفتى أقصاه، فهو يريد أن يضمها إليه، وبلغ الحب منها أقصاه أيضاً، ولكنها مشفقة أن يدخل أحد ابنيها، أليس أحدهما يستطيع أن يعود من حين إلى حين؟! أليس الآخر في غرفته يدرس، وقد يخطر له أن يأتي ليتحدث إلى أمه حيناً؟ هي إذن تحطاط، ولكن الشاب لا يطيق صبراً فترسله إلى غرفة ابنتها الصغير ليثبتت من أنه منصرف إلى درسه، فإذا خرج الفتى عمدت إلى كتاب وجلست تنظر فيه، وهي كذلك إذ يعود الفتى فیعجبه منظرها تقرأ في الكتاب، في يريد أن يقبلها على غرة، وإذا هو يمشي على أطراف قدميه حتى لا تشعر به، فإذا قاربها ولم يبق بينه وبينها إلا أن يميل إلى عنقها فيلثمها ظهر ابنتها «ريشار» على باب الغرفة، وقدرأى هذا كله فرفع صوته سائلاً عن أخيه، فيلتفت الفتى مذعوراً، ويتكلف المزح فيقول لقد كنت أريد أن أخيف أمك!

أما «ريشار» فقد فطن إلى الأمر، ولكنه لا يظهر شيئاً، وإنما يعيد السؤال عن أخيه، ويتكلف «جورج» المزاح، فلا يزيده تكلفه إلا اضطراباً، ثم يكون بينه وبين صديقه حديث يظهر فيه الجفاء، أما الأم فلم تشعر أو لم تكن تشعر بتفصيل هذا المنظر؛ لأنها كانت منصرفة إلى كتابها، فتسأل ابنتها عما حصل فيجيبها متكلفاً، ثم يتبئها أنه منصرف فتقول: سيصحبك «جورج» ينصرف الفتىان، وتعود هي إلى كتابها فتنتظر فيه، ولكن ابنها قد تكافف نسيان قلنستوه فيعود إلى الغرفة، فإذا رأى أمه عاكفة على الكتاب تردد قليلاً، ثم مشي على أطراف قدميه مشية صاحبه منذ حين، وما زال كذلك حتى يدنو من أمه وهي لا تحسه ولا تشعر به، فإذا بلغها تردد حيناً ثم جاهد نفسه، وإذا هو قد وضع شفتيه على عنق أمه يقبلها قبلة العاشق، فإذا هذه المرأة تضطرب كلها، وإذا كتابها قد

سقط من يدها، وإنما هي تستلقي بين ذراعي مقبلها تناديه في رفق نداء العاشقين! ثم تنظر فإذا ابنها وإذا هما ممتنعان، أحدهما قد ملكه الغضب، والأخرى قد ملكها الخزي، ولكن الفتى يملك نفسه فيقول لأمه: «عمي مساء يا أماه! ثم يعمد إلى قلنستوه فيأخذها وينصرف.

فإذا كان الفصل الثاني فقد أقبل الصيف، وانتقلت هذه الأسرة من باريس إلى ساحل البحر، واتخذت هناك بيته فخماً لم يتم استقرارها فيه، أما الأب فمنصرف في أيام راحته إلى الصيد، وأما أصغر الغلامين فعاكف على الدرس، يريد إلا يسقط في امتحان أكتوبر، ونرى هذا الغلام جالساً إلى مكتبه يدرس، وإذا أخوه قد أقبل عليه آثار الاكتئاب، لأن شيئاً ذا بال يشغلة، فيتحدث إلى أخيه حديث الجاد، ويسمع له أخوه دهشاً حيناً ثم يطمئن، ذلك أنَّ أكبر الأخرين ينبيء أخيه بأن جورج قد أساء إلى شرف الأسرة إساءةً منكرةً، وأنه لا يستطيع أن ينبيء بهذه الإساءة؛ لأنه ما زال بعد صغيراً، ولكنه يحتاج إلى معونته؛ لأنَّه مضطر إلى أنْ يبارز جورج، وإلى أنْ يخفى أسباب هذه المبارزة على أبويه وعلى كل إنسان، ويريد أنْ ينتحل أسباباً سخيفة لهذه المبارزة.

أما الغلام فكأنه قد فهم كل شيء ولكنه لا يظهر شيئاً، وإنما يرى أخيه آثار الثقة والاطمئنان والطاعة، وقد ظهر على وجه الغلام تأثر شديد، فهو ينظر في كتابه ليختفي هذا التأثر، وإذا جورج قد أقبل حسن اللباس جميل الذي يتكلف الزينة، وإذا هو منطلق اللسان يتحدث إلى صديقه في مجون ودعابة، فيقص عليهما أخبار المدينة والمصطففين، ولا يلقاه الأخوان إلا في فتور وجفوة، فيحس ذلك ولكنه يتكلف المزاج، وإذا «إيرين» قد أقبلت مندفعة كعادتها في نشاط وخفة غريبين، فلا تلتفت إلى ابنيها وإنما تتحدث إلى الفتى مبتهجة منطلقة اللسان: «لقد أحسست أنك أقبلت فأسرعت لأراك»، ثم تمضي في هذا الحديث، فتذكر أنها كانت تعمل في إعداد لون من الحلوى قد اخترعته هي، وأنها قد وفقت وأنها تدعو الفتى ليذوقه هذا المساء، وأنها تريد أنْ تخرج للنزهة فتدعو ابنها فيعتذر، ويعرض جورج نفسه فتقبل مبتهجة، ثم تنظر إليه وإلى لباسه فتنقده، وتلاحظ ملاحظات دقيقة يتأثر منها الفتىان، ثم تنظر إلى قفازيه فتأخذهما وتریده على إلا يلبسهما، يأبى الفتى، وتلح، فيزداد إباءه، فتظهر أنها ستتقيمهما في الطين حتى لا يستطع أنْ يلبسهما، فيضرع إليها الفتى أنْ تردهما إليه، فتأبى وتتصرف، فيتبعها الفتى، وإنما هي تدور حول الغرفة، تعدو والفتى يتبعها من ورائها عَدُوا كما يفعل الشابان، وابنها

ينظران إلى ذلك، وقد ملكهما الخزي والغضب، ولكن العاشقين لا يحفلان بشيء من ذلك، وإذا الأم قد خرجت عَدْواً من الغرفة وتبعدها الفتى فغاباً حيناً، وأقبلت الأم تتدوّي كأن جريها لم ينقطع، فتجلس متعبة ويجلس الفتى إلى جانبها، ويختلسان غفلة الفتين، فيضربان موعد اللقاء بعد قليل في مكان غير بعيد.

ثم ينصرف جورج وينصرف أصغر الفتين، وإذا الأم تلوم ابنها؛ لأنه يتحدث إلى صديقه في جفاء وغلظة لا يليقان؛ لأن الأدب وحسن اللقاء يكفاره شيئاً غير هذا، وهي تتحدث إلى ابنها بلهجة الأمر، كما تتحدث الأم إلى طفل تزيد أن تزجره، وهي تأمر ابنها أن يغير هذه السيرة، فسيتعشى الفتى في البيت هذا المساء، ويجب أن تتلقاه لقاء حسناء، ثم «لا أريد أن أسمع منك شيئاً»، وتهُم بالانصراف، وقد جادل الفتى نفسه، ولكنه عجز عن أن يملكتها، فيدعوه أمه، فإذا التفت إليها مغضبة طلب إليها في رفق لا تذهب إلى الميعاد. هنا موقف مؤثر جدًا! فانظر إلى هذه الأم كانت تزجر ابنها وتتردده فإذا ابنها يعلم كل شيء، وإذا هي بين يديه مختلطة مضطربة لا تدرى كيف تقول، وإذا الفتى يرفعه على أمه ويرفق بها، وكأنه يستعطفها ويترضاها: «لا أريد أن ألومنك وليس لي أن ألومنك، و كنت أريد ألا تحدث إليك في ذلك، ولكنني لم أستطع، فأنا أخسر إليك ألا تذهب إلى هذا الميعاد»، وإذا الأم تعذر إلى ابنها وتستعفيه، وتذكر شبابها الصائغ، وهذه القوة الجديدة التي أحستها منذ حين.

أما الفتى فيصرفها عن هذا الحديث ويخطئ، فيذكر لها أنه سينتقم لشرف أبيه، فتشعر الأم وقد نسيت أمومتها وخزيها وزلتها، وأخذت لا تذكر إلا شيئاً واحداً، وهو أنَّ عشيقاً معرض للخطر، وهي تزيد أن تحمييه، فهي تسلك إلى ذلك كل سبيل، تسخط حيناً فتنذر، ثم تستخزي حيناً آخر فتستعطف، وقد انهلت دموعها، وأقبل زوجها وهي في هذه الحال، فيسأل، فيخفيان عليه الأمر، فيلوك ابنته ويزجره؛ لأنه قد أغضب أمه وساعها، ثم ينصرف، ويخلو الابن إلى أبيه، ويحاول الأب أن يعرف شيئاً فلا يظفر بشيء، فيحدث ابنه بأنه لقي جورج في الطريق، وأنه يحب هذا الفتى ويعجب به، ويريد أن يستعين به في عمله ويحلقه بمكتبه، لا يكاد الفتى يسمع هذا حتى يثور ويشهد الخلاف لأبيه، ويظهر الأب أنه مغضوب، وما يزال بابنه حتى يعترف له بأن بينه وبين جورج خصومة لا بد من أن يصفى حسابها، وهما كذلك إذ تعود الأم وقد لبست قلنوساتها تزيد أن تخرج، ثم يبدأ لها فتعدل عن الخروج، ثم يظهر الأب أنه خارج ليلاً جورج؛ لأنه يحب هذا الفتى، وينهض فیأخذ غدارة صيده، فتهنّهض امرأته تريد أن ترافقه والرجل يلاحظ اضطراب

امرأته وتناقض حركاتها، فيجلس ويلوم ابنته؛ لأنه اضطر أمه إلى هذا الاضطراب، ثم يلح في السؤال عما بينهما، فيبالغان في التكتم، وإذا الرجل عرف كل شيء؛ لأنه كان قد تخيله منذ حين فشك، ثم قامت له البينة الآن، وإذا هو قد بلغ أقصى غضبه، وإذا هو يريد أن يتقم من هذا الغلام! فانظر إلى امرأته وإلى ما بينها وبين زوجها من الحوار، تريده أن تحمي هذا الشاب فهو بريء، وهي وحدها الأئمة، أليست أمًا! أليس هذا الشاب طفلاً حدثاً؟ لم يغوها وإنما أغوتته، وليس لأحد أنْ يعتدي عليه، وقد فقدت الآن كل عاطفة وكل عقل وأصبحت غريبة خالصة كأنثى الحيوان تدافع عن صغيرها، وقد وقفت إلى الباب تريده أنْ تمنع زوجها وابنها من أنْ يتجاوزاها، ويشتد بينهما الحوار والخصومة، فإذا هي تنكر النظم الاجتماعية، وتسرخ من الزواج والأسرة والأمومة، ولا تؤمن إلا بشيء واحد هو الحب، وإذا الشرف – كما يتصوره الرجال – ليس إلا أثراً من آثار الوحشية، ومظهراً من مظاهر الأثرة وقصوة الرجل، وإذا الرجال حين يذكرون العدل والشرف إنما يذكرون منافعهم وأثرتهم وقصوة قلوبهم، ثم تريدون أنْ تعدلوا، فاقتلوني أنا لأنني أنا الآئمة إنْ كان هنالك إثم! أما زوجها فيسلك معها سبلاً مختلفة من الرفق والغلظة، فإذا رأى منها هذا العناد أعلن إليها أنها لا تستطيع أنْ تأمن على عاشقها، ولكن على أنْ تلحق به، وعلى أنْ تخرج من هذا البيت فلا تعود إليه، وإذا هي تقبل فرحة مبتهجة، ولكن فرح كله ذهول، هو أشبه بالجنون وقد خرجت تudo ويحاول ابنها أنْ يتبعها فيمسكه أبوه.

إذا كان الفصل الثالث فحن في ضاحية من ضواحي الجزائر، وقد مضى حين على ما كان في الفصل الثاني، واستقر العاشقان في هذه البلاد؛ لأنَّ الغلام يؤدي فيها خدمته العسكرية وقد تبعته صاحبته، فاتخذت في هذه الضاحية المشرفة على البحر بيتاً جميلاً تحيط به حديقة بديعة خصبة، وهي تعيش في هذا البيت عيشة لذة وبهجة، قد تركت الاحتشام وأخذت من التبذل بحظ عظيم، فهي لا تكاد تستر جسمها، ولا تكاد تحتاط في حركاتها ولا في كلماتها، أليست ثائرة على الهيئة الاجتماعية وأخلاقها ونظمها وعواطفها! أليست قد ضحت بزوجها وابنيها ومنزلها في سبيل هذا الحب؟! وإنْ فما الاحتشام وما تكلف الاحتفاظ بالأخلاق؟! كلها حب وكلها لذة، ولكنها محزونة! فقد بلغت الأربعين، وأخذت تحس انصراف الشباب، وصاحبها في الثانية والعشرين لم يستكمِل حظه من الشباب بعد، هي إلى الفناء وهو إلى الوجود، هي إلى الذبول وهو إلى النضرة، والأمر ليس واقفاً عند هذا الحد، وإنما يجاورها قوم من الأميركيين فيهم فتاة جميلة خلابة ماهرة،

وقد كان الحديث بينها وبين الشاب، ثم استحال الحديث إلى شيء من العاطفة يخفيانه ولكنها تعلمته، فهي تحس الغيرة والألماء، وترى أنّ خصمها أقوى منها، له الشباب ولها الشيخوخة، ولكنها مع ذلك تجاهد، وهي في هذه الليلة تنتظر صاحبها وقد تهيأت لاستقباله وهيأت كل شيء، ولكن صاحبها تأخر، فهي تتمنى محزونة متكلفة الابتهاج، ويقبل صاحبها، تلقاء مبتهجة محبة صادقة في الحب وفي الابتهاج، ويلقاها هو مبتهجاً محبًا ولكن التكلف ظاهر عليه، فإذا جلس إلى المائدة أقبل الخادم يحمل إليه كتاباً بعثت به إليه الجارة، فيظهر اشمئزازاً متكلفاً، ويدرك أنّ هذا الكتاب قصة حدثت عنها الفتاة وأغارته إليها ليقرأها، أما صاحبته فتظهر أنها لا تحفل بذلك وتبالغ في التاطف للفتى ومداعبته، ثم تدخل عليهما امرأة شيخة شاعت عنها الأحاديث المتناقضة، فذكر الناس أنها أميرة لهت في شبابها إلى غير حد، حتى إذا بلغت سن الشيخوخة، وقد لقيت كثيراً من الآلام أقبلت إلى الجزائر ومعها ثروة ضخمة، فانصرفت إلى الخير، واتخذت معملاً للبسط تعلم فيه الفقيرات من أهل هذه البلاد، وقد أقبلت ومعها صبيتان عربستان ونماذج من أعمال تلميذاتها، فيتحدون وينتهز الفتى وجود هذه المرأة فينزل إلى جيرانه، فإذا خلت المرأةتان تحدثتا في الحب، ففهمنا أنّ هذه المرأة التي تركت كل شيء لتتبع عاشقها ليست مخدوعة، وأنها تعلم كل شيء، وتحس حب صاحبها لهذه الفتاة الأمريكية، وأنها لا تريد أن تجاهد ولا أن تشق على صاحبها، وإنما تريد أن ترك له الذكرى جميلة نضرة؛ لأنها تحبه حقاً.

وقد استعدت لذلك فكتبت كتاب الوداع، وهي راضية مبتهجة حتى لا يشتمل هذا الكتاب على شيء مؤلم، وهي تنتظر أن يدق الجرس، وتشعر بوجوب الانصراف لتنصرف ذات يوم في غير ضجيج ولا عجيج، وتحاول الشيخة أن تسليها وتطمئنها فلا توفق، ثم تعمد العاشقة إلى الكتاب الذي بعثته الفتاة، فتنتظر فيه فإذا صحف معلمة، وإذا في هذه الصحف جمل ذات معنى تذكر حب الفتنيان ونقائه وطهراته، وإذا بين صحف الكتاب صورة فوتوغرافية للفتاة، ثم يأتي الفتى ومعه الفتاة، فتلقاها «إيرين» مبتهجة مبتسمة، وتتحدث إليهما حديثاً عذباً، وتتصرف مع صاحبتها الشيخة إلى النافذة كأنها تريها جمال الطبيعة، وما سيحدث حين يخسف القمر بعد ساعات، ولكنها تتحدث إليها في أمر هذين الشبابين وفي بعهما، «أتعلمين ماذا يصنعان الآن؟ إني لا أراهما ولكنني أعلم ما يصنعان، إنهم يتصافحان، ويضغط كل منهما على يد صاحبه، ويجهد كل منهما في أن يقرأ في عيني صاحبه، وسألتقت الآن إليهما في هدوء وبطء حتى يتمكنا من أن يفترقا».

وهي صادقة فيما تقول؛ فقد كان الفتى يتصافحان ويتبادلان نظرات الحب ويتحدثان في رفق حديث الحب، ثم تصرف الفتاة، فإذا رافقها الفتى قليلاً أنبأته بأنها ستلعب له شيئاً من الموسيقى، ثم يعود الفتى وتنصرف الشيحة، ويظهر الفتى أنه متعب، فتشير عليه صاحبته بأن ينام فيفعل، وتندنو منه تداعبه وتهزه كما تهز الأم طفلها، وقد وضعت شفتيها على جبينه، وما تزال كذلك حتى يغرق الفتى في النوم، وإذا هي تسمع الموسيقى من بعيد، إنها لتعلّم له ولكنها منصرف عنها إلى النوم، وكذلك الشباب، ثم تتركه وتعمد إلى كتاب الوداع الذي أعدته فتقرؤه، فإذا هي تتمنى فيه لهذا الفتى سعادة كلها صفو لا يشوبه شقاء، تقرأ باكية وما زال صوت الموسيقى يصل إلى الغرفة، فيمتزج بصوتها الباكى وغطيط النائم.

إذا كان الفصل الرابع فنحن في باريس عند ابنها «ريشار»، وقد تزوج من خطيبته ولكن بعد مشقة؛ لأن قصة أمه كانت تلغي هذا الزواج، وقد رزق من هذا الزواج طفلاً، وهو يتحدث إلى زوجه وإلى صديق له، وهو يذكر أباه وأنه محزون، وأن حزنه قد آذى صحته، ثم ينصرف «ريشار» إلى كتاب يكتبه، وتحدث زوجه إلى الصديق، فيذكران الأم المفتونة، وما يصل من أحاديثها إلى باريس وما يتحدث الناس به من مجونها وتبذلها، وأنها تظهر في حديقتها عارية أو كالعارية، وأنها تسرف في تبذير ما لها؛ لتمتع صاحبها بكل لذات الحياة، ثم تذكر الزوج أنها مطمئنة، فقد اشتربت على زوجها أن تقطع بينه وبين أمه كل صلة وقبل زوجها هذا الشرط، وهم كذلك إذ يدخل الخادم، فيدفع إلى ريشار بطاقة، ينظر فيها ثم يضطرب لها، «وأين هذه السيدة؟» هي خارج الغرفة، «لتنتظر قليلاً!» ويريد أن يتحدث إلى زوجه، فإذا هي قد فهمت، وإذا هي تجيئه في عنف بأنه يعلم ما اتفق عليه، وأنها لا تسمح بأن تدخل هذه المرأة بيتها، وأن له أن يراها لينبئها بذلك، ثم تصرف مع الصديق، ويأخذن ريشار بإدخال السيدة فإذا هي أمه محزونة تدافع عبراتها، لا تكاد تثبت على قدميها، ولا تكاد تنطق بتحية ابنها، وابنها متاثر، ولكنه يتجلد ويتكلف القوة، فيحيي أمه تحية فاترة، وتجلس فيسألهما ما خطبها؟

- لقد مررت بباريس فأردت أن أراك، ثم يسألها: متى تعودين إلى الجزائر؟

- لن أعود!

- وكيف؟

- لقد انقطع كل شيء بيني وبين جورج!

- وماذا تريدين إذن أنْ تفعلي؟

- لا أدرى! أريد أنْ أتم حياتي وقد مررت بباريس فأردت أنْ أراك، وتسأله عن أخيه، فيذكر أنه في مدرسة الهندسة، وأنها تستطيع أنْ تراه، ثم تسأله عن ابنه، وتشكر له أنْ كتب إليها ينبيئها بمولد هذا الطفل، فيخبرها أنَّ ابنه بخير، وأنه خرج مع مرضعه للنزلة، ولكن المرضع تدخل فتسأله عن شيء، وتعلم الأم أنَّ ريشار يريد أنْ يخفي عليها ابنه، فترى ذلك حقًّا ولكنه لا يزيدوها إلا حزناً ولوغة، ويسألالها كيف تريد أنْ تعيش: وأين تريدين أنْ تقضي الشتاء؟ فيظهر له أنها أنفقت كل ما كان عندها من المال، ولم يبق لها إلا شيء ضئيل يستطيع أنْ يكفل لها حياة خاملة متواضعة.

- وأين أنا إذن؟

فتجيبه بأنها لم تأتِ مستجدية، وأنها قد نبذت أسرتها، وهي أكبر من أنْ تضرع إلى هذه الأسرة، ولكن الحديث لا يكاد يستمر حتى تشعر أنَّ هذه المرأة لا تستطيع أنْ تعيش وحدها، وأنها قد لجأت إلى ابنها تسأله أنْ يعلماها كيف تعيش، فلقد همت بالموت، ولكنها عجزت عنه، وهي لم تتعد هذه الحياة الخشنة حياة البائسات، وهي لا تريدين شيئاً ما، وإنما تريدين أنْ تتم أيامها، فأروني كيف أتم هذه الأيام! ماذا تريدين أنْ أصنع؟ يجب أنْ تروا لكم فيَّ رأياً! أسكنوني حيث تريدين، أبيحوا لي أنْ أراك وأنْ أرى هذا الطفل حُلساً، إني أعلم أنَّ اسمي يخجلكم، وأنَّ محضري يخزيكم، ولكن ماذا تريدين أنْ أصنع، يجب أنْ تحتملوني حتى الموت، وقد بلغ بها التأثر أقصاه، فقد ابنها كل قوة فهو يضمها إليه ويقبلها، وهي محزونة ولكنها سعيدة بين ذراعي ابنها، ثم يضطرها ابنها إلى غرفة، ويدعو زوجه فيقص عليها الأمر، فلتقاء في عنف وغلظة، ولكنها تتكلف هذا العنف وهذه الغلظة، وإذا مخبرها خير من مظهرها، وإذا هي رقيقة رحيمة، فما أسرع ما تعمد إلى الغرفة ففتحها وتدعو المرأة — ولكن في غير رفق — إلى أنْ تأتي فترى طفل ابنها، تأتي الأم متثرة تكتم زفراتها، فتبكي امرأة ابنها ذليلة مخوضة الرأس، أما ريشار ففرح؛ لأنَّه رأى من زوجه هذا الرفق، وهذا العطف، ف يريد أنْ يتحدث إلى أبيه ليصلاح بينهما، ويعمد إلى التليفون، ولكن أبوه يدخل.

- هي هنا!

- من هي؟

- أمي!

لا يظهر الشيخ عجبًا، وإنما يظهر أللًا شديدًا، ويستعطفه ابنه فإذا الرجل قريب جدًّا من العفو، وإذا هو يريد أنْ يعفو، ولكنه يسأل ابنه: اذكر اسمي لها؟

- نعم!

- أَظْهَرْتْ شَيْئاً مِنِ الْاسْتِعْدَادِ لِلصَّلْحِ؟

- لا!

- إذن فليس تحبني، ولئن عرضت عليها العفو لترفضنه، ثم العفو، إني لا أستطيعه، إنَّ عقلي ليدعوني إليه، وإنِّي لأراه حَقًا وَخَيْرًا، لكنِّي لا أُسْتَطِيعُه؛ لأنَّ شعوري يأباه، وتربيتي لا تعين عليه، وما ورثت من دين وعادات يحول بيني وبينه.

وهنا حديث أقل ما يوصف به أنه وصف صادق لحياتنا العقلية في هذا العصر، فعقولنا ترى أشياء يرفضها شعورنا وتتنكرها عواطفنا؛ ذلك لأنَّ الجديد قد كسب العقول، أما القديم فما زال مستأثرًا بالعواطف والشعور، فنحن نرى أنَّ هذه المرأة خلقة بالعاطف والعفو، وأنَّ زلتها لها عذرها، وأنها ليست أمراً لا يتحمل المغفرة، ولكن عواطفنا الدينية والاجتماعية وشعورنا بالشرف والغيرة، كل ذلك يحول بيننا وبين أنْ تكون حياتنا العملية ملائمة لحياتنا العقلية، وإذن فالشيخ يوصي ابنه خيراً بأمه، ويعيد بأنه سيقوم بحاجاتها جميعاً، وسيجتهد في أنْ يجعل الحياة عليها هيئة لينة، ولكنه لا يستطيع ولا يريد أنْ يراها، ثم ينصرف وقد انحنى ظهره، وظهرت عليه آثار التعب والعناء.

أما ابنه فيفتح باباً، فإذا هو يرى المرأة تتحدىان في شيء من الصفو والمودة، وبينهما الطفل قد جمع بين قلبيهما، فيدعوهما سعيداً، وتهم أمه أنْ تنصرف وقد قنعت بها العطف، ولكنها تطبع في أنْ تشعر بأنَّ امرأة ابنها قد صفت عنها، وهي لا تريده أنْ تقول لها ذلك، وإنما تطبع في أنْ تقبلها، فتعتنق المرأة وقد امتزجت دموعهما، وإذا الجرس يدق فيريد ريشار أنْ يخفيهما ليستقبل الطارق، ويتقدمن إلى غرفة وتتبعه امرأته وتبقى أمه كأنها تصلح من أمرها، وإذا الخادم تدخل فتبكي بأنَّ فلاناً بالباب، تجيبها الأم وقد نسيت موقفها وخيل إليها أنها في بيتها: ليدخل!

إذا رأت تردد الخادم ذكرت موقفها، ثم جاهدت نفسها وقالت: نعم ليدخل فأنا الجدة.

المتجrade

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «هنري بتايل»

هي عندي آية من آيات الكاتب، ومن خير ما أخرج للناس في التمثيل، فيها كثير جدًا من الحق، وفيها كثير جدًا من الدقة، وفيها كثير جدًا مما يملأ القلوب رحمة ويبعث في النفس عاطفة الإشفاق الشديد، ومع ذلك فأنا أتردد التردد كله حين أريد أن أحكم عليها من الوجهة الأخلاقية، ولعل الخير هو ألا أحكم عليها من هذه الوجهة، وأن أترك القارئ يرى فيها رأيه، ذلك لأن الكاتب التمثيلي ليس مكلفًا في كل وقت أن يتخذ الأخلاق الكريمة غاية لما يكتب وغرضًا لما يضع من قصص تمثيلية، فقد يقصد الكاتب إلى إظهار صورة من صور الحياة واضحة جلية، وقد لا يتعدى قصده هذا الحد، قد يكون مصورًا فنيًّا لا أكثر ولا أقل، وهو في هذه الحالة قد يلائم الأخلاق الكريمة وقد لا يلائمها؛ لأن موضوع القصة أو الصورة التي أراد أن يظهر الناس عليها تلائم هذه الأخلاق أو تخالفها.

على أنني أرايي غير بعيد من القصد في هذا الحكم، فإن الكاتب التمثيلي أو القصصي الذي لا يقصد إلا إلى التصوير وحده، ولكن إلى التصوير الصادق الصحيح، من خير الدعاة إلى الأخلاق الكريمة والحايين على الفضائل التي اتفق الناس على إيثارها، فليس وحده مرشدًا إلى الخير ذلك الذي يدعوك إليه ويدرك عليه صراحة دون رمز ولا إيماء، وإنما يرشدك إلى الخير ذلك الذي يظهر لك الحياة أو صورة من صور الحياة على حقيقتها واضحة جلية، بشعة أو جذابة، تاركًا لعقلك أن يحكم حرجًا مختارًا دون أن يقدم إليك هو ما ينبغي أن تحكم به، وإذا كان هذا حقيقة فليس يعنيني أن يكون الكاتب قد تعمد في هذه القصة خلقًا من الأخلاق أو فضيلة من الفضائل فدعا الناس إليها، وإنما الذي

يعنيني أن تكون هذه الصورة التي قصد إلى تصويرها صادقة واضحة، وأن تكون من الصدق والوضوح بحيث تمثل للناس خللاً يشعرون بالخير في التفور منها، ولست أشك في أنه قد وفق إلى هذا كل التوفيق، ثم يعنيني شيء آخر، هو أن تكون لقصة قيمة علمية، أو — بعبارة أوضح — قيمة تعليمية، أو — بعبارة أشد وضوحاً وجلاء — يعنيني إلا تشهد القصة أو تقرأها حتى تخرج منها بشيء جيد صحيح، لم تكن تعلمه قبل أن تقرأ القصة أو تشهدها، وقد وفق الكاتب لهذا أيضاً، ثم يعنيني أن تكون إلى هاتين الخصلتين مستثيرة للعاطفة باعثة لضروب التأثر الشديد، تحمل من يقرأها أو يشهدها على أن يشعر شعوراً قوياً بالرحمة والإشفاق حيناً، وبالسخط والغضب حيناً آخر، وقد وفق الكاتب إلى هذا أيضاً، فكانت هذه القصة غريبة بين قصصه الكثيرة، فلعلك تذكر أني كنت أقول لك عن هذا الكاتب: إنه يعني قبل كل شيء بإثارة العواطف واستحداث الجهاد العنيف بينها، وإنه يتخد التمثيل وسيلة إلى العبث بحس الجمهور وعواطفه، وليس يعنيه إلا أن يرى هذا الجمهور متاثراً شديداً بالإضطراب، هو كذلك في أكثر قصصه، ولكنك في هذه القصة يضيف إلى هذه الخصلة هذه الخصال التي أشرت إليها آنفاً، فهو يستثير العواطف القوية، وهو يصور فيصدق في التصوير، وهو يعلم القارئ شيئاً لم يكن يعلمه، وهو يظهر وجوهاً من الخير والشر ينتفع الناس بظهورهم عليها، ثم إنني لم أذكر إلى الآن خصلة أخرى من خصال هذه القصة، هي الخصلة اللغظية، فلست أعرف للكاتب قصة بلغ فيها من جودة اللفظ ورقة الأسلوب، وخفة الروح، وسهولة الحوار، وقصره ما بلغه في هذه القصة، بل لقد بلغ من ذلك حداً أعتقد معه أنَّ من العسير جداً — إنْ لم يكن من المستحيل — أنْ تترجم بعض فصول هذه القصة إلى لغة أجنبية؛ لأنَّ خصائص اللغة الفرنسية والعقل الفرنسي بلغت فيها من القوة والشدة حدّاً تستحيل معه الترجمة.

أراد الكاتب أنْ يصور لنا ضرباً من ضروب الحياة بين طائفتين من طوائف الفرنسيين هي طائفة المصورين، وأنا زعيم لك بأنك لا تكاد تفرغ من قراءة هذه القصة حتى تلم إلماً صالحاً بشيء غير قليل من أخلاق هذه الطبقة من الفنانين، وألوان حياتهم، وما ألفوا فيما بينهم من اصطلاح، وما يشعر به كل منهم بالقياس إلى نفسه وإلى أصحابه، ولا تكاد تقرأ هذه القصة حتى تسأل نفسك: أليس من الحق أنه إذا امتازت الطوائف، وتكونت لها شخصية ظاهرة، فلا بد من أن تكون لها أخلاقها وخصالها ونظمها الخاصة، التي تميز بينها وبينها من الطوائف من جهة، وتميز بينها وبين مجموع الأمة من جهة أخرى، وبعبارة واضحة: أليس هناك ضربان مختلفان من الأخلاق أحدهما الأخلاق العامة التي

هي أخلاق الشعب جملة، والأخرى الأخلاق الخاصة التي هي أخلاق الجماعات المختلفة المتميزة، فللمصوريين أخلاقهم، وللعمال أخلاقهم، وللمعلمين أخلاقهم وهلْ جرًّا، وإنْ فالأخلاق لم تهبط من السماء، ولم يبتكرها العقل ابتكاراً، ليست أثراً من آثار الدين، وليسَت نتْيَةً من نتائج الفلسفة، وإنما هي مظاهر من مظاهر الحياة الاجتماعية، ولكنني أحس أنني قد تعمقت وذهبت بك في الفلسفة إلى أبعد بعيد، فلنعد إلى القصة، فهي أخف من ذلك روحاً وألذ عشرة.

نحن في باريس، في قصر من قصور الفن الفرنسي، يجتمع فيه المصورون وأصحاب التماشيل ومن إليهم من أصحاب هذه الفنون، وفي هذا اليوم قدّم المصورون آثارهم الفنية، وهم يستيقنون ليظفروا بالجوائز أو بالوسام الذي يمنح لأيهم تفوق في التصوير وقدم ما أعجب جمهور المتحدين، ونحن نرى جماعات المصورين شباناً وشيوخاً وكهولاً، ونرى بينهم طائفة من النقاد، ونرى قليلاً من عامة الناس قد أقبلوا يشتتون في هذه الحفلة، ونرى بنوع خاص قليلاً من الفتيات اللاتي يعملن نماذج للمصورين، أقبلن يشهدن حظوظ هؤلاء المصورين من هذه المسابقة، وبين هذه الجماعات كلها أحاديث كثيرة مختلفة ليس إلى ترجمتها من سبيل، ولكنها كلها صور مصغرة من أخلاق هذه الطائفة من الفنانين، ولست تستطيع أن تمضي في هذا الفصل الأول دقائق دون أن تضحك وتترعرق في الضحك؛ لأن لهؤلاء المصورين في جدهم وهزلهم لغة وأساليب وطرقًا من التصور مضحكة لذينة حقاً، ولكن الذي يعنينا من كل هذه الجماعات، ومن حركاتها العنيفة المتصلة رجل واحد، قد انتهى ناحية في المDCF ومعه فتاة وصديق له، وهو يريد أن يتتجنب الحركة ويعتزل الموضوع، وهو قلق مضطرب شديد القلق والاضطراب، وليس صاحبته أقل منه اضطراباً، هذا الرجل هو المصور «برنييه»، وهذه الفتاة هي نموذجه «لولو» أو «لولوت» أو «لوبز».

أما الرجل فمتوسط العمر أدنى إلى الشباب منه إلى الكهولة، جميل الطاعة، حسن الطبع، يظهر أنَّ له في التصوير مقدرة ممتازة، وهو قد قدم في هذه المسابقة صورة امرأة متجردة، صورها تصوِّرها خلقياً، وهو يود لو ظفر بالوسام، ولكنه شاب، فهو لا يطمع في الوسام، وإنما يطمع في أنْ يظفر من أصوات المحكمين بعدد لا بأس به، وينازعه مصور آخر شيخ، ولكن هذا الشيخ بغيض إلى جمهور المصورين، وأما هذه الفتاة «لولوت» فقد قلت إنها نموذج المصور «برنسه» وهي، فتاة حمilla حداً، فقرة حداً، أو قل: إنها معدمة

بائسة كأضرابها من النماذج، قد اشتغلت نموذجاً لطائفة من المصورين، ولكنها اشتغلت عند اثنين يعنياننا بنوع خاص، أحدهما المصور «روشار» اشتغلت عنه سنين، وكان بينها وبينه حب، فكانت له خليلة، ثم انصرفت عنه إلى «برنييه» هذا، فأقامت عنده، وشاركته في حياته، وكانت في الوقت نفسه خليلته ونموذجه في التصوير، وليس هذه الصورة التي يقدمها اليوم إلا صورة هذه الفتاة، وهي تحب المصور حباً شديداً، وقد تكلفت ضروباً من العناء لتسهل عليه الحياة، وهي الآن ترجو أن يكون له من الفوز ما يكافئ شيئاً من هذا العناء الذي ت剋لفته، فقد جاعت وجاع صاحبها، وضيقَتْ على نفسها وعلى صاحبها في كل شيء إيثاراً للاقتصاد، ومع ذلك فهما مدينان للبان بمقدار ضخم من المال، فلو فاز صاحبها اليوم لاستطاع أن يبيع صورته، ففيدياً دينهما ويرفها على نفسها، والمصورون يصوتون ويصوتون، وكلما فرغوا من تصويب ظهر أنَّ الحظ مسعد «برنييه»، فأمله يشتد ولكن خوفه يشتد أيضاً، والناس من حوله يشجعونه ويعيدهونه ويمارحون صاحبته، وما يزالون كذلك حتى يبلغوا التصويب الأخير، فإذا الفوز لصاحبنا «برنييه»، وإذا هو قد نال الوسام بكثرة قليلة جداً، ولكنه نال الوسام وأصبح مظهراً من مظاهر المجد الفرنسي في التصوير، وتغيرت حياته كلها فانقطعت الصلة بينه وبين الفقر، واتصلت بينه وبين الثروة، وسيقصد إليه منذ اليوم أشرف الناس وأغنياؤهم يشترون آثاره بالأثمان الضخمة، وقد بدأ ذلك فأقبل إليه تاجر من تجار الصور فساومه صورته هذه، وانتهت بهما المساومة إلى ٦٠٠٠ فرنك، وبينما هما يتساومان كانت «لولوت» دهشة ذاهلة لا تقاد تصدق ما تسمع، ستون ألف فرنك بعد هذا البؤس الشديد، فسيؤدي إذن دين اللبان، وسيعيشان عيشة ناعمة، وستشتري قلنوسوة طالما رغبت فيها وعجزت عنها.

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، فإن الحكومة الفرنسية نفسها تريد أن تشتري هذه الصورة، وأنَّ تعرضها في متحف «لوكسمبرج»، فليس لابتهاج الفتاة حد، فلا ينبغي أنْ تنسى أنَّ الصورة تمثلها، فقد أصبحت إذن شيئاً رسمياً سيعرض في متحف من متحاف الدولة، حتى إنَّ أحد أصحابها يمارحها فيقول: يجب أنْ تسعدي، فسيعرض ظهرك في متحف «لوكسمبرج»، فإذا مضى عليه شيء من الدهر انتقل إلى متحف «اللوفر»، يجب أنْ تسعدي، فقد أصبحت أثراً من هذه الآثار الفنية الخالدة، وما كانت «لولوت» تحلم بأنَّ الدهر قد ادخر لظهورها مثل هذا الحظ، ولكن هناك ما هو أجمل من هذا خطراً؛ فقد احتال المصور الفائز في أنْ يخلص من أصحابه ومهنته ليخلو لحظة إلى صديقه ونموذجه

«لولوت»، فهما يتقارضان أحاديث الحب، وينذران بؤسهما، ويقصان من أخباره شيئاً كثيراً مؤلاً، فتذكر هي أنها اضطرت ذات يوم مع أمها إلى التماس الصدقة في الشوارع، وينذكر هو أنه كثيراً ما قضى الأيام جائعاً لا يتبلغ إلا بكثرة من الخبز، وقد تقاسما هذا البؤس وأقبلت الثروة، فيجب أنْ يتقاسماها وهو لا يريد أنْ يعيشَا خلilين، وإنما يريد أنْ يعيشَا زوجين، فإذا سمعت هذا بلغ بها الابتهاج حداً يشبه الذهول، ثم تطلب في سذاجة ورفق أنْ يكون هذا الزواج في الكنيسة؛ لأنها تحب أنْ يبارك القسيس زواجهما، وينصرف العاشقان وليس لسعادتهما ولا لأملهما في الحياة حد.

إذا كان الفصل الثاني فقد مضى على هذا كله حين من الدهر، فاقترب العاشقان، وأقبلت الثروة على «برنييه» إقبالاً شديداً، فأصبح مصور الملوك والأمراء، وغير نظام حياته كلها، واتخذ لنفسه بيئاً فخماً يشبه القصر وأنثه بفاخر الرياش وبديع الزينة، واتخذ عادة أغنياء الناس وأشرافهم، فاعترض أنْ يستقبل الزائرين مساء السبت من كل أسبوع، وأنْ يحيي في هذا المساء حفلات الرقص والموسيقى، وهو اليوم يبتدىء أول حفلة من هذا النوع، وبينما تغير هو تغييراً شديداً، فقد ظلت امرأته على ما كانت عليه من سذاجة وجهل واستمساك ب حياتها الأولى، فهي مغبطة ب حياتها الجديدة، ولكنها ليست مطمئنة فيها، وهي تجهل التقاليد جهلاً شديداً، يؤلم زوجها ويخجله في كثير من الأحيان وأصحاب زوجها وأصدقاؤه يرون ذلك، ويشفقون على صديقهم، ويلومونه بأنه تزوج هذه المرأة الفقيرة التي خرجت من الطبقات المنحطة، ومنهم من يغلو في ذلك، فينصح له بأن يخلص من هذه المرأة، ويتخذ له زوجاً غنية تلائم حياته الجديدة، وهو لا يستطيع أنْ يفك في هذا؛ لأنَّه يحب هذه المرأة، ويريد أنْ يفي بالعهد، وينذكر أنها كانت شريكة بؤسه، فيريد أنْ تكون شريكة سعادته، ولكنه مع ذلك ضيق الذرع بها، فهو ينافق ويتكلف الحب حين لا يشعر في حقيقة الأمر إلا بالإشفاق أو شيء كالإشفاق، هو لا يحتفظ لها بذلك الحب القديم، وأية ذلك أنه بدأ يخونها، وبدأ يخونها مع امرأة ألمانية إسرائيلية ضحمة الثروة، باهرة الجمال، أقبلت إلى فرنسا فاشترت لها زوجاً من الأستقراطية الفرنسية المفلسة، اشتلت لها زوجاً له لقب الأمير، فاتخذت لقبه، وهو شيخ فان، هو لا يضايقها، وإنما يترك لها الحرية كلها! لا يعنيه إلا أنْ يعيش عيشة تلائم عيشة مقامه ولقبه، وقد طلبت هذه الأميرة إلى صاحبنا المصور أنْ يصورها، وجلست للتصوير مرة ومرة، فكانت الرغبة، ثم كان الحب، ثم كانت الخيانة، وهو يخفى هذا الحب على زوجه، ولكنه تسلم في هذه الليلة حين كان

يستقبل أصحابه وزائريه كتاباً من الأميرة تنبئه بزيارتها، فهو قلق وجل ويقبل صديقه له، فينبئه بأن سعيه في وزارة المعارف ليس بعيداً من الفوز، ذلك لأنّ صاحبنا المصور أصبح يستحي أن يظهر الناس في متحف من متاحف باريس على امرأة عارية، فهو يريد أن تنقل هذه الصورة من باريس إلى متحف الأقاليم النائية، والوزارة تمانع في هذا، وهو يتحدث إلى صديقه إذ تقبل «لولوت»، وقد سمعت كل شيء، فيسؤالها رأي زوجها ويؤلها؛ لأنها سعيدة بأن تعرض في متحف من متاحف باريس، وهي ترى هذه الصورة في هذا المتحف رمزاً لسعادتهما، وهي تكره أن يغير شيء في هذا الرمز.

ويشتغل القوم بلهوهم، وإذا الأميرة قد أقبلت وخلت إلى المصور، فهما يتحدثان في الحب والألوانه، ويدركان مواعيدهما وأمالهما، ويكانان يتجاوزان الحديث إلى غير الحديث، ولكن «لولوت» قد أقبلت وكأنها سمعت من الحديث شيئاً، فلا تكاد تقبل حتى يلقاءا العاشقان لقاء حسناً ولكنه متكلف، أما هي فتلت زوجها إلى أنه قد أهمل زائرية، فإذا انصرف الرجل وخلت المرأةان كان بينهما موقف مؤثر، ذلك لأنّ «لولوت» تتحدث إلى الأميرة في صراحة مخالفة لما ألف الناس من ذوق وتقاليد، تزعم لها أنها تحب زوجها حباً شديداً، وأنّ زوجها يحبها أيضاً، وأنّ من الإثم أن تعمد امرأة مهما تكن إلى هذا الحب فتسيء إليه، أما الأميرة فتسمع هذا الكلام مبتسمة، لا غاضبة ولا خائفة، وإنما تهون على هذه المرأة المسكينة في شيء من السخرية مُرّ شديد المرارة، ثم تظهر من العطف عليها والرفق بها ما يملأ قلبها اطمئناناً، ثم تبالغ الأميرة في هذا، فتختذ هذه المرأة صديقة وتتنزع حلية كانت في صدرها، فتضفعها في صدر هذه المرأة، وهما إذن صديقتان، وقد أمنت «لولوت» كل مكروه، ولكن أمد هذا الأمان ليس طويلاً، فلا يكاد هذا الموقف ينتهي حتى يتبعه موقف آخر يعيد إلى نفس «لولوت» ما كان فيها من اضطراب، تنظر فإذا عاشقها القديم «روشار» قد أقبل، فإذا سألت زوجها عن ذلك قال: دعوته بين الذين دعوتهم من الزائرين.

– وكيف فعلت ذلك وأنت تعلم ما كان بيني وبينه! إنما أردت إذلاي!
 ثم تخلو إلى هذا الرجل فتلومه؛ لأنه قبل الدعوة وأقبل إلى هذا البيت، وكان الذوق والرفق يقضيان عليه ألا يفعل، أما الرجل فيجيئها في رفق وصدق بأنه إنما أقبل سعيّداً مغبطة ليراها سعيدة مغبطة، وأنه مستعد أن ينصرف وألا يعود إذا كان هذا يرضيها، فتجبيه، نعم! فينصرف الرجل وقد أكد لها في لهجة صادقة مؤثرة أنه كان أحبهها حباً صادقاً، وأنه لا يزال يذكر هذا الحب ويتمى لها كل سعادة، أما هي فقد عظم اضطرابها،

فهي تشعر بأنها وحيدة، وكأن الناس جمِيعاً يأتُرونَ بها، ألم تسمع أنَّ زوجها يريد أنْ يبعد صورتها من باريس؟ ألم تحس أنَّ بين زوجها وبين الأميرة شيئاً يشبه الحب؟ ألم تنكر زيارة هذا العاشق القديم؟ ثم لا تمضي دقائق حتى يظهر أنَّ الناس يأتُرونَ بها حقاً، أخذوا ينصرفون ومن بينهم الأميرة، وأخذ الزوج يعين الأميرة على لبس معطفها، فانتهز هذه الفرصة للمغازلة، فهو يطلب قبلة إلى صاحبته، وهي تقول له: بل تَسْمُّنِي، فهذا يكفيك إلى غد، وهو يَتَسْمُّنُها ولكن «لولوت» من ورائه قد رأت وسمعت، وإذا هي تصرخ صرخة منكرة، وقد انتزعت معطف المرأة فألقته على الأرض، والتقت الناس جمِيعاً ومن بينهم الأمير الذي كان قد أقبل يقود زوجه، فإذا هذا الأمير قد أقبل على زوجه في هدوء وهو يقول: إنَّ هذا المؤلم أيتها العزيزة، وكان من الحق أنْ تربئي بنا عنه، ثم يقدم إليها ذراعه وينصرفان، أما «لولوت» فقد سقطت على الأرض واجتهد زوجها وصديق له حتى صرفا الناس، وأقبل الرجل على امرأته يرد إليها الحس والحركة، فإذا أفاقت أخذت تبكي بكاء مِرَا، وأخذ هو يهون عليها ويعتذر إليها، ولكنها مغرقة في البكاء لا تسمع له، وإنما تردد هذه الكلمات: ما أشد هذه الوحدة! ما أشد هذا الألم!

فإذا كان الفصل الثالث فقد تقدم هذا الحب الأثم حتى أصبح حقيقة واقعة لا ينكرها العاشقان، وإنما يريدان أنْ يجعلها أمراً شرعاً، أما الرجل فيريد أنْ يطلق امرأته، وأما المرأة فتريد أنْ تطلق زوجها، ثم يكون بينهما الزواج بعد ذلك، ونرى في أول الفصل الأمير قد قبل الطلاق، على أنْ تدفع له امرأته مقداراً ضخماً من المال يكفي لحياته ومنزلته، وهي مستعدة لأنْ تؤدي إليه كل ما أراد، ولكن «لولوت» ترفض الطلاق، وقد أقبلت إلى الأمير تزيد أنْ تتخذه حلِيفاً، حتى إذا اتفقا على رفض الطلاق لم يتمكن هذان الأثمان مما يريدان، ولكن الأمير قد قبل الطلاق وهو يسخر من زوجه، ومن الزوجية، وهو يحتقر الجماعة ونظمها وأخلاقها، ولا يحفل إلا بشيء واحد، هو ما بقي من حياته على نحو يعصمه من الفقر والإفلات والانحطاط عن منزلته ومنزلة آبائه، وهو ينصح لهذه المرأة ألا تتشدد، وينذرها بأن نتائج التشدد سيؤذنها دون أنْ تتفعها، فتنصرف المرأة مزدرية لهذا الشيخ ساخطة على النظام الاجتماعي شقية بحظها، ولكنها رأت زوجها مقبلاً إلى بيت الأميرة فعادت، وما كان الزوج يلقى الأميرة حتى يكون بينهما حديث مؤلم حقاً، ولكنه آية من آيات الفن؛ ذلك أنَّ هذا الرجل يشعر بأنْ حبه أثم وبأنه مقبل على جريمة، ويحاول ما استطاع أنْ ينصرف عن هذه الجريمة، ولكنه لا يستطيع؛ لأنَّه لا يكاد يرى

الأميرة حتى يفقد عزمه وقوته على المقاومة، وإذا هو العوبة في يدها، أما هي فترى منه هذا الشعور وتحمده له ولكن إلى حد، فهي تحبه أيضاً، وهي لا تضحي بهذه المرأة، أليست ت يريد أن تمنحها من المال ما يضمن لها حياة سعيدة صالحة! ويشتد الحوار بينهما حتى تغضب الأميرة، ولكنه غضب خاص، غضب يراد به استثارة الحب والشهوة، وهي تبلغ من ذلك ما تريده، حتى إذا استوثقت أنها قد أضرمت الرجل إضراراً نهضت فأقلت معطفها، وظهرت في ثوب كله ترغيبي واستغفاء، فيدينو الرجل منها، يشمها ويقبلها ويضمها، وإذا الباب قد فتح وظهرت «لولو»، فلا تكاد تظهر حتى يظهر معها الكاتب ومهاراته المعروفة في تغير المواقف والعبر بالعواطف، فانظر إلى هذه المرأة مغضبة ساخطة، قد استطاعت أن تضطر هذين العاشقين إلى أن يسمعا كل ما أرادت أن توجه إليهما من سبٌ ولوم، ثم انظر إليها قاضية تأخذ بالعدل، وتريد أن تعرف ما قدر لها بين هذين العاشقين، فهي أيضاً عاشقة ولحبها الحق في الحياة، ثم هي زوجة ولها حقوق الزوجات، ثم انظر إليها ضارعة قد جئت أمام عدوتها تستعطفها وتترضاها، وتطلب إليها أن تترك لها زوجها، ثم انظر إلى هذه العدوة قد اضطربت كلها لهذا الموقف، فخيرت الرجل بينهما، أما الرجل فلا يختار، وإنما يريد أن يخرج مع زوجه ليفرغ من هذا الموقف المؤلم، أو يريد أن يصرف زوجه ولكن زوجه قد رأى وفهمت، فانظر إليها قد اقتنعت بضعفها، واستيقنت أنَّ الشر واقع لا محالة، فأدانت وأقبلت إلى المائدة، وكتبت بيدها طلب الطلاق، ودفعت الكتاب إلى زوجها وانصرفت.

إذا كان الفصل الرابع فنحن في مستشفى من مستشفيات باريس، نشاهد في حجرة من حجراته «لولوت» في سرير المرض، ولكننا نعلم أنها بارئة لا خطر عليها، ذلك أنها انصرفت عن زوجها إلى بيتها وقد بلغ منها اليأس أقصاه، فأرادت أن تقتل نفسها، ولكن يدها اضطربت فأخطأت القلب وأصابت الرئة، واستطاع الطبيب أن ينجيها، وأخذت الحياة تعود إليها، وأخذ الأمل يعود مع الحياة، فهي قد كلفت أختها أن تتبع زوجها وتتبين ما بينه وبين الأميرة من صلة، وقد أقبلت أختها فتبينها بأن الصلة قائمة متينة بين العاشقين، فهي إذن يائسة وهي إذن ستآلم، ولكن الأميرة قد أقبلت تعودها وتحمل إليها أزهاراً، فإذا خلت إليها سألتها العفو والمغفرة، وأعلنت إليها أنها سترد إليها زوجها، وأنهما قد اتفقا على ذلك، ولكنها لا تثق بشيء من هذا ولا تطمئن إليه، ويقبل الزوج وتنصرف الأميرة، فيحدثها بمثل ما تحدثت به الأميرة، وتفهم من حديثه أنه يريد أن يحتفظ بالزواج ويعيش

معها، ولكن عيشة الأصدقاء والإخوان، لا عيشة الأحباء والعاشقين، أما هي فلا تسمع ذلك إلا ألمت له؛ لأنها تحب؛ ولأنها ترى أن ليس لحبها صدئ في نفس زوجها، وما تزال بزوجها حتى يغضب ويحنق، ويعلن إليها أنه مستعد لأن يضحي بكل شيء عطفاً عليها ورافقاً بها، فهو لا يملك غير هذا، وكيف تريده على الحب وهو لا يملك هذا الحب! وهل الناس يحبون لأنهم يريدون أن يحبوا! ثم ما يزال بها حتى تظهر له شيئاً من الرضا، فينصرف على أن يعود بعد حين، ولا تكاد تخلو إلى نفسها حتى تشعر بألم وضيق في التنفس، وإذا هي تريد الهواء وتريد الضوء وتريد الحياة، فتعينها المرضة حتى تترك السرير وتفتح لها النوافذ، فإذا دخل الضوء والهواء ابتهجت لهما، ولكن زائراً قد أقبل، هو عاشقها القديم «روشار»، أقبل لأنه علم بكل شيء، وتردد على المستشفى يتعرف أخبارها منذ كانت الحادثة، وهو الآن قد علم من الطبيب أنها بارئة، وأنها تستطيع أن تخرج من المستشفى متى أرادت، وهو يعلم أنها تعسة، وأن شفاءها لم ينته بعد، وأن هذين العاشقين سيتخذانها جسراً إلى سعادتها، وهو يحبها، وهو لم ينس ذلك الحب القديم، وهو لا يريد إلا أن يفي لها، ويحملها إلى ذلك البيت الذي نشأ فيه حبهما القديم، في ذلك البيت تتم شفاءها، وفي ذلك البيت تستقبل الصحة والحياة، فإن أرادت أن تمضي لوجهها فلن يمسكها.

– نعم! إنني لأريد الصحة، وإنني لأريد الحياة.

– أحملني. وما أسرع ما تحمل إلى عربة تنتظر وقد أمرت أن يرسل مداعها إلى بيت «روشار».

إلى هنا تنتهي القصة في التمثيل، ولكنك تريد أن تعرف ماذا يكون من أمر الزوج، فيقصه عليك الكاتب لتقرأه لا لتشهدك على المسرح، يقبل الزوج فلا يرى زوجه، فإذا تبين الخبر أخذه شيء من الوجوم، وأخذ يتحقق في السرير يتبعن مكان زوجه وشكل جسمها في الفراش، ثم ينظر فإذا أزهار على السرير، فيأخذ منها زهرة ينظر إليها، ثم يحملها إلى فمه، وإذا هو يبكي!

مارس سنة ١٩٢٤

الفضيحة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «هنري بتايل»

أعتذر قبل كل شيء من هذا العنوان، فلست مبتكرة، وإنما أنا مترجم، وليس لي أن أتصرف في الترجمة إذا كان اللفظ واضحًا جليًّا، وليس من شك في أنَّ الكاتب قد أراد ما كتب، وفي أنَّ القصة تعبر تعبيرًا حسناً عما أراد، فهي فضيحة ولكنها لا تخلو من عذبة وعبرة، وأي فضيحة تخلو من عذبة وعبرة! هي فضيحة نافعة، وهي في الوقت نفسه لذيدة؛ لأنها كغيرها من قصص هذا الكاتب، طائفة من الأوصاف التي تمثل صوراً من الحياة الفرنسية تمثيلاً قوياً صحيحاً، ولقد أجد شيئاً من التردد حين أريد أن أحكم على هذه القصة، فلست أدرى أهي قصة محزنة أم هي قصة مضحكة، ولعلها محزنة ومضحكة، فموضعها محزن و نتيجتها محزنة، ولكن سياقها مضحك جدًّا، وهو مضحك لا على نحو ما ألغت من القصص المضحكة، وإنما هو مضحك على نحو خاص، لأن الكاتب لم يرد أن يضحك، ولا أن يسرك، وإنما اضطر إلى ذلك اضطراراً؛ لأن أشخاصه مضحكون بطبيعتهم، مضحكون حتى في أشد أوقاتهم حرجاً، وأعظم مواقفهم بؤساً وسوءاً، وهم مضحكون لا لأنهم يريدون أن يضحكوا؛ بل لأن الله خلقهم كذلك.

وهل تعلم شيئاً أشد إيلاماً للنفس وأعظم تأثيراً في القلب من رجل يبكي ويألم حقاً، ولكنك تراه يبكي ويألم حتى تشاركه في ألمه وبكائه مخلصاً في ذلك مضطراً إليه، وأنت في الوقت نفسه مضطرب إلى أن تضحك منه وتبتسم لما ترى من ألمه وبكائه، أو من تعبيره عن هذا الألم واندفاعه في هذا البكاء، مصدر هذا الموقف الغريب شيء من التفاوت في الطبع بينك وبين هذا الشخص الذي يُبكيك ويُضحكك في وقت واحد، هو ثائر الطبع،

حاد المزاج، وأنت هادئ معتدل، وقصته في نفسها مؤلمة، فهو يألم عشرين حين لا تألم أنت إلا أربعًا أو خمساً، والفرق بين أملك وأمله هذا الغلو الذي تشهده ولا تفهمه، هذا الذي يضحكك وأنت تبكي ويبيعث في وجهك الابتسام في حين يظهر على جبينك العبوس، وهذا هو الذي تجده في هذه القصة؛ لأن الأشخاص في هذه القصة هم من أهل الجنوب الفرنسي، وأنت تعلم، أو لعلك قرأت في الكتب أنَّ أهل فرنسا الجنوبية قوم فطروا على ثورة الطبع وحدة المزاج وحرارة العاطفة وانطلاق اللسان، هم غلاة حين يشعرون، وهم غلاة حين يتكلمون، وهم غلاة حين يفكرون، وهم إلى الكلام والإسراف فيه أقرب منهم إلى التفكير والميل إليه، ولعلهم — كما يقول «الفونس دوديه» في بعض قصصه — لا يفكرون إلا حين يتكلمون، في بينما تنطق ألسنة الناس بالكلام لأنهم فكروا أو شعروا، فهم يصفون بكلامهم فكرة أو عاطفة أو نوعاً من أنواع الشعور، فهو لاء الفرنسيون من أهل الجنوب ولا سيما فصحاؤهم وأهل البلاغة منهم، يتكلمون أولاً، فإذا تكلموا تحرك عقولهم ففكروا، وعواطفهم فشعروا، وربما بدأوا الكلام وهم لا يعرفون ماذا يقولون فإذا اندفعوا فيه قليلاً قليلاً أخذوا يتاثرون بألفاظهم ونبرات أصواتهم، فإذا هم يبكون كأنهم يخضعون لأنشد الخطباء تأثيراً.

من هؤلاء الناس اختار المؤلف أشخاص قصته، وقد مثّلهم تمثيلاً قوياً، فهم يتكلمون ويتكلمون، وإذا اندفعوا في الكلام فليس إلى وقوفهم من سبيل، ثم هم ليسوا مكثرين فحسب، وإنما هم غلاة مسرفون، يتخيرون من الألفاظ أضخمها ومن الصور أشدّها عنفاً، وهم مع كلامهم متذرون حركات ليست أقل غلوًّا ولا عنفاً من ألفاظهم، ومن هنا كانت القصة لذيدة جداً في الملعب، وهي لذيدة لم يرها ولو علم بأخلق أهل الجنوب، ولكنها عسيرة جداً على من يريد أنْ يترجمها أو يلخصها، وربما كان من المستحيل أنْ يعطي المترجم أو الملخص منها صورة صحيحة، فلنجرهد في أنْ تعطيك منها صورة مقاربة إنْ أخطأك فيها ما يضحك ويسر فلن يخطئك فيها ما يؤلم ويبيعث الإشفاق.

«موريس ثريبول» رجل من أهل الجنوب بالقرب من مدينة نيس، عظيم الثروة جداً، يشرف على مصانع ضخمة، ويعُنى بالأزهار واستخراج أعطارها، له أرض واسعة قد خصصها لذلك، وهو منصرف إلى تدبير ثروته، جاد في ذلك، لا يكاد يحفل بغيره من الأشياء، وأهل بلده يحبونه فانتخبوه لهم عمدة، ثم انتخبوه عضواً في مجلس الإقليم، ثم هم يريدون أنْ ينتخبوه عضواً في مجلس الشيوخ، وهو يقبل هذا كله مع شيء من الازدراء والضحالة، ولكنه يؤدي واجباته العامة كما يؤدي واجباته الخاصة في أمانة واستقامة،

وقد تزوج من فتاة جميلة خلابة هي «شارلوت» أحبها حبًّا لا حدّ له، يوشك أن يكون إيماناً، بل قل: إنه إيمان، أما هي فتحب زوجها حبًّا قوياً أيضاً، ولكنها تشعر بشيء من السأم مصدره أنَّ حياتها الزوجية شديدة الانتظام قريبة جداً إلى العفة والقصد، حالية أو تقاد تخلو مما يحتاج إليه شبابها وقوتها وحده مزاجها، ثم هي في الوقت نفسه ضيقة الضرع بهذه الحياة المنتظمة الضيقة التي يحياها أهل الأقاليم، والتي تخلو أو تقاد تخلو من اللهو واللعب، وما يصرف النفس عن الجد من حين إلى حين، على أنها تخضع لهذا كله دون أنْ تشعر به شعوراً واضحاً، فإذا جاء الصيف في سنة من السنين سافرت مع زوجها وابنيها إلى مصطفاف في جبال «البرينيه» في مدينة من هذه المدن، التي يختلف إليها في فصل الصيف أغنياء الناس وسراتهم من كل بلد ومن كل إقليم ومن كل جنس، فهي ليست مدنًا فرنسية، وإنما هي مدن مختلطة تلتقي فيها الأجناس المختلفة والطبقات المتباينة، ويختلف الناس في هذه المدن، فمنهم من يحبها لما فيها من الاختلاط والتعاون، وما يستتبعه ذلك من الملاحظات الخلقية في نفس المفكر، ومنهم من يكره هذه المدن لنفس هذا الاختلاط، وما يستتبعه من فساد خلقيٌّ شديد.

ونحن في الفصل الأول نشهد طائفة من الفرنسيين قد جلسوا إلى «فريپول»، وهم يتحدثون في هذا، فمنهم من يذم هذه المدن ويزدريها، ويلعن الصيف الذي يضطره إليها من حين إلى حين، ومنهم من يحمدها لأنَّه يحبها؛ بل لأنَّه يجد فيها ميداناً للملاحظات الخلقية، والملاحظات الخاصة التي تشغله هي أنَّ هذه المدن تسمح لعواطف الحب بأن تظهر ولجاجات الناس إلى اللهو واللعب بأن ترضى، وقد تسمح بشيء آخر يظهر غريباً، ولكنه فيحقيقة الأمر ليس غريباً، وهو أنَّ الإنسان مهما يكن شريفاً نقياً طاهر النفس فهو في حاجة من حين إلى أنْ يختلس لذة من اللذات، تحالف الشرف والنقاء وطهارة النفس، وهذا الاختلاس ميسور في هذه المدن التي تلتقي فيها الأجناس المختلفة، ويكثر فيها اللهو، ويستمتع فيها المصطافون بضروب من الحرية لا يعرفونها في حياتهم العادية، وبينما هم يتحدثون على هذا النحو إذا أصوات ضحك ترتفع، فيلتقون فإذا نساء يضحكن من وراء الأشجار، فإذا تبينوا هؤلاء النساء وعرفوهن، فهن من أولئك اللاتي يأتين من حين إلى حين إلى هذه المدينة، يأتين يوم السبت ويُعْدَنْ يوم الاثنين ليذهبون ويلهين ويُعْدَنْ بشيء من المال، ثم تأتي «شارلوت» فتتحدث قليلاً إلى زوجها وإلى من معه، وبينما هم جميعاً يتحدثون يمر رجل على بعد فيار بعض هؤلاء المتحدثين، ثم ينتهز فرصة فينتهي مع «شارلوت» ناحية، ويحذرها من أمر تأثيره، ويوشك أنْ يجر عليها شرّاً

عظيماً، فتظهر أنها لا تفهم فيصرح لها بأنه رآها أمس وقد خرجت من غرفتها تقصد إلى غرفة أخرى وكاد زوجها يراها، فهو ينصح لها بأن تكون حذرة محتاطة، وهو لا يقدم هذه النصيحة إلا مخلصاً معذراً؛ لأنه إنما اضطر إليها اضطراراً إذ هو مشق علىها من عاقب هذا الأمر، أما هي فتغضب وترده رداً لا يخلو من عنف، وقد أنكرت كل ما زعم، ثم ينصرفون جميعاً ومعهم الزوج الذي اتفق مع امرأته على أن تلحق به في «الказينو» بعد أن ترافق ابنيها إلى غرفة النوم، ولا يكادون ينصرفون وتخلو المرأة إلى ابنيها والمربية حتى يمر ذلك الرجل الذي مر منذ حين، وإنما هو يشير إلى هذه المرأة إشارات خفية تضطرب لها، وتجيب عليها بإشارات خفية مثلاً، ثم تأمر المربية أن تقود ابنيها إلى غرفة النوم، فإذا سألها أحدهما: ألا ترافقيننا كما وعدت؟ أجابت أنها متعبة، وتنصرف المربية ومعها الطفلان.

ويبدو الرجل من «شارلوت» فإذا هو أجنبي، قوي الخلق، جميل الطلعة، حسن الزي، يتحدثان فإذا بينهما حب، وإذا مما يسرفان في هذا الحب حتى تجاوزا كل حذر واحتياط، ولكن حديثهما غريب، فبينما هو يحدثها في حرية وصراحة تكاد تشبه القحة إذا هي تجبيه في حياء وبخربوب من الإيماء، وهو ينكر منها هذا، وهي تذكر منه صراحته، ثم ينتهي بها الأمر إلى أن تصرح أياً، فإذا حبها عنيف، وإذا هي لا تفهم هذا الحب، ولكنها تحرص عليه حرصاً شديداً، وإذا هي تستطيع الآن أن تفهم ما كانت تشعر به من سأم قبل أن تلقى هذا الرجل، ذلك أن هذا الرجل يعرف كيف يرضي النساء، وهي تذكر له هذه الجملة التي تختصرها اختصاراً صحيحاً، وهي أنه يقبلها قبلًا ليست مسيحية في حين أن قبلات زوجها طبعاً مسيحية خالصة، ويريد الرجل أن يضرب معها موعداً، فتأتيه وتلح في الإباء، ويلح الرجل، فإذا عرف منها الإصرار أظهر شيئاً من ضيق الصدر ومن اليأس فتسأله، فتفهم منه قليلاً قليلاً أنه سيء الحظ؛ لأن أباه قد أبطأ عليه في إرسال النقود، وقد حاول أن يقترض فلم يوفق، وهو في حاجة إلى مقدار من المال قليل، ولكن هذه أشياء لا قيمة لها، وما كان ينبغي أن تحدث إليه فيها، ولكنك تطالبيني بالصراحة، فلا أستطيع أن أخفى عليك شيئاً، أما هي فقد ساءها ذلك، وأخذت تكلمه بصوت كأنه يأتي من بعيد قائلة: لو أنّ عندي ما تحتاج إليه لما ترددت في أن أدفعه إليه، ثم يريده أن يقبل يدها، فإذا فيها خاتم قد استوقف نظره، وأحسست هي بذلك وفهمته فتعرض عليه الخاتم، ويتأبه قليلاً ثم يرضي على أن يرده إليها غداً، فهو سيظهره لصائغ يريد أن يقترض منه ما يحتاج إليه، أخذ الخاتم وانصرف، وإذا المرأة مضطربة محزونة قد سقط

في يدها؛ لأنها عرفت أنَّ هذا الرجل الذي تحبه وتخون زوجها وابنيها وأسرتها وماضيها بين ذراعيه ليس إلا محتالاً، وهي في ذلك إذ يقبل زوجها، فإذا هي تنحني إلى الأرض كأنها تبحث عن شيء، فإذا سألتها أنبأته أنها افتقدت خاتمتها، فهي تبحث عنه، فينحنى ومعه صديق ليبحثا عن الخاتم أيضًا.

إذا كان الفصل الثاني، فنحن في جنوب فرنسا في بيت «شارلوت» والقوم إلى مائدة الغداء، وقد أقبل رجل موظف في المحكمة يقال له «باريزو»، فتحدث إلى صاحب البيت حديثاً تفهم منه أنه مدین لصاحب البيت بشيء من المال، ولكنك تفهم أيضاً أنَّ الكاتب إنما أظهر لنا هذا الشخص؛ لأنَّه سيحتاج إليه بعد حين، ويقبل القوم فإذا «شارلوت» قد تغيرت، فأصبح وجهها شاحباً ونالها شيء من الضعف كثير، وأخذ زوجها يخشى عليها العلل والأمراض، ذلك أنها مرضت في المصطاف وتعجلت العودة، وكانت تريد أنْ تتمكث شهرًا، فلم تتمكث إلا أياماً قصاراً، وهي منذ عادت مضطربة عصبية تألم لأقل شيء، وتظهر عليها آثار حزن عميق، واضطرابها في هذا اليوم شديد بنوع خاص؛ ذلك لأنَّ زوجها تسلم كتاباً من رجل يقال له: «ا. تاميزو» لقيه في المصطاف، وهذا الرجل يريد أنْ يتحدث إلى صاحب البيت حديثاً خاصاً، وقد قبل الزوج وضرب للرجل موعداً بعد نصف ساعة، وهذا الرجل هو صاحبنا الذي رأيناه في الفصل الأول عاشقاً محتالاً، عرفت «شارلوت» هذا، فهي تكره هذا اللقاء بين الرجلين، وتريد أنْ تمنعه، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

لقد عرضت على زوجها أنْ يخرج معها للنزهة، فاعتذر لأنَّه ضرب موعداً لهذا الرجل، وهو لا يريد أنْ يخلف هذا الموعد، ثم يئست من إقناعه، فأوتحت إلى الخادم أنْ تقبل مسرعة فتنبيء سيدها بأنَّ رجلاً من الذين يعملون في أرضه قد سقط فانكسرت ساقه، وهي تريد أنْ يسرع زوجها ليعود هذا المريض؛ لأنَّه عود رجاله الرفق بهم والعطف عليهم، فإذا أقبلت الخادم فأنبأت سيدها هذا النبأ أظهر عناء وهو يريد أنْ يعود المريض، فتبتهج زوجه؛ لكن الرجل يذكر الموعد، فيعدل عن الخروج، ويرسل إلى المريض من يسأل عن أنبائه ريثما يستطيع هو أنْ يذهب لعياته، فتعود «شارلوت» إلى ما كانت فيه من يأس واضطراب، حتى إذا خلت إلى زوجها تلطفت له، وأخذت تداعبه حتى تضطره إلى مكتبه، وتكلفه عملاً من الأعمال فيقبل، وترجع هي فتغلق المكتب وتحكم إغلاقه، وكل همها أنْ تلقى هذا الزائر لحظة قبل أنْ يرى زوجها، وقد دق الجرس، فاضطربت وأسرعت تريد أنْ تلقى الزائر، وسمع زوجها دقة الجرس، فأسرع يريد أنْ يلقى الزائر ولكن الباب مغلق،

فهو يدعو زوجه ويلح في الدعاء، أما هي فكأنها لا تسمع حتى يدخل الزائر، فإذا هو رجل آخر هو صديق من أصدقاء الأسرة، هو الذي كان يبحث معها ومع زوجها عن الخاتم في الفصل الأول وأسمه «جانتييه»، هو طبيب شاب يعمل في المدينة، وقد أقبل يزور أصدقاء، ففتح «شارلوت» لزوجها بباب المكتب، وتعذر بأنها أغفلته خطأً ويفهم هو هذا، أليس امرأته مريضة مضطربة منذ عادت من المصطاف، وهو يستشير صديقه الطبيب، وقد دخلوا جميعاً إلى حيث «البيانو»، وأخذت «شارلوت» توقع عليه؛ لتنسي نفسها ما هي فيه من خوف واضطراب، وقد دق الجرس وأقبل الزائر المنتظر، فهي تمعن في الإيقاع على البيانو كأنها لا تريد أن يراها، ولكن زوجها يدعوها، فتلتفت فإذا صاحبها يحييها، وإذا هي تحبيه وقد انصرف الرجل مع صاحب البيت إلى مكتبه ليتحدثا.

أما هي فقد ظلت مع صديقها «جانتييه»، فلا تكاد تخلو إليه حتى تفقد صبرها واحتياطها، فتقصر عليه كل شيء، وتتبئ بأن هذا الرجل المحتال كتب إليها مرات يطلب إليها نقوداً، فأرسلت إليه خوفاً وذعرًا، ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد فقد تسلمت اليوم كتاباً من الصائغ يتبئها بأن هذا الرجل قد طلب منه لحسابها مقداراً ضخماً من المال، وهو يطلب هذا المقدار، ولا شك في أنَّ هذا المحتال قد أقبل اليوم ليقص كل شيء على الزوج؛ لأنَّه يريد أنْ يستفيد من هذه القصة، ويأخذ ما يحتاج من مال، أما صديقها فقد جزع لهذا، ولكنه لا يريد أنْ يضيع الوقت، فهو يريد أنْ يخلاص هذه المرأة وشرف الأسرة، وقد أخذ منها الكتب التي تسلمتها من هذا الرجل ومن الصائغ، واستخلفها أنْ تحفظ بهدوئها، وانصرف إلى وكيل النيابة يريد أنْ يظهر على كل شيء ليأمر بالقبض على هذا المحتال، وهو واثق بأنَّ وكيل النيابة سيحترم سر المهنة وشرف هذه الأسرة، وقد انصرف الشاب وخلت «شارلوت» إلى نفسها، وهي مضطربة أشد الاضطراب لا تستقر في مكان ما تزيد أنْ تعلم بمم يتحدث الرجلان من وراء هذا الباب، ولا يطول انتظارها، فقد فتح باب المكتب، وخرج الرجلان يتحدثان في هدوء، وصاحب البيت «يقول لزائره: ... إذن فجداً الساعة الثانية ...» ثم يقبل الزائر إلى «شارلوت» فيحييها وينصرف، أما زوجها فقد جلس مفكراً، وأخذت هي تسأله والهة مختلفة الهدوء عن هذه الزيارة وما كان فيها من حديث، فيجيبها بصوت فيه شيء من الذهول: إنَّ هذا الرجل قد حدثه فيأشياء غريبة جداً، فيزداد لذلك اضطرابها، فإذا ألحت على زوجها أنهاًها بأنَّ الزائر تحدث إليه في أمور تجارية غريبة فيها أرباح غير مألوفة، فتطمئن، ويخرج زوجها ليعود المريض الذي مر بك ذكره آنفًا.

ولكن هذا الزوج لا يكاد يخرج حتى تدخل الخادم، فتنبئ سيدتها بأن هذا الزائر الذي انصرف منذ حين قد عاد يقول: إنه نسي شيئاً، ويريد أن يتحدث به إلى السيدة لتعيده على زوجها متى رجع، فتتردد «شارلوت» ثم تأذن له وهنا موقف مؤثر جداً، ذلك أنَّ هذا الرجل المحتال لا يكاد يظهر أمام صاحبته حتى تلقاء لقاء منكراً، فتسأله أي مقدار من المال يريده هذه المرة، وإذا الرجل لا يريد مقادير من المال قليلة ولا كثيرة، وإذا هو قد تكلَّف هذه الزيارة وتتكلَّف هذا الحديث التجاري الذي انتعله للزوج ليخلو إلى هذه المرأة لحظة لأنَّه يريده أنْ يكلِّمها، وهو يريده أنْ يثبت لها أنه يحبها حقاً وأنَّه أحبها جسماً لا عهد له به من قبل، ولكنه يعلم حق العلم أنها لن تصدقه؛ لأنَّه جنى جنایات واقترف آثاماً ليس من شأنها أنْ تحمل الناس على تصديقه إذا ذكر الحب وما إلى الحب من أخلاق الرجل ذو الطبع الكريم، أليس قد استفاد من حب هذه المرأة إياه، فتحدث إليها في فقره وبؤسه، وذلك شيء لا يتحدث فيه العاشقون إلى عشيقاتهم! ثم هو لم يكتف بذلك، أليس قد طلب إليها شيئاً من المال! أليس قد أخذ خاتمتها ليرتهنَّه في سبيل المال! أليس قد كتب إليها يقترض منها المال! ثم أليس قد افترض باسمها مقداراً ضخماً! ثم أليس متهمَا الآن بالاحتيال، ويوشك أنْ يقف بين يدي القضاء! وإذا كان قد تلوث بكل هذه المخزيات، فكيف يستطيع أنْ يذكر الحب أو يتحدث فيه! ومع ذلك فقد أحب مخلصاً وما زال يحب مخلصاً، وهو ليس محتالاً ولا محترفاً هذه الصناعة، وإنما هي الحياة وظروفها، تضطر أشد الناس طهارة وأعظمهم من الشرف حظاً إلى أنْ ينحط من منزلته، ويدنس نفسه قليلاً حتى يزول الفرق بينه وبين الذين اتخذوا الاحتيال مهنة، وعاشوا من اقتراف الآثام والدينيات!

نعم! أحب هذه المرأة وهو يحبها، ولم يأتِ ليتحدث إليها في الحب، وإنما أتى لينقذها من خطر يتعرض له شرفها، فقد يقبض عليه من وقت إلى وقت، وقد يوقف أمام القضاء، وعنه كتب من هذه المرأة وعنه صورتها وعنده هدية منها، وهو يريده أنْ يرد إليها هذا كلَّه، وأنْ يرده إليها يداً بيد، وأنْ يعتذر لها كما يستطيع الإنسان أنْ يعتذر عما جنى عليها من إثم، وقد دفع إليها الكتب والصورة والهدية إلا كتاباً واحداً هو أول كتابها إليه، فهو يريده أنْ يدفعه إليها، ولكنه يريده أنْ يقرأه للمرة الأخيرة، فهو لم يقرأ في حياته كتاب حب لهذا الكتاب، وربما كان رد هذا الكتاب إلى صاحبته أعظم ضحية ضحي بها في حياته، وهو يقرأ الكتاب ثم يرده، ويسألهما أتصدقه الآن! فتجبيه مضطربة أنها تكاد تصدقه، ثم يريده أنْ ينصرف فيسألها: أما تزالين تمقتيني؟ فتجبيه: بل أنا أرضي لك.

ثم يودعها فتبسط يدها له حتى إذا دنا منها مغبظاً يريد أن يقبل هذه اليد المبوطة، بدا لشارلوت فقبضت يدها، وانصرف الرجل كثيراً محزوناً على ألا يراها بعد اليوم، وعاد صديقها الذي ذهب إلى وكيل النيابة ينبئها أنَّ الأمر قد تم على ما أراد، فسيقبض على المحتال مساء اليوم، وقد أخذ وكيل النيابة الكتب ووعد باحترام السر، فلا تكاد تسمع هذا حتى يجن جنونها، وكانت قد نسيت هذا كلَّه، وهي الآن لا تريد شرًّا بهذا الرجل، وإنما تشعر بأنَّها مدينة له، أليس قد رد إليها كتابها وشرفها ففيهم القبض عليه؟ وهو معرض للسجن وللقضاء، ولكن من جهة أخرى غير جهتها، فلتسرع إلى وكيل النيابة ترجو منه ألا يعرض لها هذا الرجل بالأذى، وهي تسرع فتتذرع معطفها وقلنسوتها، وصاحبتها حائز مبهوت لا يسمع إلا هذه الجملة، لقد انتهى كل شيء! لقد انتهى كل شيء!

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضى حين على هذه الحوادث، ونحن في بيت «شارلوت»، وهي تتحدث إلى «باريزو» ذلك الموظف في المحكمة، وقد فهمنا من حديثهما أنَّ صاحبنا المقبوض عليه وهو متهم بالاحتياط والتزوير، اتهمه بذلك الصائغ، وهو بين الاثنين: إما أنْ تذهب «شارلوت» فتؤدي شهادة دعيت إليها، وإذن فالرجل مبرأ، وإما ألا تذهب وإذن فالرجل مقضي عليه، وهي متدردة بين الوفاء لهذا الرجل الذي وفيها وبين الإشافق على شرفها، فهي تخشى أنْ تذهب لتتأدية الشهادة في باريس أنْ يعرف أمرها ويُذكر اسمها، وإنْ فهي النازلة، وقد جهل زوجها وأبناؤها كل شيء؛ وهي تخشى أنْ يعلموا، هي متدردة، ولكنها مع ذلك أميل إلى تأدية الشهادة، فقد وعدها وكيل النيابة بأنَّ شهادتها ستكون سريعة، قد كتب في ذلك إلى باريس وُقِيل طلبه، فهي تستطيع أنْ تشهد آمنة وستشهد، فقد احتالت حتى أرسلت إليها صديقة من باريس رسالة برقية تنبئها فيها بأنَّ أمها مريضة، وإنْ فهي مضطرة إلى السفر إلى باريس، وقد أبدأت بذلك زوجها وأسرتها، وستسافر بعد حين، وقد استقر رأيها على ذلك، فتحدثت به إلى وكيل النيابة بالتليفون، ولم تكن تفرغ من حديثها حتى يقبل زوجها، فتحدث إليها في أمر هذا السفر قليلاً، ثم تركه مع «باريزو» لتم استعدادها للسفر، فلا يكاد يخلو الزوج إلى «باريزو» حتى يظهر عليه غضب شديد، فهو يسأل «باريزو» عن معنى هذه الزيارة، وممَّا يتتكلف «باريزو» من المعاذير فهو لا يصدقه، وهو يعلم أنَّ في الأمر سرًّا، وهو يريد أنْ يعرف هذا السر، وقد أحس هذا منذ أيام، وبحث حتى علم أنَّ شيئاً غريباً يدبر من حوله، فزوجه كاذبة فيما تتحل من العذر لسفرها إلى باريس، فليست أمها مريضة، ولديها في باريس، وإنْ فلا بد من أنْ يعرف هذا السر، وهو يتهم زوجه بالخيانة، ويتهمن «باريزو» بالتوسط بينها

وبين من تحب، وما يزال بهذا الرجل ينذره ويوعده حتى يضطره إلى أن ينبعه بالحق بعد أن أقسم ليحتفظن بالسر، وقد قص عليه «باريزو» كل شيء، فإذا الزوج مجنون أو أكثر من الجنون.

يجب أن تذكر ما قلت لك في الفصل الأول عن أخلاق أهل الجنوب من الفرنسيين، فقد بلغت هذه الأخلاق عند هذا الرجل طورها الأقصى في هذه اللحظة، فلم يمتنع وجهه، ولم تظهر عليه آثار الغضب، وإنما اضطرب دمه وغلا حتى يكاد يخرج من عينيه وإذا هو كله متجر، وإذا لسانه منطلق بأشنع الألفاظ، وإذا صوته قد بلغ أقصى ما يمكن أن يبلغ من ارتفاع، وإذا هو يريد أن يبطش بمخبره، وإذا هو يريد أن يحث في يمينه، ويقسم ليجمعن أهل البيت جميعاً وفيهم الخدم وفيهم أمه وابناه ثم ليطردن الشقيقة أمام هؤلاء الناس جميماً، وقد أسرع إلى الأبواب ففتحها، وأسرع إلى مخبره دفعاً، وأخذ يصبح بأعلى صوته يميناً وشمالاً: «إلى إلّا تعالوا جميماً!» فيقبل أهل البيت كافة مذعورين يخشون حدثاً عظيماً، أقيبلون ويستتبئون فلا يجيئهم، وإنما يدعوه، ويدعوا وينادي امرأته، فتقبل متباطئة وكأنها قد أحست شيئاً، فإذا نظرت إلى زوجها من أعلى السلم ورأت صورته الغريبة وشكله الجنوني استيقنت أنه قد عرف كل شيء، فانحلت قواها وأصابها يأس ليس بعده يأس، قد قتل نفسها وظهرت آثار ذلك على وجهها، فهي جثة تمشي، وزوجها ينظر إليها فلا يزيده ذلك إلا اضطراباً وثورة، ثم يهم بالكلام وإذا لسانه يتعدد في فيه دون أن ينطق، ثم إذا هو مضطرب كله من أسفله إلى أعلى، فقد أخذت ذراعاه تهتزان في الفضاء اهتزازاً متصلًا، ثم انطلق لسانه بهذه الكلمات يقولها مشيراً إلى ابنه: «الأمر أنَّ هذا الغلام قد أساء السيرة في المدرسة حتى اضطر ناظرها إلى تردد.»

قال ذلك ثم هدأ، أما ابنه فلم يهدأ وإنما يجهش بالبكاء، بالبكاء لأنَّه مظلوم، فلم يسِّي سيرة، ولم يطرد من المدرسة، ولكن أبياه يغليظ له في القول، ويأمر به فيقاد إلى غرفته، ثم يصرف الخدم دهشين، ويرجو أنه أنْ تذهب فتهون على الغلام، وقد هدأ روع امرأته قليلاً، فأخذت تهدئ زوجها، وتذكر عليه اضطرابه لأمر يسير كهذا، وأخذ هو يتعلل ويعتذر بأنَّ القسوة لازمة للتربية هذا الطفل، ثم يذكر سفر امرأته ويلفتها إلى أنَّ موعد القطار قد آن، وتحاول أنْ تبقى لتخذقطاراً آخر، ولكنه يأبى وكأنه يدفعها إلى السفر دفعاً، فإذا انصرفت أقبلت أمه تلومه على العنف في غير موضع للعنف، فانتظر إلى هذا الرجل القوي العنيف قد ضعف ورقَّ، حتى كأنه طفل في الثانية عشرة قد ألقى بنفسه بين ذراعي أمه وهو يبكي بكاءً شديداً.

فإذا كان الفصل الرابع فقد مضى يومان على ما ذكرت لك، ونحن في بيت شارلوت وزوجها يستقبل مبتسماً مبتهجاً أطفال القرية وقد أحيا لهم عيداً، فهم فرجون وهو يتتكلف الفرح، وأمه كذلك والناس من حوله يسألونه عن «شارلوت»، فينبئهم أنها ستصل بعد حين، وقد ذهبت العربة إلى المحطة لتنظرها، ثم يخلو إلى أمه حيناً فيتحدثان فإذا هو قد فكر ورُوَى، وإذا هو قد افتتن بأن الخير إنما هو في أن يظل محتفظاً بسره وأنه قد جهل كل شيء، أما أمه فلا ترى هذا الرأي، وإنما ترى طرد البائسة الشقية، ولكنه يهون عليها ويترضاها، ويدرك أنه في أيام شبابه رأى فتاة بائسة أغواها شاب مفسد ثم تركها، وأنه رق لهذه الفتاة، وأخذ يعزيها، ثم تجاوز العزاء إلى شيء آخر، ثم اجتهد حتى وجد لهذه الفتاة زوجاً، ثم مضى على زواجهما سبعة أشهر ورزقت غلاماً، فمن يدرى لم هذا الغلام! وبينما هو يحدث أمه هذا الحديث إذ هي مبتهجة أول الأمر، وأي شيء في هذا؟ أليس يدل على أن ابنها كان جميلاً بارغاً يستطيع أن يغرى النساء وأن يخبلهن، وكيف لا تبتهج أم لشيء كهذا؟ فإذا وصل إلى أمر الغلام والشك فيه انتهت أمه انتهاراً، أليس يسرف في الشك والتحرّج؟!

ولكن هذه المرأة البائسة في البيت الآن ومعها طفلها، وقد دعاها الرجل فأقبلت ومعها الغلام في السادسة من عمره، وأخذت العجوز تتحقق في الطفل، وكأنها قد رأت فيه ملامح ابنتها، فانصرفت مغضبة مسروقة تهمهم، وخلا الرجل إلى صاحبته القديمة، فيكون بينهما حديث مؤلم ولكنه بريء لذين، ثم يسمع ضجة وينبه منبه أن المدير قد أقبل يزوره، فإذا دخل المدير فهمنا من حديثهما أن الناس قد عرفوا ما كان من أمر امرأته، وأشارت إليه صحف المدينة، وأن الأمر قد أصبح خطراً فقد ينتهي إخفاق صاحبنا في الانتخاب، وقد أقبل المدير يطلب إلى هذا الرجل أن يجتهد في إصلاح هذا الأمر، فهو مرشح لمجلس الشيوخ، وهو مرشح من قبل الحزب الجمهوري الذي في يده الحكم، وقد أوصى الوزير بمساعدته، ووعد المدير وعداً حسناً إن أفلح، ولكن خصومه الملكيين أقوىاء، وهم ينتهزون هذه الفضيحة، فالسبيل هو أن يبرئ امرأته أو يطردها، ولكن الزوج قد غضب لهذا الحديث، فهو لا يريد أن تتدخل السياسة ولا الانتخابات في حياته الخاصة إلى هذا الحد، وهو يجيب المدير جواباً عنيفاً، ويعلن إليه أنه منسحب من الانتخابات، مستقيل من منصب العمدة ومن مجلس الإقليم.

ثم تقبل امرأته فيتقاها ابناها لقاءً حسناً، ويتكلف زوجها وأمه هذا اللقاء، ولكنها لا يفلحان، ولا تقاد المرأة تخلو إلى زوجها حتى تتبين أنه علم كل شيء، وأنه يحاول

إخفاء الأمر فلا يفلح، وإن فهي خائنة بين يديه تعترف وتطلب أنْ يقتلها، وهي جزعة قد بلغ الجزع منها أقصاه، ولا سيما وهي متعبة، قد أمضت ليالي ثلاثة لم تتنم، فهي لا تستطيع شيئاً، ولا تحتمل شيئاً، وقد ألقت نفسها على الوسائل تبكي وتنتحب، وأخذ زوجها يتحدث إليها في عنف ولو تم شديدين، ثم أخذ صوته يرق شيئاً فشيئاً، ويدرك ما كان من أمر المدير، وما كان من استقالته وعدوله عن الانتخاب، ويدرك أنه لا يستطيع الآن أنْ يعفو، ولكنه أحبه حباً شديداً، فسيهجرها حتى تسمح الأيام بالعفو والنسيان، ويتحدث إليها بذلك كله في صوت رقيق فيه شيء من الضعف والإشراق والرحمة، ولكنه ينظر إليها فإذا هي مغرقة في النوم لأنَّ هذا الحديث قد هدأ من لوعتها شيئاً، وغلبها الإعياء فنامت.

وتبيَّن هو ذلك فأخذه غضب شديد، فهو يهجم عليها يريد أنْ يحطمهما، ولكن ذراعه تسقط وتتمر على وجهه ابتسامة مرة.

«بينما أنا أحلق في الملا الأعلى أذكر العفو إذا هي نائمة، كذلك تجib الحياة»، ويدخل الطفلان مبتهمين يدعوان أمهما، يريدان أنْ يشكرا لها ما حملت إليهما من باريس، فيشير إليهما بالصمت أنَّ أمكما نائمة فدعاهما تنم.

مارس سنة ١٩٢٤

الإغراء بالرحيل

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «جان جاك برنار»

لست أدرى أتعجبك هذه القصة! ولكنني أعلم أنها قد أعجبتني، وربما كان لفظ الإعجاب دون ما أريد أن أقول، أعلم أنني فترت بها، فقرأتها مرتين، وقلما أقرأ القصة مرتين، أعجبتني هذه القصة، وأنا مع ذلكأشك في أنها ستعجبك، إني لم أعودك تحليل قصص تشبهها، وإنما عودتك ضرباً آخر من القصص، ليس بينه وبينها شبه قليل ولا كثير، ولم أتعدم ذلك تماماً، وإنما اضطررت إليه اضطراراً، فلست أعرف فيما قرأت من القصص التمثيلية على كثرته قصة تشبهها أو تقاربها، وما كنت لأخترع هذه القصص اختراعاً، ولقد كنت أتشوق إلى هذا النحو من القصص التمثيلية، ولكنني لا أجد إليه سبيلاً، حتى وصلت هذه القصة في آخر أعداد «الأستراسيون» فقرأتها، وقرأتها مرتاحاً إليها مشغوفاً بها، كما يرتاح الإنسان إلى شيء تمناه وظفر به بعد طول التمني وشدة الرجاء.

على أنني بينما كنت أقرأ هذه القصة تذكرت قصة أخرى، حدثك عنها في السنة الماضية، ولم تذكرها إلا لأن هناك شيئاً حملني على أن أذكرها إلا لأن هناك شبيهاً قليلاً بين القصتين، وتذكرت قصة «الحب» للكاتب الفرنسي «بول جيرالدي»، ولكنني لم أكذب أمعن في الموازنة بين القصتين، حتى وجدت الشبه قليلاً مسرفاً في الضالة، ففي قصة «الحب» رقة، وفيها رفق، وفيها ثقة متصلة بين الزوجين، ولكن القصة التي نحن بيازائها اليوم ليست إلا رقة ورفقاً وثقة، لا يكاد بل لا يظهر فيها عنف ولا غلطة، ولا يكاد يبدو فيها الشك، في قصة «الحب» رقة ورفق، ولكن فيها عنفاً شديداً، فيها جهاد بين العواطف، وفيها اصطدام بين الشهوات، وفيها حرب قوية عسيرة بين رجلين، أما هذه القصة التي نحن

بإزائها فلا تكاد ترى فيها شيئاً من هذا، أو قل: إنك ترى فيها هذا كله ولكن من بُعد، لا تراه بل تلمحه، لا تحسه بل تتخيله تخيلًا، ولعلك تفرضه فرضًا في بعض الموضع، أتشعر الآن بما تمتاز به هذه القصة؟ أتشعر الآن بالسبب الذي يحملني على أن أشك في أنَّ هذه سترضيك؟ أشك في ذلك؛ لأنَّ هذه القصة عسيرة صعبة، فيها دقة ليست بعدها دقة، أو هي كلها دقة، فأنت في حاجة حين تقرؤها إلى أن تكون فارغ البال، شديد الالتفات إلى الدقائق، حريصًا على أن تقرأ بين السطور، وعلى أن تفهم من اللفظ أكثر من معناه أحياناً، وأقل من معناه أحياناً أخرى.

هذه القصة تمثل الظرف والتألق في الفن وربما دل لفظ «الظرف» و«التائق» على شيء أكثر مما أريد، فتصور رجلاً تحضر وأمعن في الحضارة حتى انتهي إلى أقصى ما يمكن أنْ ينتهي إليه من رقة ولين وظرف، كذلك الأمر في هذه القصة، نشعر بأنَّ الفن قد رق فيها ولطف وأسرف في اللطف حتى انتهي إلى أقصى ما يمكن أنْ ينتهي إليه، فالرمز والإيماء فيها أكثر من التصريح، بل لا يكاد التصريح يوجد فيها، ومن هنا قال بعض النقاد: إنَّ هذه القصة لا تصلح للتمثيل، وإنما تصلح للقراءة، لا تصلح للتمثيل؛ لأنَّها أرق وأدق من أنْ تمثل، وهي أرق وأدق من أنْ تفطن لها جماهير النظارة، وأرى أنا أنها إذا كانت لا تصلح للتمثيل فهي لا تصلح لأنْ يقرأها الناس جميعاً، وإنما يتاح فهمها وذوقها بنوع خاص لطائفة من المترفين في الفن، ومن هنا تفهم أيضاً قول بعض النقاد: إنَّ الكاتب تجاوز في قصته هذه التمثيل إلى الشعر والموسيقى، فهو لا يتحدث إليه بلغة الملعب، وإنما يتحدث إليك بلغة الشعر والموسيقى، وبلغتهما حين يناغيان النفس ويهمان إلى الضمير، هي على هذا كله قد أعجبت الناس، فنالت فوراً عظيماً في باريس، وكاد يجمع النقاد على الثناء عليها، وليس هذا يدل على شيء أقل من رقي الأذواق ورقة العواطف في تلك المدينة، التي يزهو فيها هذا الفن الأدبي على اختلاف ألوانه وضروبه.

نحن في إقليم من أقاليم فرنسا في «الفوج»، يمثل لنا المسرح حجرة تكاد مستديرة ساذجة الأثاث، ولكن نوافذها كثيرة جدًّا، تكاد تشغل كل جدرانها، ومهما تنظر فلن تقع عينك وراء زجاج النوافذ إلا على غابة ضخمة بعيدة المدى يقصر دونها الطرف، أما الغرفة فهي مكتب، وفيها البيانو، وفيها مائدة صغيرة، وقد نسقت الأزهار على البيانو والمائدة، أما المكتب فقد كثرت عليه الأوراق المختلفة، وفي ناحية من نواحي الحجرة موقد أمامه كراسٍ ثلاثة، وقد جلست إلى البيانو امرأة في الخامسة والعشرين من عمرها، هي «ماري

لويز» بنت «لاندرو» صاحب هذا البيت وهذه الغابة وهذا المصنوع الذي يلمح على بعد، وزوج «أوليقيبيه» الذي شارك أباها في الإشراف على هذا المصنوع وفي تدبير هذه الثروة الضخمة، جلست إلى البيانو وهي تلعب قطعة موسيقية معروفة، وتلعبها متأنثة تأثيراً شديداً، ثم يضعف اللعب قليلاً قليلاً حتى كأن النغم يموت تحت أصابعها، وقد انقطعت عن اللعب وظلت في مكانها مفكرة كأنها في حلم، وإذا الساعة تدق السادسة، وإذا صفير يسمع على بعد من المصنوع مؤذناً بانصراف العمال، وهي في مكانها مفكرة مغرقة في التفكير، ثم يسمع صوت رجلين يتحدثان، ويرى هذان الرجلان يمران خارج الغرفة كأنهما مقبلان إليها، هذان الرجلان الشيختان هما «لاندرو» صاحب البيت، وصديق له من أصحاب المصانع الكبار في شمال فرنسا، أقبلاً ودخلوا الحجرة، وصاحب البيت يظهر صديقه على كل شيء في البيت وفي المصنوع وحول البيت والمصنوع، وهو بهذا كله فخور معجب، يذكر الأشياء يضيفها إلى نفسه، فيقول: بيتي ومصنعي وحديقتي وغابتي، حتى يصل إلى ابنته فيقول: ابنتي، ويصفها وصف المعجب بها، يقدمها إلى صاحبه فينحني أمامها الشيخ انحناء الإجلال، أما هي فتلقى الرجلين لقاء لا يخلو من أدب، ولكن فيه فتوراً ظاهراً، وتقبل أختها «جاكلين» فيقدمها أبوها إلى صاحبه على نحو ما قدم أختها، ثم ينصرف الرجلان إلى حيث يتناولون شيئاً من النبيذ قبل أن ينصرف الضيف، وتبقى الأختان، وقد فهمنا من حديث القوم أنَّ في البيت ضيقاً آخر شاباً حسن الطلعه جميلاً غنياً، أبوه من كبار التجار في باريس، قد اتصلت المعاملة بينه وبين أصحاب هذا المصنوع، وقد أرسل ابنه فيليب ليقيم أشهراً عند هؤلاء الناس يختلف فيها إلى المصنوع ليفهم عمله، وكذلك تعود هذا الرجل أنْ يرسل ابنه في جميع المصانع التي يعاملها، حتى إذا آلت إليه تجارة أبيه كان متقدناً لعمله حسن الفهم لمعامليه.

ولا تقاد الأختان تتحدثان حتى تشعر بأنَّ بينهما فرقاً عظيماً جداً، أما الكبار فضيقية الصدر بكل شيء، ضيقية الصدر بما ترى، ضيقية الصدر بما تسمع، ضيقية الصدر بما يحس، لا تقاد تسمعها حتى تفهم أنها سجينه تريد أنْ تخلص من سجنها، وقد يئست من الخلاص فهي مستسلمة للحياة في سأم وضجر، وهي لا تذكر أباها دون أنْ يظهر عليها هذا السأم، أليس أبوها قد ذكرها لصاحبها منذ حين بنفس الطريقة التي ذكر بها البيت والمصنوع والحدائق، ثم هي تنظر من النافذة فلا ترى إلا شجرًا، فإذا أبعدت طرفها لم تر إلا شجرًا، فإذا أدارته لم تر إلا شجرًا، فهي تسام هذا الشجر كما تسام البيت، وكما تسام عشرة من فيه، فإذا ذكرت أختها لها زوجها ذكرته في رقة ولين، وشعرت أنها تحبه

حبًا شديداً وأنه يحبها حبًا جمًا، وأما أختها الفتاة فراضية مطمئنة مبهجة بالحياة، تعطف على أبيها عطفاً شديداً، وتب به وبأمها برأًّا عظيمًا، وقد أقبلت تدعو أختها للعب الكرة؛ لأن «فيليپ» ينتظرهما في ميدان اللعب، فترفض أختها ضجرة متبرمة، وتتسخر من فيليپ ومن جماله ومن ظرفه، وتقول: إنها لا ترى في هذا البيت إلا قوماً يصنعون الحديد، ويعكفون على صناعته، فأبوها وزوجها منكبان على صناعة المسامير، وهذا الزائر الذي مر منذ حين عاكف على صناعة كصناعة المسامير، وهذا الشاب فيليپ أقبل ليりى كيف تصنع المسامير، وسيعود إلى باريس لبيع المسامير، وكل شيء في حركاته يذُر بالمسامير، فهو إذا أراد أن يقذف بالكرة مثل رجل يدق ليصنع المسمار، وهو إذا أنشد الشعر كان صوته وإن شاده كهذا الصوت الذي تسمعه لأداة من أدوات المصانع، وهي ضيقه الصدر بهذا كله، على أنها لا تنكر أنَّ في هذا الشاب رقة وأدبًا وظرفًا، فقد ذهب إلى المدينة منذ أيام وعاد يحمل إليها وإلى أختها هدايا، أهدى إليها مروحة لا تمثل حسن الذوق الفني، ولكنه فكر في أن يهدي إليها مروحة، وأهدى إليها كتاباً هو ديوان «بودلير»، وفي الحق أنها لا تحب «بودلير» ولا تفهمه؛ لأن فيه غموضاً وتعمقًا وتعقيدًا، وإنما تؤثر عليه شاعرًا آخر هو «شينيه» غير أنها تعرف بأن هذا الشاب لم يكن يستطيع أن يعلم ذلك من نفسه، فيكتفي أنه فكر في أن يقدم إليها كتاباً، والغريب من أمر هذا الشاب أنه متى انتهى العشاء أقبل مع زوجها إلى هذه الحجرة، فجلسوا جميعاً إلى المواقد وطالت بهم الجلسة، والرجلان يتحديثان ويمزحان حتى يأخذها هي النوم فتستأنن وتنصرف، ولا يفكر زوجها في أن يختصر هذه السهرة، وهي كانت تستطيع أن تلوم زوجها، ولكن أليس يحسن ألا تفعل والشاب مسافر بعد يومين.

هذا حديث الأختين تشعر منه بسام «ماري لويز» وضيق صدرها حتى بهذا الشاب الجميل، بل بهذا الشاب الجميل بنوع خاص، ويدخل زوجها فتلقاء لقاء العاشقة الكلفة، ولكن عندما يريد الانصراف ينبعها بأن «فيليپ» قد تسلم كتاباً من أبيه، وبأنه مسافر إلى أمريكا الجنوبية، إلى بلاد الأرجنتين، ولا تقاد «ماري لويز» تسمع هذا حتى يظهر عليها الدهش، بل شيء آخر أكبر من الدهش، شيء يشبه الذهول، ثم ينصرف زوجها، وتقبل هي إلى النافذة، ثم تلتفت فإذا شعاع الشمس يضطرب أمامها اضطراباً شديداً يكاد يأخذ بصرها، فإذا سألت أختها عن ذلك أنبأتها أنَّ فيليپ قد وقف خارج الغرفة، وفي إحدى يديه مرآة، وفي الأخرى أداة لعب الكرة، وهو يشير إليهما بهذه الأداة أمام المرأة، فتغضب «ماري لويز» وتتصحّب به تأمره أن يكف، فإذا مضى في عبته مضت في صياحها تزجره

زجراً، وأختها تدعوها إلى أنْ ترك مكانها لتلقى شعاع الشمس، ولكنها لا تحفل بأختها، وإنما تمضي في زجر الشاب وتوبخه كأنها تجد في ذلك لذة، ويُسدل الستار ثم يرفع بعد حين، وقد مضت ستة أسابيع على سفر فيليب، ونحن نرى ماري لويس جالسة في الغرفة نفسها مغرقة في القراءة، حتى إنَّ زوجها يدخل فلا تحسه، فإذا كلامها نهضت مذعورة، فإذا سألتها فيم تقرأ أجابته في ديوان «بودلير»، فيلاحظ زوجها أنَّ ذوقها سريع التغير، ألم تكن تكره «بودلير» فهي الآن تحبه، ثم يتحدثان، فتفهم أنَّ فيليب قد سافر ولم يرسل إليهما كتاباً ولا شبه كتاب، وذلك شيء يخالف الذوق، على أنَّ بطاقة قد وصلتاليوم تنبي بأنه في طريقه إلى «الأرجنتين»، وما يترك من ألم في نفس المقيم مهمما تكن الصلة بيته وبين شيء من الفلسفة في السفر، وما يترك من ألم في نفس المقيم مهمما تكن الصلة بيته وبين المسافر، وتأتي «جاكلين» فيتحدثون في أمر هذا الفتى أيضاً، وتظهر «جاكلين» صورة من صوره الفوتوغرافية فينظرون فيها جميعاً، أما «جاكلين» وأوليقييه فيريان أنها صادقة مقاربة، وأما ماري لويس فتنكر ذلك إنكاراً شديداً، وتلح في إنكارها، وتشدد الخصومة بينها وبينهما في ذلك، وتفهم من هذه الخصومة شيئاً: الأول أنَّ شخص فيليب قد اتخذ في نفس «ماري لويس» صورة غير صورته الحقيقة، صورة تقرب من المثل الأعلى؛ ولذلك تنكر الصورة الفوتوغرافية التي تمثل شخصه الحقيقي، الثاني أنها تستيقظ في حجرتها، فتحتفظ بالحجرة كما كانت يوم تركها، فما زالت الكراسي الثلاثة على وضعها أمام الموقف، وما زالت المروحة وديوان «بودلير» في مكانهما، فإذا انصرف أوليقييه، وبقيت الأختان حاولت الفتاة أنْ تغنى عابثة إحدى أغاني الجند وفيها ذكر الأرجنتين، فتغضب أختها غضباً شديداً وتزجرها، وتتصرف مغيبة، وقد فهمنا أنَّ سفر فيليب قد غير في نفس ماري لويس كل شيء، وأنَّ سخطها عليه وتربربها به في أول الفصل لم يكونا إلا ظهيراً من مظاهر الحب.

إذا كان الفصل الثاني، فقد مضى عام ونصف عام على ما قدمت، ولكن الحجرة على حالها لم يتغير فيها شيء، وقد جلس أوليقييه إلى مكتبه، وجلست «ماري لويس» إلى عمل يدوى قد عكفت عليه، وكأنها مغرقة في التفكير، وقد سألتها زوجها ماذا تصنع، فلم تجب؛ لأنها لم تسمعه، ثم مضى حين فسألت زوجها وكأنها لا تفكر فيما تقول: ماذا يصنع؟ فيجيبها أنه يرتب أوراقه، ولكنها لم تفكر في سؤالها، ولم تنتظر له جواباً، فهي لم تسمع زوجها حين كان يكلمها، فإذا فرغ زوجها من عمله أقبل إليها يحدها في لطف ورفق،

ولكنها تجبيه في ضعف وإعياء، وكأنها قد أقبلت من مكان بعيد، وقد ظهرت عليها آثار السأم والتعب، لأن قوى خفية عملت في نفسها منذ حين طويل، فصرفتها عن كل شيء، وزهدتها في كل شيء؛ فكأنها تحيا لأنها لا تستطيع أن تموت، وزوجها يرى ذلك ويشعر به، ويحاول أن يتبعين أسبابه، ولكنه لا يجد إلى ذلك سبيلاً، هو رفيق، رقيق العاطفة، شديد الإيمان بزوجها وشرفها، فهو لا يتهمها بشيء بل لا يفرض شيئاً، وهو في الوقت نفسه لا يريده أن يسألها مخافة أن يُثقل عليها أو يؤذيها، ولكنه اليوم يشعر بأنها قد انتهى بها الضعف إلى حد بعيد، ويشعر مع ذلك بأنها مطمئنة إليه واثقة به، فهو يناديها مناجاة المحب العطوف، وهو يجرؤ فيسألها: ما بالها محزونة؟ ما بالها شقية؟ فتنكر أن تكون محزونة أو شقية، ولكن إنكارها نفسه يدل على أن حظها من الحزن والشقاء عظيم، فهي لا تقاد تسمع زوجها، وهي لا تقاد تجيب؛ لأنها لا تفهم ما يقول، ولكنه قد ألح عليها، فجمعت قواها واجتهدت في إقناعه بأنها سعيدة راضية.

أما هو فيريد أن يصدقها، ولكنه لا يستطيع، وهو يسألها: أليس قد خاب أملاها فيه؟ ألم تكن تنتظر منه غير ما تجد؟ فتلح عليه أن يترك هذا الكلام وألا يسرف في مثل هذا السخف، ويدرك هو أنها تغيرت تغيراً شديداً، لقد تزوجها طفلة وكانت سعيدة، فظلت طفلة لا تفكّر في شيء، ولا تحفل بشيء إلا بالحياة وابتسماتها، أما الآن فقد تغير هذا كله، فإذا هي كئيبة، كاسفة البال، منصرفة عن الحياة ولذاتها، ما أشد حاجتي إلى أن أعرف ما يضطرب في هذا الرأس، إنني أريد أن أجعلك سعيدة ناعمة البال، أريد أن أقدم إليك أشياء كثيرة: ثياباً، فتجبيه في ذهول: نعم! حلياً، فتجبيه في ذهول: نعم! سيارة، فتجبيه في ذهول: نعم! ويعرض عليها أشياء كثيرة متباعدة، ويعرض عليها الكتب والحفلات والسياحة وزيارة الملاعب في باريس، فتجبيه على هذا كله في ذهول: نعم! لأنها تفكّر في غير ما يقول لها زوجها، ولا تسمع إلا لهجة الاستفهام، وينتهي به الأمر إلى أن يشعر بهذا فيقول: ولكنك معنية بغير هذا كله، وينتقل الحديث إلى شيء آخر، فأخته قد أقبلت في زيارة، وستمكث أياماً وهو يطلب إلى زوجه أن تلتطف لها، وأن تقضي معها مساء اليوم، فتضيق بذلك ثم تستسلم! نعم! سأقضى معها مساء اليوم كما قضيت معها مساء أمس، وكما سأقضى معها مساء غد، فلا يزيد هذه إلا حزناً وألماً، وقد ذهبت هي إلى النافذة، فنظرت منها كأنها سجينه تريد أن تفر، ولكنها لا تجد أمامها إلا شجرًا وشجرًا، فليس لها مفر من هذا السجن، وهي تنتظر من النافذة إذ يقبل ابنها الطفل، وهو في التاسعة من عمره، فترتعى لرؤيته؛ لأنها لم تكن تنتظر أن تراه، ثم تتخذه تعلة، فتعذر إلى زوجها من الذهاب إلى أخيه، وتضرع إليه في أن يتركها مع ابنها فيفعل كارهاً.

أما هي فقد دعت ابنها فوتب إليها من النافذة وأخذت تسأله، فإذا هو يعيد دروسه في الجغرافيا، وإذا موضوع هذه الدروس أمريكا، فتسأله عن دول أمريكا الجنوبية، فيعدها حتى يصل الأرجنتين، فإذا لهذا اللفظ وقع خاص، وإذا هو قد أذهلها أو كاد، وهي مع ذلك تريد أن تسأل ابنها وأن تعينه على الإعادة، فهي تسأله عن الأرجنتين، ولكن الطفل لا يعرف أكثر من أنَّ الأرجنتين في أمريكا، وأمه مغضبة، وما فائدة الدرس إذا لم يفهم ما يقرأ، وهي تصف له الأرجنتين لا كما هي في الجغرافيا بل كما هي في خيالها، فالأرجنتين بلاد غريبة في كل شيء، وغريب ما فيها من الأشجار، غريبة سماؤها، غريب ما فيها من نبات، غريبة أنهارها تلك التي تقف على شاطئها فلا ترى شاطئها الآخر، تلك التي تتغيرألوانها بتغير ساعات النهار وتتغير الجو، فهي وردية حيناً، ذهبية حيناً آخر، وهي حيناً زرقاء، وهي حيناً رصاصية، وهي حيناً أنهار من اللبن حين يزحف على سطحها الضباب، وهي تتحدث بهذا كله لا إلى ابنها فقد نسيت مكانه بل إلى نفسها، وقد تركت ابنها وذهبت إلى البيانو، وجلست تلعب عليه قطعة موسيقية شعرها «بودلير» وعنوانها «الإغراء بالرحيل» وفيها:

أي بنיתי، أي أختي، فكري في اللذة التي نجدها حين نذهب هناك؛ لنعيش معًا،
حين نفرغ للحب حين نحب، ونموت في البلاد التي تشبهك.

وهي تلعب وتغبني هذا الشعر، وقد دخل زوجها ولم تشعر به، فإذا أهاب بها نهضت مذعورة وقد أقفلت البيانو، فيسألها: ماذا تصنع؟ فتجيبه مضطربة: كنت أعين الطفل على الدرس ثم يهم أنْ يسألها، ولكنها تتصرف مذعورة مضطربة، فيحاول أنْ يسألها، ولكن جرساً يدق هو جرس العشاء، وقد جمعت قواها، وأخذت تدفع زوجها أمامها هلم إلى العشاء، كما تعشينا أمس وكما سنتعشى غداً.

إذا كان الفصل الثالث فقد مضت دون هذا ثمانية أشهر، ونحن في ديسمبر والحجرة على حالها لم يتغير فيها شيء، فما زالت الكراسي أمام المهد، وما زالت المروحة وديوان «بودلير» على المائدة، وقد أقبلت «ماري لوizin» وأختها «جاكلين» فدخلتا تريдан الخلوة والتحدث بمعزل من الأسرة؛ ذلك أنَّ جاكلين قد تزوجت منذ حين، وأقبلت تزور أسرتها، وقد أرادت أنْ تخلو إلى أختها حيناً؛ لأنها تريد أنْ تحدثها بأمر ذي بال، وأختها تتعجلها وتلح عليها، فتنبهأ بأنها رأت فيليب، فلا تكاد ماري لوizin تسمع هذا الاسم حتى تضطرب

له اضطراباً عظيماً، فتسأله أختها: ماذا تقولين؟ تجيبها دهشة إنها تفهم ما تقول، وهو أنها رأت فيليب، رأته في مدينة «أبينان» التي تقيم فيها، رأته خارجاً من دار البريد فدهشت، وكانت معها صديقة تماشيها، فسألتها: أتعرفينه؟ وكان قد مضى ولم يرها فلم يتكلما، تسمع «ماري لويس» فلا تزداد إلا اضطراباً، وكأن حياتها كلها قد انقلبت رأساً على عقب، فهي تسأله نفسها حائرة لماذا أصنع؟ أما أختها فلا تزداد إلا دهشاً، فهي كانت تظن أنَّ ماري لويس تعنى عنية خاصة بفيليب؛ لأنَّه ترك في نفسها أثراً قوياً، ولكنها لم تكن تفرض أنَّ الأمر قد تجاوز هذه العناية إلى الحب، وهي حين كانت تدهش لهذا الحب كانت بعيدة كل البعد عن أنْ تقدر الأمر قدره؛ لأنَّ الأمر لم يكن حباً، وإنما كان شيئاً فوق الحب، كان جنوناً واضطراباً عصبياً عظيماً، فلم تك «ماري لويس» تشعر بأنَّ فيليب في «أبينان» حتى دار رأسها، وأخذت تفكير في سرعة مدهشة، ففترضت أنه لم يأت إلى «أبينان» إلا لأجلها، وأنَّه مع ذلك تعمد ألا يزورها، وتعمد ألا ينبعها بشيء من نبئه، وهو مع هذا كله ينتظرها في «أبينان» ويريد أنْ تسعى إليه، وكيف يريديك على هذا السعي وهو لم ينبع بمكانه؟

- وأي شيء يخفي في حياة الأقاليم! فهو يقدر أنَّى أعلم مكانه في أبينان!

- ولم ينبع؟

- لأنَّه يريد أنْ يمتحنني.

- ولم يريدي أنْ يمتحن وهو لم يعلن إليك حباً، ولم يتحدث إليك في غرام؟

- أنت لا تفهمين هذا، فهو يحبني ويحبني، وأنا أحبه، وإنْ كنت قد جنست جنائية فهي أنِّي شعرت بهذا الحب، ولم أشجعه على أنْ يبوح به، يجب أنْ أسعى إليه، يجب أنْ أرآه، وأنْ أقول له ما لم أقل، وأنْ أسمع منه ما لم أسمع!

أما أختها فقد رقت لها وكأنها أشفقت عليها من الجنون، فتعرض عليها أنَّ تصطحبها إلى «أبينان» لتقضي عندها الليل، ولتراه في بيت أصدقاء لها وهي واثقة بأنَّها ستراه، فإذا تحدثت إليه عرفت أنه قد تزوج ودبر حياته كما كان يحب، فأفقلعت عن هذه الغواية، ولكنها لم تك تعرض هذا الأمر حتى أشفقت من عاقبته، وخشيَت أنْ يجر عليها وعلى الأسرة كلها سوءاً وعاراً، فتراجع أختها وتتصحَّل لها بالبقاء، ولكن هذه تأبى وتلح إلَّا لاحِ كله في السفر معها، وتأمرها أنْ تذهب إلى حجرة الاستقبال حيث زوجها لستاذته في هذا السفر دون أنْ يعلم بشيء من حقيقة الأمر، وتدفعها خارج الحجرة دفعاً، وتظل وحدها حيناً مضطربة، وقد ذهبت إلى البيانو وإلى حيث المروحة والكتاب، ولكنها تحس

وقع أقدام فتعود، وقد دخلت أختها وزوجها فتم الاتفاق على السفر، فإذا خلت إلى أختها بعد حين أخذت هذه تراجعها وتلح عليها فيه، وتذكرها زوجها وأبويها وابنها والأسرة كلها، فكلما ذكرت لها شيئاً من هذا أمرتها بالصمت أمراً عنيفاً، وهي في حقيقة الأمر مضطربة متربدة تشعر، ولكن شعوراً ضعيفاً جداً؛ لأنها مقدمة على أمر خطير، وتحاول أن ترَوِي، وأنى لها أن ترَوِي وقد ملكتها هذه العواطف الثائرة، واستأثر بها هذا الجنون، فلا بد من أن تتسافر، ومن أن تراه، وستتسافر وستراه.

ويسلد الستار ثم يرفع، فإذا نحن في غد ذلك اليوم الذي مر فيه ما قدمت لك، والغرفة على حالها، وقد جلس إلى المكتب أبو «ماري لويس» وزوجها يتحدثان في أمر المصنع وتقديمه، ويقدم كل منهما إلى صاحبه التهنئة والثناء، ولكنهما مضطربان اضطراباً يحاولان كتمانه، أما الشيخ فلا يفهم سفر ابنته إلى «أبينان»، وهو لا يحاول أن يفهم، وأين السبيل إلى فهم ما يخطر للنساء، وهو يعلم أن ابنته شديدة التأثير بالشعور، قد ورثت ذلك عن جدتها، ألم تكلف جدتها حين كانت في الثامنة عشرة من عمرها بفتى من الذين يلعبون ليحضروا الجمهور، على أن هذا الحب لم يكن إلا عرضاً لم يلبث أن زال، أما الزوج فاضطرابه أشد ظهوراً وأعظم رسوحاً؛ لأنه قد فهم نفسية زوجه وما يحالجه، وهو مشغق إشفاقاً شديداً، ولكن هذا الإشفاق يستحيل إلى جزع حين يتناول رسالة، ويقرأ فيها أن فيليب قد وصل إلى «أبينان»، وحين يعلم أن الشيخ قد عرف مكان الشاب في «أبينان»، وإن فامراته أيضاً قد عرفت مكانه، وهي قد عرفته قبل أن تتسافر، وهي لم تتسافر إلا لذلك، ولكنه يكتم هذا كله في نفسه، ويتكلف الجلد، والشيخ يفهم كل ما يدور في رأسه، ويتكلف الجهل والغفلة، وهما كذلك إذ يدخل الطفل فيداعب الشيخ حيناً ثم يداعب أباه، وقد انصرف الشيخ، ولكن أباه مشغول، فهو ينظر في الساعة من حين إلى آخر ينتظر أن تعود امرأته، والطفل يلح عليه، فيلتفت إلى الطفل حيناً وقد أخذ هذا الطفل يقرأ على أبيه أسطورة حفظها، وهو في ذلك إذ يلتفت فيرى أنه قد أقبلت، أما أبوه فيتأمره أمراً عنيفاً أن ينصرف، وتحاول الأم أن تمسك ابنها، ولكن الزوج يلح في انصرافه؛ لأنه يريد أن يتحدث إليها، ينصرف الطفل، ويخلو الزوجان، فإذا الرجل مغضب غضباً شديداً، ولكنه محب حباً شديداً فهو يملك غضبه، ويكتفي بأن ينظر إلى امرأته نظراً ثقيلاً، ويسألهما في صوت المغضب الذي يملك نفسه: ماذا صنعت وماذا رأت وفيم تححدث؟

أما هي فتتجمل، ولكنها قد فقدت الجَلَدَ، فلا تستطيع أن تثبت فتجلس، وتجيب زوجها مضطربة متثاقلة، فتحدها أنها رأت فيليب.

- ماذا قال لك؟

- لم يقل لي شيئاً ذا خطير!

- أريد أن أعلم!

وهنا تعيد عليه ما قال لها في صوت يدل على خيبة الأمل وعلى حزن شديد، وكأنها قد عادت من رحلة بعيدة جدًا، وهي متعبة وهي تطمح إلى الراحة وتطمئن في استئناف الحياة الهادئة، فقد حدثها بأنه ضخم الثروة في الأرجنتين، وبأنه يشرف على مصنع عظيم ويخرج طائفية ضخمة جدًا من المسامير في كل يوم، وبأنه يقاوم منافسة الصناعيين، وبأن شوارع الأرجنتين مستقيمة منتظمة كشوارع البلاد الأخرى، وهو إذن رجل كفيفه من الناس، هو كزوجها وكابنها وكالشيخ الذي زار البيت في الفصل الأول، منصرف إلى صناعة المسامير وتجارة المسامير، والأرجنتين كغيرها من بلاد الأرض، كانت إذن في حلم وقد أفاقت من هذا الحلم، وهي تذكر أنَّ هذا الشاب قد مات بالقياس إليها، وهي في أثناء هذا الحديث وإذا زوجها قد جلس إلى جانبها يلطفها ويرفق بها وينهَا عن البكاء، قد رق لها وهو سعيد بعودتها إليه، ولكنَّه يخفى سعادته كما أخفى شقاءه؛ لأنَّه لا يفكر أو لا يريد أنْ يفكِّر إلا فيها، وهو ينظر وهي تتبع نظره، وإذا عينه قد وقعت على المروحة وعلى ديوان «بودلير» وعلى الكراسي المصفوفة أمام الموقف، وهي قد نهضت فأخففت الديوان بين الكتب، وأخففت المروحة في درج من الأدراج، ونقلت أحد الكراسي من مكانه، كل ذلك وزوجها ينظر إليها، حتى إذا وصلت إليه ضمها إلى صدره ضمًّا طويلاً، ثم تخلص من ذراعيه وتذهب إلى البيانو فتلعب، ولكنها لا تلعب «الإغراء بالرحيل»، ولا تتغنى بشعر بودلير، وإنما تلعب قطعة أخرى كانت كلفة بها أيام سعادتها، وكانت تلعبها في أول القصة، وإذا هو يميل إليها شاكراً.

١٩٢٤ إبريل سنة

الحبيب

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «جاك ديفال»

كتب إلىَّ أديب من طلاب مدرسة الحقوق الفرنسية لا أسميه؛ لأنني لا أدرى أیحب أنْ يُسمى أم لا، كتب إلىَّ هذا الأديب كتاباً رقيقةً، اضطره فيه حسن ظنه بي إلى ثناء كثير أشكره له شكرًا خالصاً، ولكنه لم يكتب ليثني علىَّ، وإنما كتب إلىَّ عاتباً، وأكاد أنْ أقول: إنه كتب إلىَّ لأنَّما؛ لأنني أهملت قصة «الحبيب» هذه، فلم أشر إليها مع أنها خلقة بالدرس والتحليل، وهو يسألني لم أهملتها؟ ولست أدرى لم أهملتها؟ فقد قرأتها فراقتني، وقدرت أنني أستطيع أنْ أكتب عنها صفحة من هذه الصفحات التي تنشرها «السياسة» أيام الأحد، وما أحسب أنني تعمدت إهمالها، وإنما أعلم أنني شغلت عن أن أحدث قرائي في يوم من هذه الأيام، فلما كان يوم الأحد الماضي كنت قد قرأت قصة «الإغراء بالرحيل»، فكتبت عنها لأنها أعجبتني، ونبهني الكاتب الأديب إلى قصة الحبيب فسأذنها موضوعاً لحديث اليوم، ويسريني أنْ أرضيه، وأنْ أرضي أصحابه الذين يشاركونه في الإلحاح علىَّ في أنْ أخذها موضوعاً لهذا الحديث، ويسريني أنْ أرضيهم، وأنا في الوقت نفسه أرضي ميولي الخاصة حين الخص هذه القصة، فأنا عنها راضٍ وإليها مطمئن، وربما قلت إنني بها معجب، وإنْ كان فيها موضوع لا يعجبني، وسأذلك عليه.

لاحظ هذا الكاتب الأديب أنَّ قصة «الإغراء بالرحيل»، إذا كانت تذكر بقصة «الحب» فإن هذه القصة التي نحن بإزائها اليوم تذكر بقصة أخرى تناولتها في هذا المكان بالنقد والتحليل، وهي قصة «المتجربة» لهنري بتايل، وفي الحق أنَّ في قصة الحبيب شيئاً يذكر بقصة التجربة، فالبطل في قصة الحبيب مصور نابع في التصوير، والبطلة في قصة

الحبيب ساذجة مخلصة بعيدة كل البعد عن هذا التعقيد النفسي، الذي يصيب الذين تأثروا بالحياة ويلو حلوها ومرها! واستفادوا من دروسها القاسية، وهي تشبه من وجه ما بطلة المتجrade في سذاجتها وسلامة قلبها، والبطل في قصة الحبيب يحب امرأة غير زوجه، كما يصنع البطل في قصة المتجrade، ولكن أيكفي هذا لتصح الموازنة بين هاتين القصتين؟ أيكفي هذا ليكون التشابه بين هاتين القصتين قويًا أخاذًا؟ أعترف بأنني قرأت قصة الحبيب معنًيا بها محققاً في قراءتها فلم أذكر المتجrade، ولم تخطر لي على بالٍ، وما كنت لأنكرها لو لا أن لفتني إليها هذا الكاتب الأديب؛ ذلك لأن الفرق بين القصتين عظيم؛ لأن الكاتبين الذين كتبوا هاتين القصتين لم يفكرا في شيء بعينه، ولم يقصدوا إلى غاية مشتركة ولا متشابهة، وأحسب أنَّ كُلَّاً منهما أراد أنْ يصور شيئاً لم يفكر فيه الآخر قط، وكان صاحب قصة الحبيب يستطيع أنْ يختار بطله مصوّراً، ويستطيع أنْ يختاره مثلاً كما كان يستطيع أنْ يختاره من طبقة أخرى غير هاتين الطبقتين، هو لم يرد أنْ يدرس أخلاق المصورين والمثالين، ولا أنْ يعطي صورة من حياة أولئك أو هؤلاء، وإنما أراد أنْ يدرس شيئاً آخر، أراد أنْ يدرس فكرة فلسفية أو — بعبارة أدق — أراد أنْ يدرس ظاهرة نفسية، فاختار موضوعه وبيته كما أراد، لا أقول بحكم المصادفة وإنما أقول: إنه تخير من الموضوعات والبيئات أشدّها ملائمة للظاهرة التي يريد أنْ يدرسها ويتحدث فيها إلى الناس، وما هذه الظاهرة النفسية التي لاحظها الكاتب وعني بتمثيلها، وهل هي صحيحة؟ وهل هي عامة طبيعية؟ أما أنها صحيحة شيء لا شك فيه، وأما أنها عامة مضطربة فذلك ما لا يستطيع الجزم به.

الأمر يسير، هو أنَّ الكاتب يزعم لنا أنَّ حرباً عنيفة قد تتشبّه بين القلب والذاكرة، وأنَّ الذاكرة تستأثر بعواطف الرجل وأهوائه وتملك عليه رأيه وحياته العملية، حتى تنسيه كل شيء، وتصرّفه عن كل شيء لتشغله بالموضوع الذي هي معنية به، وأنَّ النصر في هذه الحرب مقدر للذاكرة إذا لم تعرّض ظروف خاصة تنبه العقل والإرادة من نومهما! وتبيّن لهما أنَّ انتصار الذاكرة هذا إنما هو خطأ لا يعدله خطأ وخطر ليس فوقه خطر، ولست أشك في أنَّ الذاكرة شديدة التأثير في حياتنا الخاصة وال العامة، وربما كانت أشد ملكاتنا النفسية تأثيراً في الحياة، فهي التي تمثل الماضي، وهي من هذه الجهة مرآة لهذا القسم من حياتنا الذي هو كل شيء، وفي الحق أنَّ الماضي هو كل شيء في الحياة، أما المستقبل فنحن نجهله الجهل كله، وأما الحاضر فأي شيء هو؟ أليس أوله متصلًا بالماضي في حين آخره متصل بالمستقبل؟ الذاكرة إذن مرآة الحياة، ومن المعقول أن يكون لها في حياتنا

المستقبلة تأثير عظيم جدًا، فليست حياتنا المستقبلة إلا نتيجة في حقيقة الأمر لحياتنا الماضية، ولكنني مع ذلكأشك في أن يكون تأثير الذاكرة وسيطرتها على حياتنا من القوة ومن العموم والاطراد بحيث أراد الكاتب، فإذا كان المستقبل نتيجة الماضي، فنحن نخطئ كل الخطأ إن زعمنا أنها نعرف ماضينا حقاً، ونذكر مع التفصيل كل ما وقع فيه، ولعلنا لا نذكر منه إلا القليل، ولعل أشد الأشياء تأثيراً في حياتنا المستقبلة هي هذه المؤثرات الخفية، التي تسسيطر على عواطفنا وأهواطنا، وتذير قوانا وملكاتنا دون أن نحسها أو نشعر بها، بل دون أن نفرض لها وجوداً، ذلك أنا لا نشعر من أنفسنا إلا بالشيء القليل جدًا، وأنا نجهل منها أكثر مما نعلم، ولو أننا علمنا من أنفسنا كل شيء لما كنا كما نحن الآن، ولو أننا شعرنا من أنفسنا بكل شيء لانصرفنا إلى أنفسنا بما يحيط بنا من الحقائق والحوادث، ولكن العالم الخارجي يشغلنا جدًا عن أنفسنا، فنحن نعلم من غيرنا أكثر مما نعلم من أنفسنا، وحسبك أن أشد العلوم تأخراً إلى الآن إنما هو علم النفس، إذن فمن الخطأ أن نغلو في تقدير الذاكرة وتتأثيرها في الحياة، وإذا بلغ تأثير الذاكرة في الحياة إلى هذا الحد الذي مثله الكاتب فليس من الحق ولا من الصواب في شيء أن نتخذ ذلك مثالاً لما يجري في الحياة اليومية، وإنما الحق والصواب أن نتخذ مثالاً لهذه الأعراض المرضية، التي تعرض لبعض الأفراد من حين إلى حين.

بطل قصة «الحبيب» إذن مريض، وهو لا يمثل عامة معاصريه ولا الكثرة منهم، وإنما يمثل هؤلاء الأفراد القلائل الذين يعني بهم أطباء الأعصاب، أكثر مما يعني بهم علماء الأخلاق والاجتماع، ولكنني أظن أن الوقت قد آن لأحدثك عن هذا البطل وعن قصته، ولاترك لك وحدك الحكم بأني مخطئ في هذا الفهم أو مصيب، أما ما في القصة نفسها من عيب فنيّ، فأنا أرجو أن يمكنك التحليل من أن تشعر به دون أن أدللك عليه.

«جان أرجمديو» مثالٌ نبغ في نحت التماشيل، ونال الوسام، وأصبح نابغة معروفة يُشار إليه ويعتَدُ به، ولكنه قبل أن يصل إلى ما وصل إليه كان كغيره من إخوانه في هذا الفن مضطرباً مختلط الحياة شاكاً في نفسه، فقيراً ضعيف الأمل، فلقي في طريقه امرأة جميلة فنانة قوية عظيمة التأثير، هي «اليس فليزا» أحبتها وأحبته، وعاشا معاً أربعة أعوام، وكان لهذه المرأة في هذا الشاب تأثير عظيم جدًا؛ فقد نظمت حياته بعد اضطراب، وأوضحتها بعد غموض، وحملته على العمل والجد بعد الإسراف في الكسل والخمول، وما زالت حتى كأنها غيرته تغييرًا تاماً، ومهما يكن من شيء فقد انتهت إلى الفوز، وأصبح نابغة من نوابغ الفن.

أما هي فقد أصبحت ذات يوم تتفقد خليةها فلا تراه، وتبث عنه فلا تظفر به، ولم يكن من اليسير أن تظفر به فقد فر من باريس فراراً، حتى وصل إلى فرنسا الوسطى، وهناك لقي صديقاً له، ولقي عند هذا الصديق فتاة من ذوي قرابته هي «فيقييت» في التاسعة عشرة من عمرها، وهي زهرة نضرة كلها شباب وحياة، وكلها طهارة وبراءة، وكلها سذاجة وطيب قلب، أحبها فأحبته، فخطبها وقبلته وتزوجها بعد ثلاثة أسابيع، وعاد بها إلى باريس، ولكنه لم يسكن بباريس، وإنما سكن ضاحية من ضواحيها هي «شافيل»، وقد استأجر بيته متصلًا بمصنع ضخم، يشرف عليه صديق له هو «ميшиيل كرييفو»، وهذا الصديق رجل ضخم الثروة، قويُّ النفس، مستقيم الخلق، كان عاملاً معدماً، فجد حتى أصبح غنياً ميسوراً.

فإذا كان الفصل الأول، فقد مضت على هذا الزواج أشهر ثمانية، وتغير في أثنائها هذا الشاب المتألّ، فأخذ يفكر في الماضي ويتأثر بالتفكير فيه، وهو يحب زوجه حباً شديداً، ولكنه عن زوجه مشغول، مشغول بتلك التي أحبها وفر منها قبل الزواج، وهو لا يحدثنا بذلك، ولكننا نفهمه من سياق القصة، نرى هذا الشاب في أول الفصل، وقد خرج من غرفته إلى معمله، وأخذ يستعد للعمل، ولكنه سمع في الحديقة صوت زوجه تدعوه الخادم إلى أنْ تحمل إليه القهوة، فلم يك يسمع هذا الصوت حتى أظهر تبرماً ومللاً، وكتب في ورقه هذه الكلمة «سأعود»، ثم أصدق الورقة إلى الحائط وخرج مسرعاً، تقبل زوجه والخادم، أما الزوج فتحمل أزهاراً، وأما الخادم فتحمل القهوة أو الشاي، فإذا لم تجد زوجها ظهر عليها الأسف وخيبة الأمل، وكان بينها وبين الخادم حديث فهمنا منه أشياء، الأول أنها تحب زوجها حباً لا حد له، وتنتف به ثقة لا يعرف الشك إليها سبيلاً، والثاني أنَّ هذا الزوج غريب الأطوار، فهو إذا أراد العمل اعتزل الناس جميعاً حتى زوجه، وقد اتخذ لنفسه غرفة خاصة بجوار المعلم ينام فيها، وليس لأحد أن يدخلها حتى زوجه، الثالث أنَّ زوجه تصدق هذا كله وتذعن له، فلا تدخل الغرفة ولا تغير من أمر المعلم شيئاً؛ لأنها تخاف أنْ تغضبه، وهي حريصة على الطاعة، والرابع أنَّ هذا الرجل يرى زوجه حديثة السن شديدة السذاجة، وكأنه يكره ذلك، فهي تتكلّف أنْ تكون كبيرة، وأنْ تكون ماهرة ماكرة، حتى لا تظهر مظاهر الطفلة، الخامس أنه يعمل في هذه الأيام، وأنَّ عمله منصرف إلى أنْ يصنع تمثلاً نصفياً لامرأته، ولكن امرأته ترى هذا العمل دون أنْ تستطيع أنْ تنظر إليه ما لم يكن زوجها حاضراً، كل هذا يمثل لك حياة هذين الزوجين،

ويحملك على أن تفهم من الرجل أكثر مما تفهم منه امرأته، فإذا عاد الزوج وكانت امرأته قد خرجت من العمل نظر فإذا الشاي، ونظر فإذا الأزهار منتشرة في كل مكان، فيميل إلى هذه الأزهار، فإذا ورد جميل، لا يكاد ينظر إليه حتى يغضب غضباً شديداً، فيدعو زوجه، فتقبل مسرعة وهي فرحة مبهجة، ولكنه يلقاها باللوم، أليس قد أساءت حين حملت إليه هذه الأزهار كلها؛ لأن هذه الأزهار إنما هي التي غرسها البستانى أمس، فهي لحمقها قد أفسدت عمل البستانى، وهي تسمع لهذا محزونة كثيبة معذرة، ولكنها قد أساءت إساءة أخرى، فتركت مظلتها أمس في العمل، وقد عثر بها زوجها فكاد يسقط، وهي تعذر، ولكن زوجها يحبها، ولا يكاد يراها كثيبة محزونة تمثل الطفل في كابتها وحزنها حتى يرق قلبه، فيضمها إليه يريد أن يقبلها، ولكنه قد دش منها رائحة أنكرها، فيسأل فإذا هي كانت تعد «الفاصوليا» لطعام الغداء، فيغضب غضباً شديداً! لديها خادم، ولديها طباخة، فما لها وللفاصوليا!

- ولكنك لم تنهني عنها، وإنما نهيتنى عن تنظيف السمك فأطعنت!

يعجبه منها كل هذه السذاجة، فيبسم لها ويقبلاها ويمسكها في العمل يريد أن تجلس لينظر إليها، ويمضي في تمثاله وهي بذلك سعيدة جداً، ولا يكاد يأخذ في العمل حتى يحس أن أحداً مقبل، فينظر فإذا امرأة مقبلة، يتلقاها لقاءً حسناً، وقد استخفت «ثيقية» هذه المرأة المقلبة هي «نيكول بتشلان»، امرأة جميلة غنية كانت تكره زوجها وقد فقدته، وهي سعيدة بهذا الفقد، ولكنها لبست الحداد عملاً بالأوضاع الاجتماعية، وقد أوشكت أيام الحداد أن تنتهي، وهي قد أقبلت تدعو «جان» إلى العشاء عندها بعد أيام، وأقبلت أيضاً تسأل عن عربة لها في مصنع «ميшиيل كريفو» الجار الذي وصفته لك آنفًا، ولكن هذه المرأة لا تتحدث في هذه الأشياء وحدها، وإنما تتحدث في أشياء أخرى، تذكر «أليس فليزا» عشيقة «جان»، وما كان من أمرها بعد القطيعة، وأنها مرضت مرضًا أشرف بها على الموت، وقد أخذت تُلِّي من هذا المرض، وهي معزومة السياحة، وهي تمضي في هذا الحديث مفتنة فيه، وصاحبنا يسمع لها كارهاً متألماً مغتاظاً، ثم يتركها ليمضي في شأن من الشئون، وقد دعا امرأته لتقوم مقامه، فتقبل «ثيقية»، ولا تكاد تتحدث إلى هذه الزائرة حتى تفهم من حديثها أنها سيدة مغتبطة واثقة، وتحاول الزائرة أن تفتح عنها، وأن تدلها على ماضي زوجها، فلا تظفر منها بشيء، وهما كذلك إذ يدخل «ميшиيل كريفو»، فيتحدثون في أمور كثيرة لا قيمة لها، ولكن هذا الرجل تعود أن يأتي إلى هذا البيت كل صباح، فيدخن ويشرب كأساً من نبيذ بوردو ثم ينصرف، وقد ذهبت «ثيقية»

لتحمل إليه نبيذه، فخلا إلى هذه المرأة، وكان بينهما حديث لذيد، فهمنا منه أنه يخطبها وأنها قابلة، ولكنها متعددة؛ لأنها تحب الرجل ولكنها تكره الزواج، وهي تكره الزواج وتزدرى العشق، وإن فهى تريد أن تظل أرملة، وهي تعتقد أنَّ الزواج مصدر شقاء لا مصدر سعادة، وتحدى صاحبها، وتسأله أنْ يذكر لها زوجين سعيدين، فإذا ذكر لها صاحبِي هذا البيت شَكَّ في سعادتهم، واتهمت صاحبها بالغفلة، وقد أقبلت «فيقيثيت» ومعها النبيذ، ومال صاحبها إلى نبيذه يشربه، وأقبل «جان» وأخذ «ميشيل» و«نيكول» يستعدان للانصراف، وأمسك جان امرأته ليمضي في عمله، ولكن الخادم أقبلت فطلبت الإنذن لرجل أقبل زائراً، فيغضب جان ويشير على امرأته أنْ ترافق ميشيل ونيكول ريثما يستقبل هو هذا الزائر.

ويستقبل هذا الزائر، فإذا هو رجل يعمل في مكتب من مكاتب المراقبة المعروفة في باريس وغيرها من المدن الكبرى، وإذا جان كان قد طلب إلى صاحب هذا المكتب أنْ يراقب خليلته القديمة «أليس» وينبهه بأخبارها كل يوم؛ ذلك أنه عرف مرضها ولا يستطيع أنْ يتعرف أنباءها، فقد اعتمد على هذا المكتب في ذلك، وكف المكتب هذا العمل، وأخذ الرجل يختلف إلى بيتها، ويتعرف أنباءها من خادم لها، ولكن الخادم دلت سيدتها عليه، فبينما هو ينتظر الخادم ذات يوم أقبلت فأنبأته أنها بخير، وأنها نهضت من سريرها، وأنَّ الطبيب يشير عليها برياضات قصيرة في العربية، وقد أخطأ الرجل لأنَّ دل على نفسه، فأقبل معتذرًا إلى جان، يضرع إليه في ألا ينبيء بهذا الخطأ رئيس المكتب، وأكبر ظنه أنَّ «أليس» هذه تريد أنْ تزور «جان» في بيته، ولكن جان مغضب لخطأ هذا الرجل فيصرفه، ويأخذ في التحدث إلى نحاته في أمر من أمور عمله، وما هي إلا أنْ يعود هذا الرجل فينبه «جان» بأنه رأى «أليس» مقبلة، وقد أقبلت «أليس» بالفعل، فيتقاها «جان» مضطربًا ذاهلاً، حتى لينسى أنْ يقدم إليها كرسياً، فإذا خلا أحدهما إلى الآخر كان موقف هو خير ما في هذا الفصل؛ لأنه يمثل حدة العواطف وقوتها في نفس هذه المرأة المهجورة العاشقة التي تريد أنْ تنتقم لحبها وأنْ تسترد حبيبها، والتي هي واثقة بأنَّ حبيبها لم ينسها بعد، وبأنه ما زال لها عاشقاً وبها مشغوفاً، وإلا ففيه سؤاله عنها وهي مريضة؟ وهي تريد أنْ تستغل هذا، و تسترد مكانتها كاملة في نفس هذا الشاب.

أما الشاب فمضطرب أشد الاضطراب، هو يحب هذه المرأة، وهو يحب زوجه، وهو يؤثر زوجه على هذه المرأة، وهو يريد أنْ يخفي حبه لعشيقته حتى على نفسه، فهو ينكر هذا الحب ويلح في الإنكار، ولكن إنكاره لا يدل إلا على أنه يحب وعلى أنه يحب جدًا، يقول

لصاحبته: لا أحبك وما أحببتك قط، فتجيب ساخرة، سعيدة راجية: وستحبني طوال الدهر، ثم تعلن إليه أنها قد دبرت كل شيء لتفريجها، ولخلاصه من هذا المأزق، أما كانا قد تحدثا قديماً عن سياحة بعيدة يسيحانها معاً، فهي قد دبرت هذه السياحة، وسيسافران يوم الجمعة، فإذا أظهر المقاومة أعلنت إليه أنها ستنتظره، فإذا لم يأتِ فهي قاتلة نفسها، وقد مضت وتركته ذاهلاً، ذاهلاً حتى إنه ليختلط حين يسأله نحاته عما يفعل، وقد أقبل «ميشيل» سعيداً مغبطاً؛ لأن صاحبته قد رضيته لها زوجاً، ولكنه ينظر فإذا جان كئيب، فإذا سأله عن ذلك قص عليه أمره وأنباء بأنه مجرم لا يحب امرأته، وإنما يحب عشيقتها، وهو إنما تزوج ليخلص من هذه العشيقه، فهو قد اتخاذ امرأته دريئة، وهو لا يستطيع أن يمضي في هذا الكذب والنفاق، وهو يلح في ذلك وصاحبته يهدئه ويعظه، وإذا «فيقيت» تقبل فرحة مبتهجة سانحة، ت يريد أن تلقي بنفسها بين ذراعي زوجها، وتتأهّب لذلك فتعُدْ واحداً، اثنان، وإذا زوجها قد نسي كل شيء ورق لها، وإذا هو قد بسط ذراعيه وإذا هو يقول ثلاثة، ثم يضمها إليه.

إذا كان الفصل الثاني، فنحن في ذلك اليوم الموقوت يوم الجمعة، وقد أخذ الشاب يتردد بين الضاحية وبين المدينة، وهو يخيل إلى امرأته أنه مشغول بعمل تطلبه إليه وزارة الفنون الجميلة، وصدقته امرأته وواثقت به، حتى إنَّ الخادم والنحّات يسخنان منها، ونحن في الساعة الثالثة بعد الظهر، وقد خرج الشاب صباحاً فلم بعد، وانتظرته زوجة إلى الساعة الثانية، ثم تغدت وحدها، والخادم الآن تحمل القهوة، وتحمل قدحين؛ لأنَّ فيقيت تنتظر زوجها، وتعلّم نفسها بتناول القهوة معه، وقد أقبلت وإذا جرس التليفون يدق، فتعمد إلى التليفون مبتهجة تحسب أنَّ زوجها هو الذي يتحدث، ولكن الذي يتحدث ميشيل، يسألها: أيستطيع أنْ يزورها ومعه صاحبته «نيكول»؟ فتجيبه: أنَّ نعم! وهي تجيبه إذ يظهر زوجها، فترى التليفون وتسرع إليه تسأله وتتبين أمره وهو محزون كاسف البال، فيخيل إليها أنه متعب وأنه لم يتغد، ولكن تغدى في باريس وهو يريد شيئاً من القهوة، ولكنها ترى أنَّ هذه القهوة الفرنسية ليست شيئاً، فتصنع له قهوته التركية، وقد انصرفت مسرعة، وظل الشاب والخادم، فيأمراها بأن تدع له حقيقته؛ لأنَّه قد يسافر الليلة، وينبئها بأنه يتنتظر رسالة برقية، فيجب أن تحملها إليه حالاً، وتنتظر الخادم، ثم تنصرف وتعود بسرعة ومعها سترة تحملها إلى سيدتها، فإذا أنكر ذلك لفتته إلى أنَّ سترته في حاجة إلى التنظيف، فينظر فإذا آثار «البدرة» على كتفيه، فيخرج من سترته ويدخل

في الأخرى وقد فهم، لم يكن إذن في وزارة الفنون الجميلة، وإنما كان عند صاحبته، وقد أقبلت زوجه تحمل إليه القهوة، فينبئها بأنه مسافر إلى مارسيليا الليلة وأنه ينتظر رسالة برقية، فإذا سأله عن مصدر هذا السفر أنبأها أنَّ الحكومة تريد أنْ تعهد إليه عملاً في المحطة الجديدة التي تنشأ في مارسيليا، ولذيد جدًا هذا الحديث؛ لأنَّه يمثل هذا التناقض الشنيع بين امرأة خفيفة الروح تثق بزوجها ثقة لا حد لها، فهي تلهو وتمزح في سذاجة وأطمئنان، وهو يخدعها ويخونها ويذكُر عليها ويمنع في الكذب، ويتكلف مع هذا كله أنْ يلهو ويداعب، ويقبل «ميшиيل» وصاحبته، فلا يكادون يتحدثون حتى يكون الكاتب قد نظم لنا طريقة تمكن الرجلين من الخلوة، فيخلوان ويتحدثان، أما «جان» فيقص أمره على صاحبه وينبئه أنه مسافر الليلة، وليس من سبيل إلى تخليه عن هذا السفر، فهو ينكر كل شيء، ولا يعقل شيئاً ولا يرى شيئاً، ولا يفكر في شيء إلا صاحبته، قد فقد كل قواه وأصبح أداة مسخرة، ويحاول صاحبه أنْ يصرفه عن ذلك، فما أسرع ما يشعر بأنه لن يصل منه إلى شيء، وقد كتب جان كتابين يدفعهما إلى «ميшиيل»، أحدهما إلى امرأته فيه اعتذار وتسليمة، والآخر إلى ميшиيل فيه تدبير الأمور المادية، فإذا سأله «ميшиيل» وأين أكتب إليك، أجابه: لا تكتب إليَّ، فليس في ذلك فائدة، وقد عادت المرأتان، ونظم لنا الكاتب طريقة أخرى يخلو بها ميшиيل إلى ثقفيت فيتحدثان، وإذا ثقفيت تحس أنَّ في الجو شيئاً لا تفهمه، وأنها تخشى هذا الشيء فينبئها به ميшиيل، ويظهرها على كتاب زوجها إليها، فلا تسل عن دهشتها ولا عن ذهولها ولا عن حسرتها وبكائها، ولكن ما أسرع ما تملك نفسها، وقد أخذ صاحبها ينصح لها بالثبات والمهارة، ينصح لها أنْ تملك نفسها وأنْ تضحك، ولا تظهر من اضطرابها شيئاً، وأنْ تلح ضاحكة في مرافقة زوجها إلى مارسيليا.

- فإذا أبي؟

- فاضحكي ورافقيه.

- فإذا غضب؟

- فالغبي في الضحك ورافقيه.

وقد فهمت وقلبت وملكت نفسها، ويقبل جان، فإذا هي مبتسمة هادئة، كأنها لم تعلم بشيء، وكأنها لا تتوقع شيئاً، وتقبل الخادم تحمل الرسالة البرقية فتختطفها ثقفيت وتفضها وتحصي ألفاظها، وقد اشتربت على زوجها أنْ يقبلها إنْ تجاوزت الألفاظ عشرة، وقد تجاوزت الألفاظ هذا العدد، فيقبلها وكلاهما متتكلف، أما هو فيتكلف الكذب والخداعة، وأما هي فتتكلف الصبر والجلد، وفي الحق أنه لم يكن أقل منها حزنًا، ولكنه عن

حزنه وعن قلبه مشغول، فهو لا يفكر إلا في صاحبته، وأعلنت إليه امرأته أنها سترافقه فجزع، فضحته وأعلنت إليه أنها سترافقه إلى باب الحقيقة! ثم ينهض ليد أمره، ويخلو إلى مكتبه حيناً وينصرف الزائران، ولا تكاد تخلو ثيقيت إلى نفسها حتى يدق جرس التليفون، فتعتمد إليه فإذا امرأة تتكلم تسأل عن «جان»، وهل وصلت إليه الرسالة البرقية، فما أسرع ما تفهم ثيقيت! وما أسرع ما تجيب! كأنها الخادم، تجيب بأن سيدها يعمل كما يعمل في كل يوم، وبأن رسالة برقية لم تصل، وبأن سيدها لم يذكر السفر ولا يظهر أنه يفكر فيه، وكأن المرأة تنبئها بأنها مقبلة؛ فتجيبها «ثيقيت» أن أقبلي، وكأنها تتحداها؛ وقد تركت التليفون ووقفت موقف من يستعد للحرب ويتحدى خصمًا عنيدًا.

وما هي إلا أن تقبل «الليس»، فيكون بينهما موقف لا يقل جمالاً عن موقف «الليس» مع صاحبها في الفصل الأول، تضطرب «الليس» حين ترى «ثيقيت»، ثم تسرع فتملك نفسها، وتسأله عن «جان» فتجيبها «ثيقيت» أنه منصرف إلى عمله، وأنه أمر أن لا يدخل عليه أحد، وتلح «الليس»، فتنفجر الخصومة بين المرأةتين، وتباهي «ثيقيت» قوية عنيفة، فتطرد المرأة طرداً وتزدريها ازدراً منكراً، وتعلن إليها أنها قد علمت كل شيء، وأن زوجها ليس بالمسافر ولا بالتفكير في السفر، وتبالغ في ذلك حتى لكانها لتسحق المرأة سحقاً، وقد انخذلت «الليس» وأخذت تتصرف، وعليها خزي وخجل، ولكنها نظرت إلى وجه صاحبها، فإذا ابتهاج غريب قد ظهر على وجه «ثيقيت» حين رأتها تتصرف، فتفهم «الليس»، وتقدر أن هذا الجلد وهذا العنف ليسا إلا تصنعاً وتكلفاً، فتعود وقد أخذت من القوة والانتصار بحظ عظيم، وإذا هي تهدى! وإذا هي تطالب بصاحبها، وإذا هي تعلن إلى هذه المرأة أنها لا تحب «جان»، وإنما تحبها هي، فهي التي كانت جان وما فيه من خلق وما فيه من خصلة، وهي التي جعلته كما هو ظريفاً وديعاً محبباً نابغاً، وإذا هي تعلن إليها أيضاً أن جان لا يحبها، وإنما يحب صاحبته القديمة، وأن كل ما بذل لها من لين ورفق، وكل ما أظهر لها من حب وعشق إنما تعلمه بين ذراعيهما، وأما أنت فلم تلهميه شيئاً ولم تثيري في نفسه عاطفة، إنه ليمنحك فضل حبه إياي! وإذا «ثيقيت» هي المنخذلة، وإذا هي تجهش بالبكاء حتى يتغير في نفس «الليس» عاطفة الرحمة، فتسألهما العفو ثم تعرض عليها أن تدعوه «جان» ليختار هو بينهما، فتقبل وتنهض لتدعوا زوجها، ثم يبدو لها فتعود وقد تغير في نفسها كل شيء! هي جزعة، وهي يائسة، وهي قد نزلت عن زوجها، وهي تردد إلى صاحبته، وهي تسألهما أن تتصرف وتقسم لها لترده إلينا في عشر دقائق، وقد انصرفت وأقبل جان مستعداً للسفر وفي يده حقيبته وهو محزون يجاهد حزنه، وهي محزونة

قد كتمت حزنها، وأظهرت الصبر والجلد والابتسام، وكأنها لا تعلم شيئاً، وكأنها تنتظر عودته بعد أيام، وهي مبتسمة وقد عدلت عن مرافقته حتى إلى باب الحديقة وكان يود لو رافقته قليلاً، ولكنها تأبى، وينصرف وقد انحنى ظهره حزناً وأسفاً، وما كاد ينصرف حتى تجزع «فيقيت» جزاً شديداً، وإنما هي قد أخذت قلنسوتها فوضعتها على رأسها في غير نظام، وأسرعت إلى الطريق تدعى زوجها.

فإذا كان الفصل الثالث، فنحن في فندق من فنادق مارسيليا، وبين يدينا فتاة تكتب على الآلة الكاتبة، وقد أقبلت فتاة أخرى تحمل أزهاراً، وتحدث الفتاتان ثم أقبل «ميшиل»، وقد فهمنا من هذا كله أنَّ «فيقيت» عندما أسرعت إلى الطريق تدعى زوجها قد مضت في سبيلها حتى وصلت إلى المحطة، حتى أخذت القطار، فوصلت إلى باريس وإلى محطة ليون فلم تجد زوجها، فأخذت أول قطار إلى مرسيليا، ووصل «ميшиل» إلى بيت «فيقيت» يتعرف أخبارها، فلما أتبَعَ بأنها خرجت وحدها صائحة توقع شرّاً، فمضى في طلبها حتى بلغ محطة ليون، وأخذ أول قطار إلى مارسيليا، فلم يكُن ينزل من القطار حتى رأى «فيقيت»، وكانت قد أخذت القطار نفسه، ولكنها أخذت الدرجة الثالثة؛ لأنها لم تكن تحمل ما يكفي من النقود، وقضت الليلة واقفة في القطار معرضة لبرد الجو وحر قلبها، فلم تصل إلى مارسيليا حتى كانت الحمى قد استأثرت بها، وأدركها ميشيل وهي في خطير شديد فاضطرها إلى هذا الفندق، ودعا طبيباً وأبرق إلى «نيكول» يستقدمها، وقد عني الطبيب بهذه المريضة منذ أيام، وقد أخذت تفيف وتسترد قواها، حتى إنَّ الطبيب يرى أنَّ ليس بها من حاجة إلى المرضة.

أما ميشيل فلم يضع وقته، وإنما انصرف في أثناء إقامته في مارسيليا إلى العناية بهذه المريضة من جهة وإلى البحث عن زوجها من جهة أخرى، وقد أقسم ليدركن هذا الزوج الهارب، فأمر بمراقبة السفن المسافرة مراقبة شديدة، ثم كتب إلى «جان» كتاباً أنبأه فيها بأمر «فيقيت»، وأرسلها إلى جميع الفنادق التي يمكن أنْ يئوي إليها جان، وهو الآن ينتظر نتيجة هذا البحث، وانظر إلى هذا الموقف وقد أخذ الطبيب يلطف المريضة وبيهدها، ثم انصرف وترك معها المرضة، وأخذت هذه المرضة تستعد للانصراف، وهي تبحث في حقيبتها، وتظهر ما فيها شيئاً فشيئاً تلتمس منديلاً، وفي أثناء هذا البحث أظهرت مسدساً، زعمت أنها تحمله لتدفع عن نفسها، فهي تختلف إلى الأحياء البعيدة، وتتعرض لاعتداء المعذبين، ولكنها لم تجد المنديل، فتلنج عليها «فيقيت» في أنْ تذهب لتأخذ

أحد مناديلها فتفعل، وإنها لففي ذلك إذ تسرع «ثيقيت» إلى المسدس فتخلسه اختلاساً وتحفيه، وقد أقبلت المرضة فشكرت وأخذت حقيبتها وانصرفت، ولم تشعر باختلاس المسدس، وفهمنا نحن أنَّ «ثيقيت» إنما اختلس المسدس لقتل نفسها، وهي مع ذلك تظهر هدوءاً واطمئناناً، حتى إنَّ ميشيل ليأتي فيحدثها فلا تجبيه إلا هادئة مطمئنة، ثم تتصرف إلى غرفتها وكأنها متعبة ت يريد أنْ تستريح، وتقبل الخادم وتحمل بطاقة، فإذا هي بطاقة جان، فيأذن له ميشيل وينتظر ويفتح الباب، ولكن لا يدخل جان، وإنما تدخل «الليس».

ولست أحدثك عما يدور بينها وبين ميشيل من الحديث، لكن «ثيقيت» تسمع ما يدور بينهما، فتخرج إليهما وتلح على ميشيل في أنْ يتركها حيناً فيفعل، ويكون بين المرأتين موقف لا يخلو من جمال ليس فيه أول الأمر جهاد ولا حرب، وإنما فيه استعطاف وتضرع. «ثيقيت» يائسة من زوجها لا تطمع منه في شيء، وهي راضية بحظها لا تطلب إلا شيئاً واحداً، تطلب أنْ يقرأ كلمة موجزة كتبتها إليه، ولكن «الليس» تأبى عليها حتى هذا الطلب، لقد استردت صاحبها ولم يكن هذا يسيراً، وهي لا تزيد أنْ تفقد مرة أخرى، لا تزيد أنْ يتصل الأمر بيته وبين ماضيه، هي تكره، بل تخشى أنْ يرى «جان» شيئاً يذكره «ثيقيت»، ومهما تستعطفها ثيقيت فهي لا تعطف ولا تلين، هي تعلم أنها قاسية، ولكنها تريد هذه القسوة، هي تنتقم لنفسها ولحبها ولحياتها لا من «ثيقيت»، بل من الزوج ومن الحياة الشرعية الاجتماعية التي تبيح كل شيء للمتزوجات، وتحظر كل شيء على العاشقات، وقد يُؤْسِت «ثيقيت»، وانتهى بها اليأس إلى أقصاه، وإذا الموقف قد تغير تماماً، تزيد «الليس» أنْ تتصرف فتحول «ثيقيت» بينها وبين الباب، وقد صوبت إليها المسدس تزيد أنْ تقتلها، وهي لم تكن تزيد ذلك، إنما كانت تزيد أنْ تقتل نفسها، ولم تكن تطمع إلا في أنْ يعلم جان أنها أحبته، وسعت إليه ثم عفت عنه، فأماماً هذه المرأة التي تأبى حتى أنْ تنزل لها عن هذا الشيء القليل فستقتلها ثم تقتل نفسها، وهي كذلك إذ يفتح الباب ويدخل ميشيل ومعه جان، ذلك أنَّ ميشيل قد لقي جان في أسفل الفندق، فحدثه بكل شيء، وساقه ليرى هاتين المرأةتين معاً، فإذا دخلا ورأى جان زوجه وفي يدها المسدس أقبل إليها مستفسراً، فنزعه من يدها وقد بلغ به التأثر أقصاه، فجلس وأطرق يبكي، وميشيل يسأله أنْ يفصل في هذه القضية وأنْ يختار بين المرأةتين، وهو أضعف من أنْ يختار، فقد أساء إليهما جميعاً وجنى عليهما جميعاً، وهو قد أحب «ثيقيت» بكل قلبه، وأحب «الليس» بكل ذاكرته، وهو يقول ذلك ويمضي في البكاء، أما «ثيقيت» فقد أقبلت

إليه وجلت أمامه تلاطفه وتلح عليه في أن يمضي مع صاحبته، فهي لم تكن تتطمئن في أكثر مما نالت، أليس كذلك قد رأته؟ أليس كذلك قد أعلنت إليه حبها وعفوها؟ إنها لتبه إن ماضى أكثر مما تحبه إن أقام، ولكنه يبكي وهي جاثية بين يديه، والأخرى واقفة ذاهلة أول الأمر، ثم متتبعة شاعرة بأنها قد خسرت الموقعة، فهي تتقهقر قليلاً قليلاً إلى الباب تريد أن تتصرف دون أن يشعرا بها، ولكنها مع ذلك تحس أنه يراها تتصرف، وأنه يتتجاهل ذلك، فتمضي في تقهقرها حتى تخرج، وقد فتح ميشيل لها الباب في هدوء ثم أغفله من دونها.

أعترف بأن إعجابي بالفصلين الأولين عظيم، ولكني أعترف بأن الفصل الثالث مضطرب مرتبك، فقد فقد أو كاد يفقد كل دقة وكل جمال فني، وأنه قد حول القصة من نوع فني إلى نوع آخر، ولو أنَّ الكاتب استأنى ولم يتسرع؛ لاستطاع أنْ يختار من كل هذه المناظر المختلفة منظراً أو منظرين تنتهي بهما القصة انتهاءً حسناً، كما ابتدأت ابتداءً حسناً، وما رأي صاحبي الذي كتب إلى يوازن بين هذه القصة وبين «المتجrade»؟
ألا يزال حريصاً على هذه الموازنة؟

إبريل سنة ١٩٢٤

المصابيح

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «هنري بتايل»

وكذلك يجب أن أقدم شكرًا خالصًا إلى طالب أديب من طلاب مدرسة الحقوق الملكية، كتب إلى كتاب رقيقاً، يسألني فيه أسئلةً أريد أن أجيب عليها، ولكن في إيجاز شديد؛ يسألني: ما بال كتاب التمثيل من الفرنسيين يضعون قصصهم كلها أو أكثرها فيما يمس خيانة العلاقات الزوجية؟ ثم ما بالهم يميلون في الانتهاء بهذه القصص إلى العفو عن الخائن أو العطف عليه؟! ثم ما بالي أنا لا أكاد أختار أو لا أختار من هذه القصص إلا ما يمس هذا الموضوع؟!

أما أن الكتاب الممثلين من الفرنسيين وغير الفرنسيين يؤثرون هذا النحو من القصص التمثيلي على غيره فحقيقة واقعة، ولكن لا إلى الحد الذي يتصوره السائل الأديب، ففي ملعب التمثيل قصص كثيرة لا ت تعرض لخيانة الزوجية، ولا تميل إلى العطف على الخائنين، وإنما تعرض لأشياء أخرى من فروع الحياة التي تتصل بالعواطف والأهواء، وليس من الحق أيضًا أنني لم أختار من هذه القصص البعيدة عن خيانة الزوجية شيئاً، فقد اخترت قصصاً لم يعرض فيها كتابها للزواج ولا لخيانته، ويكتفي أن ألغت السائل الأديب إلى «الدمية الجديدة» و«نشوة الحكيم» لفرنسوا دي كوريل و«شأو القبس» لبول هرقيو، وإلى قصص أخرى عرضت لها ولا ذكرها الآن، فإذا أردنا أن نتبين السبب الذي من أجله يعرض الكتاب الممثلون لصلات الزوجية وخيانتها فهو يسير؛ ذلك أنَّ الحياة الجنسية، أو — بعبارة أوضح — الصلة بين الرجل والمرأة هي أهم فروع الحياة وأشدتها تأثيراً في

نفوسنا وسيطرة على أهواتنا وعواطفنا، أردننا ذلك أو لم نرد، ولست في حاجة إلى تعليل ذلك، فهو شيء قد فرغ الناس منه، وإنما كانت الصلة بين الرجل والمرأة من الخطر بهذه المنزلة، فليس عجباً أن يعرض لها الكتاب، فيدرسونها ويحللواها، ولكن ماذا ينبغي أن يدرسوا ويحللوا من هذه الصلة؟ أيدرسون الصلة الهديئة المطمئنة التي ليس فيها عوج، ولم تعترضها أزمة قوية ولا ضعيفة، وإنما تمضي مع الزمان في هدوء واطمئنان! وماذا يدرسون من هذه الصلة وماذا يحللون؟ وأي شيء فيها يستحق أن يدرس أو يحلل! بل أي شيء فيها يستحق أن يقال! ومن الذي قد وبهه الله الصحة والعافية فهو يعني بتحليل هذه الصحة والعافية والبحث عن أسبابها ونتائجها؟ إنما يعني الإنسان بمرضه وأعراض مرضه وأسباب هذا المرض ونتائجها؛ لأن هذا المرض خليق أن يدرس ليتقى، وهو خليق أن يدرس لتتقى نتائجه إذا لم يكن إلى اتقائه سبيل، والأمر على هذا النحو في صلات الزوجية إذا درست وحللت، تدرس وتحلل حتى تستحق الدرس والتحليل؛ أي حين تنشأ فيها الأزمات، وحين تتعرض للأخطار.

وأما أن الكتاب يميلون إلى العفو عن الخائن أو العطف عليه، فليس هذا صحيحاً دائماً، وهو صحيح في كثير من الأحيان، وإلى من يريد السائل الأديب أن يميل الكاتب؟ وعلى من يريد السائل الأديب أن يعطف الكاتب؟ أعلى الصحيح؟ ولم نميل إليه ولم نعطف عليه؟ أم على المريض؟ أليس المريض خليقاً أن نميل إليه ونعطف عليه ونُعنى به ونطلب لأدواته وعلله؟ وهل خيانة الزوجية وغيرها من الآثام والنقائص التي يتورط فيها الناس إلا ضروب من العلل وألوان من الصعف؟ لم يقصد إليها الإنسان عمداً ولم يختر التورط فيها، وإنما اضطر إليها اضطراراً، واضطررته إليهاأسباب قاهرة لم يوجد إلى التخلص منها سبيلاً؟ أخشى أن يظن السائل أن العطف على الخائن والآثمين تشجيع للخيانة والإثم، فذلك بعيد كل البعد عن الحق والصواب، ليس هذا العطف تشجيعاً للآثم، وإنما هو فهم له وإدراك لأسبابه، وإذا كان الذين يدعون إلى أن يلغى القضاء بالموت على القتلة وال مجرمين لا يشجعون القاتل ولا يؤيدون المجرم، وإنما يعتقدون أنه إلى المرض والضعف أقرب منه إلى تعمد الإثم والقتل، وهو إذن بالعناية والعلاج أحق منه بالقصاص، أقول: إذا كانت هذه حال الذين يلغون القضاء بالموت على القتلة، فقريب منها حال الذين يعرفون الضعف الإنساني وأسبابه، فيعطفون على الضعفاء، ويعملون لإصلاحهم لا للانتقام منهم.

ولو أني ذهبت أحصل للسائل الأديب وجوه هذه المسألة، وما ينشأ عنها من بحث متشعب دقيق لأسرفت في الإطالة، ولتجاوزت القصد، وأنا إلى هذا القصد شديد الحاجة،

فأمّامي قصة أريد أن أحلاها، وأحسب أنَّ السائل الأديب سيجد من قراءتها شيئاً من الجواب على أسئلته.

نعم! سيرى أنَّ بطل هذه القصة خليق بعطفنا كله، وإنْ لم تعطف عليه الطبيعة ولم يرافق به هذا العدل الخفي الذي يظهر أنه يسيطر على هذه الحياة، هو خليق بعطفنا كله، وهو مع ذلك قد خان صلة الزوجية، واضطر إلى خيانة الصداقة والإساءة إلى الصديق، ولكنه لم يتعمد ذلك تعمداً، وإنما تورط فيه تورطاً، واضطررته إليه هذه الأسباب الخفية التي أشرت إليها آنفًا، والتي يخيل إلينا أنها ليست في حقيقة الأمر إلا طائفة من الشياطين، قد استخفت في طريق الإنسان تربص به الدوائر، وتنتهز له الفرص، وتضطره إلى السوء اضطراراً، وإنْ كان من أشد الناس طهراً، وأعظمهم ميلاً إلى الخير وبعداً عن الإثم، ولست أريد أنْ أقدم المقدمات الطوال ولا القصار في شرح هذه القصة وتفسيرها، وإنما أريد أنْ تفسر القصة نفسها، فآخذ منذ الآن في التحليل.

«لوران بوجيه» عالم فرنسي بعيد الصوت رفيع المنزلة، قد وقف جهوده على علم الحياة، فوصل بالبحث إلى نتائج عظيمة الخطر جعلته موضع الإجلال لا في فرنسا وحدها، بل في العالم كله، وهو لا يعمل وحده، وإنما يستعين على عمله الجليل بزوجه «جان»، وهي أجنبية أحبت زوجها، وأحبها هذا الحب العقلي الذي ينشأ بين شخصين ممتازين، وهما يعملان معًا متحابين متعاونين، ولئن كان الزوج نابغة فليس حظ امرأته من الذكاء والتفوق بقليل، ويعينهما قوم كثيرون، منهم الطلاب ومنهم الأساتذة، ولكن من بينهم جميًعاً رجلاً قد تفوق عليهم حتى التحق أو كاد يلتحق بالزوجين، وحتى أصبح لهما صديقاً حميمًا، وحتى تعود الأستاذ «بوجيه» أنْ يطلق لفظ الثالثون على هذه الجماعة التي تتتألف منه ومن امرأته ومن صديقهما «بلونديل»، وقد عهدت الدولة إلى هذا الأستاذ في الإشراف على معهد علميٍّ جليل هو معهد «كلودبرنار»، فاتخذه مكاناً لهذه المباحث العلمية التي أخذت تثمر، وتظهر النتائج الهامة منذ عشرين عاماً متصلة، ولهذا الأستاذ ابنة هي «مارسيل»، قد أحببت العلم ومالت إليه وتقدمت فيه تقدماً حسناً، درست في فرنسا ثم ذهبت تتم درسها في ألمانيا، فلقيت في أثناء ذلك فتاة مجرية كأنها عطفت عليها ورقت لها، واصطحبتها إلى باريس؛ لأنها شقية بائسة لقيت في حياتها أولاناً من الأذى، وأحببت في حياتها ضابطاً رافقها حيناً ثم خدعاها ومضى لوجهه، فلما أقبلت هذه الفتاة، واسمها «أدويج» إلى باريس مع صديقتها «مارسيل» تلقاها الزوجان لقاءً حسناً، وكفاهما

شيئاً من العمل سهلاً في المعهد، ولكنها لم تثبت أنَّ أظهرت ميلاً شديداً إلى مباحث الأستاذ، فاختلفت إلى المعلم، وأخذت تشارك هي أيضاً في البحث العلميِّ الخالص. ونحن في الفصل الأول وقد دعا الأستاذ إلى مائته نفرًا من أصدقائه العلماء، فتغدوا ثم أقبلوا إلى المكتب لتناول القهوة، والأستاذ يحدهم بأنَّ بحثه قد انتهى به إلى استكشاف جليل الخطر جدًا، فقد استكشف ميكروب السرطان، وقد أخفى استكشافه هذا ليتحمه ويتحقق، وهو الآن مستوثق من النتيجة لا يشك فيها، وقد اعتزم أنْ يعرضها بعد أيام على المجتمع العلميِّ، ولكنه أراد أنْ يظهر أصدقائه عليها قبل أنْ يعلنها إلى الناس جميعاً، وأصدقاؤه دهشون معجبون، يملؤهم الأمل في المستقبل، أليس هذا الاستكشاف هو الخطوة الأولى القيمة في سبيل استكشاف آخر، سيكون له الأثر العظيم في حياة الإنسان، وهو الوصول إلى شفاء السرطان! هم إذن يثنون عليه وعلى زوجه وبيالغون في إجلالهما، وهو يريد أنْ يظهرهم على هذا الميكروب الذي استكشفه، فيريد أنْ يكلف أحد أعوانه الذهاب إلى المعلم ليحضر نموذجاً من هذه النماذج، ولكن الفتاة الغريبة «أدوبيج» قد ندب نفسها متقطعة لهذا الأمر، وأسرعت إلى المعلم، وعادت ومعها ما طلب إليها، فأخذته «جان» ووضعته في الميكروسكلوب، وأقبل أحد العلماء ينظر، ولكنه دهش؛ لأنَّه لا يرى ما تحدث به إلى الأستاذ، وإنما يرى شيئاً آخر، يرى بعض هذه الميكروبات التي يعرفها الناس جميعاً فتقبل «جان» وتنتظر وإذا هي ساخطة مغضبة؛ لأنَّ الفتاة قد أخطأت، وحملت شيئاً غير ما طلب إليها.

أما الفتاة فخجلة مضطربة قد انتهت بها الخجل إلى البكاء، وأخذ بعض الحاضرين يرثي لها، وأخذ بعضهم يسخر منها همساً، وأشد الناس جميعاً غضباً وحنقاً إنما هي «مارسيل» ابنة الأستاذ؛ لأنها سمعت شيئاً من سخرية الساخرين، على أنَّ الأستاذ قد انصرف مع أصحابه إلى المعلم ليظهرهم بنفسه على هذا الميكروب، ثم ليظهرهم على النتائج العملية لبحثه، وتهم زوجه أنَّ تتبعه، ولكن ابنتها تمسكها تريد أنَّ تتحدث إليها، فإذا خلت إلى أمها كان بينهما حديث، فهما منه أنَّ هذه المرأة العالمة قد انصرفت إلى علمها انصراً تماماً حتى أنساها كل شيء، وألهاها عن حياتها الزوجية وعن أشياء كثيرة تقع في البيت وهي لا تشعر بها، وابنتها هي التي تنبئها بذلك في شيء من السخرية التي يملؤها الحنان والإكبار، والألم دهشة مغضبة، تذكر على ابنتها لهجتها هذه، وتدخلها فيما لا ينبغي أنَّ تتدخل فيه الفتيات، ولكن الفتاة لم تتدخل في هذا الأمر إلا لأنَّها مضطربة إلى ذلك، فقد سمعت أشياء لا ينبغي أنَّ تسكت عليها، وهي خطيرة جدًا، الطلاق وغير

الطلاب يتحدثون بأن الأستاذ يتغشّق هذه الفتاة وي تخذلها له خليلة، وهم يتخذون هذا الأمر موضوع مزحهم، وهي تكره أن يتعرض أبوها لمثل هذا المهرؤ، ولكنها مع الأسف لا تشک في أنَّ الأمر حقيق بالعنایة، فهي أيضًا تتهم أباها أو تتهم الفتاة بخديعة أبيها، هي تعل ذلك وتفهمه، فقد انصرفت أنها إلى العلم حتى فقدت أو كادت تفقد صفات المرأة، ولم يفقد أبوها صفات الرجل، ولهذا الكلام الذي أوجزه إيجازاً مُخللاً تأثيراً شديداً في نفس الأم، فقد اضطرت له وتنبهت في نفسها عواطف كانت مهملة، وأخذت تمقت الالتفات والتنبيه، وتحمد الغفلة والإغضان، ولكنها قد تنبهت وأخذ الشك يعمّل في نفسها، وأخذت نار الغيرة تضطرب في قلبها اضطراماً، وقد اقتربت عليها ابنتها إحدى اثنتين: فإما أنْ تسافر هذه الفتاة وإما أنْ تتزوج، ليس تزويجها بالأمر العسير، فقد استكشفت الفتاة نفسها أنَّ «بلونديل» يحبها حباً شديداً، وأنه أسعد الناس إذا استطاع أن يتخذلها له زوجاً، ولم يكن دهش الأم لهذا الاستكشاف بأقل من دهشها لاستكشافها الأول، فهي لم تر شيئاً ولم تشعر بشيء، ثم تنصرف الفتاة إلى درس لها في «السربون»، ويأتي الأستاذ فيخلو إلى زوجه يريد أن يتحدث إليها في أمر علمي، ويريد أن يصطحبها إلى المعمل لاستئناف البحث، ولكنها تمسّكه وتلح عليه في المسألة، ويظهر الرجل دهشاً شديداً لهذه المسائل التي تلقّيها عليه زوجه؛ لأنها لم تتعود ذلك؛ وأنه أبعد الناس عن أن يفكّر في مثل هذا السخف، وهو بطبيعة الحال ينكر كل ما يضاف إليه إنكاراً شديداً، تظهر عليه لهجة الصدق فتصدقه امرأته وتطمئن إليه، بل تعذر إليه من سؤاله عن مثل هذه الأشياء، ولكنها تريد أن تقطع الأسنة الناس، فهي تريده أنْ تزوج هذه الفتاة، وأنْ تزوجها من «بلونديل»؛ لأنها تعلم أنَّ «بلونديل» يحب الفتاة ويكلّف بها، ويسعادة أن يتخذلها له زوجاً، أما الأستاذ فدهش لهذا كله، ضيق الذرع به، يريد أن ينصرف إلى بحثه، وأن يرجئ هذا الكلام إلى فرصة أخرى، وهو في هذا كله صادق غير متلكف، ولكن امرأته تلح وترید أنْ تفرغ من هذا الأمر الآن، وزوجها مضطر إلى أنْ يذعن لها، وقد دعّيت الفتاة، وحاول الرجل أنْ ينصرف، ولكن امرأته أكرهته على البقاء، فجلس ونظر في كتاب يتشاغل به عن هذا الحديث.

وتقبل الفتاة خائفة مضطربة تقدر أنها ستسمع تأنيباً ولوّماً على ما كان من خطئها، ولكنها لا تسمع لوّماً ولا تأنيباً، وإنما تسمع حديثاً في الزواج، فتأبى وتنفر من الزواج نفوراً شديداً، وتلاطفها «جان» حيناً وتتّقلّ عليها حيناً آخر، ولكنها لا تجد منها إلا إباءً ورفضاً، فتنذرها بالطرد والإقصاء، فتجزع لذلك، ولكنها لا تغير رأيها في الزواج، فهي

تأباه كل الإباء وقد غضبت جان غضباً شديداً لهذا العناد وانصرفت، وقد كلفت زوجها أنْ يجتهد في إقناعها، وأعلنت إلى الفتاة أنها ستترك الدار إذا لم تذعن للأمر.

ويخلو الأستاذ إلى الفتاة، فإذا موقف من أشد المواقف تأثيراً في النفس، ذلك أنَّ هذه التهمة ليست متكلفة ولا منتحلة، وإنما كان بين الأستاذ وهذه الفتاة شيء، ولكن رأي الأستاذ والفتاة يختلف اختلافاً عظيماً جدًا في هذا الشيء.

أما الفتاة فقد أحبت أستاذها وكلفت به وقدسته أو كادت تتجاوز التقديس إلى الجنون، وعلى هذا النحو فهمت الصلة التي كانت بينها وبينه، وأما الأستاذ فلم يحب الفتاة ولم يكلف بها، لم تقع الفتاة من نفسه موقعاً، وهو لا يحب إلا امرأته ولا يكبر إلا إياها، وهو إنما تأثر في لحظة من اللحظات بمؤشرات حسية خالصة ليس بينها وبين القلب والعاطفة صلة، فاسترسل مع حبه، ولم ينظر إلى ما كان بينه وبين الفتاة من صلة في ساعة أو بعض ساعة، إلا كما ينظر إلى متعة عارضة لا قيمة لها، ولذلك نسي الأمر ونسى نسياناً تاماً صادقاً، وكان مخلصاً حينما أنكر وقد سأله زوجه، وكان مخلصاً حينما كان يزدرى هذه الأشياء ويضيق بها، ويريد أنْ يعود إلى العمل والبحث العلمي، وهو الآن صادق حين ينصح للفتاة بأن تتزوج، والفتاة صادقة حين تكره الزواج وتتأbah، كلامها صادق، ولكن رأيهما مختلف، هي تحبه وقد وقفت نفسها عليه، وهو لا يحبها وهو لا يريد أنْ يضيع مستقبلاً، وهو يعلم حق العلم أنها لن تظفر منه بشيء، وأنه لن يفكر فيها إلا كما يفكر في تلميذة بائسة تحتاج إلى شيء من العطف والمعونة، وهي تذكر عليه قسوته وتلومه على هذه الغلظة، وتدم هذا العلم وهذه الفلسفة للذين يرتفعون بالعالم والغليسوف عن الحياة العادلة وعن العواطف والأهواء التي يخضع الناس لها ويتأثرون بها، ولكنها مهما تلح في اللوم وترسُّف في الاستعطاف فهو لا يرق ولا يعطف، وإنما يمضي في نصيحة للفتاة بأن تتزوج مزدرىً أشد الازدراء هذه الصلات المادية الخالصة، التي تجمع أحياناً بين المرأة والرجل دون أنْ يكون هنالك سبب آخر من عقل أو شعور.

غير أنَّ الفتاة قد وجدت سلاحاً قوياً ماضياً أصابت به الأستاذ، فملأته رعباً واضطرباً، فللأستاذ أنْ يقول: إنه لم يحب هذه الفتاة، وإنه يزدرى هذه الصلة التي كانت بينهما، وله أنْ يقسِّ عليها ويزدرى حبها، ويضحى بعواطفها في سبيل هدوئه وطمأنينته في حياته الزوجية الخاصة، ولكن ليس له إذا استباح خيانة الفتاة في حبها أنْ يخون صديقه «بلونديل» في صداقته، فهو يعرض عليها أنْ تكون زوجاً لهذا الصديق، وليس لهذا العرض معنى إلا أنه يضحي بها وبصديقه ليسعد هو ويطمئن، أليس يقدم

عشيقته إلى صديقه لتكون زوجاً له؟ أليس يضطر هذه العشيقه إلى أن تخفي ما كان بينه وبينها، وإلى أن تؤسس حياتها الزوجية على الكذب والتفاق؟ هو إذن يخون صديقه ويضحي به، وكل ما انتهت إليه فلسفته إنما هو أن جعلته أثراً مسرفاً في الأثرة.

ووجدت هذه الحجة منفذاً لا إلى عقل الأستاذ بل إلى قلبه وضميره، فقد يكون فيلسوفاً، وقد يكون هو مزدرياً للصلات الجنسية، وقد يكون مزدرياً لما توارث الناس من عادة وخلق، ولكن من يدري؟! أيساركه صديقه في هذه الآراء أم يخالفه فيها؟ أليس من الحق عليه قبل أن ينصح بهذا الزواج أن يتبع رأي صديقه في مثل هذه الأشياء، فإن كان هذا الصديق كغيره من الناس يقدر الشرف – كما يقدرها الناس – ضمن به على الزواج القائم على الخيانة والكذب، وإن كان مثله لا يحفل بالصلات الجنسية المادية، وإنما يقدر العقل والقلب أولاً، مضى في النصح بهذا الزواج والبحث عليه، بلى! هذا حق عليه، وقد اعتزم أن يستشير صديقه ويظهره على جلية الأمر، وهو الآن متوجع يألم أشد الألم لهذا العمل اليسير في نفسه الذي جعلت له الأوضاع الاجتماعية هذا الخطر العظيم، وهو يألم لأن هذا الأمر قد يتكتشف عن كوارث، فقد ينبعض الحياة على زوجه التي يحبها، وقد تتضطر هذه الفتاة التي يعطف عليها إلى أن تستأنف حياة البؤس والفاقة، والفتاة تنظر إليه وتسمع له، وما كانت تظن أنه سيضعف إلى هذا الحد، وإذا هي كلها إشراق ورحمة، وإذا هي تكره أن يألم حبيبها وأستاذها هذا الألم الثقيل، وإذا هي تعذر إليه وتعلن أنها قد قبلت الزواج وتلح عليه في ألا يكشف صديقه بشيء، ولكن الرجل قد اعتزم – وهو لا يعرف التردد إذا اعتزم – وقد دعا صديقه ويتدرج به في الحديث وإلى الحب والزواج، ثم ينتهي به إلى ذكر الفتاة، إلى أنه يعلم ما يضمر لها من حب، فيجهد الصديق في أن يخفى ذلك، ولكن الأستاذ قد ألح ومهر في الإلحاح حتى انتهى صديقه فاعتبرت بهذا الحب وقوته وسلطانه على نفسها، وأخذ صاحبه يتحدث إليه فيذكر له أنَّ هذه الفتاة ليست كما يقدر وأن قد كان لها ماض في ألمانيا، فيجيب بأنه لا يحفل بذلك ولا يلتفت إليه وإنما يعنيه أنْ تميل الفتاة إليه، وترغب في أن تكون زوجاً له، وقد أخذ الأستاذ يبتهج؛ لأن المسافة بينه وبين صديقه أخذت تظهر قريبة، فصديقه مثله يزدري هذه الصلات المادية التي لم تقم على الشعور ولا على العقل، غير أنَّ صديقه مضطرب متعدد يسأله سؤالاً يترك في نفسه أثراً قوياً، يذكر له أنَّ الناس يتحدثون في المعهد بصلة كانت بينه وبين الفتاة، وهو يريد أنْ يتبع حقيقة هذا الأمر، فإذا أنكر الأستاذ ذلك لم يعرف الصديق حداً لابتهاجه ولا لغبطته، فهو يستطيع إذن أنْ يقترب بالفتاة.

- ولو كان بيبي وبيتها شيء كهذا؟
- إذن لكان الزواج مستحيلًا.
- ولكنني قد أكون شديد التأثير في نفس هذه الفتاة، فهي تجلني وتكتبني إجلال الأستاذ وإكباره.
- ذلك شيء أحبه ولا أكرهه، وإنما الذي أكرهه هو الصلة المادية، وقد بعثت في نفسي الطمأنينة من هذه الناحية فأنا سعيد.

وقد استيقن الأستاذ إذن أنه يخون صديقه إنْ نصح بهذا الزواج ويعرضه للشقاء، فأخذ يجتهد في أنْ يهدئ من صديقه ويدعوه إلى الأناء، ولكن الباب قد فتح وأقبلوا ينتبهون الأستاذ بأنْ كاتبًا بلجيكيًّا كبيرًا تتحى له عن جائزة «نوبل»، ثم أقبلوا ينتبهون بأنَّه قد منح الجائزة، ثم أقبلوا يهنتونه، وانصرف عما كان فيه إلى جائزة «نوبل»، وأقبلت الفتاة واعتزمت الزواج، وأعلن هذا الزواج إلى الطلاب، ولم يستطع الأستاذ أنْ يؤجل هذا الإعلان.

إذا كان الفصل الثاني، فقد مضى حين على هذا كله، وتم الزواج رغم ما بذل الأستاذ من جهد لإلغائه، وأصبحت الخيانة أمراً واقعاً، ولكن الزوج يجهلها، وكذلك تجهلها «جان»، وليس يعلم بها إلا الأستاذ وتلميذه، وقد أخذت التلميذة العهد على نفسها أنْ تجتهد في نسيان هذا الحب القديم وفي البر بزوجها والتلطف له، وأخذ الأستاذ نفسه بأنْ يكون محتشماً متحفظاً كلما لقي تلميذه أو تحدث إليها.

ونحن في هذا الفصل الثاني نشهد احتفالاً رائعاً؛ لأنَّ وساماً قدم إلى الأستاذ، وأقبل الناس يهنتونه ويحتفلون به، والمعهد قائم قاعد في استقبال الوفود وتحياتها، والناس يتربدون بين الحديقة وحجر المعهد، وكثيرة جدًا مناظر هذا الفصل، ولكنني مضططر إلى أنْ أأخذ منها شيء الكثير، ومهمماً أخذ فلن أستطيع أنْ أهمل موقفاً بين الأستاذ وبين هذا الكاتب البلجيكي الذي تتحى له عن جائزة «نوبل»، فقد أقبل هذا الكاتب يهنىء الأستاذ ولم يكونا قد تعارفاً من قبل، فخلا كل منهما إلى صاحبه في الحديقة وأخذنا يتحدثان، وأخذ الأستاذ يسأل الكاتب: لماذا تتحى له عن الجائزة وهو لا يعرفه؟ فيجيبه بأنه إنما فعل ذلك؛ لأنَّه مدین له بشيء كثير، كان هذا الكاتب قد فرغ للقصص التمثيلية يكتبها حتى نبغ فيها، ثم نالته أزمة من هذه الأزمات الغرامية التي تنتهي بالناس أحياناً إلى الموت، فخرج من بيته إلى حديقته ومعه المسدس يريد أنْ يقتل نفسه، واضطجع إلى شجرة وقد صوب المسدس إلى مقتله، وكانت الليلة جميلة والنجوم ساطعة، وإذا نظره قد

ارتفع إلى السماء، وإذا منظر النجوم التي علقت في السماء كأنها مصابيح قد أثر في نفسه المضطربة تأثيراً شديداً، وإذا هو يرى إلى جانب هذه المصابيح مصابيح أخرى ليست أقل منها جمالاً وبهجةً، هي هذه الحقائق العلمية الفلسفية التي تسيطر على حياة الناس وتهديهم في سبيل الرقي والكمال، وإذا عزمه على الموت قد فتر، وإذا هو مشوق إلى أنْ يعلم، وإلى أنْ يدرس هذه الحقائق العلمية الفلسفية، فلما أصبح نظر في الكتب فوquette إليه كتب الأستاذ، فكان تأثيرها في نفسه شديداً، صرفة عن التمثيل وحياة الكتاب إلى الفلسفة وحياة الفلسفه، وإذا هو قد سلك سبيله متأثراً بالحس ثم بالعاطفة، ثم انتهى إلى الحياة العقلية الخالصة، كذلك يتحدث الكاتب إلى العالم فيجيئه العالم – مضطرباً متأثراً – بأنه قد سلك الطريق المضادة لطريقه، بدأ بالحياة العقلية الفلسفية، ثم هو الآن وقد جاوز الخمسين قد أخذ يتعرض للشك وآثاره، فهو يترك الفلسفة قليلاً قليلاً، يترك حياة العقل إلى حياة الشعور، ومن يدرى إلى أين ينتهي؟ هو شاك في علمه وفلسفته، وفي تلك الحقائق التي تشبه مصابيح السماء.

وكل شيء في حقيقة الأمر يدعوه هذا الأستاذ إلى أنْ يضطرب ويشك، فهو يعاني آلاماً شداداً منذ كان هذا الزواج، هو لا يحب الفتاة، ولكنه يعلم أنَّ الفتاة تحبه حباً شديداً مسرفاً في الشدة ينبعص عليها حياتها، ويوشك أنْ ينبعص على صديقه حياته ويوشك أنْ يفسد كل شيء، فالفتاة تتجلد وتجاهد، ولكنها لا تظفر من هذا الجهاد بطائل، وإذا افتخض هذا الأمر – ولا بد من أنْ يفتخض – فما مصير صديقه؟ وما مصير بحثهم العلمي؟ أضف إلى هذا أنَّ هذا الأستاذ الذي لم يتعود الكذب قط يعيش الآن عيشة قائمة كلها على الكذب، يكذب على امرأته، ويكذب على صديقه، ويحمل صديقه على حياة كلها نفاق، وليس هذا الفصل إلا إثباتاً لهذا كله، فنحن نرى الفتاة بعد قليل قد أقبلت مع زوجها شاحبة ممتقدعة شديدة الضعف، وزوجها يتلطف لها، ويرفق بها، بل يغازلها فلا يجد منها إلا فتوراً يشبه النفور، وهو يعلل ذلك بالمرض واضطراب الأعصاب، وبينما هما كذلك إذ يظهر الأستاذ ومعه امرأته فينتهيان في الحديقة ناحية كأنهما يطلبان العزلة حتى إذا ظفرا بها تعانقاً فرحين مبهجين بهذا الفوز والفتاة تراهما، فيقع ذلك من نفسها موقعاً مؤلماً جدًا، ثم يمر الأستاذ وحده بالفتاة، وهي تستريح في مجلسها هذا فيكون بيته وبينها حديث نفهم منه كل ما قدمت.

نفهم أنَّ الفتاة قد انتهت من الصبر إلى أقصاه، وهي لا تستطيع أنْ تنسى هذا الحب ولا أنْ تبرأ منه، وهي لا تستطيع أنْ تحمل جفوة الأستاذ واحتشامه، وإنما تريد أنْ يرق

لها، ويمنحها من حين إلى حين ابتسامة بريئة أو قبلة طاهرة على جبهتها، هي لا تطبع في أكثر من هذا، وهو يضن عليها بهذا احتراماً لصديقه وإنكاراً لهذا الحب الآثم، ولكنها تلح وتسرف في الإلحاد، ت يريد أن تخلو إليه لحظة؛ لتتظر منه ببعض هذا أو بكلمات رقيقة، وقد انتهى هذا الإلحاد إلى أن أثر في نفس الأستاذ، وكأنه قد قبل ما تريده، ويمضي الاحتفال كما بدأ، يذهب الناس فيه ويجهبون، وقد اعتذر الفتاة فصعدت إلى منزلها بالحقيقة لأنها مريضة، وما هي إلا لحظات حتى يمر الأستاذ متوجهًا إلى هذا البيت وقد رأته زوجه فأنكرت اتجاهه هذا الوجه، ولكنه زعم لها أنه منصرف إلى مكتبه ليقف درجًا من الأدراج يحرض على أن يظل مقفلًا، وأمنت له زوجه ومضت إلى ما كانت فيه من استقبال وتوديع، وإذا «بلونديل» يمر بنفس المكان بعد حين، ويلقاه أحد المدعوين منصرفًا، فيدهش للقاءه وينبه بأنه كان قد دخل بيته يأخذ معطفه، وهو في ذلك إذ انطفأ النور فجأة وخرج، فخيل إليه أنَّ رجلاً يدخل البيت فظننه إيهاب.

أما «بلونديل» فقد تنبه في نفسه شك مؤلم حاول كتمانه، ولكن أخذ يستوثق حتى استيقن أنَّ زوجه ليست نائمة، وأنها ليست وحدها، وإذا هو يطلب «جان» زوج صديقه الأستاذ، فإذا أقبلت توسل إليها أنْ تصعد لترى امرأته، فقد تركها مريضة فتصعد «جان»، وتعود مضطربة مخلوعة القلب؛ لأنها رأت زوجها عند الفتاة، أما «بلونديل» فقد فهم واستوثق، وأمسك زوج صديقه، وجلسا يرقبان عودة الأستاذ، ويعود الأستاذ بعد حين، فيلقاء «بلونديل» بكلام عنيف ثقيل، ولكن «جان» تأمره أنْ يتركهما وحدهما، فإذا خلا الأستاذ إلى زوجه حاول أنْ يعتذر، وأنْ يذكر الحق فلم يكن عند الفتاة في إثم، وإنما كان عندها يهديء من ثورتها ويقدم لها النصح، ولكن زوجه تأبى عليه أنْ يتكلم، فهي مشغولة عن الكلام، بين يديها مسودات لمقال كتبته لصحيفة من الصحف، وفي هذا المقال حديث عما كان بينها وبين زوجها من حب وتعاون على البحث العلمي، وهي تقرأ هذا المقال متأثرة محزونة؛ لأنها تحس أنها مخطئة فيما زعمت فيه، أليس زوجها قد خانها؟ أليس حبها قد خدع واذري؟! أما زوجها فليس أقل منها اضطراباً، لا لأنه خانها؛ بل لأنه يشعر بأنها تعقد ذلك، ويريد أنْ يغير رأيها، وكيف السبيل إلى ذلك دون الاعتراف بالحق؟ على أنَّ «بلونديل» قد أقبل وطلب الخلوة إلى صديقه، وأخذ يزجره ويعنته ويتهمه بخيانته، ويجهد الأستاذ مخلصاً في أنْ يثبت له أنه لم يخنه ولم يسأ إليه، ثم ينتهي به الأمر إلى التصريح بالحق، فإذا الغضب قد بلغ من صديقه أقصاه، أليس صديقه قد كذب عليه، وما له لم ينبيه بالحق قبل الزواج؟ وقد أسرف «بلونديل» في الغضب حتى

اتهم صاحبه بأنه أول من اتصل بالفتاة، وأنه اخترع قصة الضابط الألماني، وأنه كان عشيق زوجه قبل الزواج وبعد الزواج، وهو يزدرى الصداقة الآن، ويزدرى العلم ويزدرى الفلسفة، ولا يفكر إلا في شيء واحد هو الانتقام، وسينتقم.

وهما كذلك إذ تقبل الفتاة وقد سمعت صياغ زوجها، فإذا أقبلت اجتهد الأستاذ في أن يستعين بها على إقناع زوجها لبراءته فيسألهما: أليس من الحق أنك تحبين زوجك؟ وإذا هي تجيب في صراحة وعنف: كلا، لا أحبه ولم أحبه ولن أحبه وما أحببت ولن أحب غيرك! انتهى الحب بها إلى الجنون فهي لا تخفي من أمرها شيئاً، وانتهت الغيرة بزوجها إلى الجنون، فهو لا يملك من نفسه شيئاً، وقد تركهما عاد ومعه كتاب هو ثمرة الحياة العلمية للأستاذ، فيه فلسنته وخلاصته مباحثه، وهو مخطوط كتبته الفتاة بإملاء الأستاذ حين كانت تعمل في المعهد، أقبل يحمل هذا الكتاب، وهو يعلم أنه أعز شيء على الأستاذ، ولكنه يريد أن ينتقم، وبم يبدأ الانتقام؟ خانه الأستاذ في امرأته، فهو يسيئه في فلسفته، وإذا هو يمزق الكتاب، ويفرق أوراقه المقطعة في الهواء، والأستاذ صعق يتوجه لكتابه، والفتاة والهة تجمع هذه القطع المفرقة، وقد انضمت إليها زوج الأستاذ فهي تعينها على هذا الجمع.

إذا كان الفصل الثالث، فقد مضت أيام على هذه القصة ونحن في غرفة «جان» زوج الأستاذ، وفي المعهد اضطراب شديد؛ لأن حادثاً حدث، وأخذت الصحف تذيعه، وتخوض فيه، وظهر أعداء الأستاذ فأسرفوا في التشهير به والتشنيع عليه، كان الأستاذ في المجمع العلمي، وبينما هو خارج بعد انتهاء الجلسة لقيه صديقه «بلونديل» في أروقة المجمع فلطميه بمشهد من أصحابه وزملائه، وأعلن الأمر إلى الناس، فلجلجت فيه الصحف، وأصبح حديث باريس، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، ولكن ناساً نصحوا للأستاذ بأن يثار لنفسه من صديقه بالبارزة، وكاد الأستاذ يقبل هذا النصيحة لولا أن ألحت عليه زوجه في أن يربأ بنفسه عن هذا الأمر الذي لا يليق بالعلماء، ولا سيما إذا بلغوا منزلته من المجد والرفة، كذلك تتحدث زوجة إلى صديق حميم هو هذا الكاتب البلجيكي الذي رأيناها في الفصل الثاني، ولكن هذه المرأة مخدوعة تجهل كل شيء، فإذا زوجها قد قبل النصيحة وقبل المبارزة وأخفى عليها الأمر، وقد بارز صاحبه، ونالته الرصاصة، وحمل إلى المعهد وهو في غرفة مجاورة يقدم إليه الطبيب الإسعافات الأولى، ثم هو يريد أن يرى زوجه وابنته، وقد اعتزم الطبيب أن ينقله إلى هذه الغرفة، وألح هو في أن يدخلها مashi'a لا محمولاً حتى لا ترتاع

زوجه، وهذا هو ذا يقبل وقد أخذ أصحابه يسندونه وفي فمه لفافة التبغ ليظهر لامرأته أنْ ليس عليه بأس، فإذا رأته جزعت، ولكن الطبيب والأصدقاء يهدئون من روعها، ويؤكدون لها أنْ ليس عليه من بأس، وأنَّ الرصاصية قد أصابت الكتف ولم تبلغ الرئة، وهم يمدون الأستاذ على مضجعه، وقد خلا إليه الطبيب لحظة، فإذا الأستاذ يسأله ملحاً ويطالبه بالصراحة المطلقة: ما أمره؟ وهل هو معرض للخطر؟ وهو لا يريد في ذلك تلميحاً ولا مراوغة؛ لأنَّه في حاجة إلى أنْ يوصي بأمور هامة جدًا، فينبئه الطبيب أنه ليس عليه من بأس إلا أنْ يبصق دمًا، فإن فعل فليس هو معرضًا، ولكن حالة تحتاج إلى احتياط شديد. – إذنْ فاذنْ لي أنْ أخلو إلى زوجي حيناً ما، قبل أنْ تبدأ في عملك لكشف مكان الرصاصية.

فيأخذن له الطبيب، ولكن على ألا يتحرك ولا يسرف في الكلام، وهذه زوجه قد دخلت عليه جزعة، فما هي إلا أنْ هدأها، فأظهرت الهدوء ونسخت كل شيء إلا زوجها، لكن زوجها سيكلفها أشياء ثقلاً، وليس يطلب إليها إلا أنْ يرى الفتاة التي كانت مصدر كل هذه النكبات، ومهما تأبِّ زوجه فهو متشدد في ذلك، وهو يريد أنْ يراها، وامرأته لا تأبِّ غيرةً، وإنما تأبِّ إشفاقاً على زوجها، ولكن زوجها ملح ولا بد من الإذعان، وقد كتبت «جان» كلمة وبعثت بها إلى هذه الفتاة، فأقبلت وانصرفت «جان» ليخلو زوجها إلى هذه الفتاة، كما أراد على أنْ يدعوها إذا فرغ من ذلك.

وانظر إلى هذه الفتاة قد أقبلت، وهي لم تكن تقدر من هذا كله شيئاً، وانظر إليها جزعة والهة حين رأته طريحاً جريحاً، فهي تتكلم كلاماً متصل اللفظ غير متصل المعنى، قد فقدت رشدها أو كادت، والأستاذ يجتهد في أنْ يظفر منها بالصمت، فلا يكاد يبلغ ذلك إلا بمشقة شديدة، يعلن إليها إرادته وهي أنْ ترك باريس ولا ترى زوجها ولا امرأته، حتى ولو ألح زوجها في طلبها، وقد ضمن لها الحياة وخصص لها مقداراً من المال، أما هي فلا تسمع لشيء من هذا، وإنما هي منصرفة إلى جزعها، فهي تتكلم، وهي تبكي، وهي تضحك، وهي تقبل يد الأستاذ ومضجعه وكل ما ظفرت به شفتها، فهي شخص لا يستطيع تصوره ولا تصوирه إلا «هنري بتايل»، وقد صرف الأستاذ هذه الفتاة بعد أنْ رق لها وبارك عليها كما يفعل القسيس، أكان يحبها؟ أم كان يعطف عليها ويرثي لها؟ أليست خلية بالعاطف والرثاء؟ انظر إليها تخرج طائعة جزعة مذعنة للقضاء ثائرة عليه، وانظر إلى الزوج قد عادت إلى زوجها يلطفها ويرق لها ويکاد يغازلها، ولكن سيفلها شيئاً ثقيلاً، أليس يطلب إليها أنْ تدعوه صديقه وقاتله «بلونديل»! وهي ثائرة

تأبى ذلك كل الإباء، ولكنه يريد ويلح ويعزم عليها ولا بد من الإذعان لما أراد، وقد أقبل هذا الصديق، فلم يك يرى صاحبه طریحاً حتى أخذ منه الجزع، وإذا هو يستغفر ويضرع ويبيكي ممعناً في البكاء، وإذا الزوج تلقاه لقاءً عنیفاً كله بغض وموجدة، وأما الأستاذ فرقيق رفيق قد قبل العذر وغفر الذنب وعرف للصداقة والعلم حقهما، وهو سعيد؛ لأن صديقه قد آب إلى رشده، وهو يصافح صديقه ولكن يريد أن يكلف زوجه شيئاً ثقيلاً، يريدها لا على أن تصافح هذا القاتل بل هو أشد من هذا، فإلى أي حال ستقول هذه المباحث العلمية إذا مات هو ولم يتعاون «بلونديل» و«جان» على المضي فيها؟ يجب إذن أن يتعاونا، وقد كتب ذلك في وصيته، وهو يريد أن يقسمها له على الإذعان بهذه الوصية، أما «بلونديل» فيقسم وأما «جان» فتأبى، وهو يلح وقد ظهر عليه الجهد والإعياء، وأخذت الحمى تظهر عليه، والرجل عالم بأنه ميت؛ لأنه قد بصدق الدم، وأخفى ذلك على طبيبه وعلى من حوله، وهو يلح وزوجه تأبى، وهي مطمئنة إلى أنه سيحيا؛ لأن الطبيب قد أكد لها ذلك، وهو يلح وهي تأبى، وقد اضطرب لسانه وحركاته وقال غير الصواب، وإذا النزيف، وإذا زوجه صارخة تدعوا الطبيب وقد أقبل الطبيب وإذا الأستاذ قد مات، فانظر إلى صديقه جاشياً يبكي، وانظر إلى امرأته ملقة كأن قد أغمي عليها، وقد أقبل الطلاب من كل مكان فملئوا الحجرة وهو يبكون، ونظروا فإذا القاتل بينهم يبكي، فهموا به يدفعونه دفعاً، ولكن، انظر إلى هذه المرأة قد نهضت مستجدة كل قوتها وشجاعتها فأعلنت إلى الطلبة أن دعوه، فقد أراد أستاذكم كذا وكذا وطلب منا أن نقسم، فاما هو فاقسم، وأما أنا فلم أتمكن من القسم قبل أن يموت، وإذا هما يقسمان على تنفيذ ما أراد.

١٩٢٤ إبريل

القبر تحت قوس النصر

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «بول رينال»

ومع ذلك فلا بد من أن أحذثك عنها، ويخيل إليّ أنني أسيء إليك وإلى صناعتي إذا لم أحذثك عنها، ولكن ما هي؟! وما معنى هذه الجملة الغامضة؟! أما هي فالقصة التي نحن بإزائها والتي مثلت في باريس وفي بيت موليير منذ ثلاثة أشهر، وأما هذه الجملة الغامضة فستفهمها حين تعلم أنني حائز في أمر هذه القصة لا أدرى أأرضي عنها أم أمقتها، وحين تعلم أنني لم أنفرد بهذه الحيرة، وإنما شاركتني فيها النظارة الذين سمعوها وشهدوها مرات في بيت موليير، وشاركتني فيها النقاد الذين جمعوا فيما كتبوا عن هذه القصة بين الرضا والسخط، وبين المقت والإعجاب.

وأحسب أنني سأرضي عن هذه القصة، وسأسخط عليها معاً، ففيها ما هو خليق بالرضا، وفيها ما هو خليق بالسخط، فأما شكلها فحسن رائع، وأما لفظها فجميل منتقى، وأما أسلوبها فآية بين الأساليب، وأما حوارها فقصير سريع خفيف الحركة مملوء بالمعنى كأنه جوامع الكلم، وأما الشعور الذي انبعثت عنه فقوياً عنيف صادق أخاذ للنفوس، كل هذا حق، ولكن هناك حقاً آخر لا يمكن الإعراض عنه، وهو أنَّ هذه القصة الرائعة تقوم على أساس واه لا ملاك له ولا نصيب للصحة فيه، فإن يكن له نصيب من الصحة فضئيل شديد الضآلة، لا يكاد يحس ولا ينبغي أنْ يعتقد به ولا أنْ يؤبه له، ومن هنا نفهم استحقاق هذه القصة للرضا عنها والسخط عليها، واختلاف الناس فيها اختلافاً شديداً حتى تجاوزوا الحوار والجدال إلى الاصطدام والتضارب، فقد اصطدموا الناس وتضاربوا في بيت موليير عندما سمعوا هذه القصة، اصطدموا وتضاربوا وأنكروا

واحتجوا، ونقلت الصحف ذلك وعلّته وأكثرت في تعليله، ذلك لأنَّ القصة تقوم على أساسين، أحدهما قد يفهم وقد يتصرّف وقد يعتذر عنه، وهو أنَّ فتاة تحب خطيبها ويحبها هذا الخطيب حبًا لا حد له، حبًا الأمل فيه قليل؛ لأنَّ الحرب قائمة؛ ولأنَّ هذا الخطيب معرض لأخطارها؛ ولأنَّ الزواج لم يتحقّق لهذين العاشقين، فليس غريبًا أنْ تعلم الفتاة نفسها راضية مبتهجة مضحية بما ورثت من خلق وعادة ودين في سبيل هذا الشاب الذي يضحي بنفسه في سبيل الوطن، وليس غريبًا أنْ يتعدد هذا الفتى، ثم يقبل التضحية، فهو يحب وهو واثق أنه سيموت، كل ذلك يمكن فهمه وتصرّفه والاعتذار عنه؛ لأنه لا يخرج عن طور الإنسان وما فطر عليه من ضعف وأثرة.

أما الأساس الآخر فغريب حقاً متجاوز لطور الإنسانية المتحضرة المذهبة، التي تأثرت بالدين والأخلاق والنظم الاجتماعية والسياسية آلاف السنين، وهو أنَّ أباًه يتعشّق خطيبة ابنه ويهواها غير شاعر بذلك، إذا ظهر الأمر له ولابنه كانت بينهما خصومة عنيفة انكر فيها الأب أبوته، والابن بنته وتنهى فيها كلاهما لصاحب الموت، ثم لا تثبت الخصومة أنْ تتغيّر، فإذا الأب قد عرف خطأه، وإذا هو جاث أمام ابنه باسطًا يديه يتصرّف ويستعطف يلتمس العفو، وإذا الابن يعفو ويشفّق ويتلطف بأبيه، كل هذا غريب غير مفهوم ولا ملائم لما ألف الناس ولا فطروا عليه، ومع ذلك فقد اختصرت لك القصة اختصاراً، وأحسب أنك تفهم الآن تردد الناس في الحكم عليها، وأحسب أنك تعذر أيضًا ترددك في أنَّ أحدثك عنها، فقد كنت أريد أنْ أعرض عن ذلك إعراضًا، ولكن ظهور هذه القصة وما دار حول تمثيلها حادث أدبي عظيم الخطير، لا ينبغي أنْ أهمله، ولا أنْ أتعمد طيه عن القراء، على أنني مهمًا أفعل، ومهما أبدل من قوة وجهد، فلن أستطيع أنْ أعطيك من هذه القصة صورة صادقة ولا مقاربة، فهي ليست من القصص التي يمكن تخليصها وتحليلها في سهولة ويسر، وإنما هي من القصص التي يجب أنْ تقرأ كلها أو تشهد كلها ليمكن الحكم عليها حكمًا صحيحاً، فقد حدثتك عن هذا الحوار القصير السريع الجامع، ولم أحدثك عن حوار آخر طويل بطيء ملتو غامض، فيه فلسفة عميقه قوية ترقى بك حتى يكاد الدوار يأخذك، وإذا كان من العسير تلخيص هذا الحوار القصير فأعسر منه تفسير ذلك الحوار الطويل، فلتتجزئ من هذا كله بما أستطيع أنْ أقدم إليك في هذا الفصل، وأحبب إلى بأن تقرأها وتحكم عليها بدون وساطة ولا معونة.

أشخاص هذه القصة ثلاثة لا يزيدون، بل لا يُسمّون إلا الشخص الثالث فهو وحده المسمى، وهم لا يُسمّون؛ لأنَّ الكاتب تعمد ألا يسمّيهم، وهذا التعمد هو نتيجة خطأ عظيم،

فقد خيل إلى الكاتب أو خيل إلى الناس أنَّ الكاتب حين تعمد ألا يسمى هذين الشخصين، تجنب أنْ تكون قصته شخصية، وقصد إلى أنْ يكون هؤلاء الأشخاص ممثلي لأنواعهم من أفراد الناس.

في القصةشيخ أقام ولم يشتراك في الحرب، وفيها جندي مقاتل، وفيها فتاة بينها وبين هذا الجندي حب وخطبة، وقد سمي الكاتب الفتاة، فدل بهذه التسمية على أنه لا يريد أنْ يجعل الفتاة مثالاً لغيرها من الفتيات، ولم يسم الشيخ ولا ابنه، فدل بذلك على أنه يريد أنْ يقول: إنَّ موقف هذين الرجلين إنْ لم يكن موقف الناس جميعاً في أثناء الحرب فيبينه وبين موقف الناس جميماً شبه قليل أو كثير، وهذا هو الخطأ، فلو أنَّ الكاتب سمي هذين الرجلين وشخصهما كما سمي الفتاة وشخصها؛ لأمكن أنْ تقبل القصة لاستطاعنا أنْ نفرض أنَّ الكاتب يمثل حالاً عارضة مرضية عرضت لأسرة بعينها في ظروف خاصة، فهي تمثل الشاذ ولا تمثل المطرد، ومن الذي يستطيع أنْ ينكر أنَّ الشاذ موجود، وأنَّ وجوده لازم لوجود المطرد! لو فعل الكاتب هذا لكان له وجهه وتأويله، ولكنه لم يفعله فأنكر الناس عليه هذه الجرأة في التعميم؛ لأنها تخالف العقل والحق؛ ولأنها تخالف البر الذي يدين به الأبناء للأباء، والعطف الذي يضمره الآباء للأبناء.

هذا الشيخ الذي اتخذ الكاتب مثالاً للمقيمين الذين لم يشتراكوا في الحرب رجل في الستين من عمره، غنيٌ وادع، يظهر من القصة أنه أثُر، يسرف في حب نفسه، وأنَّ حظه من الحنان قليل، أما ابنه فشاب غنيٌ، ورث عن جده لأمه ثروة ضخمة كان يدبّرها، ثم كانت الحرب فتركت تدبيرها لأبيه، وهو ذكيٌ شديد الذكاء، عظيم الحظ من التعليم، ملماً متيناً بالشيء الكثير من الفلسفة وأراء الفلاسفة، فليس هو إذن بالشاب العادي، أتم دروسه في باريس ثم عاد إلى مدینته وانصرف إلى ثروته يدبّرها، ولكنه كان يتربّد على باريس فيقضي فيها فصل الشتاء، وقد لقي فيها في غرفة من غرف الاستقبال عند أسرة صديقة له فتاة جميلة ذكية حساسة، أحبها وأحبتها، ثم خطبها وقبلتها، وهي يتيمة ليس لها أب ولا أم، وإنما كانت تعيش مع عمة لها أو حالة، ثم أعلنت الحرب ومضت أشهر، وماتت هذه العمة أو الحالة، فأصبحت الفتاة وحيدة في باريس، ولم تطرق هذه الوحيدة، فجاءت إلى الشيخ أبي خطيبها وأقامت عنده، فاتصلت بين الشيخ وبينها علاقة قوية رقيقة تكاد تكون حبًّا لولا أنَّ الفتاة تنظر إلى الشيخ كأنه أبوها، ولو لا أنَّ الشيخ ينظر إلى الفتاة كأنها ابنته، وأنهما جميماً يفكران في هذا الجندي الذي ألف بينهما، وقد مضت على الحرب سنة وبعض سنة، ولم يستطع هذا الشاب أنْ يظفر بإجازة يرى فيها

خطبه وأباه، ثم أتيحت له هذه الإجازة فهو مقبل، وهما ينتظرانه، ويجب أن تعلم أنه ظفر بهذه الإجازة بعد أن جرح مرة في الميدان، ثم برع من جراحته، ثم اشترك في هجوم عنيف قام به الجيش الفرنسي في شمبانيا، ونشرت البلاغات الرسمية أنه انتهى بانتصار عظيم، وظل الناس مقتنعين بأن الحرب مشرفة بعده على الانتهاء.

وهما ينتظرانه وقد انتصف الليل، وأقبلت الساعة الثانية من الصباح، الشيخ جالس صامت كأنه يفكر، وهو ينتظر الفتاة غير مستقرة تجلس ثم تنهض ثم تجلس ثم تصغي ثم تذهب للنافذة ثم تعود، وهما الآن يصغيان، وهو يضطربان؛ لأنهما سمعا إغلاق الباب، وقد خرجت الفتاة وعادت، ومعها صاحبها الجندي تقبله ثم يتحدثون، ولست أستطيع أن الخص لك هذا الحديث، فهو أشد دقة من أن يلخص، ولكنه يدور حول صحة الجندي وسفره، وحول الحرب وحول الانتصار، وحول ما يأمل الناس، وتفهم من هذا الحديث أنَّ الشيخ والفتاة مؤمنان بانتصار الجيش الفرنسي وقرب انتهاء الحرب، وأنَّ الفتى يؤكد لهم هذا، ولكنه يتکلف هذا التأكيد، كأنه لا يريد أن يخيب رجاءهما، وهو يسألهما: ألم تصل إليهما رسالة؟ فيتکلفان الإنكار، ألم يصل إليهما نبأ برقي؟ فيظهران الدهش، وتحس أنت هذا التکلف، أما الشاب فلا يشعر به، وإنْ فهو فرح مغتبط إلى غير حد، كان يخشى أن تصل إليه رسالة برقية تدعوه أنْ يعود أدراجه إلى الميدان، فأماماً وهذه الرسالة لم تصل فهو سعيد؛ لأنه سيتمكن أربعة أيام وسيستطيع أن يتزوج قبل سفره، وقد أعد الشيخ كل شيء، فتمت الإجراءات الرسمية، وسيتم الزواج غداً أو اليوم متى أشرق الصبح، فنحن في الساعة الثانية وهو يتحدثون عن الحرب وعن أهوالها، وهم يذكرون أسماء الأصدقاء الذين سافروا إلى الميدان، ويسألون عن أنباءهم والفتى يجيب، ثم يذكر الفتى أمه التي ماتت قبل أنْ تعلن الحرب، وتنصرف الفتاة فيخلو الشاب إلى أبيه، ومؤثرة جدًا هذه الأحاديث التي يتبادلها الرجال، مؤثرة؛ لأنها تمثل نفس الشيخ وتمثل نفس الفتى وتمثل حبهما ل الفتاة تمثيلاً صحيحاً.

فأما الشيخ فسعيد مطمئن إلى الحياة منذ أقامت معه الفتاة، كان قبل ذلك وحيداً مضطرباً معنِّياً بعمله الكثير، ثم أقبلت هذه الفتاة فأذالت الوحدة، وقادت مقامها مودة حلوة هادئة حببت الحياة إلى الشيخ فهو يحيا سعيداً، وهو يشعر بأنَّ الحرب ثقيلة الوطأة على الجندي، ولكنه يشعر أيضاً أنَّ هذه الحرب ثقيلة الوطأة على المقيمين؛ فإذا كان الجندي يؤدون واجبهم في الميدان فالمقيمون يؤدون واجبهم دون الميدان، وهل كان الجندي يستطيعون أنْ يثبتوا لو لم يثبت المقيمون في حياتهم الهدأة فيدبروا للحرب

حاجاتها، والشيخ مع هذا مضطرب لقرب انتهاء الحرب؛ مضطرب لأن ابنه سيعود ويتزوج وسيستأثر بالفتاة، وسيبقى هو وحيداً كما كان، وسيخلو إلى شيخوخته، ينم حديثه بذلك في غير تصريح، ويکاد الفتى يفهم ولكنه بعيد عن تصوره، فهذا الفتى جنديٌّ حقاً فيه مزايا الجندي وفيه عيوبهم أيضاً، ولكن من الذي يجرؤ على أن يقول: إنَّ للجندي أثناء الحرب عيوباً! أليسوا يدافعون عن الوطن! أليسوا يحمونه ويحمون أهله! أليست الأمة كلها مدينة لهم بالحياة والحرية! في هذا الفتى كل مزايا الجندي الفرنسي أثناء الحرب، فهو شجاع، ولكن شجاعته هادئة متواضعة لا تفاخر ولا تعلن عن نفسها، وهو مطمئن إلى الألم يحارب لا لأنه يحب الحرب؛ بل لأنه مضطرب إلى هذه الحرب، ويطبع لا لأنه مفظور على الطاعة؛ بل لأنه يطبع نفسه وكيف لا! أليس فرنسيّاً يستمتع بما يستمتع به الفرنسيون من الحقوق! وإنْ فمن الحق عليه أنْ يدافع عن هذه الحقوق، وهو يفعل هذا مختاراً؛ لأنه كان يعلم أنَّ الحرب ناسبة، فكان يستطيع أنْ يغير وطنه ليفر منها، وإذا لم يغير هذا الوطن فليؤدِّ واجباته الوطنية، ثم عمَّ يدافع في الميدان؟ عن الأرض؛ فهو يملك منها جزءاً، عن العقل الفرنسي؛ فقد غذته ثمار هذا العقل، فهو إذن لا يفعل شيئاً استثنائياً، ولكنه في الوقت نفسه يأمل آلامَاً لا حد لها، ولا يقدّرها إلا الذين يشعرون بها، وربما خطر له في الميدان أو في الخندق أنَّ أهله هاربون مطمئنون، وأنهم قد يبتعدون حيناً، وقد يضحكون حيناً، فيغطيه ذلك وينحنه، ويoid لو شاركه أهله في الألم فلم يفكروا إلا فيه ولم يتحدثوا إلا عنه ولم يحيوا إلا له، وهو يعلم أنَّ هذا جور، ولكن من الذي يستطيع أنْ يدفع الخاطر إذا خطر! ثم لا يکاد يسأل أباها عن الفتاة حتى يكثر الشيخ من الثناء والإعجاب وقد سبقه هو، فأنتي وغلا في الثناء، وفهمنا أنَّ الرجلين يحبانها، وأنَّ الشيخ نقم من الفتى شبابه وأنها تحبه، وربما نقم من الفتى إجازته التي غيرت نظام حياته ولو إلى حين.

وينتهي الحديث بهما إلى ذكر الحرب ومتى تنتهي، فيکاد الفتى يفهم من صوت أبيه وحديثه ما يخفيه، وقد أقبلت الفتاة فهو يسألها وهي تدفع إليه الرسالة البرقية، ذلك أنَّ هذه الرسالة كانت قد وصلت قبل الفتى، فأخلفها الشيخ والفتاة حتى لا ينبعصا عليه ساعة اللقاء، أما الآن فليس بد من إظهاره عليها، وفي الرسالة أمر بالعودة حالاً، وقد نظر الفتى في الرسالة فnalه شيء من الذهول، كأنه كان يقاوم مقاومة شديدة، وقد انتصر في هذه المقاومة فلم يجزع ولم يظهر عليه اضطراب ولا إنكار، وهو يضحك ولكن ضحك المحزون، يجب إذن أنْ يسافر بعد أربع ساعات، ولكن أربع ساعات! هذا وقت

طويل يستطيع فيه أن يكون سعيداً، وسيكون سعيداً! نعم! إن يتزوج فقد أبى الفتاة هذا الزواج في هذا الوقت القصير، ولكنه مع ذلك سيكون سعيداً، أربع ساعات يستمتع فيها بحريته كاملة، ويستخدم فيها ذاكرته ليذكر أيام السعادة والنعمـة، ويستخدم فيها خياله ليتمثل ما يحب من سعادة ونعمـة، وذاكرة الجندي قوية إذا تعرض للخطر، وخيال الجندي قوي إذا تعرض للخطر! سيكون سعيداً، وهو يتركـها لحظة ليصلح من أمره، فيخلوـ الشـيخ إلى الفتـاة ويـتحـدـثـانـ، فإذا هـما يـعـطـفـانـ عـلـىـ هـذـاـ الشـابـ، ولكنـ الفتـاةـ أـشـدـهـماـ عـطـفـاـ وـحزـنـاـ، وـالـشـيـخـ يـسـلـيـهاـ وـيـذـكـرـهاـ بـحـيـاتـهاـ الـهـادـئـةـ كـأـنـهـ يـأـسـفـ عـلـىـ مـاـ فـاتـ مـنـهـ، وـيـتـعـجـلـ مـنـهـ مـاـ بـقـيـ، أـلـيـساـ سـيـسـتـأـنـفـانـ هـذـهـ السـعـادـةـ بـعـدـ سـاعـاتـ مـتـىـ سـافـرـ الشـابـ، وـالـشـيـخـ يـلـاطـفـ الفتـاةـ فـيـ حـنـانـ، ولكـنهـ حـنـانـ يـشـبـهـ الغـزلـ، وـيـعـودـ الفتـىـ وـقـدـ لـبـسـ ثـيـابـ الرـزـينةـ وـالـعـرـسـ، فإذا أـنـكـراـ مـنـهـ ذـكـرـ أـجـابـ أـنـ يـرـيدـ أـنـ يـكـونـ سـعـيدـاـ، وـيـسـتـطـعـ أـنـ يـكـونـ سـعـيدـاـ، وسيـكـونـ سـعـيدـاـ! وـدـعـاهـمـاـ إـلـىـ أـنـ يـنـصـرـفـ لـيـسـتـريـحاـ، أـمـاـ الشـيـخـ فـلاـ يـأـبـيـ وـهـوـ مـتـبـعـ، وـقـدـ تـقـدـمـ الـلـيـلـ، وـالـفـتـاةـ مـتـبـعـةـ أـيـضـاـ، فالـشـيـخـ يـدـعـوهـاـ إـلـىـ الـرـاحـةـ وـيـلـحـ فـيـ ذـكـ، ولكـنـهاـ تـتـلـكـأـ تـرـيـدـ أـنـ تـبـقـيـ حـيـنـاـ مـعـ خـطـيـبـهاـ، وـقـدـ فـهـمـ الشـيـخـ ذـكـ وـقـبـلـهـ وـأـلـحـ فـيـ أـلـاـ تـمـكـثـ الفتـاةـ كـثـيرـاـ، فـوـعـدـتـهـ الفتـاةـ، وـاـنـصـرـفـ الشـيـخـ فـيـخـلـوـ العـاشـقـانـ، وـلـاـ يـكـادـانـ يـتـحـدـثـانـ حتـىـ تـشـعـرـ بـأـنـ السـاعـةـ رـهـيـةـ مـمـلـوـءـ بـالـأـثـرـ وـالـعـزـمـ وـالـجـهـادـ العنـيفـ بـيـنـ الـعـوـاطـفـ الـمـخـتـلـفـةـ، أوـ قـلـ بـيـنـ عـوـاطـفـ السـلـمـ وـعـوـاطـفـ الـحـربـ؛ ذـكـ أـنـ الفتـاةـ تـعلـنـ إـلـىـ صـاحـبـهاـ فـيـ تـرـددـ وـخـبـلـ أـنـهـ تـرـيـدـ أـنـ تكونـ لـهـ، فـيـتـغـابـيـ، وـكـلـماـ تـغـابـيـ اـزـدـادـتـ هـيـ تصـريـحاـ وـإـقـدـاماـ، حتـىـ يـضـطـرـ إـلـىـ أـنـ يـفـهـمـ أـنـ يـظـهـرـ أـنـهـ يـفـهـمـ، فـيـنـكـرـ عـلـيـهـ ذـكـ وـلـكـنـ فـيـ رـفـقـ وـرـغـبـةـ، وـكـيـفـ يـقـبـلـ وـهـذاـ الـقـبـولـ إـغـوـاءـ! فـلـيـسـ لـلـفـتـاةـ أـحـدـ يـنـصـحـهاـ، وـلـوـ أـنـ لـهـاـ مـنـ يـنـصـحـهاـ لـمـاـ فـكـرـتـ فـيـ ذـكـ، عـلـىـ أـنـهـ مـتـأـثـرـ بـالـمـوقـفـ، وـهـوـ لـاـ يـرـيدـ أـنـ يـسـتـغـلـ هـذـاـ المـوقـفـ، وـلـكـنـ الفتـاةـ قـدـ فـكـرـتـ وـأـكـثـرـ التـفـكـيرـ، وـاعـزـمتـ بـعـدـ بـحـثـ وـتـمـحـيـصـ وـاقـتنـاعـ.

والدين، هي واثقة من أنَّ الدين لا ينكر عليها ذلك ولا يأخذها به، فهي لا تعصي ولا تأثم، وإنما تقدم على شيء من البر قليل، وهو قد قبل، وهو سعيد مبتهج، بل هو يتجاوز السعادة والابتهاج إلى شيء من الذهول غريب، وهنا موقف من أجمل ما كتب الكاتبون، فيه شعر وفيه قوة، وفيه صدق إذا نظر إلى هذا الفتى وقد قبل ما عرضته عليه الفتاة، ولكنه يريد الزواج وقد أخطأه الشهود، وأخطأه الممثل للحكومة، وأخطأته الكنيسة، ولكنه يستطيع أنْ يطلب هذا كله إلى الخيال، وخيال الجندي قويٌ إذا تعرض للخطر، فهو يريد أنْ يتزوج، وأنْ يستشهد أصدقاءه الذين ماتوا في الميدان على هذا

الزواج، وهو يتحدث بذلك مقتنعاً إلى صاحبته، فتختاف وتضطرب، ثم تذهب وقد فقدت الرشد واقتنت مثلاً، وهو يدعو أصدقاء الموتى واحداً واحداً، ويراهم يحضرون وهو يتحدث إليهم ويستمع نجواهم، يشتهد لهم فيشهادون، ويستشيرهم فيشieren ويهنئون، وهو يشرب الشمبانيا له ولهم وكأنه يراهم يشربون معه، يجب أن تقرأ هذه القطعة لتشعر بما فيها من جمال ينسيك كل شيء حتى نفسك.

فإذا كان الفصل الثاني، فنحن في غرفة الزوجية، والفتاة غافلة في سريرها لأن قد أخذتها سنة من النوم، والفتى جالس إلى المودع كأنه يصطلي، ثم تفيق الفتاة فتنكر هذه السنة التي أخذتها حين لم يكن يجب أن تنام، ثم تنهض من سريرها وتندنو من صاحبها ويتحدثان، وقد كان الزواج وهما سعيدان، وهي لا تنكر شيئاً مما فعلت، وهو لا ينكر شيئاً مما فعل، ولكنهما يمضيان في الحديث حتى يصلا إلى حيث يجب أن يتكتشف كل منهما كذب ولا سر ولا مراوغة، وهي في حاجة إلى تعرف الحقيقة، وهي تسأل وتلح، وهو يأبى ويحتال، ولكن لا سبيل إلى الفرار، يجب أن يجيب وإلا فهو لا يحبها، وهو يذرها عاقبة هذا الجواب، ولكنها تكره الكذب وتوثر عليه كل شيء، يجب إذن أن يجيب!

- ما أمد الحرب؟

- بعيد جداً.

- وهذا الانتصار؟

- قد استطاع العدو أن يتقى آثاره وإنْ، فكأننا لم نفعل شيئاً.

- كم ينتظر أن تدوم الحرب؟

- أعواماً.

وإذا هي مضطربة اضطراباً لا حد له، وإذا هي نادمة أشد الندم على ما فعلت، وإذا هي تلومه: لأنها أنبأها بالحق وتؤنبه؛ لأنه يمضي في الكذب، وإذا هي تعلن إليه أنها لا تحبه، ذلك أنها كانت تحبه حباً شديداً، ثم كانت الحرب وكانت الغيبة، فأحسنت أثر هذه الغيبة في الحب، وأحسنت أنها لن تستطيع أن تحافظ بحبها إذا طالت هذه الغيبة، وقد قاومت وجاهدت، ولكنها لم تفلح، وأقبل هو في إجازته، ففعلت ما فعلت لتحيي هذا الحب، وهي مقتنعة بأن الحرب قد انقضت أو كادت، أما الآن وسيستأنف الغيبة وستطول هذه الغيبة، فهي واثقة بموت هذا الحب، وهي آسفة نادمة على ما قدمت من نفسها.

أما هو فقد تلقى هذه الصاعقة في جلد وشجاعة، وما الذي يمنعه أن يكون شجاعاً، وهو يعيش مع الموت، وهو مسافر غداً إلى الموت! نعم! هو مسافر غداً إلى الموت حقاً، فقد كان أخفى على صاحبته كل شيء حتى سر هذه الإجازة، وهو الآن يظهرها على كل شيء، نعم! إنه وعد بأن يموت، فقد كانت الإجازات ألغى؛ لأن فرقته ستهاجم، وكانت قيادة الفرقة قد طلبت متطوعين يتقدمون بين يدي الجيش يوم الهجوم، يحملون قنابل ليضعوها دون خطوط العدو، ومن تطوع لهذه المهمة فهو ميت لا محالة، ولذلك أبقى الناس جميعاً أن يتطوعوا، وأقبل هو إلى رئيسيه، فطلب إليه الإذن له بالسفر على أن يعود متى تقرر الهجوم، وعلى أن يتطوع لهذه المهمة، فلما سأله الرئيس عن هذه المخاطرة، أجابه بأنه يحب فتاة، وبأن هذه الفتاة تلح عليه في أن يرها، وبأنه يخشى إذا لم يرها الآن أن يموت ولا يظفر بذلك ولما يتزوجها ولما يعطيها اسمه، وقبل الرئيس وسافر الفتى، وهو الآن مدعو إلى العودة، وإنْ قد تقرر الهجوم، وإنْ فهو مقتول يوم الجمعة، وقد ذهلت هي وأصابابها شيء من الجنون، فأخذت تفهم نفسها بأنها قاتلة، وأخذت يدافعها عن هذه التهمة، ولكنها تمضي في الاتهام، ثم في الإعجاب بهذا البطل وأمثاله، ثم في شيء يشبه العبادة، وهنا حوار يمثل قوة الشاب، فصاحبته مسيحية مؤمنة، وهو ملحد مسرف في الإلحاد، وهي تذكره بالله وهو ينكره، وهي تذكره بالموت، فلا يزداد إلا إنكاراً لوجوده، ثم ازدراء له، ثم يتحداه إنْ كان موجوداً، وماذا يخشى؟! سيموت، فإنْ كان الإله موجوداً حقاً فلن ينكر عليه إلحاده، أليس قد اجتهد وفكر فلم يهده عقله إلى شيء، ولكنه منصرف عن الدين والإله والموت إلى هذا الحب الذي لم يظفر به إلا حيناً، وهي تعطف عليه، وهو يسألها قبلة فتستدئنه وتستدئنه أياً، وقد أطfce المصباح حيناً، ثم نهض الفتى، وظللت هي في سريرها وأخذنا يتحدىان، وأخذ هو يسليها ويخادعها عن الفجر ويقصص عليها أحاديث تلهيها، وهي الآن مغرقة في نوم هادئ، وقد أشرق الصبح، فوضع الفتى رأسه بين يديه وأغرق في البكاء.

أعترف بأن هذا الفصل جميل لذيد مؤثر، ولكني أعترف بأنه غامض، وبأنه غير مفهوم، وبأن فيه فلسفة تحتاج إلى شيء من الوضوح وإلى أن تقرب من الناس، ولكن الفصل الثالث هو شر ما في القصة وأبعده عن الحق.

نحن في الغرفة التي كنا فيها في الفصل الأول، وقد وقف الفتى وصاحبته، وأقبل الشيخ فلم يلتفت إلى ابنه ولم يشعر بوجوده، وإنما أقبل إلى الفتاة يحييها ويلاطفها ويسألها عن

ليلتها، ثم تنبه إلى وجود ابنه، فسألته عن صحته وعن ليلته، وأحس الفتى هذا وأنكره على أبيه في لطف، وأخذوا يتحدثون، وأخذ الشيخ يسأل الفتاة ما بالها لم تضي غرفتها، وما يزال بها يسألها، وهي متلعمة مضطربة حتى يتدخل الفتى، فيزجر أباها جرحاً عن هذا السؤال، ويتبين للشيخ ما كان بين العاشرفين، فإذا هو ثائر مغضب يلعن ابنه ويزدريه، أليس قد افتر إثماً عظيمًا؟ أليس قد أغوى فتاة طاهرة؟! ويشتد الخدام بين الرجلين، وإذا الشيخ ينكر الحرب، ويلعنها لما أفسدت من نفوس الشبان وأخلاقهم، ولما ملأت قلوبهم بالغرور حتى خيل إليهم أنَّ الناس مدینون لهم بكل شيء، والفتى مغضب أيضاً يزجر أباها ويسبه، فلا يزداد الشيخ إلا حنقاً، أليس الفتى يضيف إثماً إلى إثم؟! أغوى الفتاة وهو الآن ينهر أباها، وهل أبقيت الحرب من شيء؟! وفيم هذا الغرور؟! إنَّ الجندي لا يزيد على أنه يؤدي واجباً كغيره من الناس، ثم يشتد الخدام بين الرجلين، وإذا الشاب يتهم أباها بأنه كان يحب الفتاة، وأنه كان يغويها في غير شعور منه، وأنه الآن غيران غيرة العاشر لا غيرة الرجل الشريف، وتحاول الفتاة أنْ تصلح بينهما، وتحاول أنْ تظهر الشيخ على ما يخفي ابنه من إشرافه على الموت، ولكن الفتى يمنعها، والخدام محتمدون بين الرجلين حتى تنتفع الصلة بينهما، فيعلن الفتى أنه منصرف، وأنه لا يعرف أباها ولا يحبه ولا يقدرها، ويعلن إليه أبوه أنه يستطيع أنْ ينصرف، وأنه يتمنى له سفراً حسناً، وتقبل الفتاة إلى الشيخ تريده أنْ تهمس إليه، فلا ترى منه إلا حقداً على ابنه واستخفافاً به، وإذا هي مغضة كصحابها تريده أنْ تتبعه، وهي تزدرى الشيخ وتهمه بكل ما كان يتهمه به الفتى، وقد كان الشيخ ثابتاً يقاوم ابنه مقاومة حسنة، فانظر إليه قد اضطرب أمام الفتاة، فهو لا يقاوم ولا يدفع عن نفسه، وإنما هو يستعطف ويترضى، ولا تزيد الفتاة إلا سخطاً وحنقاً وازدراء للشيخ.

والآن قد فهم الشيخ كل شيء، وأحس أنه مجرم، وأنه أساء إلى ابنه، وأنه كان يحب الفتاة حقاً، هو إذن يقر على نفسه بكل سيئة، وهو يستعطف ابنه ويترضاً جائياً بين يديه، وقد رق الفتى لأبيه، فأخذ يعفو عنه ويعطف عليه ويتطافله، ثم أخذ يترضى الفتاة على أبيه، ويطلب إليها أنْ تبقى، والفتاة تأبى، والشيخ يشاركها في هذا الإباء، فهو مقتنع حقاً بأنه مجرم، وهو يريد أنْ يظهره من هذا الجرم، وأي شيء يظهره من هذا الجرم إلا الألم والوحدة والتفكير في هذا الخزي الذي كان فيه! ولكن الفتى قد رق لأبيه رقة لا حد لها، فهو يستعطف الفتاة، وقد ظفر منها بما كان يريد، وقد رضي الآن عن أبيه وعن الفتاة، وإذا هو ينصح لهما ويلقي إليهما الحِكم لأنها وهي ينطق به ملك

قدس، وهم جمِيعاً مسحورون بهذا الموقف، أما الفتى فينصح ويلح على الفتاة حتى تقسم له بأنها تموت إذا مات، ولن تعيش أرملة، ولن تنصرف عن الزوج، ولكن، يجب ألا تتزوج جباناً ولا مغروراً، ثم يسأل الفتى صاحبته عن هذا الحب الذي مات: ألا يزال ميتاً!

فإذاً هذا الحب حي، وإذا الفتاة تحبه حباً لا يعدله حب.

وهو ينصرف سعيداً، وكلما خطأ خطوة هتفت به الفتاة: إني أحبك! وهتف به أبوه: عد إلى سالمًا، إني لا أريدك نائماً إلى سرير الموتى، إني أريد أنْ تغمض يدك عيني.

وقد خرج الفتى، وخلا الشيخ إلى الفتاة، ولكن الشيخ ذاهل يذكر ابنه ويتبعه بنفسه وقلبه، والفتاة ذاهلة مستندة إلى الحائط كأنها قد فقدت الرشد والحياة.

كل هذا الفصل جميل إذا قرأته، ولكن على ألا يكون حقاً ولا ممثلاً للحق، على أن يكون خيال شاعر، وما الذي يمكن أنْ تقرأ خيال الشاعر وتجد فيه لذة؟ ثم في هذا الفصل تجاوز للحق وتجاوز للعدل، ولكن من الذي قال: إنَّ الظلم والباطل يخلوان من الجمال الفني دائماً!

مايو سنة ١٩٢٤

عشاق

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «موريس دونيه»

ما رأيك في كاتب يعلمك ولا يؤلمك؟ يبعث في نفسك العواطف المختلفة قوة وضعفًا المتباينة قسوة ولينًا دون أن يشتت لذلك اضطرابك أو يعظم له تأثرك، ما رأيك في كاتب يبسّط لك آلام النفس الإنسانية، وما يبعث بها من حسرات دون أن يضطر عينيك إلى أن تدمعاً ودون أن يضطر قلبك إلى أن يخفق؟ وهو مع ذلك يبلغ منك ما يبلغه الكاتب المؤثر الذي يبعث بالقلب ويستبيح العبرات، هذا الكاتب الهدائى المبتسم الذى يمر بك علىألوان العواطف وضروب التأثر، ويشعرك بها وأنت مثله هادئ مبتسم هو «موريس دونيه» الذى أريد أن أحذثك اليوم عن قصة من قصصه.

كاتب مبتسم أبدًا، ولكنه متاثر ومؤثر أبدًا، ولقد تأخذني الحيرة، وما أشك في أنها تأخذك أيضًا حينما أريد أو ت يريد أن تتفهم كيف يستطيع هذا الكاتب أن يجمع بين هاتين الخصلتين، فيحزنك ويسرك في وقت واحد، أو هو يستطيع خيرًا من ذلك، فلا يحزنك ولا يسرك، وإنما يعلقك بين الحزن والسرور، فيرسم على وجهك ابتسامة خالصة صريحة مضيئة، ويلقي على نفسك ستارًا من الكآبة مؤثراً أشد التأثير، ولكنه في الوقت نفسه خفيف لطيف شفاف.

كنت في هذه الحال وأنا أقرأ هذه القصة، ولست أخفي عليك أنني ترددت ترددًا شديداً في اتخاذها موضوعاً لحديث اليوم، فهي تختلف ما ألفنا من الأخلاق والعادات والأوضاع والأحاديث مخالفة شديدة، وكانت أخشع أن أؤدي غير واحد من القراء إن عرضت لها فلخصتها وفصلت ما فيها، ولكنها في الوقت نفسه غنية، خصبة، دقيقة، رقيقة، تستحق

العناءة وتصلح موضوعاً للحديث، هي تخالف ما ألفنا، وأي قصة من قصص التمثيل لا تختلف ما ألفنا على نحو من الأනاء! وأي لون من ألوان الأدب الأجنبي يلائم من كل وجه ما ألفنا من ألوان الأدب العربي وما ورثنا من خلق وعادة! نحن بين اثنين؛ إما أن نتشجع ونقبل الأدب الأجنبي على علاته فندرسه، لا لأنه يلائم آدابنا وعاداتنا وأخلاقنا؛ بل لأنه جدير بالقياس إلينا مخالف لما ألفنا ولما ورثنا، وإما أن نكتفي بما عندنا فلا تنفع ولا ننتفع، وأنا أعترف بأنني أؤثر الأولى على الثانية، وأحتمل في غير ضعف ولا وهن تبعات اللوم الذي وجده ويوجهه وسيوجهه إلى كثير من الناس، وربما وجدت في هذا اللوم البريء لذة ليست أقل أثراً في نفسي من لذة الثناء والتشجيع.

هذه القصة مخالفة – كما قلت – لما ألفنا ولما ورثنا؛ لأن موضوعها في نفسه غريب بالقياس إلينا كما سترى، وهي في الوقت نفسه مخالفة لما عودتك من القصص إلى الآن، فليس فيها عاطفة عنيفة تهزك هزاً، وليس فيها تأثير قوي، وهي لا تنتهي بموت محزن، ولا بانتصار سارٌ، وإنما تجري من أولها إلى آخرها هادئة مطردة، كما يجري النهر الذي لا تعبر به الزوابع ولا الأنواء، وربما اضطرب النسيم من حين إلى حين، فظهرت على صفحاته موجات صغار لا يلاحظها إلا المتأمل، كذلك تقع هذه القصة ولا يكاد يشعر بها أحد من الذين يحيطون بأبطالها إلا فرداً واحداً ملتفتاً شديداً للالتفاتات، متأملاً قوي التأمل، ولا يفرض إنسان أنه أهل للالتفاتات أو التأمل؛ لأنه طفل لم يبلغ العاشرة من عمره بعد.

ولكنه يحب أمه، فهو يلتفت إلى حياتها ويتأمل في وقائتها، ويشعر من تفصيلها بما لا يشعر به أحد غيره.

ولا يعرض عليك موضوع القصة في أول هذا البحث، وإنْ كان الكاتب لم يعرضه إلا في آخر القصة؛ لأنني أحرص أشد الحرص على أنْ تتجنب التعميم والخطأ في الحكم، وعلى ألا تتورط في هذا الخطأ الشائع، فتحكم على الصحيح بأعراض المريض، وعلى المطرد بخصائص الشيء النادر.

نساء هذه القصة جميعاً لسن من النساء الشريفات اللاتي تمنحهن القوانين والأخلاق هذا اللقب، وهن لسن من المؤمسات اللاتي تعود الناس أنْ يسموهن كذلك، وإنما هن في منزلة بين بين، تعرفها البلاد المتحضرة المتأثرة بضروب الترف وألوان اللذة، والمسيطرة بين المحافظة على القديم والاندفاع في سبيل الجديد، هن في منزلة بين بين؛ لسن زوجات،

ولكنهن مستهترات، قد اتخذن الأخلاء والأخдан، وعشن معهم عيشة الزوجات مع الأزواج، واجتهدن الاجتهد كله في ألا يعلم الناس من سيرتهن الحقيقة شيئاً، فهن يتجنبن الأسر الشرعية حتى لا يظهر عليهن فضل الزوجات الشرعيات، ولا يعرف الناس مكانهن من مخالفة الخلق والقانون، وهن يتجنبن فتيات العبث واللذة مخافة أن يختلطن بهن فينالهن ما يتجنبن من سوء، لسن زوجات، ولكنهن أمهات، لهن أبناء وبنات، لم يولدوا لأباء شرعيين، ولكن أمهاتهم يحرصن كل الحرص على ألا ينالهم من ذلك ضرر ولا مشقة، يردن أن يربينهم كما تربى الأم الشرعية ابنها الشرعي، ويردن أن يزوجنهم ويشيدن مستقبليهم، كما تفعل الأسر الشرعية بأبنائها، فهن مضطربات إلى ضروب من الحياة فيها شدة وعنف، وفيها ضيق واحتمال للمكره، وهن يتعرفن ويتألفن ويتواضعن على شيء من النظام الخلقي يمتاز من أخلاق غيرهن من النساء، ويسيطر عليه حب الأبناء والبنات والتضحية بكل شيء في سيله.

لن ترى في هذه القصة امرأة إلا وهي من هذه الطبقة، فأما الرجال فهم بين اثنين: شاب يلهو ولما يبلغ من السن ولا من المركز ما يمكن من الاستقرار إلى الحياة الشرعية واتخاذ الأسرة، ورجل اتخاذ لنفسه أسرة، ولكنه لم يوفق في حياته المنزلي لما كان يرجو من سعادة وطمأنينة، وكل الرجلين لا يعبث إيثاراً للعبث، ولا يلذ حرضاً على اللذة، وإنما التمس السعادة من طريقها المشروعة فلم يوفق لها، فهو يلتمسها من طرق أخرى ملتوية، وإن ذن فيه شيء من الجد، وفيه شيء من الوفاء، فهو يحب صاحبته ويفي لها، وهو في الوقت نفسه يعترف بابنه أو بنته ويلحق نسبهما به.

أظنك الآن قد استطعت أن تتبين هذه الطبقة التي أراد الكاتب أن يبحث من بين أفرادها عن أبطال قصته، وأظنك توافقني على أن البحث عن هذه الطبقة وما لها من خلق عادة ممتع، لا يخلو من لذة ونفع، فلنجاور هذه الطبقة من وجهتها العامة لنبحث مع الكاتب عن أبطال هذه القصة الذين هم من أفراد هذه الطبقة.

ولست أقدم إليك من أبطال هذه القصة إلا أربعة، رجلين وامرأتين، فأما أول الرجلين فشيخ متقدم في السن هو «الكونت روبيزو» من أشراف الفرنسيين، وأشدhem حرضاً على مذهب المحافظين في السياسة وفي الدين وفي الأخلاق والعادات، وهو ملكي مسرف في الملكية، يأتمر من حين إلى حين لإعادة الملك إلى عرش فرنسا، وهو متشدد فيما توارث الناس من خلق ودين، يكره الطلاق وينفر منه نفوراً شديداً، ويتحمل من زوجه ما لا يتحمل الرجل الكريم دون أن يفك في الطلاق أو يميل إليه، وهو على محافظته هذه رجل

ذكيُّ قويُّ الذكاء، وهو مع هذا فيلسوف، قد فهم الحياة فاطمأن إليها، ولم ينكر من أمرها شيئاً، واجتهد في أنْ يوفق بين فلسفته وبين مذهبه في المحافظة، هو مثلاً مقتنع بأنَّ امرأته تكرهه وتخونه، وتسرف في خيانته وتجعله هزؤاً بين الناس، ولكنه يكره الطلق، وهو في الوقت نفسه يكره أنْ يفرض الناس أنه مغفل، وإنْ فهو لا يتكلف أنْ يجهل سيرة امرأته، وإنما يتحدث عنها وعن عشاقها وعن مجونها في هدوء وسخرية مبسمًا، لا يتحدث بذلك إلى الناس جميعاً، وإنما يتحدث به إلى أخصائه حتى لا يفرضوا فيه الغفلة، وربما اشتراك مع أحد أصدقائه في شعر يهزاً فيه بخليل من أخلاقه امرأته، ثم روى هذا الشعر لصديق آخر من أصدقائه مبسمًا مزدريًا، ثم هو يعلم أنَّ القضاء قد كتب عليه أنْ يكون مخدوعاً طول حياته، ولا شك في أنه قد ألم بذلك وشقى به، ولكنه يعرف كيف يتحمل الألم ويسمِّ للشقاء، فهو يتحدث عن ذلك في لهجة الساخر المزدري دون غلوٌ ولا إسراف، فيقول إنه كان شاباً جميلاً الطلة، حسن الخلق، وكان يحب فتاة، وكانت هذه الفتاة تحبه، ولكنها مع ذلك خانته وخانته، حين كان يكتسب في الحرب وسام الأبطال، حين كان يعالج في المستشفى، وقد أصابت ذراعه رصاصة، وأصابت ساقه ضربة السيف، ثم تزوج، وكان جميلاً، عظيم الثروة، عظيم الاسم، رفيع المكانة، فخانته زوجته وما زالت تخونه شاباً وكهلاً وشيخاً، وهو يتحدث إلى صاحبته، فينبئها بأنه يثق بها الثقة كلها، فإذا أظهرت صاحبته اغبطة لها لذلك أظهر لها أنه ليس مغفلًا، وقال: إنه يثق بأنها إذا أرادت أنْ تخونه فلن تجعله هزوًّا بين الناس، بل هي ستستتر وتتكتم حتى لا يظهر الناس من خيانتها على شيء، ثم هو إلى هذا كله يسخر من قوانين الاجتماع وأخلاق الناس، ويرى أنَّ الحق على كل إنسان أنْ يؤمن بأنَّ خيانة المرأة للرجل هي القانون الطبيعي، وأنَّ الناس يجب أنْ يستعدوا لها كما يستعدون للموت، وربما كان من الحق على المدارس أنْ تأخذ الشبان بالتفكير في ذلك وتوطين النفس عليه، كما تأخذهم بالتفكير في الموت ورياضة النفس على انتظاره، وهو على هذا كله طيب القلب، ذكي النفس، ووَفِيْ إذا أحب، رفيق بمن يحب.

أما الرجل الثاني فهو «فيتويل» شاب في الثالثة أو الرابعة والثلاثين من عمره، ليس عظيم الثروة، ولكن له من المال ما يمكنه من الحياة الرقيقة المستقلة، وهو قويُّ الشعور دقيقة، حاد الحس متوفه، يميل إلى اللذة ميلاً شديداً، ولكنه في الوقت نفسه يطمح إلى الحب القويُّ الصحيح، وقد ذاق ألوان اللذة حتى سئمها، ولكن سأمه هذا لا يمنعه أنْ يطلب المزيد منها، وهو لا يريد أنْ يتزوج؛ لأنَّه جرب كثيراً من النساء فلم تشجعه التجربة

على أن يفكر في الزواج، فإذا نصح له ناصح بأن يقصر عن العبث أجاب: كلا؛ إنَّ قلبي فارغ، ولكنه غير متعب، فهو إذن لا يكره اللذة، وإنما يريد أن يبحث عن المثل الأعلى فيها، وهو شديد الغيرة، ولكنه يخفي ذلك حتى على نفسه، وهو ذكيٌ واسع العقل، ولو لا اشتغاله باللذات لاستطاع أن يكون رجلاً ذا خطر في الحياة العلمية العملية.

أما المرأةان فإداهاما «ك LODIN» قد توسطت في عمرها لم تبلغ الأربعين ولكنها تجاوزت الثلاثين، كانت في أول أمرها تلعب في دور التمثيل، ثم كرهت هذه الحياة فانقطعت إلى حياة منظمة، وهي قوية الإرادة جدًا، لا تذعن للأمر ولا تخضع للسلطة، وهي قوية العواطف جدًا، إذا أحببت لم تحتمل شريكاً في الحب، كما أنها لا تقنع من الحب بالشيء القليل، وهي جميلة ساحرة ذكية، ولكن حظها من التعليم قليل، وهي فوق هذا كله أم، تحب ابنتها، وتؤثرها على كل شيء وعلى كل إنسان.

وأما المرأة الأخرى فهي «هنرييت جامين» دون الثلاثين، جميلة خلابة، ولكنها ساذجة، خفيفة الروح، حلوة النفس، تخلب بسذاجتها وجهلها أكثر مما تخلب بجمالها وسحر عينيها، فقدت صديقها الذي كانت تحبه حبًا شديداً، وفقدته بعد أن أضاع ثروته وثروتها فقتل نفسه، وأخذت تختلف إلى قبره كل أسبوع تحمل الأزهار، فلقيت عند القبور رجلاً شديد الحزن، يحمل الأزهار إلى قبر امرأة، ويبكي عند هذا القبر بكاء الجزع، فسألت عنه حارساً من الحرس، فأنبأها بأنه من أغنياء باريس، فقد امرأته فهو يزور قبرها ويحمل إليه الأزهار في كل يوم، فلما أصبحت لم تنتظر الأسبوع كما كانت تفعل، وإنما غدت إلى قبر صاحبها في الميعاد الذي يغدو فيه الرجل إلى قبر امرأته، فبكى وبكي الرجل، ثم عرضت له فتحديث إليها، فاطمأن إليها، فعزته عن امرأته وعزازها عن صاحبها، وكانت بينهما صلة، فهما يعيشان معًا، وهي تقص ذلك على صاحبها «ك LODIN» في سذاجة، كما تقص عليها سقوط المطر بعد أن كان الجو صحوًا، فإذا رأت شيئاً من الإنكار أو الميل إلى الضحك، فسررت موقفها هذا، وعللته بأنها أم تحب ابنتها وتريد أن تنشئها تنشيئاً حسناً، وأن تجمع لها مهراً صالحًا ل تستطيع الفتاة أن تخثار زوجها كما تهوى، وهي تريد أن تكون ابنتها سعيدة في الزواج، وويل لزوج ابنتها إن خان امرأته! إذن لأقتلنه! فإذا سئلت ماذا تصنع إذا كانت ابنتها هي الخائنة! أجبت مبتسمة: هذا شيء آخر! إذن فسأعينها على الخيانة.

هؤلاء هم الأشخاص الذين أردت أن أقدمهم إليك من أشخاص هذه القصة، وقد أطلت في تصويرهم وتعتمدت الإطالة؛ لأن صورهم هي أشد ما في القصة نفعاً، وليس من

سبيل إلى فهم هذه القصة إذا لم تتبين هؤلاء الأشخاص على هذا الوجه، على أن تحليل القصة بعد ذلك لن يكون طويلاً.

نحن في الفصل الأول، في مدينة باريس، في قصر فخم يقام في ميدان الولايات المتحدة، وتقيم في هذا القصر «كلودين» التي قدمت لك وصفها، وهي صديقة «للكونت دي روizi»، وقد أنزلها في هذا القصر وضمن لها فيه حياة سعيدة متفرقة، وهي في هذا اليوم قد دعت إلى هذا القصر طائفة من صديقاتها، وأقامت فيه عيداً للأطفال، فأقبل صديقاتها ومعهن أبناؤهن وبناتهاهن، وأقبل معهن نفر من الرجال والشبان، وانقضى العيد وأخذ المدعون ينصرفون حتى لم يبق إلا «هنرييت جامين»، وما كادت تبدأ في الحديث معها حتى أقبل «فيتويل» فيستمر الحديث حيناً، وتفهم منه ما قدمت لك من أمر «هنرييت»، ثم ينصرف وتخلو «كلودين» إلى «فيتويل»، فيتحدثان، فإذا هي حديث العهد بهذا الشاب، عرفته منذ حين قصير، وأقبل هذا الشاب يزورها لأول مرة، فتفهم من حديثهما ما قدمت لك من أخلاقهما، ولكنك لا تثبت أن تفهم شيئاً آخر، وهو أنَّ «فيتويل» يشعر بشيء من الحب لـ«كلودين»، فيتلطف لها، ويتوسل إليها في رفق وفي تلميح، وهي تشعر بشيء من الميل إليه، ولكنها تخفيه وتدافعه عن نفسها، والفتى يتکلف ضرورياً من الفتنة ليكسب عطف هذه المرأة؛ فهو يفلسف ويعرض خواطر غريبة في أخلاقه وفي أخلاق النساء، وفيما كان بينه وبينهن من صلة، وكلما عرض خاطراً من خواطره أو رأياً من آرائه ظهر بينه وبين هذه المرأة اتفاق غريب في طريقة الفهم والتفكير والحكم، وقد قرب بينهما كل شيء، ولم يبق إلا الاعتراف، وهو يلح، وهي تفر أمام هذا الإلحاح، على أنَّ دفاعها قد أخذ يضعف ويلين، ولكن «الكونت دي روizi» قد أقبل، فتقدما إليه الشاب ويتعارف الرجلان.

ثم ينصرف الشاب، ويخلو الكونت إلى صاحبته، فإذا تحدثا فهمت من حديثهما كل ما قدمت لك في وصف هذا الشيخ، وفهمت أنَّ الشيخ قد أحب هذا الشاب ومال إليه؛ لأنَّه محافظ؛ وأنَّه سجن في سبيل المحافظة، ثم ينصرف الكونت، ويترك صاحبته وحدها، ولا تكاد تخلو إلى نفسها حتى يدخل الخادم يحمل إليها كتاباً، فضته ونظرت فيه علمت أنَّ «فيتويل» قد كتب إليها لمجرد اتصافه من عندها يبعث إليها تذكرة للأبرا، ويعرض عليها أنَّ تصطحبه إنْ أرادت، فتغضب؛ لأنَّه أسرع وأسرف في الإلحاح، ثم تجيب بالرفض وترد التذكرة إلى صاحبها، وقد انتهى هذا الفصل، وعرفنا منه الأخلاق التي تميز هؤلاء الأشخاص جميعاً، وعرفنا منه أيضاً أنَّ بين «كلودين» و«فيتويل» حباً ناشطاً لا يمكن أنْ يضيع.

فإذا كان الفصل الثاني، فنحن في القصر نفسه، ولكن في غرفة النوم، وقد انتصف الليل ودقت الساعة الثانية من الصباح، ونحن في آخر السنة وفي فصل الشتاء، والثلج يتتساقط من وراء النافذة، و«كلودين» قد خلت إلى صديقها الشيخ، وهمما يتحدثان عن عشاء كانت «كلودين» قد قدمته إلى طائفة من أصدقائها، والكونت يثني على هذا العشاء ويثنى على صاحبته، وهمما يذكران المدعويين، فيذكر الكونت أنَّ «فيتوويل» كان مشغولاً «بهنرييت جامين» التي كانت جارتة على المائدة وتتكلف «كلودين» الإعراض عن ذلك، ثم تريد كلودين أنْ تتجدد من ثيابها لتسريح، ويعينها الشيخ على ذلك في حب وغزل، ولكنه لا يوفق لجهله بثياب النساء وفنون البدع في ذلك، فتدعوا خادمها لتعيينها، حتى إذا فرغت من ذلك أظهرت الاستعداد للنوم، وأظهر الشيخ الطمع فيما يطمع فيه في مثل هذه الساعة وهذا الحال، ولا سيما أنه مسافر غداً إلى إيطاليا ليأتمن الجو بارد والثلج يتتساقط، ولكنه لا يرى منها إلا فتوراً ونفوراً، وهو يحبها، وهو طيب القلب، فيذعن لما ت يريد ويقبلها لينصرف، فلا تكاد تطمئن إلى قبلته، ثم تحس أنَّ نفورها قد آذاه فترُّق له وتعطف عليه وتودعه وداعاً حسناً، وينصرف راضياً محزوناً.

ولا يكاد ينصرف حتى تسرع إلى النافذة، فتفتحها وتقدم منها المصباح كأنها تشير إلى إنسان، وهي في الحق تشير إلى إنسان، فلم تكد تمضي لحظة حتى يقبل «فيتوويل»، وكان ينتظر أمام الباب أنْ ينصرف الشيخ ليصعد هو إلى القصر، فتلاقاه ويكون بينهما خصم طويل لذيد، ذلك أنَّ الحب الناشئ قد انتهى إلى غايته بعد ثلاثة أشهر، مضت على ذلك أشهر أخرى عاش فيها العاشقان عيشة لذيدة ولكنها مختلسة، فهما ينكران ويكتمان، لا يريдан أنْ يظهر الشيخ على ما بينهما، فهما يحبان الشيخ والشيخ يحبهما، وهمما لا يريدان أنْ يسيئا إليه، وهي بعد تذكر أنَّ الشيخ يثق بها ويثق بأنها لن تعرسه للعار، وهي لا ت يريد أنْ تعرسه للعار ولا للألم؛ لأنها تحبه وتشكر له جميله، ثم هو أبو ابنته التي بلغت الثامنة من عمرها، تعيش مع صاحبها الشاب عيشة لذيدة مختلسة، ولكنها منغصة أيضاً، فهي شديدة الغيرة، تراقب صاحبها مراقبة شديدة، تسأله في كل يوم أنْ يقص عليها سيرته حين كان بعيداً عنها، وهو يفعل فلا يهمل من حياته شيئاً مهما يكن تافهاً، وهو ليس أقل منها غيرة، فهو يكره أنْ تظهر الظرف للناس، وهو يكره بنوع خاص هذه الصلة بينها وبين الشيخ، ويؤذيه أنْ يختلس اللذة والحب، وألا يظهر في القصر في مثل هذه الساعة إلا إذا انصرف الشيخ، كلامها شديد الغيرة، ولكن كليهما شديد الحب، وهل توجد الغيرة بدون الحب؟ يختصمان ثم يرضيان، وقد أحسا الجوع؛

لأنها لم تأكل حين كانت على المائدة، وإنما اشتغلت بمراقبة صاحبها، وهو لم يأكل وإنما اشتغل بمراقبتها، فليأكلا الآن، وهي تذهب فتحضر ما تجد من بقايا الطعام، فـ«يأكلان ويشربان»، ولكنهما لا يتتجاوزان هذا إلى شيء آخر؛ لأنها متعبة، ولأنها – وذلك شيء نفهمه نحن – لا تستريح لنفسها لأن ترضي للشاب بما أبته على الشيخ منذ حين قصير، ينصرف الشاب، وقد اتفقا على أنْ يسافرا غداً من باريس ليقضيا في الريف أيامًا ينتهزان فيها غياب الشيخ في إيطاليا.

فإذا كان الفصل الثالث، فقد مضت أشهر ونحن في بيت الشاب، وهو يتحدث إلى صديقه له يزدري الحب والمحبين والنساء، ويعنى بالبحث عن الظواهر النفسية، وقد أقبل الشيخ فعاتب الشاب في رفق؛ لأنه وعده ووعد «كلوتين» أنْ يلتقوها أمس ليتعشوا معًا، ثم يذهبوا إلى ملعب من ملاعب التمثيل ثم أخلف الوعد، فيعتذر الشاب بالنسیان ويطلب إليه الشيخ في رفق وسذاجة أنْ يزور «كلوتين» وينصرف، فيتحدث الشاب إلى صديقه، وقد فهمنا من هذا الحديث أنه مغاضب لـ«كلوتين»، يريد أنْ يسلو عنها، ويريد أنْ يسافر مساء اليوم ليغيب حيًّا عن باريس، أما صاحبه فلا يصدقه بل يكذبه ويُسخر منه، فعزمه على السلو ليس صادقًا، إذ لو كان صادقًا لما احتاج إلى الهرب، ولما امتنع من أنْ يرى صاحبته ويعلن إليها القطيعة، وتدخل «هنرييت جامين» فتخلو إلى الشاب، وتتبئه بأنها أقبلت من عند «كلوتين» وأنَّ كلوتين محزونة، وأنها في حال سيئة، وتتوسل إلى الشاب أنْ يزورها ويراضيها، فيظهر الشاب سخطًا شديدًا؛ لأنَّ «كلوتين» تُضيق عليه وتسرف في الغيرة، وتعتدي على حرية اعتداء متصلًا لا يطاق، ويعلن أنه مسافر، ولكنه سيكتب إلى كلوتين كتابًا رقيقًا، فلا تكاد تنصرف هذه المرأة، ولا يكاد هو يأخذ في الكتابة حتى تدخل «كلوتين»؛ لأنها كانت تنتظر صاحبتها أمام الباب، فلما علمت بعزمه على السفر لم تستطع صبرًا فصعدت إليه تترضاه، ولم يكدر يراها حتى كان عتاب شديد، وحتى أخذ يطلب إليها ملحًا عليها أنْ تترك الشيخ وتخلص له هو، وهنا موقف يبيّن لك عن خلق هذه المرأة وعن خلق أمثالها من أفراد هذه الطبقة، التي قدمت وصفها لك، ما لم أنكره في أول هذا الفصل هذا الخلق، هو شيء من الوفاء غريب لا عهد لك به، هي تحب الشاب وتوثره على كل إنسان إلا ابنتها، وهي مستعدة للتضحية في سبيل هذا الحب بكل شيء إلا بهذا الشيخ، لا لأنه أبو ابنتها فحسب؛ بل لأنه رجل ضعيف قد وثق بها واطمأن إليها، وقد وجد عندها سعادة أعادته على احتمال الحياة، وهي لا تريد ولا تستطيع أنْ تسلبه

هذه السعادة، هي تخونه، ولكنه يجهل هذه الخيانة، وإنْ فَهُوَ لَا يَأْلِمُ لَهَا، وَهِيَ تَكْرَهُ أَنْ يَأْلِمَ، وَتَعْلَمُ أَنَّهُ سَيْمُوتُ يَوْمَ تَقْطُعُهُ، وَهِيَ مُسْتَدِّهَةٌ لِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْجِنْ وَالنَّذَالَةِ، وَمِنْ الْجِنْ وَالنَّذَالَةِ أَنْ تَتَعَمَّدُ الْإِسَاعَةُ إِلَى هَذَا الشَّيْخِ الَّذِي لَمْ تَلْقَ مِنْهُ إِلَّا خَيْرًا.

أَتَعْلَمُ أَنْكَ أَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ إِنْسَانٌ لَمْ تَحْجُمْ عَنِ الْمَوْتِ لَتَنْتَقِمُ لِنَفْسِكَ مَتَأْثِرًا بِعَاطْفَةِ الْشَّرْفِ الَّتِي تَسْيِطُرُ عَلَى الرِّجَالِ؟ فَاعْلَمُ أَنَّ عِنْدَنَا نَحْنُ النِّسَاءَ عَاطْفَةً تَشَبَّهُ بِعَاطْفَةِ الْشَّرْفِ هَذِهِ وَتَحْوِلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ التَّوْرُطِ فِي مَثْلِ هَذِهِ الدِّينَيَّةِ، أَنَا أَضْحَى فِي سَبِيلِكَ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا هَذَا الشَّيْخَ! وَيَطْمَئِنُّ الْفَتَى إِلَى ذَلِكَ، فَهُوَ يَجْدِبُهَا وَيَحْبُّهَا هَذَا الْوَفَاءُ، وَهُوَ لَيْسُ كَغَيْرِهِ مِنَ الْعُشَاقِ الَّذِينَ يَأْبَوْنَ إِلَّا الْاسْتِئْثَارَ السَّخِيفَ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَإِنَّمَا يَكْفِيهِ أَنْ يَسْتَأْثِرَ مِنْ صَاحِبِتِهِ بِحُبِّهَا وَحَنَانِهَا وَقَدْرَتِهَا عَلَى الْلَّذَّةِ، وَإِنْ فَلَنْ يَسَافِرْ، وَإِنْ فَسِيْتَصِلُّ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ حُبٍّ، وَسِينَافَقَانِ إِبْقَاءَ عَلَى هَذَا الشَّيْخِ.

فَإِنَّا كَانَ الْفَصْلُ الرَّابِعُ فَنَحْنُ فِي مَدِينَةِ مِنْ مَدَنِ إِيطَالِيَا، وَقَدْ أَقْبَلَ اللَّيْلُ وَخَلَا الْعَاشِقَانِ، وَهُمَا يَتَحَدَّثَانِ مَتَأْثِرَيْنِ تَأْثِيرًا شَدِيدًا، يَتَجَلَّدَانِ وَيَتَكَلَّفَانِ الْقُوَّةِ وَالْحَزْمِ؛ لَأَنَّهُمَا قَدْ أَرْزَمُوا أَمْرًا عَظِيمًا، ذَلِكَ أَنَّ أَشْهَرًا قَدْ مَضَتْ، فَلَمْ تَزَدِدِ الْغَيْرَةُ بَيْنَهُمَا إِلَّا شَدَّةً، وَأَصْبَحَ الشَّابُ لَا يَسْتَطِعُ أَنْ يَحْتَمِلَ هَذَا النِّفَاقَ، وَلَا يَرْضِي إِلَّا أَنْ تَنْقِطِعَ الْمَرْجَلَةُ بَيْنَ صَاحِبِتِهِ وَبَيْنَ الشَّيْخِ، وَهِيَ لَا تَرِيدُ ذَلِكَ وَلَا تَقْبِلُهُ، وَإِنْ فَقَدَ اتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَقْطَعَا مَا بَيْنَهُمَا مِنْ حُبٍّ، وَاسْتَأْذَنَتِ الشَّيْخُ فِي شَهْرِ تَغِيَّبِهِ عَنْهُ فَأَذْنَنَ لَهَا، وَمَكَثَتْ هَذِهِ الشَّهْرُ مَعَ صَاحِبِهَا خَالِصَةً لَهُ، ثُمَّ انْقَضَى الشَّهْرُ، وَيَرِيدُ الشَّابُ أَنْ يَسَافِرْ إِلَى أَقْصَى الْأَرْضِ مَعَ بَعْثَةِ جُغُورْفِيَّةٍ، وَسَتَأْتِي الْعَرْبَةُ لِتَقْلِهِ إِلَى الْمَحْطةِ بَعْدِ دَقَائِقٍ، فَهُمَا مَتَأْثِرَانِ مَحْزُونَانِ لِهَذَا الْفَرَاقِ، وَهِيَ قَدْ فَقَدَتْ قُوَّتَهَا، وَخَيْلٌ إِلَيْهَا أَنَّهَا لَنْ تَسْتَطِعَ أَنْ تَحْتَمِلَ هَذَا الْفَرَاقَ، وَأَنَّهَا تَسْتَطِعَ أَنْ تَهْجُرَ الشَّيْخَ لِتَبْقَى مَعَ صَاحِبِهَا، فَتَعْرُضُ عَلَيْهِ ذَلِكَ فَيَأْبَى؛ لَأَنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِهَا عَجْزَهَا عَنِ الْإِسَاعَةِ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، وَهِيَ إِنَّمَا تَخْطُئُ الْآنَ حِينَ تَقْدِرُ أَنَّهَا تَسْتَطِعُ هَذِهِ الْإِسَاعَةَ، فَلَيَنْقِطِعُ الْحُبُّ بَيْنَهُمَا، وَحَسْبُهُمَا مِنْ هَذِهِ السَّعَادَةِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي ظَفَرَا بِهَا كُلُّ هَذِهِ الأَشْهُرِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْفَرَاقُ مَؤْلِمٌ، أَلِيْسَ يَشْعُرُ بِهِذَا الْآلَمَ؟ أَلِيْسَ سَيِّشُعُرُ بِهِ فِي أَثْنَاءِ سَفَرِهِ! وَلَكِنَّ لَا بدَ مِنْ احْتِمَالِ هَذِهِ الْآلَمِ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْهُ مُنْصَرِفٌ، وَهُنَّا حَوَارٌ قَصِيرٌ، وَلَكِنَّ آيَةً فِي الدَّقَّةِ وَالْتَّعْمُقِ، هِيَ جُزْعَةٌ وَلَكِنَّهَا مَقْتَنِعَةٌ بِأَنَّهَا لَنْ تَسْتَطِعَ أَنْ تَسْيِيءَ إِلَى هَذَا الشَّيْخِ، وَهِيَ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهِ لَا تَرِيدُ أَنْ تَنْقِطِعَ الْمَرْجَلَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّابِ، تَرِيدُ أَنْ تَذَكَّرَهُ أَبَدًا وَأَنْ يَذْكُرَهَا أَبَدًا، وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا شَيْءٌ مُشَتَّرٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ؛ فَتَعْرُضُ عَلَيْهِ عَهْدًا وَهُوَ أَنْ يَنْظُرَ كُلَّ مِنْهُمَا إِلَى

نجم بعينه في ساعة بعينها من الليل، فهي ستتجدد في ذلك شيئاً من العزاء، وستعلم أنه ينظر إلى ما تنتظر إليه في نفس الوقت الذي تنظر فيه إلى هذا النجم، فيجيبها: ولكن الليل سيظلك حينما يظلني النهار! فليس من الممكن أن ينظر أهل الأرض جمِيعاً في وقت بعينه إلى مكان بعينه من السماء.

وإذا هي دهشة؛ لأنها علمت ما لم تكن تعلم، وإذا هي تشعر بشيء من خيبة الأمل عظيم، وتلوم على أنه أظهرها على هذه الحقيقة العلمية القاسية، وقد أقبلت العربية وافترق العاشقان بعد حزن ولوامة.

فإذا كان الفصل الخامس، فقد مضى عام ونصف عام على هذا الفراق، ونحن في باريس في القصر الذي كنا فيه في الفصل الأول، وفي نفس المكان الذي كنا فيه في الفصل الأول من القصر، ولكن أشياء كثيرة قد تغيرت، فليس القصر قصر «كلوتين»؛ لأنها باعته، وباعته صديقتها «هنرييت جامين»، التي اشتدت الصلة بينها وبين صاحبها الذي لقيته عند القبر حتى اشتري لها هذا القصر وأنزلها فيه، وهي اليوم تحتفل أول مرة في قصرها الجديد، وقد دعت أصدقاءها وصديقاتها الذين رأيناهم في الفصل الأول، وهم جمِيعاً يعبثون ويلهون ويتبادلون أحاديث كلها مجون وعبث وتلميح إلى ما لا يصرح به، وهم جمِيعاً سعداء، إما بما يلقون في الحاضر، وإما بما يأملون في المستقبل، وقد انتهى اثنان ناحية من المكان، فهما هادئان يتحدثان في حزن مبتسَّم، وهما الشيخ وصاحبته «كلوتين» يذكران هؤلاء الناس وسرورهم وابتهاجهم وما هم فيه مما يشبه الجنون، ثم تنظر فإذا «فيتويل» بين القوم، وإذا هو يقبل لحيي «كلوتين»، فيخلو إليها حيناً والقوم لا هون في الرقص واللعب، ويتحدث العاشقان فيما كان من أمرهما منذ ذلك الفراق، أما هو فلم ينس ولم ينقطع عن التفكير في صاحبته والحنان عليها، ولكنه مع ذلك تعزى، وتعزى بهذا البحث العلمي وبما اعترضه في طريقه من الأشياء والمناظر المختلفة، ومهمما يكن عزاؤه فلن يستطع أن يمحو من قلبه ذكرى يملؤها الحنان على تلك الأيام الماضية، وأما هي فقد تألت وكأن أنها شديدة، فأصابها علل وأمراض عصبية، وأدركتها الشيب كما أدركه، ولكنها تخفي شيبها في حين هو لا يخفيه، وقد جهل الناس جمِيعاً قصتها، ولم يشعروا منها بشيء إلا ابنتها الطفلة، فقد فطنت للقصة وعرفت دخيلتها، وأرادت أن تنتقم لأمها ففُقدت عيني «فيتويل» في صورة كانت عندها، ثم يمضيان في الحديث.

أما هو فقد تعزى وما يزال يذكر صاحبته، ويحتفظ بهذه الفكرة، ولكنه سيتزوج، سيتزوج أختاً لرفيق له في البعثة الجغرافية لقيها في الهند الصينية، ورافقها في الطريق إلى باريس فرضيها زوجاً له.

ليست جميلة ولا خلابة ككلودين، ولكنها رعوم، وفيها قوة وإرادة وميل إلى العلم، فإذا نظرت كلودين إلى صورة الفتاة ابتسمت لها وأحبتها وهنأت صديقها في حزن ولكن في إخلاص، وتأثر هو بهذا الإخلاص وبهذا النوع من التضحية وأخذ يثنى عليها ويرق لها، ولكنها هي أيضاً تعلن إليه أيضاً أنها ستتزوج، نعم ستتزوج ويكون الشيخ زوجها، فقد فرت امرأة الشيخ مع ضابط شاب، وأصبح الشيخ يستطيع الطلاق دون أن يخرج عن عاداته وأرائه، وقد فعل وعرض على «كلودين» أن تكون زوجه الشرعية، فترددت ثم قبلت، أليست تفكر في ابنتها! أليست تعطف على الشيخ في آخر أيامه! وقد باعت هذا القصر، وستترك باريس مع زوجها وابنتها، وسيخلون إلى حياة هادئة منظمة طاهرة في أعماق الريف، وهما في هذا الحديث إذ يقبل الراقصون اللاهون في ضجيجهم وعجيجهم، فيخرون علينا صوت هذين العاشقين اللذين يذكران الماضي ويتحدثان عن المستقبل، يخرون صوتهما فيفرق هذا الصوت، ويفرق صاحباه في ضجيج الحياة اللامبة العابثة، كما يفرق في هذا الضجيج كل شيء في كل يوم.

وكم من دون لهو الحياة وعبثها من أحاديث ليست أقل تأثيراً ولا صدقاً من هذا الحديث!

مايو سنة ١٩٢٤

الخطر الآخر

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «موريس دونيه»

ليست كالقصة التي حدثتك عنها في الأسبوع الماضي، أو هي لا تشبهها من وجوه كثيرة، فهي لا تدرس أشخاصاً، ولا تعطي منهم صوراً بينة تمثل طبقات مختلفة من الناس، أو هي إنْ درست هؤلاء الأشخاص ومثلهم تمثيلاً قوياً، فليست تتخذ من هؤلاء الأشخاص غرضها الأول، وليس تدرسهم لأنفسهم، وليس ت يريد أنْ تتخذهم عناوين لطبقات من الناس، وإنما تتخذهم وسائل وطرقًا للغرض الذي تقصد إليه والغاية التي ت يريد أنْ تبلغها، هي لا تدرس شخصاً ولا أشخاصاً، وإنما تصور عاطفة أو عواطف، بل يجب أنْ تكون أدق من هذا وأكثر وضوحاً، فهي لا تدرس العواطف ولا تتصورها من حيث هي، وإنما تدرس الجهاد بين العواطف وتتصوره، وهي تعنى عنانة خاصة بالجهاد بين عاطفتين لهما في حياتنا الآخر كله، ولهما عليها السيطرة كلها، أريد عاطفة الحب وعاطفة الأمومة.

القصة جهاد بين هاتين العاطفتين، بل ربما لم يكن هذا التعبير صحيحاً، فالقصة تاريخ لهاتين العاطفتين: تدرسهما حين تنشآن، وتدرسهما وهما تنموان، ثم تدرسهما حين تصطدمان، ثم تسجل انتصار إداهما على الأخرى، أو — بعبارة أصح وأدق — تسجل انتصار كليهما على الأخرى، فكلتا العاطفتين منتصرة، وكلتا هما منهزمة، والأشخاص في هذا كله وسائل وسبل لا أغراض ولا غaiات، فلو استطاع الكاتب أنْ ينطق بهذه العواطف ويحملها على الحركة والاضطراب؛ لأعرض عن الأشخاص إعراضًا، ولكن ذلك غير ميسور، فليس للعواطف من حيث هي وجود مستقل، وإنما توجد في الناس،

فلا بد لإحيائها وتحريكها وتصوير الجهاد بينها من أن يحيا الناس ويتحرکوا، ويجاهد بعضهم بعضاً، ولو أنَّ الكاتب عدل عن الأشخاص، واكتفى بالعواطف في أنفسها لما كان كتاباً ممثلاً، ولكن فيلسوفاً أو أحد الباحثين عن ظواهر علم النفس.

هو إذن مضطرب إلى الأشخاص، يتذمّر وسيلة إلى درس العواطف، وما الأشخاص بدون العواطف؟! وإذا كانت العواطف لا تستطيع أنْ توجد وحدها، ولا أنْ تتحرك وتضطرب فالإنسان كذلك لا يستطيع أنْ يوجد وحده ولا أنْ يتحرك ويضطرب، وإنما هو يحتاج في وجوده وحركته وأضطرابه إلى هذه العواطف التي تفيض عليه الوجود وتبعث فيه الحركة والحياة، لا وجود للإنسان بدون العاطفة، ولا وجود للعاطفة بدون الإنسان، وإن من درس الإنسان فقد درس عواطف الإنسان، وإن فليس كاتبنا مسرفاً ولا متجاوزاً القصد ولا معناً فيما بعد الطبيعة إذا هو لم يتناقل في درس الأشخاص وتصویرهم تصویراً بيناً واضحاً، وإنما قصد إلى ناحية من نواحي الفن فأنقذنا وبرع فيها.

ليس الأشخاص غرضاً من أغراضه، وهم مع ذلك أحياء في قصته، أحياء موفورو الحظ من الحياة، فهم يتحركون ويعملون في خفة ونشاط لا تجدهما إلا عند المهرة من كتاب هذا الفن، وأنت تقرأ القصة أو تشهدها فلا تشعر فيها بتكلف ولا تصنع، وإنما يخدعك الكاتب عن نفسك، فيخيل إليك أنك تشهد فصولاً من فصول هذه الحياة التي يحياها الناس في كل يوم، لولا أنك مضطرب إلى أن تلاحظ أشياء قليلة تكشفها الكاتب تكلاً، لأنَّه لا يستطيع إلا تكلاً.

قلت: إنَّ القصة جهاد بين عاطفيي الحب والألمومة، ولكنني أعود اليوم فألفت إلى ما لفتكُ إليه في حديث الأحد الماضي من أنَّ كاتبنا رشيق خفيف الحركة سريعاًها، دقيق كل الدقة في تصوره وتعبيره عما يتصور، فهو يعرض لأشد ألوان الجهاد عنفاً فيمثله أصدق تمثيل، ويترك في نفسك أشد الآثار وأعمقها وأبقاءها، دون أنْ يتتكلف لذلك العبارات الضخمة أو الجهد الشديد، بل دون أنْ يتتكلف لذلك شيئاً، هو كالموسيقي الماهر الذي لا يحتاج إلى أنْ ينتقل على آداة من أدواته الموسيقية؛ ليستخرج منها أعنذ النغم وأمرأه وأشدّه استثارة للعواطف في نفسه، وإنما يكفيه أنْ يلمسها لمساً خفيفاً، فإذا هي تخرج الآيات البينات، وكذلك كاتبنا، يلمس الموضوعات لمساً خفيفاً، أو قل يلمس قلبك لمساً رقيقاً، فإذا هو قد أحيا فيه العواطف بما يشخصها ويمنحها القوة والحياة، ويخلق بينها ألوان الجهاد، لن تجد في قصصه هذه الألفاظ الضخمة العنيفة التي يسحرك عنفها وضخامتها،

وإنما تجد فيها الألفاظ العادبة المألوفة التي يستطيع الكاتب بفنه أن يمنحها حياة ليست عادبة ولا مألوفة، ومن هنا كان تأثرك بقصص هذا الكاتب صادقاً طبيعياً من جهة، وهادئاً وديعاً من جهة أخرى، يحزنك دون أن يحول بينك وبين الابتسام، ويضحكك دون أن يعصمك من الحزن والاكتئاب، بل ربما لم تجد فيه حزناً خالصاً ولا سروراً خالصاً، وإنما هو في جميع أطواره مزاج من الحزن والسرور، ولنترك القصة نفسها لتنثبت لك صدق ما نقول.

نحن في قصر من قصور باريس فخم يدل أثاثه على أنَّ الذين يسكنونه قوم مثرون ضخام الثروة، وهم في الحق كذلك، فصاحب القصر رجل يشرف على طائفة من المصانع تغل عليه أمولاً كثيرة، فهو في الوقت نفسه من رجال الصناعة ومن رجال المال، وهو يعيش عيشة ملائمة لكانته وثرותו، فينفق عن سعة وفي غير تقدير، وزوجه تتحدث عن شجرة غرسها في حديقة، وبدأت تؤتي شيئاً من الثمر، فإذا كل ثمرة من هذا الثمر القليل الذي آتته قد كلفت صاحب القصر آلاً من الفرنكات، هو غني، وهو مترف، وهو مطلق اليد في المال، وزوجه جميلة فاتحة عذبة الصوت خلابتة، ليست أقل من زوجها ترقاً ولا عبيداً بالمال، ولعلها أشد منه إمعاناً في الترف والعبث، وقد دعا صاحب القصر إلى العشاء في هذه الليلة نفراً من أصحابه وأصدقائه، يعنيانا منهم رجل متوسط السن هو «أتين جادان» كان رفيقاً لصاحب القصر في المدرسة، ثم افترقا بعد أنْ آتما الدراسة، فسعد أحدهما وعاش الآخر عيشة كد وعنة في مدينة من مدن الأقاليم، واقترن بفتاة هي آية في الجمال والسحر، هي «كلير» زوجة التي تحضر معه هذا العشاء، وكانا قد أقبلا إلى باريس يقضيان فيها أياماً فلقيهما صاحب القصر فدعاهما إلى قصره مغتبطاً بلقائهما، ودعا معهما قوماً آخرين، منهم رجل لا بد من أنْ نذكره وهو «فريديير»، وهو المحامي الذي بعْدَ صوته في المحاماة حتى أصبح علماً من أعلامها ولما يجاوز الخامسة والثلاثين، ولم يك هؤلاء القوم جمِيعاً يلتدون إلى المائدة حتى كان فيهم دهش وعجب: لأنهم جمِيعاً كانوا أصحاب، ثم فرقت بينهم أحداث الحياة حتى نسي بعضهم بعضًا نسياناً قويًا أو ضعيفاً، وقد ذكرنا أنَّ «أتين جادان» كان رفيقاً في المدرسة لصاحب القصر، ونذكر الآن أنَّ «فريديير» كان صديق الطفولة والصبا والشباب لـ«كلير» قرينة «أتين جادان» هذا، ولم يكن الأمر قد وقف بينهما عند الصداقة، بل كان قد تجاوزها إلى الحب، وإلى الحب الشديد القوي ثم حيل بينهما وبين الزواج، فانصرف المحامي إلى باريس وأقام فيها،

وتزوجت صاحبته من زوجها هذا وأقامت في مدينة من مدن الأقاليم، والتقي هؤلاء الناس جمِيعاً بعد فرقة اتصلت اثني عشر عاماً، فهم دهشون، وهم مغتبطون، ونحن نشهدهم وقد انصرفوا عن المائدة، وأقبلوا إلى الحديقة يتحدثون ويتناولون القهوة وما إليها، وليس من شك في أنَّ أحاديثهم إنما تدور حول الماضي الذي عرفوه واشتركتوا فيه، وحول ما كان لكل منهم من سيرة وحظ أيام هذه الفرقة الطويلة.

وفي هذا الحديث لذة تضحك ولكنها تحزن أيضاً؛ فقد كان هذان الصديقان رفيقين في المدرسة خرجا منها في سنة واحدة، وكان أحدهما أول الفائزين في الامتحان، وكان الثاني آخرهم، ثم لم يتح له الفوز إلا لأن صديقه أعانه وأتاح له هذا الفوز، فلما استقبلَا حياتهما العملية انعكست بينهما آية الفوز، فأما آخر الفائزين فهو صاحب القصر الذي أتيحت له الثروة الضخمة والمكانة العالية، وأما أول الفائزين فهو صديقه هذا الذي يعيش عيشة كد وعناء، ويكسب رزقه بالعمل في شركة من شركات السكك الحديدية، وهما يتحدثان في ذلك، يغتبط أحدهما بأنه كان في المدرسة غبياً بليد الذهن، ويندب الآخر حظه بأنه كان في المدرسة ذكيًّا حاد الذكاء، وهذا يعممان ويتخاذل من هذا قاعدة هي أنَّ أشد الناس ذكاءً في المدرسة أسوأهم حظاً في الحياة العملية، وأنَّ الفوز مقدر للأغبياء الذين لا يذوقون العلم ولا يميلون إليه، وهذا يضران بذلك الأمثال، ويكثران منها حتى يصلوا إلى اسم من الأسماء كان صاحبه ذكيًّا نابهاً، وأتيح له شيء من الفوز كان ينقصه القاعدة لولا أنَّ سوء الحظ أقبل فرداً الأمر إلى نصابه، واضطرب هذا الرجل إلى الإفلاس، وإلى أنْ يعرض مصنعته للبيع، فاشترط صاحب القصر فكرة وهي أنْ يستعين بصديقه «أتيني جادان» ربماً كثيراً، وهنا تعرض لصاحب القصر فكرة وهي أنْ يستعين بصديقه «أتيني جادان» فيما يعد من عمل، فيعرض عليه ذلك ويرغبه فيه، ويؤكد له أنه كان دائمًا مصدر الخير والثروة لشركائه والذين اتصلوا به، فإذا أظهر شيئاً من التردد ألح عليه ودعاه إلى مكتبه؛ ليظهره على الصور والأوراق فيذهبان، ولا يكادان يذهبان حتى تستأنن صاحبة القصر في أنْ تترك أصيافها حيناً؛ لأنها ستغبني بعد أيام في حفلة من الحفلات، وهي مضططرة إلى أنْ تعد نفسها لهذا الغناء، ولن تغبني وحدها بل سيشاركتها «ميانت» أحد الأصياف، وإنْ فسيذهب معها أيضاً إلى غرفة الاستقبال حيث البيانو ليجربا صوتيهما وغناءهما، وإنْ في أول الأمر، يذكران صاحبة القصر وانصرافها عنهما في غير كلفة ولا أدب.

ونفهم من الحديث الذين يقصه «فريديير» على صاحبته أنَّ صاحبة القصر لم تتركهما للغناء، وإنما تركتهما للحب، فهي مشغوفة بصاحبها الموسيقي وهو مشغوف

بها، وهما لا يتکلفان إخفاء هذا الشغف، وإنما يرسلانه على طبيعته، فإذا حاولت «كلي» أن تذكر على صديقها هذه الغيبة أجابها: إني لم أقل شيئاً غريباً، وإنما حديثك بما يتحدث به الناس، على أني لا ألوم صاحبة القصر فقد خانها زوجها وأعرض عنها، فأخذت تتعزى وتسلّي عن نفسها ولجأت إلى الموسيقى، كما كان يلجاً النساء إذا خانهن الحظ إلى الدير، وهما في هذا الحديث إذ تدعوهما صاحبة القصر من النافذة: «أين أنتما؟ فأنا لا أراكما» فيجيبها «فريديير» نحن حيث تركتنا لم نبرح مكاننا، وإنما تحجبنا عنك الأشجار، فتسأله: «وهل ترياننا؟» فيجيب: «كلا! لأن الأشجار التي تحجبنا عنك تحجبك عنا»، وهو كاذب، فهما يريانها وهي لا تراهما، فإذا سأله صاحبته عن هذا الكذب ولامته فيه أجابها: «إنما أحسنت إليها لأنني هونت عليها أمراً تطمع فيه وستتصعبه، انظري» وينظران فإذا صاحبة القصر وصديقها الموسيقي متعانقان يتلاثمان، فتخجل «كلي» لذلك، ثم تسأله: أليس لها ولد؟

فيجيبها: «كلا، هل تظنين أنها كانت تعرض عن الحب لو أنّ لها ولد؟»

فتجيب: «أحسب أنَّ الولد يعصم أمه من الهموم».

«أعتقد أنك مخطئة، وأنَّ الأمومة والحب يستطيعان أن يتفقا الاتفاق كله».

وهنا وضع الكاتب نظريته التي ستدور حولها القصة، وهي أنَّ الحب والأمومة يتفقان أو لا يتفقان، ويجب أنْ نتفق نحن أولاً، فالكاتب لا يريد الحب من حيث هو، لا يريد الحب المشروع بين الزوجين، وإنما يريد الحب الآثم بين الخدين، يسألها: ألم لها ولد، فإذا لها صبية في الثانية عشرة من عمرها.

– وهل هي جميلة؟

فتتردد في الجواب تواضعاً واستحياء، ثم تجيب بأنها جميلة بارعة الجمال.

– وما اسمها؟

– «مدلين».

ثم يذكران صباهما وشبابهما وحبهما، فإذا هو مستمسك بهذا الحب وفي له متاثر به أشد التأثير حتى في أوقات لهوه وعيته، فهو كغيره من الشبان قد لها وعيث وأخذ بحظه من اللذة، ولكنه لم ينسها لحظة، وأكثر من هذا أنه حين لها وعيث لم يمل من النساء إلا إلى من كانت تشبهها شبيهاً قويًا، وإذا هي ليست أقل منه استمساكاً بالحب وتأثراً به، وإذا هي كانت تغار وتتألم كلما سمعت بخليلاته وأخداه، وإنما هي تصدقه فيما يزعم؛ فقد رأت في ملعب من ملاعب التمثيل إحدى خليلاته فإذا هي تشبهها حقاً، وهذا يضع لنا

الكاتب النظرية الثانية التي تدور حولها القصة، وهي أنَّ صاحبنا كثيير غيره من الناس لا يحب شخصاً من الناس بعينه، وإنما يحب طائفة من الخلال والمشخصات تتميز بها المرأة التي يهواها، هو يحب شكلاً من أشكال النساء، أو يحب «عَيْنَةً» من النساء إنْ أعجبك هذا التعبير المبتذل، ثم يتصل الحديث بينهما فلا نشك في أنهما صادقان في هذا الحب، ولا نشك في أنَّ طبيعتهما تدفعهما دفعاً عنيفاً إلى استئناف هذا الحب وإلى الانتقام لأنفسهما من هذا الحرمان الذي احتمله، وهما يقاومان، أما هو فيتكلف المقاومة تكلفاً، وأما هي فتقاوم مخلصة تريده أنْ تفي لزوجها وابنتها، ولكنها لا تحب زوجها ولا تسعد بقربه، فليس لها حصن من هذا الحب الجديد إلا ابنتها وإنها ستتسافر منذ غد، ولكن زوجها يتحدث إلى صاحب القصر في مكتبه حول تلك الفكرة التي إنْ قبلت فستضطرها إلى ترك الأقاليم والإقامة في باريس، وانظر إلى زوجها وقد أقبل مع صاحبه مبتسمًا يظهر القبول، أما هي فستمانع في ذلك ممانعة شديدة، ولكنها واثقة بالإخفاق؛ لأنَّ زوجها لا يعتقد لها برأي.

إذا كان الفصل الثاني، فقد مضت أربعة أعوام على ما قدمت لك، ونحن في باريس في بيت «كlier»، فقد قبل زوجها ما عرض عليه صاحبه، واستقر في باريس منذ أربعة أعوام، وكان ما لم يكن منه بد، فانتهى الحب إلى نتائجه بين «كlier» وصديقه «فريديير»، ونحن في أوائل السنة، ولهذا نشهد أبيي «أتين جadan» قد أقبلًا يزوران ابنهما، ونشهد معهما أختًا لـ «كlier» شقيقة تعسة، خانها زوجها وأضاع عليها ثروتها كلها، فلجلأت إلى أختها وطلبت الطلاق، «وفريديير» هو الذي يتولى عنها ذلك، ثم نشهد إلى هؤلاء جميعاً فتاة في السادسة عشرة من عمرها، جميلة، بارعة الطلعة، رشيقه، فاتنة اللفظ، ليست بالطفلة، وإنما هي امرأة أو تكاد تكون امرأة، تفكراً كما تفكر النساء وتتحدث كما يتحدثن، ولعلها بل لا شك في أنها تحس كما يحسن، ولكن الناس جميعاً من حولها ينظرون إليها كما ينظرون إلى الطفلة، ويضحكون من جدها كما يضحكون من هزلها، وذلك يؤذيها ويغضبها، فهي تكره أنْ تكون طفلة؛ لأنها ليست طفلة، وهي تريده أنْ ينظر إليها أهلها وأصحابها كما هي لا كما يريدون أنْ تكون، وهذه الفتاة هي «مدلين» بنت «كlier»، وهي تتحدث إلى جدتها وخالتها في شئون مختلفة، حتى إذا عرضن للحب تحدثت فيه كعالة به، ثم إذا عرضن للزواج ذكرت آمالها وأمنياتها في لهجة جادة أثرت في جدتها وخالتها، فتسألانها أتحب أحداً! فتغضب الفتاة وتتصرف، ونسمع الجدة والخالة تتحدثان

فنفهم أنَّ «فريديير» يتعدد على هذا البيت ترددًا متصلًا حتى زالت بينه وبين أهله الكلفة، وأصبح كأنه واحد منهم، وأصبح صاحب البيت لا يستطيع أن يمضي يومًا دون أنْ يراه، ونفهم أنَّ الجدة تفرض أنَّ حفيتها تحب هذا الشاب، وهي تفكر في هذا الحب وأنه قد ينتهي إلى زواج، ثم نفهم أنَّ «فريديير» غائب عن باريس منذ أسبوع قد ذهب يزور أمه، وأنَّ أهل هذا البيت جميعاً يجدون لغيباته وحشة، وما هي إلا أنْ نراه قد خلا إلى «كليير» لحظة، فأأخذنا يتحدثان في الحب وأثاره وفيما وجد كل منهما من وحشة لهذه الفرقة القصيرة، ويقبل الزوج فإذا هو كحاله لم يتغير، ساخط على الناس جميعاً، يندب حظه ويحسد شريكه «أرنستين» الذي يستغلها، ويستغل أعماله فيربح المال ويظفر بالمكانة العالية، أليس يتحدث الناس بأنه سيظفر باللوسام! ويمضي الزوج في سخطه وحسده، حتى يتجاوز الناس إلى زوجه فينالها بضرر من اللوم والتأنيب تحملها هادئة متأللة، ثم يتركهما وينصرف، فيعودان إلى ما كانا فيه من حديث، وإذا بهما قد تغير وأصابه شيء من الفتور في نفس «فريديير»، فليس هو ذلك المفتون المُدَلَّ الذي رأيناها في الفصل الأول، وإنما هو هادئٌ مطمئنٌ يتکلف الافتتان والهياق، أما «كليير» فبعيد عنها كل البعد عن الهدوء والفتور، وإنما هو يتلذذ ويضطرم، وهي تجتهد الاجتهاد كله في تخفيه وتلطيفه، وقد طلب إليها صاحبها أنْ تزوره اليوم وأعلن إليها أنه ينتظرها فتعذر؛ لأنها لا تستطيع، فهي مضطربة إلى زيارة لا يمكن إرجاؤها.

- فإذا فرغت من هذه الزيارة فمربي بي.
- لا أستطيع لأن ابنتي ستراقبني.

وهنا يغضب الرجل غضبًا شديداً، ويظهر ملأً وتبمراً بهذه الحياة المضطربة التي تختلس فيها اللذة اختلاسًا، والتي تقوم على النفاق والخداع، والتي لا يستطيع الحب أنْ يظهر فيها واضحًا صريحاً، وهو لا يتبرم بهذا وحده، وإنما يتبرم بهؤلاء الناس الذين يضطرونه إلى هذا النفاق والخداع، يتبرم الفتاة ويعلن أنه يكاد يكرهها، فلا تجييه صاحبته إلا بالبكاء والاستعطاف والدفاع عن ابنتها، ثم ينتهي بها الأمر إلى الرضا والصفو، وقد أقبلت الفتاة فأعلنت إلى أمها أنْ قد آن الوقت للزيارة، فتنصرف ل تستعد، وتخلو الفتاة إلى «فريديير» فيتحدثان، وإذا الفتاة تحدث هذا الرجل على نحو ما كانت تحدثه أمها، لهجتها ورشاقتها وأسلوبها وطريقتها في التفكير، كل ذلك يصور أمها تصویراً صادقاً، وهي جادة ولكن صاحبنا كغيره يضحك منها ويحدثها كما يحدث الأطفال، فيغضبها ذلك ويزعجها، ويضطر هو إلى أنْ يتراضاها، وقد كفانا هذا الحديث

لنفهم شيئاً، الأول أن الفتاة مفتونة بهذا الرجل فتنة لا حد لها، فهي تحبه وتحرص على أن تعجبه وترضيه، وعلى أن ينظر إليها كما ينظر إلى فتاة تحب وتفهم الحب، والثاني أن صاحبنا يحس من نفسه شيئاً كهذا ولكنه يتجاهله وينكره ويقاومه ويعبث به، ويسلك فيه سبيل الهزل، وهو يسأل الفتاة عما أهدى إليها أول السنة، فتذكر له هدياً كثيرة لم يعجبها منها إلا اثنان، هديته هو وهدية أبيها.

– وما هدية أبيك؟

– دفتر حسن التجليد مذهب مغلق، سأتخذه لأكتب فيه مذكراتي.
– وهل لك مذكرات؟

فيغضبها هذا السؤال، وكيف لا تكون لها مذكرات وليس بالطفلة ولا الصبية ولكنها كغيرها من الناس تفهم وتشعر؟! وقد أقبلت أمها فينصرفون جميعاً.

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في قصر «أرنستين» في ليلة راقصة قد كثر فيها المدعوون إلى الرقص وغيره من اللهو، ففي القصر ملعب للتمثيل تلعب فيه صاحبة القصر نفسها مع عشيق جديد لها؛ لأنها قد زهدت عشيقها الأول، وازدحم الناس في هذا الملعب إلا ثلاثة من الشبان انتحوا ناحية، وأخذوا يتحدثن ويعبوثون بأهل القصر ومن دعوا إليه، ويدركون جمال النساء والفتيات وأماليهن ومطامع الشبان في مساعدتهم، وقد فهمنا من حديثهم أن «مدلين» قد أقبلت إلى هذه الحفلة في زي الطفلة، وهي تتقدم اليوم لأول مرة إلى الحياة العامة؛ أي تظهر على أنها فتاة تشارك الناس في حياتهم، فلهم أن يخطبواها، ولها أن تتزوج، وليس من يفكرون الآن في الخطبة ولا في الزواج، وإنما هؤلاء الشبان يذكرون جمالها وروعتها ويريدون أن يغنموا من ذلك بحظ، يريدون أن يرافقوها وذلك يسير إذا قدموا إليها، ولا تلبث صاحبة القصر أن تقبل وقد فرغت من لعبها وغنائها فيستبق إليها هؤلاء الشبان يهنتونها ويشكرونها، ولم يذكرواها من قبل إلا بالسوء، ثم يطلب إليها أحدهم أن تقدمه إلى «مدلين» فتفعل، والناس يتربدون في غرف القصر، ونلمح من بينهم صاحب القصر قد انتهى مع صديق له ناحية فهو يحدثه، واسم هذا الصديق «هيبنس» نفهم من حديثهما أنه كان في الهند الصينية منذ أعوام، وأنه عاد إلى باريس، فإذا هي قد تغيرت، وإذا هو لا يعرف أهلاها ولا يعرفونه، ولذلك يريد أن ينصرف من هذه الحفلة، فيأتي عليه صاحب القصر ويقدمه إلى قريبة له جميلة رشيقة يطلب إليها أن تنبئه بكل شيء، وتظهره على كل شيء، حتى يألف الناس ويألفه الناس،

فتعده بأنها ستبذل في ذلك جهدها وترجو أنْ توفق، ولا تكاد تتحدث إلى صاحبها حتى تبدأ بصاحب القصر وصاحبته فتغتابهما وتقص أمرهما على الرجل، وتذكر حب صاحبة القصر وعيثها واستهزاءها بزوجها، وتحس أنها ستتناول المحتفلين جميعاً بهذه الغيبة، ولكن الناس يتذدون في الغرف يذهبون ويجبئون في المقصف وإليه، فتخلو الغرفة منهم أو من أكثرهم من حين إلى حين، وقد رأينا الشبان يستبقون إلى «مدلين» يطلبون إليها أنْ تراقصهم، ورأينا «مدلين» تقبل ذلك مبتلة مسروقة، ورأينا أنها بذلك سعيدة، وسمعنا الناس يذكرون أنها ملكة هذه الليلة، وأنَّ جمالها قد ظفر بفوز لا يعدل له فوز،وها نحن أولاء نرى «كلاير» قد خلت لحظة إلى صديقها «فريديير» فأخذت تحدثه: نحن وحدنا فضمني إليك!

- لسنا وحدنا.

- تستطيع أنْ تتلطف لي في اللفظ فتدكر جمال ثيابي وتنسيق شعري.

- فيظهر ترددًا.

- ما أشد حذرك!

- وما أقل حذرك!

ثم يتحدثان، فإذا حب الرجل لم يزدد إلا فتوراً، وإذا حبها لم يزدد إلا اشتعالاً واضطراماً، وإذا هي تألم لفتوره، وإذا هو يألم لهذا الفتور أيضاً، ولكنه قد انقطع عن زيارتها منذ أسبوعين، وكان متعدداً لا ينقطع عنها يوماً، فهي تعاتبه، وهو يزعم أنَّ عمله كثير، ثم يأتي من يشغلها، فإذا عاد إلى مكانهما وإلى الخلوة حيناً سمعناها تتحدث إليه في رفق وألم، بأنها سمعت الناس يثنون على ابنتها وعلى جمالها ويدذكرون فوزها، وبأن صاحب القصر قد تحدث إليها في رجل يعرضه زوجاً «مدلين»، ودلها على هذا الرجل، وهو «هيبينس» الذي ذكرناه آنفاً، وقد نظرت إليه فأعجبها منظره، وهي تزيد أنْ تخبره، تتحدث إليه بهذا كله في رفق وألم واضطراب، وكيف لا تألم ولا تضطرب وقد كانت تنظر إلى ابنتها لأنها طفلة لا أنها فتاة يمكن أنْ تخطب، وكانت تحسب نفسها شابة، وكانت تستمتع بحقوق الشباب في حرية وشجاعة، أما الآن فابتتها تخطب، وإنْ فليست هي من الشباب بحيث كانت تظن، وإنْ فليس لها أن تستمتع بحقوق الشباب في حرية، بل يجب عليها أنْ تحذر وتحتاط حتى لا تضيع مستقبل ابنتها، ولا تُعرِّض اسم الأسرة للخطر، أليس هذا كله يكفي لتألم وتضطرب! وأيهما متصر: الحب الذي لا حد له، أم الأمومة تملؤها الرأفة والاعطف والحرص على سعادة الأبناء! أتسارسل في

حبها الذي يحرقها تحريقاً، أم تقتصر فيه، بل تنصرف عنه؛ لتكون أمّا حقاً؛ ولتؤدي واجب الأمومة حقاً! وأي حق لها في أن تضحي بابنتها ومستقبلاها وكراهة الأسرة؛ لأنها تحب وتريد أن تستمتع بالحب؟ وهي تكره زوجها وتشقى بقربه، ولكن ما ذنب الفتاة؟! وهل هي التي خلقت هذا الشقاء؟ هي تحب صاحبها، وتسعد بقربه، وتشقى بفرقه، ولكن ما ذنب الفتاة؟! وهل هي التي خلقت هذا الحب؟ ثم إن الأمومة لا تُعلل، وليس كل شيء فيها يمكن فهمه وتأويله، هي أم، فيجب أن تضحي بنفسها في سبيل ابنتها، وماذا تكون النتيجة لو سمعت الفتاة بحب أمها الآثم؟ يجب أن ينتهي هذا الحب، ويجب أن يتحمل هذا الألم، ويجب ألا تلقى صاحبها إلا في حذر واحتياط، وقد أقبلت الفتاة فحيث «فريديير» تحية المبتهة بلقائه، وجلست إليه تحدثه، وانصرفت أمها، فأخذت تطلب إليه نفس ما كانت تطلبه منها من تلطف وثناء، وأخذ هو يتضاحك أول الأمر فيغضبها ذلك ويحزنها، ثم يأخذ في التلطف والثناء مخلصاً، فيسرها ذلك ويرضيها، وإذا هو قد اندفع في الثناء اندفاع المحبين، وكاد يعلن حبه، ولكنه ملك نفسه قبل أن ينطق بالكلمة الخطيرة، وهل تظن أنَّ مقاومته تغنى عنه شيئاً؟ اسمع إلى الفتاة وهي تقصر عليه فوزها، وتذكر له أنَّ أحد الراقصين أسرف في التلطف لها وفي ضمها إليه، وإذا صاحبنا غيران لا يملك نفسه، وإذا هو يلوم ويؤنب ويشير إلى صدرها العاري وإلى ذراعيها الظاهرتين ساخراً منكراً، وهي بذلك سعيدة فرحة، أليس تعلن إليه راضية أنها لن ترقص الليلة، وقد أحاس هو أنه أسرف وباح بسره، فأراد أن يتراجع وأخذ يعتذر ويلح على الفتاة في أن ترقص.

وأقبلت أمها أثناء هذا كله، فسمعت آخر الحديث ولم يرياهما، حتى إذا رأياها وأخذ يشركانها في حديثهما أقبل أحد الشبان إلى الفتاة يسألها الرقص، فتنظر إلى «فريديير» كأنها تستأذنه، وينظر هو إليها كأنه يأذن فتنصرف مع الفتى، والناس يتذدون في الغرف، وقد امتلأت الغرفة، ثم فرغت إلا من جماعات متفرقة، يعني هنا هذان الشخصان اللذان انتخيا ناحية يتحدىان وهما «هيبنس» وصاحبته، وهما يمضيان في الغيبة والubit بأسرار الناس، وقد أقبلت أثناء هذا «مدلين»، فوتفت منها غير بعيد والفتى لا يعرفها، فهو يسأل صاحبته عن «كليير» ويدرك جمالها، و«مدلين» تسمع وصاحبته تغمزه أنْ يكف فلا يفعل بل يمضي في حديثه، فيذكر سعادة «فريديير» بخلية هذه فتسأله صاحبته: ومن أبائك بهذا؟ يجيبها: أنت منذ حين، وهي تنكر، وماذا ينفع الإنكار وقد سمعت «مدلين» كل شيء فصعقها ما سمعت وهوت إلى الأرض، وقد فقدت الرشد وأقبل الناس إليها مسرعين وأولهم أمها.

فإذا كان الفصل الرابع، فقد مضى على ذلك أسبوعان ونحن عند «كلاير» وهي تتحدث إلى أختها مهزونة واجمة، فإن ابنتها مريضة مرضًا يجهله الطبيب ويعجز عن دوائه، وقد أرّقتها العلة المجهولة تأريقاً متصلًا، فهم يحتالون كل الاحتياط في أنْ تنام فلا يزورها النوم إلا غراراً، وأمها تريد أنْ تعرف هذه العلة ومصدرها، ولكن ابنتها لا تحدثها بشيء، بل هي تنكر أنها مريضة وتنكر أنها تألم، ولا تشک «كلاير» وأختها في أنْ مصدر هذه العلة إنما هو الحب أو شيء متصل بالحب، ولكنها تريдан أنْ تعلما شيئاً واحداً، فتقترح عليهما أختها أنْ تنتظر في مذكرات الفتاة فهي وحدها التي تستطيع أنْ تكشف هذا السر، تتحرج الأم حيناً من النظر في هذه المذكرات دون إذن ابنتها، ولكن عزيمتها تتم على ذلك فتمضي أختها فتسرق الدفتر في رفق وتنظران فيه فلا تكادان تقرآن منه قليلاً حتى تتبينا أنَ الفتاة تحب «فريديير»، تكfan عن القراءة، وتطلب «كلاير» إلى أختها أنْ تتركها، فتخلو إلى نفسها صعقة تنظر في الدفتر وتفكر وتتحدث إلى نفسها، وإذا الفتاة قد أقبلت تمشي شيئاً هيناً، وقد رأت فيما يرى النائم أنَ دفترها يسرق فأفاقت من النوم وافتقدت الدفتر فلم تجده، فأقبلت إلى أمها فرأتها تنظر فيه، فهي تزجر أمها زجراً عنيفاً تتهمنها بالسرقة والخيانة، وتأخذ الدفتر من يدها فتقذفه في عنف، وأمها ترافق بها و تستعطفها، والفتاة ماضية في السخط، حتى إذا أخذت تهدأ بعض الشيء أحست إساءتها إلى أمها فرقت، وأدانتها أمها إليها وأخذت تلطفها وتهزها في لين، وتسألها أنْ تظهرها من أمرها على كل شيء، والفتاة تقاوم، ولكنها سئمت المقاومة وعجزت عنها، فتذكر لأمها كل شيء، وتنبهها بما سمعت.

فانظر إلى هذه المرأة كانت تخشى أنْ يتسامع الناس بحبها، وكانت تخشى أنْ تعلم ابنتها بهذا الحب، وكانت معتزمه الاتسراف عن هذا الحب، وكانت ترى هذه التضحيه بنفسها حقاً عليها لأنتها فماذا تسمع الآن؟ تسمع أنَ ابنتها تحب عشييقها، وأنَ ابنتها تعلم بهذا الحب، لو لم تكن أمًا لصعقت بما تسمع، ولكنها أم تريد أنْ تنقذ ابنتها، فهي ليست صعقة ولا مضطربة، ولكنها مغضبة ثائرة، تنكر ما اتهمت به وتقسم أنه كذب، وقد رأت الفتاة الصدق فاطمأنَت إليه، وأخذت تبتسم، ثم أخذت تحيا، ثم أخذ الأمل يستثمر بها، وإذا هي قد استردت نشاطها وابتهاجها، وهي تسأل أمها أيمكن أنْ أتزوج «فريديير»! فتجيبها: أنت تحبينه! فإذا كان يحبك فماذا يمنع من الزواج؟

- هو يحبني، لا أشك في ذلك، لقد ظهر لي ذلك منه ظهوراً جلياً، وتفص عليهما غيرته
ليلة الرقص.

وتدخل الخادم فتبئ بأن «فريديير» يستأند، فتنصرف الفتاة تاركة لأمها أن تتحدد في هذا الحب إلى «فريديير» فإذا خلت «كلير» إلى صاحبها لم تضع الوقت في كلام لا يفيد، وإنما أنبأته بما تعلم من أسباب العلة التي أضنت ابنتها، وأعلنت إليه أن الفتاة تحبه، ثم لم تلبث أن أعلنت إليه أنه يحبها أيضاً، ومهما ينكر، ومهما يتكلف فقد ثبت ذلك وهو لا يستطيع أن يخفيه، ولكنه لم يكن ما تظن، فهو لم يُغدو الفتاة ولم يعيث بقلبها الطفل، وإذا كانت الفتاة قد أحبته فلم يسع هو إلى ذلك ولم يفكر فيه، كما أنه لم يتعمد حب الفتاة ولم يقصد إليها، فهو يحبها حقاً، ذلك شيء لا يستطيع أن ينكره، ولكنه لا يدرى كيف أحب، وإنما يعلم أنه أحس هذا الحب يقوى في قلبه، وأحس أنه يقوى في قلب الفتاة فقاومه ما استطاع حتى إذا استيأس من الفوز انقطع عن البيت، وهو الآن معترم أن يسافر إلى حيث لا يعود، وعزيز عليه هذا، عزيز عليه ما أحدث من ألم في قلب هذه الأم التي يحبها، عزيز عليه ما أحدث من يأس في قلب هذه الفتاة البريئة، هو لا يعلم لم أحب الفتاة، ولا كيف أحبها.

ولكن «كلي» تعلم ذلك؛ إنما أحب الفتاة لأنها تشبه أمها حين كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وحين كان يحبها وييهواها، وحين حيل بيته وبين الاقتران بها، وهي تطلب إليه الآن شيئاً عظيماً، تطلب إليه لا يسافر، تطلب إليه أن يتزوج الفتاة، يصعقه هذا الطلب فيجن جنونه ويتهم صاحبته بالجنون فقدان الرشد، وكيف يستطيع أن يتزوج هذه الفتاة وهو عشيق أمها! ليس في ذلك منكر لا يعدله منكر! وليس من الحق أن هذه الفتاة تستطيع أن تسعد بهذا الزواج؛ فستفكرة أبداً في أمها، وستتعلم من غير شك أن أمها قد ذابتها، وسيقوم ذلك الحب الأثم في سبيل هذا الحب المشروع، ولكن الأم مطمئنة تعلم حق العلم أن الفتاة ستسعد، وأنه هو سيسعد أيضاً، وأن الفتاة ستتجهل هذا الحب الأثم، وأنه هو سينساه، تلح في الزواج، ويلح في الإباء، ويكون بينهما حوار لا أحارو تلخيصه فوق التلخيص، ولكنها عجزت في إقناعه فوكلت إليه هو أن يعلن رفضه إلى الفتاة، وتدعى الفتاة، فتقبل فرحة مبتهجة وتحييه تحية الواثقة المطمئنة إليه، فإذا أعلن إليها أنه مسافر إلى حيث لا يعود ظهر عليها من الاضطراب واليأس شيء لم يستطع هو أن يحتمله، وكأنها تصدق ما سمعت، وإذا هو يعلن إليها أنه سيعود ويعلن إليها ما يفهم

الخطر الآخر

منه أنه قبل الزواج، وهي فرحة قد طارت فرحاً إلى خالتها تدعوها لتسمع هذا النبأ، وخلا العاشقان لحظة، فإذا هو يعترف بعجزه عن مواجهة الفتاة بالحق، وإذا هي تقر الزواج مضحية بحبها في سبيل ابنتها.

– إني لأقدسك!

– إنْ أنا إِلا امرأة شقية.

مايو ١٩٢٤

